جامعة ام القرى
كلية اللغة العربية

مصادر الإمام عبد القاهر في بلاغته

بحث مقدم

لنيل درجة الماجستير في علوم البلاغة

من الطالبة

هند جميل صالح نايته

إشراف الأستاذ الدكتور

علي محمد حسن العماري

١٤٠٧ هـ - ٨


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعــالى:

﴿قُـلْ لَو كَانَ البَحْرُ مداداً لكلماتِ رَبِّي لَنَفَدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كلماتُ رَبِّي وَلَو جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾

صدق الله العظيم

سورة الكهف. الآية ١٠٩

إهداء

إلى من رعيا طفولتي، وما فتئا
يقيلان عثراتي ويسددان خطواتي
إلى من أدين لهما - بعد الله - بكياني
إلى أمي وأبي أهدي ثمرة جهدي
مع دعائي لهما بطول العمر..

شكر وتقدير

أتقدم بوافر الشكر وكامل العرفان ، لمن كان بهذا البحث حفيا ، فآلى على نفسه أن يكون بحثا ذا قيمة عليا .. أستاذي الفاضل الدكتور علي محمد حسن العماري ، الذي لم يدخر وسعا في نصحي وارشادي ، وبكل ما استطاع من سبيل ، وهو أمر مرد عليه حتى أصبحت خليقته .

كما أتوجه بالشكر الجزيل الى زوجي العزيز الدكتور فيصل عرب ، الذي قدم من وقته وجهده وتشجيعه ما ساعدني على الاستمرار في اكمال هذا البحث .

ولا بد أن أعلن تقديري وشكري لسعادة عميد كلية اللغة العربية الدكتور عليان الحازمي ، ولسعادة عميد الدراسات العليا الدكتور حسن باجودة ، على ما قاما به من تذليل ما واجهني من صعاب .. وتلك حلى العلماء .

كما أنه لا يسعني إلا أن أشكر والديّ الكريمين ، وأشقائي وزميلاتي ، وكل من كانت له يد كريمة عاونت في اخراج هذا البحث . . وأخيرا .. (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله) (صدق الله العظيم).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المقدمة

عباره عن :

موضوع البحث - أُهدافه - خطته - منهجه

مصادر البحث .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عبارة عن موضوع البحث

أهدافه - خطته - ومنهجه - مصادر البحث

الحمد لله حمد الشاكرين ، الذى أنزل القرآن الكريم عربيا مبينا ، والذى جعل البيان من أجلى صفاته ، وأظهرها ، وجعله حجة رسولنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين .

أما بعد :

فموضوع البحث :

(مصادر الإمام عبد القاهر في بلاغته)

لقد اخترت هذا الموضوع بمساعدة أستاذى المشرف الدكتور علي العمارى وذلك أني رأيت أن التحقيق في مثل هذا الموضوع يثبت مدى أصالة علم البيان العربي ، ويرد عنه كثيرا من الشكوك التي اعترت بعض أبناء أمتنا ، وبهذا البحث أيضا نرد دعوى من رأى أن البيان العربي ، إنما هو وليد الثقافة اليونانية ، وتلك سهام مسمومة أنشبت أظفارها في بعض من تأثر بالدراسات الغربية .

ولقد استطعت في هذا البحث أن أبين جانبا من سر بلاغة الكلام البليغ وأن أبين أفضل ما وصل إليه البحث في (إعجاز القرآن الكريم) ، وهو نظرية النظم التي حسمت الخلاف حول (قضية اللفظ والمعنى) وإلى أيهما ترجع مزية الكلام . وهذه القضية يرجع تاريخها إلى أمد بعيد قبل عبد القاهر بكثير ، منذ بدأ تفسير القرآن الكريم ، حيث بدأ التفكير حول سرّ إعجازه الذى بهر البشر عامة ، والعرب خاصة ، فوقفوا أمامه حيارى .. مبهوتين ، ما لهم لا يقولون مثل قوله .

وإننا اليوم أمام شخصية مؤمنة ومتفردة في عبقريتها ، لم تمر عليها

صغيرة ولا كبيرة في دقائق المؤلفات والمصنفات ، الا أخذت حظها من العناية والدرس ، مما أدى الى توصل هذا العالم الجليل الى مالم يصل اليه غيره في علوم البلاغة ، من تحديد لتعريفاتها ، ومن اضافات جديدة لم تحظ من قبل بهذه العناية وان اعتمد على من سبقه من العلماء الأوائل . الا أنه زاد كثيرا . وناقش ما كتب بعقل مفكر متدبر ، حتى خلص أخيرا الى استنباط نظرية النظم التي لم يستطع أحد أن يسدد نحوها أي مطعن .

كما استطاع أن يجعل لأمتنا العربية علم بلاغة تباهي به ، وذلك ضمن وضعه لعلمي البيان والمعاني ، فاستحق بجدارة لقب " مؤسس علم البلاغة العربية " .

لذا رأيت باختياري لهذا الموضوع ، أنه سيكون لي الشرف باذن الله - في أن أكون احدى اللواتي خدمن لغتهن بصدق واخلاص.

ولقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في بابين يسبقهما تمهيد وتقفوهما خاتمة .

أما التمهيد فيتناول : حياة الشيخ عبد القاهر ، فشيوخه الذين تلقى العلم عليهم ، ثم تلاميذه الذين تتلمذوا عليه ، ثم كتبه .

وأما الرسالة فتبدأ :

ب . . **الباب الأول : القضايا التي تعرض لها الشيخ عبد القاهر** ويتكون من ثلاثة فصول . .

الفصل الأول : قضية النظم :

وهذا الموضوع قد شغل كتب البلاغة ، وشغل الباحثين في معرفة مرجع الكلام البليغ ، مما أدى الى ظهور (نظرية النظم) على يدي (الشيخ عبد القاهر) ، حيث أضاف الى ما ذكره سابقوه من العلماء ما جعل نظرية النظم تنسب اليه .

ثم ذكرت في هذا الفصل المناظرة المشهورة بين (متّى ابن يونس) و (أبي سعيد السيرافي) .

ولقد قسمت هذا الفصل الى ثلاثة مباحث وملحق .

المبحث الأول : معنى النظم وتاريخه .

المبحث الثاني : نظرية النظم وجهود السابقين .

المبحث الثالث : المناظرة بين (متّى بن يونس) و (أبي سعيد السيرافي) ،ثم ذيلت الفصل بملحق هو (الخلاف بين العلماء على قضية اللفظ والمعنى) .

الفصل الثاني : قضية المجاز وما يتفرع عنها في أسرار البلاغة

وفي هذا الفصل أثبتّ أصالة هذا العلم ، بأن استعرضت جذوره وتقصيت منابعه ، فوجدته قد عرف قبل سيبويه . ثم أخذت في تتبع جهود كل العلماء الذين لهم دور في نشوء هذا العلم وترقى أصوله . حتى وصلت الى دور (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) فاقتصرت على ذكر الجديد ، الذى استقل باضافته الى علم المجاز .

ولقد قسمت هذا الفصل الى مبحثين :

المبحث الاول : المجاز وجهود السابقين .

المبحث الثاني : دور (الشيخ عبد القاهر) في قضية المجاز.

ويليه **الفصل الثالث : (قضية اعجاز القرآن ، كما في الرسالة الشافية) :**

فقد أفرد (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) كتيبا خاصا للحديث عن اعجاز القرآن ، وهو (الرسالة الشافية) . ولقد تحدثت في هذا الفصل عن الأقوال التي قيلت في اعجاز القرآن ، والتي سبق بها الشيخ عبد القاهر ، ما أتيح لي الاطلاع عليه .

ثم بينت الآراء التي استفاد منها (الشيخ عبد القاهر) ، والتي أخذها كما هي ، والتي أضاف اليها جديدا .

ثم تحدثت عن الصرفة ، وعن القائلين بها ، وعن الذين يرفضون هذا المذهب، وبينت حجة كل منهم في اثبات رأيه .

وفي الختام .. عرضت لأقوال (الشيخ عبد القاهر) في رد دعوى القائلين بالصرفة ، فكان في رده فرقانا ، وقد جعلت هذا في (ملحق) خاص .

الباب الثاني : مصادر بلاغة الامام عبد القاهر .. ويتكون من أربعة فصول :

الفصل الأول : العلماء الذين أخذ منهم عبد القاهر ، ولم يذكر أسماءهم في كتبه .

لقد قرأ الشيخ عبد القاهر الجرجاني معظم مؤلفات سابقيه ، ومع ذلك لانه لم يصرح .

ولقد تتبعت هذه الكتب ، وعينت المواضع التي أخذ منها ، وقارنتها بآرائه :

هل وافق من أخذ عنهم الفكرة ، أم ردها ليشرح وجهة نظره .

الفصل الثاني : العلماء الذين أخذ منهم الشيخ عبد القاهر ، وذكر أسماءهم في كتبه .

صرح الشيخ عبد القاهر الجرجاني بأنه استفاد من بعض سابقيه ، وأنه قرأ مؤلفاتهم وأخذ عنها ، وهذا في حد ذاته لا يقلل من شأن علمه وعبقريته .

ولقد قمت باستقصاء الأفكار التي طرحها في كتبه ، وتتبعت نظراءها في كتب السابقين ، فوجدت من الأفكار ما تردد في أكثر من كتاب ، ومنها ما تفرد به مؤلف واحد ، وهكذا ناقشتها على أساس أنها قضايا ، وبسطت القول فيها .

الفصل الثالث :

(بلاغة الشيخ عبد القاهر ، ومدى صلتها بالبلاغة اليونانية)

لقد طعن بعض العلماء الذين تأثروا بالثقافة الغربية ، في أصالة البلاغة العربية . وهذا قادهم الى التشكيك في بلاغة (الشيخ عبد القاهر) واضع أصول علم البيان ، وعلم المعانى العربي ، مما دعاهم الى أن يقولوا أنه جمع ما ترجم من الكتب اليونانية والفارسية ، بل منهم من قال أنه لم يستطع فهم كل ما قرئ ، ولقد ناقشت هذه الأقوال باسهاب وبينت مدى أصالة بلاغتنا العربية ومدى أصالة بلاغة (الشيخ عبد القاهر) .

الفصل الرابع: (جهود عبد القاهر في علوم البلاغة)

ويتضمن هذا الفصل المباحث التالية :

المبحث الاول : الفصل والوصل .

المبحث الثاني : التقديم والتأخير .

المبحث الثالث : الحذف ، والقصر بـ" إنما ".

المبحث الرابع : الكناية .

المبحث الخامس: الاستعارة .

المبحث السادس: التشبيه والتمثيل .

المبحث السابع : السرقات الأدبية .

الخاتمة :

وتتضمن عرضا موجزا لكل ما سبق ، والنتائج الجديدة التي توصلت اليها .

كما تحتوى الرسالة في نهايتها على فهرس للمراجع ، وفهرس للموضوعات والفهارس العامة التالية :

١ ـ الآيات القرآنية	٢ ـ الأحاديث النبوية .
٣ ـ الأشعار والأرجاز	٤ ـ الأعلام .
٥ ـ الأمم والقبائل والطوائف .	٦ ـ المدن والأماكن .

منهج البحث ومصادره

لقد انتهجت في دراستي هذه منهجا يهدف إلى تحقيق غرضين :

الاول :

إثبات أصالة بلاغة (الشيخ عبد القاهر) ، وأن مرجعها أمهات الكتب العربية . وأن عبقريته التي كشفت عنها كتبه وخاصة (الأسرار والدلائل) . إنما هي وليدة لأفكار عربية بحتة .

وأن هناك عناصر لكل الموضوعات التي طرقها (الشيخ عبد القاهر) .

وهذا اقتضى تبويب كل الأفكار البارزة في كتبه الثلاث ، ثم أخذتني في بحث نظيراتها في كل المصادر والمؤلفات في القرون الخمسة الأولى ، حيث أن العلوم لم تصنف ، ولم يأخذ كل علم مسارا مستقلا إلا بعد القرنين الأولين .

فهذا جعلني أقرأ ما بين سطور كتب المفسرين والنحاة والأدباء ، علّي أجد ما يشبه كلام (الشيخ عبد القاهر) ، فوجدت من الأفكار ما أخذه (الشيخ عبد القاهر) وبنى عليه وزاد ، ومنه ما أخذه وغيّر أسلوبه ، ومنه ما أخذه برمته ، ونقله بعبارته .

ولنتبين أصالة بلاغة (الشيخ عبد القاهر) ، عمدت إلى عرض الآراء البلاغية التي سبقت (عبد القاهر) ، ثم بينت آراءه ، ومصدر كل رأى ، وفى نهاية كل موضوع أبيّن ما انفرد به شخصيا إن وجد .

الثاني :

بيان جهود (الشيخ عبد القاهر) البلاغية ، والتي استحق بها أن يسمى واضع علم المعاني ، كما هو واضع علم البيان .

ولقد حرصت جاهدة أن أبيّن كيف أخضع معظم الموضوعات التي طرقها لنظرية النظم . فطبق نظريته الشهيرة ، والتي عرفت باسمه واستحق

بجدارة أن يسمى صاحبها - لما أضافه إليها وما وسّعه فيها حتى أصبحت نظرية قائمة بذاتها ، كما اجتهدت كذلك في تحديد الموضوعات التى انفرد في وضع كثير من عناصرها ، والتي كان له فضل تبويبها وترتيبها ، حتى أصبحت هي الأخرى علما مستقلا بذاته .

ومع هذا فقد قرأت أغلب ما كتبه المحدثون في بعض الموضوعات وناقشتها .

ولقد كان منهج رسالتي يسير على النحو التالي :

وضعت لكل موضوع عنوانا على حسب الخطة ، ولقد درست آراء العلماء الأوائل ، ورتبتها حسب وفاة كل منهم .

وفيما يخص المصادر والمراجع ، كنت أذكر في الحاشية ، المصدر والمرجع ، واسم مؤلفه عندما استعمله لأول مرة ، وبعد ذلك اكتفى بذكر اسم الكتاب والجزء ورقم الصفحة ، أما بقية المعلومات عن المصدر أو المرجع ، فقد ذكرتها في الفهرس الخاص بالمراجع .

أخيرا ..

هذه خطتي في البحث ، ونتاج مجهود متواضع ، قد أخذ مني وقتا ليس بالقصير ، وكلّفني من الجهد واعمال الفكر والصبر قدرا ليس بقليل .

فإن لم أكن قد وفّيت الموضوع حقه ، فشفيعي في ذلك أن الوصول الى الكمال أمر محال ، وألتمس العذر لنفسي ، فهذه أول خطواتي على الطريق ، وإني لراغبة في كل تقديرينا ، وتوجيه من أصحاب الشأن وذوى الباع الطويل ، والخبرة في هذا المجال .

والله أسأل .. أن يثيب كل من بذل مجهودا في رفع شأن لغتنا العربية ، وشيّد أركان بيانها ، وأبان جوانب فصاحتها ، والله وليّ التوفيق للصواب ،،،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .

التمهيد

حياة الشيخ عبد القاهر الجرجاني

أ - ترجمة حياته - أخلاقه العلمية .

ب - أساتذته .

جـ - تلاميذه .

د - كتبه .

بسم الله الرحمن الرحيـــــم

التمهيـــــــد

١ - حياة الشيخ عبد القاهر الجرجانـــي :

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، ولد بجرجان (١) احدى المدن المشهورة بين (طبرستان) ،(خراسان) .

وقد عرف عنه سعة العلم وغزارته ، واشتهر بعلم النحو ، حتى كـــان يسمى (عبد القاهر الجرجاني) النحوى ، وله مصنفات كثيرة في النحـــو ، ولكن جهوده في علم البلاغة فاقت جهوده في علم النحو ، لما أحدث فيهـــا من آراء ووطد من نظريات .

ولا توجد في كتب التراجم عن حياة (الشيخ عبد القاهر) ترجمة وافيـــة ، ولم يذكر شيء عن حياته الخاصة ، غير ما نتبين من خلال دراسة بعـــض كتبه عـــن ملامح شخصيته العظيمة ، وأعتقد أنها الخيط الذى به نستطيـــع

---

(١) جرجان : (بالضم وآخره نون قيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بـن المهلب بن أبي صفرة ، وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء ، والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السّهمى .
قال الإصطخري : أما جَرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها ، وهـــي أقل ندى ومطرا من طبرستان ، وأهلها أحسن وقارا وأكثر مـــروءة ويسارا من كبرائهم ، (ورد هذا التعريف لجرجان في معجـــم البلدان للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموى ج ٢ / ١١٩ دار بيروت) .

كما ترجم لها السّهمى في مؤلفه (تاريخ جرجان) فقال عن فتحها : (لقد فتحت جرجان مهد العلم والعلماء ، في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد فتح نهاوند ، لما قتل النعمان بن مقرن ولي خلافتـــه أخوه سويد بن مقرن فجاء إلى الرى وفتحها ثم عسكر إلى قومس وفتحهـــا ثم فتح جرجان)
تاريخ جرجان : للسهمى ص ٤٤ ط ٣ بيروت ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

التعرف على نماذج من حياته ، و من ثم معرفة مدى علمه الغزير الذى جعل العلماء و الأدباء بعده يلقبونه إمام البلاغيين ، لما بسطه في كتابيه دلائل الاعجاز و أسرار البلاغة .

لهذا يمكن القول إنني أمام شخصية فذة ، حظيت بشهرة علمية نادرة و إن لم تحظ إلا باليسير من التأريخ والترجمة .

وسأعرض لحياة (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) لأنه عالم فاضل من علماء جرجان ، بلغت شهرته الآفاق ، و أضاءت مؤلفاته المكتبات ، لأنه انبه من صنّف في علم البيان و البديع ، و قد أفاد من المؤلفات التي سبقته ، و أضاف إليها ما كون ثروة بلاغية نفخر بها و نباهي .

مع ما عرف عن هذا الشيخ الجليل أنه لم يسافر إلى بلد ولم يتنقل طلباً للعلم . ولم تذكر كتب التراجم أنه اتصل بعلماء عصره .

و الجدير بالذكر أنني عثرت في بعض كتب التراجم أن جرجان كانت في تلك الفترة تغص بكبار الفقهاء و المحدثين ، و حشد كبير من العلماء الأفاضل في مختلف العلوم و ربما لذلك لم يحتج إلى الخروج إلى بلد آخر لطلب العلم ، و لأنه غير مشهور ، فلم تذكر تلك المؤلفات عن صلته العلمية أو انتمائه إلى علماء معينين .

و لقد عرفت ذلك عن جرجان مما ذكره السّهمى ، حيث يقول :

((أما بعد فإني لما رأيت كثيرا من البلدان تعصب أهلها و أظهروا مفاخرها بدخول الصحابة رضي الله عنهم أجمعين بلادهم ، و كون الخلفاء و الأمراء و جماعة من العلماء عندهم ، حتى أرخوا لذلك تواريخ ، وصنفوا فيها تصانيف على ما بلغهم ، و لم أر أحدا من مشايخنا رحمهم الله صنف في ذكر علماء أهل جرجان تصنيفا ، أو أرخ لهم تاريخا على توافر علمائها و تظاهر شيوخها و فضلائها ، فأحببت أن أجمع في ذلك مجموعا على قدر جهدى و طاقتي ، مع قلة بضاعتي)) . (١)

---

(١) تاريخ جرجان للسهمى ص ٤٣ ، ٤٤ .

ولقد تصفحت تاريخ جرجان ، فوجدت كثيرا من أفاضل العلماء المشهورين منهم : (محمد بن اسحاق بن راهويه)، و(محمد بن سلام الجمحي) و(محمد بن جرير الطبري) .

ومن فضلائها كذلك : ((أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن ابن علي بن اسماعيل الجرجاني ، وكان قاضي جرجان والري قاضي القضاة ، ومات بها وكان من مفاخر جرجان . صنف تاريخها)) (1)

وقد كان (عبد القاهر) عالما دينا وقف تفكيره ووهب حياته للدفاع عن الإسلام ، وكان خير مدافع ومما يدلنا على عاطفته الدينية مضافا إلى ما ذكره بعض مترجميه ما نلمسه في الدلائل من أقوال تدل على سمو عواطفه الدينية ، مما جعل ذكر الله سبحانه وتعالى دائما واضحا في كتاباته ، حيث يستهل تقريبا كل فقرات مصنفه الدلائل بذكر العلي القدير ، جاعلا الاستعانة بالله في أكثر فصول الكتاب ، من ذلك قوله :

((ونسأل الله الهداية)) (2) . ((والله الموفق للصواب ...)) (3) ((واستعين الله)) (4) ، ((والله الموفق للصواب)) (5) ((ونسأل الله العصمة)) (6) ، ((ونسأل الله التوفيق)) (7) ، ((ونعوذ بالله)) (8) ، ((ونسأل الله)) (9) ، ((ومن الله التوفيق)) (10) ((والله الموفق)) (11) ، ((والله المستعان)) (12) .

---

(1) المصدر نفسه ص ٣١٨ رقم الترجمة ٥٦٠ .
(2) دلائل الاعجاز ط ١ تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجي ١٩٦٩م ص ٢٧ .
(3) المصدر نفسه ص ٤٥ .
(4) المصدر نفسه ص ٥٢
(5) المصدر نفسه ص ٦٧ .
(6) دلائل الاعجاز ص ٨٦ .
(7) المصدر نفسه ص ١٨٧ .
(8) المصدر نفسه ص ١٨٨
(9) المصدر نفسه ص ٢٣٦ .
(10) المصدر نفسه ص ٢٧٦ .
(11) المصدر نفسه ص ٣١٢ .
(12) المصدر نفسه ص ٥٩ .

وهذه العبارة الأخيرة ، تناسب الموضوع الذى ذيلت به ذلك أنه علم أن العلم باعجاز القرآن الكريم ، والتعرف على أسبابه ، لـــه أهمية في الدنيا والآخرة ، لذا طلب الاستعانة منه سبحانه ليوفقه لتأدية الأمانة ، وهـــو اقدام على أمر ليس بالسهل ولا باليسير .

٢ - ثم هو (يسأل الله التوفيق) حين يشرع في بيان أهمية علم النحـــو ، طريق معرفة اعجاز القرآن الكريم وهو لب كتابه الدلائل .

وبعد ذلك تكلم عمن خاض في هذا المجال ، وهو غير عالم به فأشـــار بترك الأمور لأصحابها ، حتى لا يأتون بتخليط على غير أساس ، وهـــذا أفضل لأنهم إذا لم يصلحوا لا ينبغي أن يكونوا سببا للفساد ، لذلك أنهـى هذه الفكرة بطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى وسأله كذلك العصمة مـن الزلل ، الذى انتهى إليه غيره . يقـول : ((ونسأل الله الهدايـــة ، ونرغب إليه في العصمة)) .[1]

وهكذا نلاحظ على (الشيخ عبد القاهر) الدقة في اختيار خواتـــم الفقرات والفصول اختيارا يناسب المعنى الأساسي للفكرة ، وكما هو ملاحـظ أن (عبد القاهر) متأثر بالقرآن الكريم في تعبيراته .

فها هو ذا بعد أن توصل الى أن الألفاظ تبع للمعاني في النظـــم ، وأن الكلم تترتب في النطق حسب ترتب معانيها في النفس .

٣ - يقول ((والله الموفق للصواب)) .[2]

ثم إنه حين أخذ في شرح المزيه التي يرجع إليها حسن الكلام ، حيـــث بين أنها ليست في المعنى وليست في الألفاظ كما سيأتي - بل يراها فـــي شيء آخر ، لذلك قال : ((واستعين بالله تعالى عليه ، وأسأله التوفيق)) [3]

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٩ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

وفي نهاية فصل ((الفصل والوصل)) وهو فصل طويل يقول ((ونسأل الله التوفيق للصواب ، والعصمة من الزلل)) [1] فطلب التوفيق ، وتجنب الزلل ، طلبهما معا لأنه كان بصدد الاستشهاد بآى القرآن الكريم ، فكان راغبا في أن يوفق للصواب .

وحين أشار إلى من أوجب المزيه للمعاني يقول : ((ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار)) ذلك أن بعض الباحثين يدعى أن البلاغة في المعاني ، بعد ما عرفوا تماما أن المعاني مطروحة في الطريق ، وحقا هو عمى بعد ابصار ، وذلك أعجب أنواع العمى .

ونلاحظ على كل العبارات السابقة أن فيها معنى التوكل والاستعانة المستمدة من قوله تعالى : (فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم) . [2]

وعاطفة (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) الدينية واضحة من خلال كتاباته التي صبغت بها ، كما بينت ، ليس في ذلك شك ، فالكتابة مرآة لنفس كاتبها ، ولقد شهدت له كتب التراجم والطبقات بذلك ، حيث ذكر عنه في طبقات الشافعية أنه : ((كان شافعيا متكلما على طريقة الأشعرى دينا دخل عليه لص وهو في الصلاة ، فأخذ جميع ما في البيت ، وهو ينظر إليه فلم يقطع صلاته)) . [3]

ولقد استهل (الشيخ عبد القاهر) كتابه بوصف زمانه وعلى وجه الدقة أهل ذلك العصر من خلال تجربته معهم ، وبلا شك أنه ظلم ، ولقى ما لم يكن في حسبان عالم من عدم اكتراث . يقول :

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٦ .

(٢) سورة الشعراء : الآيتان ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣) طبقات الشافعية / لجمال الدين الأسنوى ت / عبد الله الجبوري ، دار العلوم - ١٤٠١ - ١٩٨١ / الرياض .

((ثم انا وان كنا في زمان هو على ما هو عليه من احالة الأمور عن جهاتها ، وتحويل الأشياء عن حالاتها ، ونقل النفوس عن طباعها ، وقلب الخلائق المحمودة الى أضدادها ، ودهر ليس للفضل وأهله لديه الا الشر صرفا ، والغيظ بحتا ، والا ما يدهش عقولهم ويسلبهم معقولهم ، حتى صار أعجز الناس رأيا عند الجميع من كانت له همة في أن يستفيد علما ، أو يزداد فهما ، أو يكتسب فضلا ، أو يجعل له ذلك بحال شغلا ، فان الالف من طباع الكريم)) .(1)

وبعد أن بين (الشيخ عبد القاهر) مدى استهانة بعض الناس بالعلم وأهله ، أكد أن هذا موقف مجاف للصواب ، لأن العلم يرفع شأن صاحبه ، حيث يقول :

((وانه ليؤ منك من أن تغالط في دعواك ، وتدافع عن مغزاك ، ويربأ بك عن أن تستبين هدى ثم لا تهتدى اليه ، وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه ، وأن تكون عالما في ظاهر مقلد ، ومستبينا في صورة شاك ، وأن يسألك السائل عن حجة يلقى بها الخصم في آية من كتاب الله تعالى أو غير ذلك ، فلا ينصرف عنك بمقنع ، وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه وتقول : قد نظرت فرأيت فضلا ومزية ، وصادفت لذلك أريحية ، فانظر لتعرف كما عرفت و راجع نفسك واسبر وذق لتجد مثل الذى وجدت)) .(2)

ولا شك أن من فضل العالم على غيره أنك تجده يجيب كل سائل على سؤله ، ويتصدى لأى دعوى يحاوره فيها الخصم .

---

(1) دلائل الاعجاز ، ص ٧٩ .

(2) دلائل الاعجاز ، ص ٨٥ .

وقد راع الشيخ عبد القاهر أنه كان في عصر زهد أهله في النحو والشعر وهذه ضلالات تصدى (الشيخ عبد القاهر) لردها واحدة واحده . ففي رده على من زهد في النحو ، يقول :

((أشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله ، وعن معرفة معانيه ذلك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة اليه فيه ، اذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذى يفتحها ، وأن الأغراض كامنة حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذى لا يبين نقصان كلام ، ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ، ولا ينكر ذلك الأمر إلا من ينكر حسه ، وإلا من غالط في الحقائق نفسه)). (1)

ولقد بين بهذه الفقرات آفة من زهد في العلم بالنحو ومعرفة قوانينه وأحكامه ، وهي آفه عظيمة ، لما يؤدى إليه الجهل بهذا العلم الجليل من صد عن معرفة أسرار كتاب الله تعالى ، ومعرفة سر إعجازه الذى وقف أمامه العلماء حيارى مبهوتين .

ثم بعد أن ذكر هؤلاء الذين زهدوا في النحو قال :

((ولو أن هؤلاء القوم اذ تركوا هذا الشأن تركوه جملة واذ زعموا أن قدر المفتقر إليه القليل منه ، اقتصروا على ذلك القليل ، فلم يأخذوا أنفسهم بالتقوى فيه والتعرف فيما لم يتعلموا منه ، ولم يخوضوا في التفسير ولم يتعاطوا التأويل لكان البلاء واحدا ، ولكانوا إذا لم يبنوا لم يهدموا ، وإذا لم يصلحوا لم يكونوا سببا للفساد ، ولكنهم لم يفعلوا . . . فجلبوا من الداء ما أعيا الطبيب ، وحير اللبيب ، وانتهى التخليط بما أتوه فيه إلى حد يئس من تلافيه ، فلم يبق للعارف الذى يكره الشغب إلا التعجب والسكوت ، وما الآفة العظمى إلا واحدة ،وهي أن يجيء من الإنسان أن يجرى

---

(1) دلائل الاعجاز ص ٧٥ .

في لفظه و يمشي له أن يكثر في غير تحصيل ، و أن يحسن البناء على غير أساس و أن يقول الشيء لم يقتله علما). (١)

و إن شأن من زهد في علم النحو ، أن يطالب بالقليل من علمه ، ويدعو كذلك أن لا شأن و لا فائدة للإلمام به كله . ولقد دعاهم الشيخ عبد القاهر أن يحسنوا العلم به ، و يجب أن يكونوا سببا في الاصلاح والبناء على أساس ، و أن لا يقولوا في شيء لم يقتلوه علما .

و عندما ناهض من أدار ظهره لعلم النحو بحجة واهية أو بدون حجة بين لهم أساس تلك الأهمية ، و مستقاها و منبعها إنما يكون في فك مغاليق المعاني على الألفاظ المبهمة ، و هي محاجه كل من غالط في أهمية ذاك العلم ، لأن منهم من قال : ((إنا لم نأب - صحة هذا العلم ، ولم ننكر مكان الحاجة إليه في معرفة كتاب الله تعالى -، و انما أنكرنا أشياء كثرتموه بها ، و فضول قول تكلفتموها ، و مسائل عويصة تجسمتم الفكر فيها ، ثم لم تحصلوا على شيء أكثر من أن تغربوا على السامعين ، و تعايوا بها الحاضرين)) (٢).

فكانت حجة هؤلاء بعد المحاورة و المداولة ، أن هنا أمورا في علم النحو زائدة عليه ، خلق منها النحويون مسائل ، أخذوا وقتا و هم يناقشونها فيما بينهم ، ولم يحصلوا منها بطائل ، ولقد عذرهم عبد القاهر في بعضها و في البعض الآخر ، اعتبرهم محرومين ذوى حظ ضعيف . و اما ما تجاوزوه من أغراض واضع اللغة و من و جه الحكمة في الأوضاع ، فقد دعاهم إلى أن ينظروا الذى اعترفوا بصحته ، و بالحاجة إليه ، ولقد تساءل بلهجة مؤنبة ثائرة ، حين قال : ((هل حصلتموه على وجهه ، و هل أحطتم بحقائقه ؟ و هل و فيتم كل باب منه حقه ، و أحكمتموه احكاما يؤمنكم الخطأ فيه ، اذا أنتم خضتم في التفسير . و تعاطيتم التأويل ، ووازنتم بين بعض

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٥ .

الأقـوال وبعض وأردتم أن تعرفوا الصحيح من السقيم ، وعدتم في ذلـــك وبدأتم ، وزدتم ونقصتم ؟ .. هل ظننتم أن وراء ذلك علما » (١)

ويرى الإمام عبد القاهر أن هؤلاء لا يكون التصدى لهم بالجملة وبالمناقشة العامة والمحاورة الدائرة ، كما فعل هو ، بل يرى ((أن تعرض عليهم الأبـواب كلها واحدا واحدا ، ويسألوا عنها بابا بابا)) .(٢)

فإذا لا مجال لتجاهل أهمية العلم بالنحو وفنونه ، وأبوابه وطرقـــه لأن المعرفة التفصيلية ذات أثر عظيم في الدين ، وأن العلم يحسم كثيرا مـــن الفساد فيما يعود للتنزيل ، يقول : ((وانه ليؤمنك من أن تغالـــط في دعواك ، وتدافع عن مغزاك ، ويربأ بك عن أن تستبين هدى ثم لا تهتدى إليه وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه ، وأن تكون عالما في ظاهـــر مقلد ، ومستبينا في صورة شاك وأن يسألك السائل عن حجة يلقى بهـــا الخصم في آية من كتاب الله تعالى أو غير ذلك ، فلا ينصـرف عنك بمقنع منك وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه)) .(٣)

ويرى عبد القاهر تلك المغالطة في أهمية النحو انما ترجـــع الـــى صعوبة التعرف على المزية في ذات الكلم أو فهـــم بعضهم على غير وجهـــه الصحيح ، ((ولولا أنه على ذلك لما وجدت الناس بين منكر له من أصلـــه ومتخيل له على غير وجهـــه ومعتقد أنه باب لا تقوى عليه العبارة ، ولا تملـك فيه إلا الإشارة، وأن طريق التعليم إليه مسدود وباب التفهيم دونـــــه مغلق)) .(٤)

وعلى ما تحمله تلك الشخصية من عمق الإيمان بالله والتي تجلت واضحة فيما سبق بيانه من العبارات التي يرددها في كل فصل ، وفي نهايـــــة

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٨ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٨٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

كل عبارة.وعلى قوة روحه المعنوية ، على الرغم مما لاقاه من صد ، و هوان وتهوين من شأنه ، بل للعلوم التي اضطلع بمهمة حطها على عاتقه، بما فيها من صعوبات أبت نفسه الكريمة ، و أبت عليه كذلك غيرته الدينية أن يرى علوم الدين يزرى بها ، و يسد الطريق دونها ، فكان رجلا معتزا بدينه وعلمه ، واثقا من نفسه أشد الثقة . ومع هذا فقد كان يثور حين يرى الخطأ يحاول أن يصلحه ، ولنر ذلك في ثنايا كتبه ، وكيف كان موقفه من علم البيان و من الذين هونوا أمره يقول :

((و هو أحد ما غفل عنه الناس و دخل عليهم اللبس فيه حتى ظنوا أنه ليس لهذا العلم من قوانين عقلية ، و أن مسائلة كلها مشبهة باللغة في كونها اصطلاحا يتوهم عليها النقل و التبديل ، ولقد فحش غلطهم فيه ، و ليس هذا موضع القول في ذلك)) .(١)

وعلم (البيان) من العلوم الهامة لها قوانين و قواعد ، لذلك وقع على هذا العلم من ظلم الناس له ما وقع . جهلا من عند أنفسهم يقول : في ذلك بعد أن أبان أن له فوائد لا يدركها الإحصاء ، وإنك لن ترى علما هو أرسخ أصلا ، و ابسق فرعا ، و أحلى جنى منه . بعد ذلك يقول :

((إلا أنك لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقي من الضيم ما لقيه ومني من الحيف بما مني به ، و دخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه)) .(٢)

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣١٩ للشيخ عبد القاهر الجرجاني / تحقيق : السيد محمد رشيد رضا / دار المعرفة / بيروت سنة ١٤٠١هـ ١٩٨١م

(٢) دلائل الاعجاز ص ٥٤ .

عنف عبد القاهر في حديثه عمن يخالفونه :

كما ذكرت كان عبد القاهر عنيفا في رده على من ذم الشعر وروايته ، فدعاه ذلك الى النظر في الغرض الذى له روى الشعر ، يقول -: ((انك قد زغت عن المنهج ، وأنك مسيء في هذه العداوة وهي العصبية منك على الشعر)) [١] .

وهذا الرافض للشعر ومزاياه ، انما يعتبره الشيخ عبد القاهر متبعا للظن والهوى ، والظن لا يغني عن الحق شيئا ، فيرد عليه قائلا : ((ولكنك أبيت الا ظنا سبق اليك ، والا بادئ رأى عنّ لك ، فأقفلت عليه قلبك ، وسددت عما سواه سمعك ، فعي الناصح بك ، وعسر على الصديق الخليط تنبيهك)) [٢] .

وكذلك تصدى للرد على من هون أمر النحو ، ورأى عدم الخوض فيه أجدى وأنفع ، لأنهم أولوا وفسروا ما ليس لهم به علم ، فأصبحت لدينا أكثر من مصيبة تهوينهم وجهلهم بالأمر الذى يؤدى الى الهدم والفساد ، وهذه العبارة التي ذكرها عبد القاهر تبين صورتهم الحقيقية واضحة ، وترفع الستار عن مرض عضال وداء مستحكم .

وقضية اللفظ أمر شائع قبل (عبد القاهر) كثيرا ، ترى تلك الفئة أن الاعجاز انما يكون بحسن تخير اللفظ للمعنى ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٤ ، ٦٥ .

و(عبد القاهر) يرى أن ذلك محال ، لأنه ((ليس لمن حام في حديث المزية والاعجاز حول اللفظ ، ورام أن يجعله السبب في هذه الفضيلة الا التسكع في الحيرة والخروج عن فاسد من القول الى مثله)) .(١)

ولقد استمر الشيخ عبد القاهر على نفس اللهجة في مناقشة دعاة اللفظ قائلا : ((ومن تعلق بهذا وشبهه واعترضه الشك فيك بعد الذى مضى من الحجج ، فهو رجل قد أنس بالتقليد ، فهو يدعو الشبهة الى نفسه من ها هنا وثم ومن كان هذا سبيله ، فليس له دواء سوى السكوت عنه ، وتركه وما يختاره لنفسه من سوء النظر وقلة التدبر)) .(٢)

ثم نجده في صفحات أخر من (الدلائل) يناقش ويحاور ذوى العلم ممن نظر الى معاني النحو والمعاني البلاغية نظرة سطحية ، فقصر نظرهم عن ادراك مواضع الجمال ، وادراك مكامنه ، وهي كثيرة وفيرة وفرة كلام العرب المسطر في دواوينهم . لهذا خاطب هؤلاء معاتبا قصور تعليلهم . ففي باب التقديم والتأخير لم يضعوا قاعدة للتقديم أو التأخير غير أن يقدم الذى بيانه أهم ((ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم ، وهونوا الخطب فيه حتى انك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف ، ولم تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه)) .(٣)

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٢ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٩ .

ثم في باب الفصل و الوصل عنف من قال : ((إن الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك وقد غفلوا غفلة شديدة))[١] .

و إذا ناهض فيما سبق دعاة اللفظ ، فإنه أيضا تصدى لدعاة المعنى الذين يقدمون الشعر لمعناه ، و يعتبر ((الداء الدوى و الذى أعيى أمره في هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه ، و أقل الاحتفال باللفظ ، و جعل لا يعطيه من المزيه ان هو أعطى الا ما فضل عن المعنى))[٢] .

و هناك من العبارات ما تـردد أصداؤه في الصفحات دون أن يتساءل القارئ عن معناها ، و قد تنبه عبد القاهر الى أن هذه العبارات لا تعنى أكثر من كونها صفات . من تلك العبارات قولهم : ((في صفة اللفظ ، كقولهم بأنه لفظ شريف . و أنه قد زان المعنى ، و أن له ديباجة ، و أن عليه طلاوة و أن المعنى منه مثل الوشى ، و أنه عليه كالحلى الى أشباه ذلك مما يعلم ضرورة أنه لا يعنى بمثله الصوت و الحرف))[٣] .

هذه المترادفات حكم عليها عبد القاهر بأنها (العادة و استمر عليها العرف و صار الناس يقولون : اللفظ ، و اللفظ لز[٤] ذلك بأنفس أقوام بابا من الفساد وخامرهم منه شيء لست أحسن وصفه))[٥] .

و أحيانا نجده يستهل حديثه بالتعنيف و الشدة ، و ذلك حين قدم لموضوع الاعجاز ، لأنه لا يكون الا بمعرفته معانـي النحو فيما بين الكلم ، يقـول :

((و اعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق و المعرفة ، و حتى يكون ممن تحدثه

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٣٧ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٥ .

(٤) لز : لزه لزا ولززا ، أى شده وألصقه .
وكز لز اتباع له . أنظر الصحاح ٣/ ٨٩٤ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٦٥ .

نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن و اللطف أصلا ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ، و يعرى منها أخرى ، وحتى إذا عجبته عجب و إذا نبهته لموضع المزيه انتبه ». [1]

أى أنه باب يحتاج الى الفهم و الذوق الذى بهما يتمكن من الحكم على الكلام ، وكذلك الحاسة المرهفة ، التي تتلمس بدورها موضع الجمال .

ثم يقول لمن عدم تلك الحالات ((فأما من كانت الحالان و الوجهان عنده أبدا على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة : وإلا إعرابا ظاهرا ، فما أقل ما يجدى الكلام معه ؛ فليكن من هذه صفته عندك بمنزله من عدم الإحساس بوزن الشعر و الذوق الذى يقيمه به ، و الطبع الذى يميز صحيحه من مكسوره ، و مزاحفه من سالمه ، وما خرج من البحر مالم يخرج منه ، في أنك لا تتصدى له ، ولا تتكلف تعريفه لعلمك أنه قد عدم الأداة التي معها تعرف ، و الحاسة التي بها تجد ، فليكن قدحك في زند وار ، و الحك في عود أنت تطمع منه في نار)) [2]

و أخيرا وجد أن لا فائدة في هؤلاء ، لأن هذا العلم يتطلب عاطفه تتأجج حيوية و فهما .

و هناك طائفة كانت أضر على هذا العلم من سابقتها تلك التي تنفي وجود المزيه على الإطلاق ، وأنه لا سبيل إلى معرفة العلة مطلقا ، «وهؤلاء إن كانوا كالآفة العظمى في هذا الباب ، فإن من الآفة أيضا من زعم أنه لا سبيل إلى معرفة العلة في قليل ما تعرف المزية فيه وكثيره ». [3]

و في ثورته العارمة تلك ، ينبه على موضوع قد يجهله الكثير ، وأيضا يضع حكما لمسألة ، ربما تناقلها الحديث عن القديم ، دون تساؤل في معناها ، وذلك عن المفسرين الذين تجاهلوا أمر المجاز ، فأخذوا في تفسير المعاني على ظواهرها. يقول:

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٤ .

(٢) (٣) دلائل الاعجاز ص ٢٨٤ .

((فيفسدوا المعنى بذلك ، ويبطلوا الغرض ، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم ، العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف ، وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه ، وجعلوا يكثرون في غير طائل ، هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، وزند ضلالة قد قدحوا به))[1]

والامام (عبد القاهر) يبدو أسفاً لما عليه بعض الذين أجلوا اللفظ ، ووضعوه منزلة فوق منزلته ، ويبدو عليه خيبة الأمل . لذلك يقول :

((واعلم أني على طول ما أعدت وأبدأت ، وقلت وشرحت ، في هذا الذى قام في أوهام الناس ، من حديث اللفظ ، لربما ظننت أني لم أصنع شيئا ، وذاك أنك ترى الناس كأنه قد قضى عليهم أن يكونوا في هذا الذى نحن بصدده على التقليد البحت ، وعلى التوهم والتخيل ، وإطلاق اللفظ من غير معرفة بالمعنى قد صار ذاك الدأب والديدن ، واستحكم الداء منه الاستحكام الشديد ، وهذا الذى بيناه ، وأوضحناه كأنك ترى أبدا حجابا بينهم وبين أن يعرفوه وكأنك تسمعهم منه شيئا تلفظه أسماعهم ، وتنكره نفوسهم ، وحتى كأنه كلما كان الأمر أبين كانوا عن العلم به أبعد ، وفي توهم خلافه أقعد ، وذاك لأن الاعتقاد الأولى قد نشب في قلوبهم وتأشب فيها ، ودخل بعروقه في نواحيها ، وصار كالنبات السوء الذى كلما قلعته عاد فنبت)).[2]

وبالرغم من عنف عبد القاهر الذى بدأ واضحا في كثير من فصول الكتاب ، وما منى به من خيبة أمل في صرف قلوبهم عما تعشش فيها من أوهام أبوا أن يجعلوا منها حقائق تروج بين الدارسين، على الرغم من هذا كله، يعود بلهجة أخرى يحاول فيها إقناعهم بسوء نظرهم إلى الإعجاز ، وإلى طريقته يقول :

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤١ .

(قد أردنا أن نستأنف تقريرا نزيد به الناس تبصيرا ، أنهم في عمياء من أمرهم ، حتى يسلكوا المسلك الذى سلكناه ، و يفرغوا خواطرهم لتأمل ما استخرجناه ، و أنهم مالم يأخذوا أنفسهم بذلك ، ولم يجردوا عناياتهم له في غرور ،كمن يعد نفسه الرى من السراب اللامع ، و يخادعها بأكاذيب المطامع ، يقال لهم إنكم تتلون قول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » [1] ،و قوله عز و جل : (قل فأتوا بعشر سور مثله) [2] ، و قوله : (بسورة من مثله) [3] .

فقولوا الآن : أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه و سلم بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذى إذا أتوابكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله ؟ ولا بد من لا ، لأنهم ان قالوا : أبطلوا التحدى من حيث أن التحدى كما لا يخفى مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف ، و لا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوما للمطالب ، و يبطل بذلك دعوى الاعجاز أيضا) .[4]

و في حديثه عن الاستعارة ،يحاول أن يصحح مفهوم بعضهم ، حيث عزوا الجمال و حسن النظم إلى اللفظ ذاته بالرغم من معرفتهم الأكيدة من أن اللفظ المستعار يكسب المعنى جمالا وحسنا لحسن استعارته .

و الأهم من هذا أنه لا يداخلهم شك في أن الاستعارة لا تحدث في حروف اللفظ صفة ، و لا تغير أجراسها عما تكون عليه ، إذا لم يكن مستعارا ، و أن أثر الاستعارة باد في المعنى و ظاهر فيه ، و ذلك لعلمهم أن اللفظ

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٨٨ .

(٢) سورة هود من الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة من الآية ٢٣ .

(٤) دلائل الاعجاز ص ٣٥٦ .

اذا استعير لشيء نقل عن معناه الحقيقي الى المعنى المراد ، كل هذه الأمور معروفة لديهم ، ومعلومة لدى أكثرهم ، ومع هذا فانهم يكبرون ويعظمون شأن اللفظ فقط ، ويرى عبد القاهر مرجع ذلك الى ((اهمالهم أنفسهم وتركهم النظر لقد كان يكون في هذا ما يوقظهم من غفلتهم ، ويكشف الغطاء عن أعينهم))[1] .

ثم يكرر في أسباب انسدارهم في غوايتهم ، وتخيل أهمية اللفظ ، وعلى ما يبدو أن عبد القاهر قد ضاق ذرعا بالأباطيل ، وخاصة بعد وضوح الحقيقة ((واعلم أن الذى هو آفة هؤلاء الذين لهجوا بالأباطيل في أمر اللفظ ، أنهم قوم قد أسلموا أنفسهم الى التخيل ، وألقوا مقادتهم الى الأوهام حتى عدلت بهم عن الصواب كل معدل ، ودخلت بهم من فحش الغلط في كل مدخل ، وتعسفت بهم في كل مجهل ، وجعلتهم يرتكبون في نصرة رأيهم الفاسد القول بكل محال ، ويقتحمون في كل جهالة))[2] . وعلى الرغم من ذلك الضيق يعيد الحديث بعد صفحات قليلة وبلهجة عنيفة ، وأسلوب قاس حيث يقول : ((قد أردت أن أعيد القول في شيء هو أصل الفساد ومعظم الآفة ، والذى صار حجازا بين القوم وبين التأمل ، وأخذ بهم عن طريق النظر ، وحال بينهم وبين أن يصغوا الى ما يقال لهم ، وأن يفتحوا للذى تبين أعينهم))[3] .

ولم يستطع الشيخ عبد القاهر كبح غضبه ، كلما عنّ له باب في شأن اللفظ ، يقول : ((فان أردت الصدق فانك لا ترى في الدنيا شأنا أعجب من شأن الناس مع اللفظ ، ولا فساد رأى مازج النفوس وخامرها واستحكم فيها ، وصار كاحدى طبائعها ، أغرب من فساد رأيهم في اللفظ ، فقد بلغ من ملكته لهم وقوته عليهم ، أن تركهم وكأنهم اذا نوظروا فيه أخذوا عن أنفسهم وغيبوا عن عقولهم ، وحيل بينهم وبين أن يكون لهم فيما يسمعونه نظر ويرى لهم ايراد في الاصغاء وصدر ، فلست ترى الا نفوسا قد جعلت ترك النظر دأبها ، ووصلت

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١٠ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٤١٠ .

بالهوينا أسبابها ، فهي تفتر بالأضاليل ، وتتباعد عن التحصيل ، وتلقى بأيديها الى الشبه ، وتسرع الى القول المموه)) (١) .

وهو في هذه يحاول أن يصحح نظرة بعضهم الى الكتب التي صنفت في تلك الفترة ، حيث عرف أنها تصف الألفاظ المفردة بالفصاحة لأنهم :

((رأوا أبا العباس ثعلبا قد سمى كتابه (الفصيح) مع أنه لم يذكر فيه الا اللغة والألفاظ المفردة وكان محالا اذا قيل : ان الشمع بفتح الميم أفصح من الشمع باسكانه أن يكون ذلك من أجل المعنى ، اذ ليس تفيد الفتحة في الميم شيئا في الذى سمي به سبق الى قلوبهم أن حكم الوصف بالفصاحة أينما كان وفي أى شيء كان أن لا يكون له مرجع الى المعنى البتة ، أو أن يكون وصفا للفظ في نفسه ومن حيث هو لفظ ونطق لسان) (٢) .

أخلاق الشيخ عبد القاهر العلمية :

اشتهر العلماء وفضلاء الناس بصفات تميزهم عن غيرهم ، والاهتمام بالتعرف على أخلاقهم شيء ضرورى ، لأنها تلقي الأضواء على كتابة العالم وأفكاره وبها نستطيع قراءة ما بين سطوره .

وبعد العرض السابق الذى وضحت فيه حرارة العاطفة الدينية ، ومدى عمقها فى نفس عبد القاهر ، وبعد أن عرفنا غيرته الدينية التي هاجم فيها

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١٠ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٤١٠ .

كل من خالفه في نظرية النظم ، والتي قرر بها إعجاز القرآن الكريم ،بعد أن حمل نفسه مشقة تبعتها ، وتحمل أعبائها ، بعد هذا يمكن الحكم على أخلاقه العلمية وسموها ، حيث قطع بهذه الطريقة كل شك يمكن أن يحوم حوله أو ينسج حول آرائه ونفسيته التي تربت تربية دينية ، من هذا يمكن القول أن من أبسط سجايا تلك الشخصية أن تنسب الفضل لأهله ، وتلك الشجاعة في تصريحه بأن نظرية النظم لم يخترعها ، ولم يكن هو موجدها من العدم وإنما هو ربطها بمعاني النحو ، فهذه شجاعة نادرة ، تدل على قوة شخصه واعتداده بما أضافه إلى هذه الأفكار حتى أصبحت نظرية ،وقف كل باحث ودارس أمامها معجبا بها . مقدرا لصاحبها جهده في تحقيقها لذا حق له أن تنسب إليه هذه النظرية ، يقول معترفا مصرحا بفضل من سبقه :

« وقد علمت اطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره ، والتنويه بذكره ، واجماعهم أن لا فضل مع عدمه ، ولا قدر لكلام اذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ ، وبتّهم الحكم بأنه الذى لا تمام دونه ولا قوام إلا به ، وأنه القطب الذى عليه المدار ، والعمود الذى به الاستقلال ».(١)

وفي صفحات تالية يعترف بفضل غيره قائلا : « وإذ قد عرفت ذلك فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن ، وتشاهدوا له بالفضل ، ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصا ، دون غيره مما يستحسن له الشعر أوغير الشعر من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس ، أوغير ذلك مما لا يدخل في النظم ، وتأمله ».(٢)

والعدل والإنصاف من أجلّ الطباع التى نحتاجها دائماً ويطلبها العلم والعلماء ، و(عبد القاهر)هو واحد ممن أنصف نفسه وغيره حيث بين

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

عطه ، حيث يقول : ((وماكان بهذا المحل من الشرف ، وفي هذه المنزلة من الفضل ، وموضوعا هذا الموضع من المزية ، وبالغا هذا المبلغ من الفضيلة ، كان حرى بأن توقظه الهمم ، وتوكل به النفوس ، وتحرك له الأفكار ، وتستخدم فيه الخواطر ، وكان العاقل جديرا أن لا يرضى من نفسه بأن يجد فيه سبيلا الى مزية علم ، وفضل استبانة ، وتلخيص حجة ، وتحرير دليل ، ثم يعرض عن ذلك صفحا ، ويطوى دونه كشحا ، وأن يربأ بنفسه ، وتدخل عليه الأنفة من أن يكون في سبيل المقلد الذى لا يبت حكما ، ولا يقتل الشيء علما ، ولا يجد ما يبرئ من الشبهة ، ويشفي غليل الشاك وهو يستطيع يرتفع عن هذه المنزلة ، ويباين من هو بهذه الصفة ، فان ذلك دليل ضعف الرأى وقصر الهمة ممن يختاره ويعمل عليه))(١) .

أساتذة الشيخ عبد القاهر الجرجاني :

للشيخ عبد القاهر الجرجاني شخصية عالم تميزة ، ذلك أنه لم يخرج من بلده لتلقى العلم ، ولم يرو أنه اتصل بسلطان أو أمير ، ولم يختلف الى أحد من الفقهاء والشيوخ المشهورين ، ولم يعرف عن أسرته أنها قدمت له مساعدة في هذا الشأن ، أو جلبت له المعلمين ، بل الذى عرف عنه انكبابه على الدرس وتحصيل العلوم ، وتلقف كل ما وصلت اليه يده بالتحصيل والدرس .

ذكر ذلك (ابن الأنبارى) حين قال :

((هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوى ، كان من أكابر النحويين ، أخذ عن أبي الحسين محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الوارث ، وكن يحكي عنه كثيرا ، لأنه لم يلق شيخا مشهورا في علم العربية ، لأنه لم يخرج عن جرجان في طلب العلم ، وانما طرأ عليه أبو الحسن فقرأ عليه))(٢) .

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٧ .

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنبارى . ت/د . ابراهيم السامرائي ، مكتبة الأندلس، بغداد ص ٢٤٨ . انظر فوات الوفيات ١/ ٦١٢ انظر انباه الرواة ٢/ ١٨٨ (انظر بغية الوعاة ٢/ ١٠٦) .

والملاحظ أن المؤرخين لحياة (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) اتفقوا جميعا على أنه لم يتصل بكثير من العلماء ، ولكن بعضهم اختلفوا في أستاذه .

بينما ذكر (ياقوت الحموى) « أن عبد القاهر قرأ على القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني واغترف من علمه ، وكان اذا ذكره في كتبه تبخبخ قال بخ بخ - به وشمخ بأنفه بالانتماء إليه) .(١)

غير أن (الحموى) نفسه قال في ترجمة (محمد بن الحسين ابن أخت أبي على الفارسي) أن من تلاميذه « عبد القاهر ، وليس له أستاذ سواه » .(٢)

« والقول الأخير أقرب إلى الصحة ، لأن القاضي الجرجاني مات في بعض الروايات في سلخ صفر سنه ست وستين وثلثمائة ، وفي بعضها أنه مات سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة ، ولا يعقل أن يتصل به عبد القاهر حتى أواخر أيامه وقد شك معظم الباحثين في هذه التلمذة) .(٣)

ولقد وافق الدكتور (أحمد مطلوب) رأى الدكتور (أحمد أحمد بدوى) الذى يقول : (وإني أشك فيما رواه (ياقوت) من أنه قرأ على (القاضي الجرجاني) شيئا ، لأن القاضي توفى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، فمتى يكون (عبد القاهر) قد أخذ عنه ؟ و (عبد القاهر) قد توفى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، فإذا كان قد أخذ عن (القاضي الجرجاني) فلا بد أن يكون (عبد القاهر) قد ولد قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاما على الأقل حتى يستطيع أن يأخذ عن عالم واسع العلم كالقاضي ، ومعنى ذلك أن عبد القاهر ولد حول سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فيكون عند وفاته قد أربى على تسعين عاما ، ولم يشر أحد من مؤرخيه إلى

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموى ، تحقيق د . س مرغليوث ، ط ٢ جـ ٥ ص ٢٤٩ .

(٢) نفس المصدر جـ ٧ ص ٣ .

(٣) عبد القاهر الجرجاني ، بلاغته ونقده . د . أحمد مطلوب ص ١٤ ، وكالة المطبوعات - الكويت .

أنه طعن في السن إلى مثل هذا الحد ، مما يرجح أن أخْذ عبد القاهر عن القاضي كان أخذا عن كتبه لاعن شخصه). [1]

كما أن الدكتورين الجليلين اعتمدا في رأيهما على ما ورد في ترجمة (ياقوت الحموى) - السابق ..

وعلى كل فقد عرف أن شيخه هو :

(محمد بن الحسين ابن أخت أبي على الفارسي) .

ومع هذا (فالشيخ عبد القاهر الجرجاني) قد انكب على كتب العلم ، إذ كانت جرجان تغص بالوافدين من العلماء والفقهاء كما تقدم ذكر ذلك في أول حياته - مما أتاح له هو في بلده فرصة كبيرة للقراءة والإطلاع على الكثير من المؤلفات بعقل واع ، ونقل عن كثير من العلماء الأفاضل . أمثال :

(سيبويه) ،(الجاحظ)، (المبرد) ،(ابن جنى) ،(العسكرى) ، و(القاضي الجرجاني)وغيرهم . وكان يشير مرة إلى من أخذ منهم ويوضح أسماءهم ، وفي أخرى يأخذ منهم دون أن يشير إلى من أخذ منه .

وكان إلى جانب ما عرف عن علمه الغزير وثقافته الواسعة،عرف عنه كذلك ورعة ودينه ، بل عاطفة دينيه متأججة ، وتلك التي وضحت في جوانب مؤلفاته . مما جعله إمام عصره وشيخاً لعلمى البيان والمعاني .

تلاميذ الشيخ عبد القاهر الجرجاني :

ومن تلاميذه :

١ - (يحيى بن على الخطيب التبريزى) ، قال طاش كبرى زاده في

---

(١) سلسلة أعلام العرب - عبد القاهر الجرجاني للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٦ ، ٧ دار مصر للطباعة .

ترجمتـــــه :

((هاجر إلى أبي العلاء المعرى ، وأخذ عنه ، وعن عبيد الله الرقى والحسن بن رجاء بن الدهان وابن برهان والمفضل القصباني وعبد القاهر الجرجاني)).[1]

٢ - (أبو نصر أحمد بن ابراهيم بن محمد الشجـــرى) .

ذكره (القفطي) فقال : ((قال ابن غياض الشامي الكفرطابي النحوى ونقلته بخطه في تذكرته في آخر نسخة المقتصد لعبد القاهر الجرجانـــــي بالرى مكتوبا ما حكايته :

((قرأ على الأخ الفقيه أبو نصر أحمد بن محمد الشجرى أيده الله - هذا الكتاب من أوله إلى آخره قراءة ضبط وتحصيل ، وكتبه عبد القاهر بن عبـــد الرحمن بخطه في شهر رمضان المبارك سنة أربع وخمسين وأربعمائــــــة ، حامدا لربه ومصليا على محمد رسوله وآله)).[2]

٣ - (أحمد بن عبد الله المهاباذى الضرير).[3]

٤ - (على بن أبي زيد الفصيحي المتوفى سنة ٥١٦ هـ) ((طـــــرأ عليه أبو الحسين ، فقرأ عليه ، وأخذ عنه على بن أبي زيد الفصيحي)).[4]

كتبـــه وآثاره العلميـــة :

١ - كتاب شرح الفاتحـــة : وهو من كتبه التي لا نعلـــم عنها شيئـــا

---

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة . تحقيق كامل بكرى وعبد الوهـاب أبو النور القاهرة ١ / ٢١٨ .

(٢) انباه الرواة على أنباه النحاة ، ٢٠/١٩٠ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت الحموى ١ / ٢١٧ تحقيق د . س مرغليوث ط ٢ القاهرة ١٩٢٣ م . أنظر روضات الجنات طبعة حجرية - ايـــران خوشنويس (طاهر) ص ٤٤٣ .

(٤) نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنبارى ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

سوى ما قالوا عنه انه في مجلد واحد . (١)

٢ - درج الدرر في تفسير الآى والسور. (٢)

٣ - المعتضد ، ذكره القفطي في انباه الرواة (٣) (ولقد طبع) .

٣ - الشرح الصغير .

٥ - الرسالة الشافية :

وهي في إعجاز القرآن الكريم وقد طبعها (الدكتور محمد خلف الله أحمد) و(الدكتور محمد زغلول سلام) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم .

٦ - دلائل الاعجاز : وهو دراسة بلاغية لاثبات إعجاز القرآن ، ووضع نظرية لذلك .

٧ - أسرار البلاغة : يحتوى هذا المؤلف أصول وقوانين الفنون البلاغية .

٨ - المدخل في دلائل الاعجاز .

٩ - الإيجاز. (٤)

١٠ - المغنى. (٥)

١١ - المقتصد. (٦)

١٢ - التكملة .

١٣ - العوامل المائة .

---

(١) فوات الوفيات للكتبي / ت . محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥١ م ص ١ / ٦١٣ .

انظر طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ٥ / ١٠٥ ت / محمود محمد الطناحى وعبد الفتاح محمد الحلو، جـ٥، القاهرة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٧م .

(٢) هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين للبغدادى ١/٦٠٦ إستانبول ١٩٥١م

(٣) هدية العارفين ٢ / ١٨٩ .

(٤) هدية العارفين جـ ١ / ٦٠٦ .

(٥) نزهة الألباء ص ٢٤٩ - فوات الوفيات ١ / ٦١٢ .

(٦) انباه الرواة ٢ / ١٩٠ .

١٤ - الجمل.[١]

١٥ - التخليص.[٢]

١٦ - العمدة.

١٧ - كتاب في العروض.

١٨ - المختار من دواوين المتنبي والبحترى وابي تمام) مطبوع ضمن الطرائف الأدبية.

١٩ - مختار الاختيار.[٣]

٢٠ - التذكرة.[٤]

٢١ - المفتاح.[٥]

وفاتـــــه :

لقد وافى الأجل شيخ البلاغة وامامها الغذ في سنة احدى وسبعين واربعمائة للهجرة ، وقيل سنة أربع وسبعين وأربعمائة للهجرة.[٦]

---

(١) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ١ / ٦٠٢ ط ٣ طهران سنة ١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م .

(٢) فوات الوفيات ١ / ٦١٣ .

(٣) هدية العارفين ١ / ٦٠٦ .

(٤) انباه الرواة ٢ / ١٨٩ .

(٥) فوات الوفيات ١ / ٦١٣ .

(٦) فوات الوفيات ١ / ٦١٣ .
انباه الرواة ٢ / ١٨٩ .
طبقات الشافعية ٥ / ١٥٠ للسبكي .

الباب الأول

القضايا التي تعرض لها الشيخ عبد القاهر

ويتكون من ثلاثة فصول

الفصل الأول : قضية النظم . ويشتمل على ثلاثة مباحث وملحق .

المبحث الأول : معنى النظم وتاريخه عند عبد القاهر .

المبحث الثاني : نظرية النظم وجهود السابقين .

المبحث الثالث : المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس .

الملحق : نموذج للخلاف بين العلماء على قضية اللفظ والمعنى .

الفصل الثاني : قضية المجاز وما يتفرع عنها في أسرار البلاغة .

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : المجاز وجهود السابقين .

المبحث الثاني : خاصة جهود عبد القاهر في قضية المجاز .

الفصل الثالث : قضية إعجاز القرآن الكريم كما في الرسالة الشافية

وبه ملحق الصرفة .

الفصل الأول

قضية النظم . ويشتمل على ثلاثة مباحث وملحـــق .

المبحث الأول : معنى النظم وتاريخه عند عبد القاهر .

المبحث الثاني : نظرية النظم وجهود السابقين .

المبحث الثالث : المناظرة بين أبي سعيد ومتى بن يونس .

الملحق : نموذج للخلاف بين العلماء على قضية اللفظ والمعنى .

المبحث الأول
معنى النظم وتاريخه عند عبد القاهر

لقد اعترض كتاب الله العزيز بالطعن جماعة المغرضين بالدين ، وجاهروا الله بالعداوة ، فاجترأوا على منزلة الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بالطعن والتكذيب . فاجتمع علماء المسلمين على كلمة الحق في سبيل الذود عن حياضه ، ومنذ فجر الدعوة كان هناك مناهضون بالسيف وآخرون بأقلامهم ، وسوف أوضح إن شاء الله آراء هؤلاء العلماء ، وكيف كانت روافد غدت نهر بلاغة (الشيخ عبد القاهر) ، حتى كانت له نظرية النظم ، واستحق بجدارة لقب نقب واضعها حيث جعل كتابه (دلائل الاعجاز) موقوفا من مدخله إلى نهايته على شرح أبعاد هذه النظرية التي مهد لها بأهمية علم النحو ، لأنه العلم الذى ارتكزت عليه دعامة الإعجاز تماما ، يقول :

((فإذا ثبت الآن أن لا شك ولا مرية ، في أن ليس النظم شيئا غير توخى معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم ، ثبت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن ، إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ، ولم يعلم أنها معدنه ، ومعانه وموضعه ومكانه ، وأنه لا مستنبط له سواها ، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها ، غار نفسه بالكاذب من الطمع ، ومسلم لها إلى الخدع ، وأنه إن أبى أن يكون فيها ، كان قد أبى أن يكون القرآن معجزا بنظمه ، ولزمه أن يثبت شيئا آخر يكون معجزا به)) .[1]

وهذه العبارة التي توضح أهمية النحو في الإعجاز ، هي غيض من فيض ، امتلأت به صفحات كتاب الدلائل ، وما ذلك الترديد والاعادة الا لدحض شبه بعينها ، وليس ترديداً هدفه التوضيح فقط ، بل هي محاولة لربط أهمية علم النحو (ونظرية النظم) بكل علوم البلاغة .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٥٨ / ٤٥٩ .

وسنلاحظ ذلك فيما يأتي من فصول - حيث أن بعض الذين كتبوا في هذا الشأن أخطأوا في فهم حقيقة الإعجاز فجعلوا مردها إلى أمور لم يقبلها (الشيخ عبد القاهر) فردها واحدة واحدة .

(وملخص فكرة النظم) : أن (الشيخ عبد القاهر) يفرق بين النظم في الحروف والنظم في الكلم .

فالنظم في الكلمة المفردة أمر لا يعتد به ، لأن الكلمة من حيث هي كذلك ليست لها قيمة ، إلا إذا وضعت إلى جنب أختها وضعا مناسبا للمعنى ، خاضعا لعلم النحو ، يقول :

((واعلم انك إذا رجعت إلى نفسك ، علمت علما ، لا يعترضه الشك ، أن لا نظم في الكلم ، ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك)) (1) .

ويرى في موضع آخر : أن أهمية الكلمة لا تكون إلا إذا خضعت وجارتها لمعاني النحو وللمعنى المطلوب . يقول :

((أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل ، وكيف يتصور أن يقصد به الى توالي الألفاظ في النطق ، بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض)). (2)

ولا يكون اعجاز وبلاغة في نظم حروف الكلمة ، لأن الكلمة ما هي الا تعبير اصطلاحي عن معنى معين . بدليل أنهم لو تعارفوا على وضع (ربض) مكان (ضرب) ،لما كان في ذلك ما يؤدى إلى فساد يقول :

((وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، وليس نظمها

---

(1) دلائل الاعجاز ص ٩٧ .

(2) المرجع نفسه ص ٩٣ .

بمقتضى عن معنى ، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدى إلى فساد)) .(1)

وهكذا يستمر (الشيخ عبد القاهر) في عرض فكرة (النظم) التي لا يمكن حدها بإجابة واحدة ، ولا يمكن حصرها في فكرة واحدة ، لأن الكلام المعجز يكون أعمق من الحصر والتحديد ، وإلا أصبح مما يمكن بالدّربة والدرس والتمحيص يقول في ذلك :

((واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت ، وأن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن يحتاج في الجملة الى أن تضعها في النفس وضعا واحدا ، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا ، في حال ما يضع بيساره هناك . نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره ، وقانون يحيط به ، فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة)) .(2)

والسر في هذا الوصف الذى لا يحد النظرية بحدود ، أنها ترتكز على معاني النحو ، ومعاني النحو ووجوهه كثيرة ، والفروق بينها أكثر ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها .

ومن وجوه نظرية النظم أنه لا بد من توخي الدقة في إعراب الكلمات المنظومة المبوبة على أحسن ما يكون . لأن الخطأ في تقدير الإعراب يؤدى إلى فساد المعنى الذى أراده المتكلم ، حتى ولو لم يغير مواضع الكلمات من مكانها الذى عرفت فيه ، يقول في ذلك :

((إن ها هنا استدلالا لطيفا تكثر بسببه الفائدة ، وهو أن يتصور

---

(1) دلائل الاعجاز ص ٩٣ .
(2) المصدر نفسه ص ١٢٧ كذلك انظر ص ١٢٣ المصدر نفسه .

أن يعمدعامد إلى نظم كلام بعينه فيزيله عن الصورة التي أرادها الناظم له ويفسدها عليه من غير أن يحول منه لفظا عن موضعه أو يبدله بغيره . أو يغير شيئا من ظاهر أمره على حال .

مثال ذلك : أنك إذا قدرت في بيت أبي تمام :[1]

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه
وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

إن (لعاب الأفاعي) مبتدأ ، (لعابه) خبر كما يوهمه الظاهر ، أفسدت عليه كلامه ، وأبطلت الصورة التي أرادها فيه ، وذلك أن الغرض أن يشبه مداده بأرى الجنى ، على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات ، أوصل به إلى النفوس ما يحلو مذاقته عندها ، وأدخل السرور واللذة عليها ، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان لعابه مبتدأ ولعاب الأفاعي خبرا ، فأما تقديرك أن يكون(لعاب الافاعي) مبتدأ ، و (لعابه) خبرا ، فيبطل ذلك ، ويمنع منه البتة ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أن يكون مرادا في مثل غرض أبي تمام))[2].

فمن ملاحظة ما أراد (الشيخ عبد القاهر) ، ومن تتبع قوله ، يتضح لنا أن الإعراب لا يكون إلا بمعرفة وجه المعني الصحيح الذى قصده قائله ، ومن ثم يكون الإعراب ، فـ(أبو تمام) أراد أن يشبه مداد قلم الممدوح في حال،يكون مضرا بلعاب الأفاعي السام ، ويكون في مداد قلم الممدوح ، العسل النقي المصفى ، هو في حال الهبات والعطايا، وهذا المعنى المراد يقتضي أن يكون(لعابه) هو (المبتدأ) ، و (لعاب الأفاعي خبرا) عنه وإن تقدم .

وإن الظاهر يوهم أن يكون (لعاب الأفاعي) مبتدأ ، (ولعابه)خبرا عنه وهذا الإعراب يفسد المعنى ، ويجعله يحيد عن جادة الصواب والمراد .

---

(١) هذا البيت من الطويل.

(٢) دلائل الاعجاز ص٣٤٥ ، ٣٤٦ .

أى أن الخطأ في تقدير الاعراب يؤدى الى فساد المعنى وان كان تركيب الكلام في ظاهره صحيحا ، وهذا يؤدى الى أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، وبأمرها ماضية ، يقول :

((واعلم أنه ان نظر في شأن المعاني والألفاظ الى حال السامع ، فاذا رأى المعاني تقع في نفسه من بعد وقوع الألفاظ في سمعه ظن لذلك أن المعاني تبع للألفاظ في ترتيبها ، فان هذا الذى بيناه ، يريه فساد هذا الظن . وذلك أنه لو كانت المعاني تكون تبعا للألفاظ في ترتيبها لكان محالا أن تتغير المعاني ،و الألفاظ بحالها لم تزُل عن ترتيبها ، فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغير من غير أن تتغير الألفاظ ، و تزول عن أماكنها ، علمنا أن الألفاظ هي التابعة ، و المعاني هي المتبوعة)) .[1]

والذى أود أن أصل إليه من معنى قول (الشيخ عبد القاهر) أن النظم توخى معاني النحو .

و أن ليس المقصود الإعراب بحد ذاته كأن يعرف أن هذا فاعل ، وذاك مفعول ، و هذا حال . لأنها من البديهيات التي غصت بها الكتب ، و لكن أن يعرف الناظم متى يقول : زيد منطلق ، و متى يقول زيد ينطلق ، فالفرق بين الجملتين كبير ، و مؤداهما مختلف تماما ، فكل منها يحمل معنى غير الذى يحمله الآخر ، و هذا هو المعنى الذى قصده (الشيخ عبد القاهر) و هو الذى يعسر فهمه على طالبه العادى ،و الذى لا يتيسر للعلماء أن يتوخوه في كلامهم كله ، و كتاب الله جل و علا ، إنما أصبح معجزا ، لأنه لا توجد جملة فيه حادت عن التركيب النحوى الصحيح الذى يطابق المعنى ، و على دارسيه أن يستنبطوا هذه التراكيب ، و يحللوا معانيها .

هذا ملخص مفهوم (معاني النحو) أو روح النحو . و سوف أبين بعض المواضع التي وضح فيها (الشيخ عبد القاهر) هذا المعنى . و ذلك حين يقول :

---

(١) الدلائل ص ٣٤٧ .

((واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها .

وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق . وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق (زيد) ، و (زيد) المنطلق ، والمنطلق (زيد) وزيد هو المنطلق ، وزيد هو منطلق .

وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك : ان تخرج اخرج ، وان خرجت خرجت ، وان تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج أن خرجت وأنا ان خرجت خارج .

وفي الحال الى الوجوه التي تراها في قولك : جاءني (زيد) مسرعا وجاءني يسرع ، وجاءني وهو مسرع ، أو هو يسرع وجاءني قد أسرع ، وجاءني وقد أسرع .

فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجيء به حيث ينبغي له)).[1]

اى أن يعرف ناظم الكلام لكل الأحوال مواضعها التي تستعمل فيها ، والمناسبات التي تقتضيها ، يقول :

((وهذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معاني النحو ، قد أصيب به موضعه، ووضعه في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه ،

---

(١) الدلائل ص ١١٧ ، ١١٨ .

الا و أنت تجد مرجع تلك الصحة ، و ذلك الفساد ، و تلك المزية ، و ذلك الفضل ، الى معاني النحو و أحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ، و يتصل بباب من أبوابه)) .[1]

و لقد أفرد (الشيخ عبد القاهر) بابا طويلا في شرح الفروق بين قولنا (زيد) ينطلق ، و (زيد) منطلق ، و لقد آثرت أن استشهد ببعض فقرات لتوضيح فكرته فقط .

يقول : ((فإذا قلت : زيد منطلق ، فقد أثبت الإنطلاق فعلا له . من غير أن تجعله يتجدد ، و يحدث منه شيئا فشيئا بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك زيد طويل ، و عمرو قصير فكما لا يقصدها هنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ، و يحدث بل توجبهما و تثبتهما فقط ، و تقضى بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لا تتعرض في قولك : زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد)) .[2]

فالإخبار عن زيد بقولنا منطلق ، يدل فقط على ثبوت الفعل دون أن تجعله متجددا و مثله مثل قول القائل عمرو قصير ، فقد أثبت له القصر ، و يظهر المعنى أكثر عند القول :

((زيد ها هو ذا ينطلق) ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا و جعلته يزاوله و يزجيه و إن شئت أن تحس الفرق بينهما من حيث يلطف فتأمل هذا البيت :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا ولكن يمر عليها و هو منطلق [3]

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٣ .

(٣) هذا البيت من البسيط و هو للنضر بن جؤية . انظر معجم شواهد العربية ، تأليف د . عبد السلام هارون ، ص ٢٤٨ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة .

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى ، ولو قلته بالفعل : لكن يمر عليها و هو ينطلق ، لم يحسن)) .[1]

فقول القائل : ((زيد ها هو ذا ينطلق)) يفيد أن الانطلاق يقع جزءاً فجزءاً ، ويعني كذلك أنه يزاوله ، ولقد ضرب مثلا لذلك قول الشاعر ((لكن يمر عليها و هو منطلق)) فمع مرور الدرهم بالصره يستمر في الإنطلاق دون توقف ، و هي صفة ثابتة له - أى صفة الانطلاق - و هذا هو الحسن ، ولكنه لو قال يمر عليها و هو ينطلق اى أنه عند مروره بها لا يتابع انطلاق ، و هذه صفة لا تستحسن .

و هكذا تمضي الأمثلة دقيقة الشرح و الوصف من كتاب الله و من الشعر ، كل بما يبهج الصدر ، و يحير العقل ، و يروى غلة الصادى ، و يشفي وَلَه الدارس ، و هي كثيرة عديدة ، في كل معنى من معاني النحو .

و خلاصة هذه النظرية : أنها حصرت النظم في معاني النحو و فروقه فروح النحو سرت في كل كلام ، حتى علم البيان ، و البديع والمعاني لم يستطع علم أن يزيغ عن سلطانها ، و في كل فصل عقدت ، في نهايته علاقته بالنظم .

وماسيأتي بيانه من مواقف العلماء من إعجاز القرآن ، و من خلال مقارنتها بموقف (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) نستجلى حقيقة فكرة الناصع المتروى الذى استطاع أن يدرس و يمحص ما قدمه العلماء الأوائل درسا علميا قائما على الحجة و البرهان و الشرح و البسط ، فأضاف إضافات جديرة بالإعزاز حتى تكوّن صرح نظرية النظم كاملا ، و استحق بجدارة أن تنسب إليه ، لذلك ما فتئ يردد أن قلة النظر و التدبر في كتب السابقين ، هو الذى جعل ظهور هذه النظرية يتأخر ، وبما أن صاحب هذه النظرية نسب الفضل

---

(1) دلائل الاعجاز ص ١٩٣ .

لأهله ، فحرى بنا أن ننسب إليه الفضل في استجلاء ما غمض من حقيقة النظم المعجز الذى تردد في كتب السابقين :

يقول مصرحا بذلك :

((ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة ، وفي بيان المغزى من هذه العبارات ، وتفسير المراد بها .

فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء وبعضه كالتنبيه على مكان الخبئ ليطلب ، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج ، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها ، ووجدت المعول على أن ها هنا نظما وترتيباً ، وتأليفا وتركيبا ، وصياغة وتصويرا ونسجا وتمييزا وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذى هي مجاز فيه سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها)) .[1]

وهذا الإعتراف من (الشيخ عبد القاهر) يدل أنه ليس مبتكرا لنظرية النظم ، وليس هو أول من تكلم فيها ، وليقطع دابر أقوال ترددت أصداؤها في بعض الكتب الحديثة ، بأن (الشيخ عبد القاهر) ليس هو واضع هذه النظرية .

ومما هو متعارف عليه أن لا شئ يوجد من العدم ، وأن كل نظرية لابد أن تبدأ صغيرة ، في صورة فروض تظل عرضة للرياح تتقاذفها الأمواج إلى أن تجد يدا بصيرة خبيرة ، تصل بها بر الأمان والاستقرار .

وتأريخ نظرية النظم قد ابتدأ بظهور المعجزة الكبرى وأخذ المسلمون يجتهدون في استنباط عناصر اعجازه - كما سبق وشرحت - الى أن أتى (الشيخ عبد القاهر) فجعل هذه النظرية مدخلا واسعا شمل أصول البلاغة وفروعها ، حيث طبق عليها مفهوم النظم ، واستشهد له بشواهد

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٠ .

وأدلة من الكتاب الكريم والشعر ، حتى استحق بذلك فضل نسبتها إليه .

تاريخ كلمة النظم :

وكلمة النظم هذه لها تاريخ ، فقد عرفت هذه الكلمة (النظم) اصطلاحا علميا في بيئة (الاشاعرة) خاصة ، فاختارها (الشيخ عبد القاهر) دون أى مصطلح آخر ، كاللفظ والمعنى ، لأنه لا يرى اعجازا فيهما ، ولكن النظم كما وضحه في مؤلفه العظيم (دلائل الاعجاز) هو الذى يتحقق به الاعجاز .

وحتى هذا المؤلف قد حامت حوله الشبهات ، فاتهمه بعضهم بالقصور في شرح اعجاز القرآن .

وفي الواقع لا يدل اسم الكتاب على أنه حديث مباشر عن اعجاز القرآن بل هو دلائل ومؤشرات على اعجاز القرآن الكريم فقط ، ومن هوءلاء الذين اتهموه بالقصور الدكتور (عبد القادر حسين) حيث يقول : ((فعلى الرغم من أن الدافع إلى وضع هذه النظرية عند (عبد القاهر) كان دينيا بحتا ، وغرضه خدمة الدين والعقيدة إلا أن هذا الهدف لم يتحقق فمن يقرأ الدلائل يشعر بمدى سيطرة المباحث النحوية والبلاغية ،على بيان الإعجاز في القرآن نفسه ،مما يدل على أن (عبد القاهر) قد نسي الغرض الذى ألف الكتاب من أجله ، أو انحرف عن الطريق المرسوم)) .(١)

ولكن الكتاب لا يدل اسمه على أنه حديث مباشر عن اعجاز القرآن بل هو دلائل ومؤشرات على اعجاز القرآن الكريم فقط ، يقول في ذلك الدكتور (محمد عبد المنعم خفاجي عند تقديمه للدلائل :

---

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٣٥٩ .

((و يتحدث (عبد القاهر) في اعجاز القرآن حديثا موجزا ، لأنه مشغول بوضع الأساس الذى يحلل كلام الله الكريم على ضوئه ، ليعرف اعجازه ، و يبين عظمته و منزلته في البلاغة ، وإن كا قد رد على من ذهب مذهب الصرفه ، وأن الإعجاز في القرآن سببه صرف الله للعرب عن معارضته ، و هكذا يفيض (عبد القاهر) في دلائل الاعجاز في شرح النظم ، وأسرار بلاغته ، مما يجعلنا نوقن بأن (دلائل الاعجاز) قد ألفه (عبد القاهر) لبيان هذه النظرية البيانية الخطيره وللتطبيق عليها ، وذلك أنه جعل معرفة أسرار الإعجاز مرتبطة بمعرفة أسرار النظم و دقائقه ووجوهه ، و قد سمي كتابه (دلائل الاعجاز) و هو لا يريد حجج الاعجاز ، لأنه لم يتكلم عنها ، ولم يعرض لها ، وانما يريد بالدلائل معنى مقدمات ، فكأنه يقول هذه هي مقدمات لفهم قضية الاعجاز و أسراره ، و من ثم جعل الكتاب من أوله الى آخره خاصا بقضية النظم ، و بالتطبيق النقدى عليها لأن معرفة هذه القضية مقدمة لمعرفة أسرار الاعجاز نفسه)) .[1]

و في هذه العبارة رد على من رأى في الدلائل نقصا بأنه لم يشرح اعجاز القرآن الكريم ، و ذلك أن هذا فيما يبدو - لم يكن هدف الشيخ من تأليف الكتاب ،بل كان - كما قال الدكتور خفاجي ((مقدمات لفهم قضية الإعجاز)) .

---

(١) مقدمة دلائل الاعجاز د . محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٧ ، ١٨ .

المبحث الثاني

نظرية النظم وجهود السابقـــين

العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبلاغة ، لذا فقد اهتموا بصناعة الكـلام وترتيبه وتنقيحه ، وأخذوا في الدربة على تنضيده ومعرفة مسالكه ودروبـــه ، من هذا نرى أن تعريف البلاغة أو الكلام البليغ نفسه محور تدور حوله أغلـب الكتب المؤلفة في هذا المجـــال . وأن هذا الاهتمام بالكلام قد دعاهم إلى تسجيل ملحوظات على شكل قواعد في مختلف الكتب المتقدمة ، وعلى شكل انتقادات لبعض أبيات الشعر استفاد منها النقـاد ، كما استفاد منهـــا (الشيخ عبد القاهر) في اختيار ما يناسب صفة الكلام البليغ ، مما هيأ لــه أن يجني من ثمرها قضية النظم التي اعتمدت على تذوق الكلام واختيار مـــا يناسب المعنى منه ويجاري النحـو .

وكان (الخليل بن أحمد الفراهيدى) من أوائل الرواد الذين كتبوا عـــن البلاغة ، فقال : ((كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ، ولتلك الحال وفقا ، وآخر كلامك لأوله مشابهـا ، ومورده لمصدره موازنا فافعل)) (١) .

وهذا التعريف هو الذى تناقلته كتب البلاغة فيما بعد بأساليب مختلفة. فهذا (الجاحظ ت ٢٥٥هـ) يقول :

((والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجتك فهو بليغ ، لم يعـــن أن كل من أفهمنا معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه ، أنه المحكوم له بالبلاغة كيـــف كان ، بعد أن نكون قد فهمنا عنه معنى كلام النبطي الذى قيل له : لـم

---

(١) الرسالة العذراء لابن المدبر ، تحقيق زكي مبارك ، ط ٢ ، ـ القاهرة : دار الكتب المصرية ، (١٣٥٠هـ / ١٩٣٧م) ، ص ٤٨ .

اشتريت هذه الأتان ، قال أركبها وتلد لي ، وقد علمنا أن معناه كان صحيحا .

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والاغلاق والابانة ، والملحون والمعرب كلـه سواء ، وكله بيانا) [1] .

(وأبو هلال العسكرى ت ٣٩٥هـ) ، يقول :

((قال (العتابي) : كل من أفهمك حاجته فهو بليغ : وانما عني أن من أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة ، والعبارة النيرة فهو بليغ .

ولو حملنا هذا الكلام على ظاهره للزم أن يكون الألكن بليغا ، لأنه يفهمنا حاجته ، بل يلزم أن يكون كل الناس بلغاء حتى الأطفال ، لأن كل واحد لا يعدم أن يدل على غرضه بعجمته أو لكنته أو إيمائه أو إشارته ، بل لزم أن يكون السنور بليغا ، لأننا نستدل بضغائه [2] على كثير من إرادته ، وهذا ظاهر الاحالة)) [3] .

ولقد ناقش (الدكتور عبد القادر حسين) تعريف (الخليل) جملة جملة ، فقال :

((وهو تعريف فضفاض ، يدخل فيه ما ليس من البلاغة ، وضيق من جهة أخرى ، فهو يطلب من الكلام البليغ مساواة اللفظ للمعنى ، وكأن الايجاز الذى طبع العرب عليه ليس من البلاغة أيضا) [4] .

---

(١) البيان والتبيين ص ١/٩٨ تحقيق فوزى عطوى / الشركة اللبنانية / بيروت .

(٢) ضغا الثعلب والسنور يضغو ضغاء ،أى صاح . وكذلك صوت كل ذليل مقهور / انظر الصحاح ٦/٢٤٠٩ مادة (ضغا) .

(٣) الصناعتين لأبي هلال العسكرى ص ٢٠ / ت/د . مفيد قميحة ، ط ١ ١٤٠١هـ .

(٤) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٥٥ / مطبعة نهضة مصر .

ولا أعتقد أن (الخليل) رحمه الله ، قصد بقوله ((كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة)) إلى مستوى التبليغ الذى فهمه (الدكتور عبد القادر حسين) إذ كيف يدخل (الخليل) التبليغ بالإشارة أو ما هو بمستواها من الكلام الركيك في البلاغة ، وهو الذى يقول بعد ذلك ((فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا)) وهو تعريف لمستوى عال من الكلام ، وهو أن تكون الألفاظ مناسبة للمعاني التي سيقت لها والتي وضعت من أجلها ، وليس القصد كما ذكره (الدكتور عبد القادر حسين) ، أن (الخليل) يريد أن تكون الألفاظ على قدر المعاني من الطول والقصر .

كما أن (الخليل) شرح ما عرف عن البلاغة من أن لكل مقام مقالا . عندما قال :

((يطول الكلام ويكثر ليفهم ، ويوجز ويختصر ليحفظ))(1) ، فإذا كان المقام مقام تفهيم ، فلا بد أن يطول الكلام ليكون بمثابة شرح للمعاني ، حتى يتسنى للمتكلم أن يصل إلى المعنى الذى يريد توضيحه .

ولقد درس العلماء أهمية الحروف المتلائمة والمتنافرة في بلاغة الكلام .

والتلاؤم نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، فكلما كانت الحروف متقاربة ، دنا الكلام من الطبقة العليا من الكلام .

وأما السبب في التنافر ((ماذكره (الخليل) من البعد الشديد أو القرب الشديد ، وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك في الاعتدال

---

(1) العمدة لابن رشيق القيرواني ١٨٦/١ دار الجيل / بيروت .

ولذلك وقع في الكلام الادغام والابدال)) .[1]

ولقد اهتم بالتنافر والتقارب بين الحروف (الجاحظ)

حيث يقول : ((وأنشدني (أبو العاصي) ، قال أنشدني (خلف الأحمر)

في هذا المعنى :

وبعض قريض القوم أولاد عَلّة

يكد لسان الناطق المتحفظ [2]

أما قول خلف ((وبعض قريض القوم أولاد علة)) فإنه يقول :

إذا كان الشعر مستكرها ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر ، لا يقع بعضها

مماثلا لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ، واذا كانت الكلمة

ليس موقعها الى جنب أختها مرضيا موافقا ، كان على اللسان عند انشاد ذلك الشعر

مؤونة ، وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج).[3]

ففي تعليقه بيان على رداءة نظم هذا البيت من الشعر، وعلى تنافر الألفاظ فيه ،

وكذلك بعد مخارج بعضها عن بعض يؤدي الى سوء النطق بها ، بل الى

استكراه انشاد البيت .

ولقد استعان ابن رشيق برأي الجاحظ في هذا البيت فقال :

((واستحسن أن يكون البيت بأسره كأنه لفظة واحدة لخفته وسهولته ، واللفظة

كأنها حرف واحد)).[4]

كما كان بيت الفرزدق المشهور :[5]

وما مثله في الناس إلاّ مملكا

أبو أمه حي أبوه يقاربه

---

(١) النكت في اعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل ص ٩٦ / ت محمد خلف الله د. زغلول سلام ، دار المعارف ط ٣ .

(٢) هذا البيت من الطويل . انظر معجم شواهد العربية ، ص ٢٠٧ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٤٩ .

(٤) العمدة ١ / ٢٥٧ .

(٥) هذا البيت من الطويل ، وهو يمدح فيه خال هشام بن عبد الملك : وهو ابراهيم بن هشام ، وكان واليا على المدينة مدة هشام .

معنى البيت : أنه لا يشابهه الا ابن أخته ، والوجه الذى كان به البيت معقدا .أن المستثنى منه قدم ، وأن الصفة قدمت على الموصوف ، وفصل بين المبتدأ والخبر كذلك بين الصفة وموصوفها .

أوضح مثال على التعقيد اللفظي ، حيث ترددت الأقوال عنه في معظم المصنفات .(١)

ودافع (الرماني) بدوره عن إعجاز القرآن وعن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول : ((وجوه إعجاز القرآن من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والاخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة .

فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة ، فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن ، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس ، وليست البلاغة إفهام المعنى لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيي ، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى ، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ، ونافر متكلف وانما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة ، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم ، فهذا معجز مفحم للخاصة ،كما أن ذلك معجز للكافة .

والبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز ،والتشبيه ،والاستعارة ،والتلاؤم والفواصل ،والتجانس ،والتعريف ،والتضمين ،والمبالغة ،وحسن البيان))(٢)

ولقد عرف (الرماني) كل قسم من هذه الأقسام وأسهب في الشرح والتفصيل ، حتى أصبح مؤلفه كأنه كتاب بلاغة ، ولقد عرف البيان بقوله :

((وحسن البيان في الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٨٥، ٨٦ ، (الكامل) ١/ ١٨ ، الخصائص ٢/ ٢٩٣ ، أسرار البلاغة ص ١٥ ، ٦٥ .

(٢) النكت في اعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل ص ٧٥ ، ٧٦ .

اللسان ، وتتقبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة))[(١)].

إن عدّ الكلام الذى نظمه جيد في أعلى مراتب الكلام ودليل جودة نظمه حسنه في السمع وسهولته على اللسان بحيث تتقبله النفس تقبل البرد .

كما اهتم بالإعراب وتحدث عن علو شأنه بحيث لا يتأتى بالسليقة ، والطبع للمولدين كما يمكنهم إقامة الأوزان ((لأن العرب كانت تقيم الأوزان والإعراب بالطباع ، وليس في المولدين من يقيم الإعراب بالطباع ، كما يقيم الأوزان ، والعرب على البلاغة أقدر لما بيّنا من فطنتهم لما لا يفطن له المولّدون من إقامة الإعراب بالطباع ، فإذا عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز))[(٢)].

ولقد استشف (الخطابي ت ٣٣٨هـ) من خلال ما كتبه السابقون أنهم في حيرة من أمر الإعجاز ، وأن كل ما كتب غير واف وليس هو المطلوب ، وان توصل بعضهم إلى معرفة أن الإعجاز هو في بلاغة القرآن . ولكن ما هي الكيفية ، وما هو الأمر الذى تهتم به البلاغة : ((وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة ، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر ، وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ، ويصعب عليهم منه الانفصال ، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا فى تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن ، دون التحقيق له ، وإحاطة العلم به ، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة ، التي اختص بها القرآن ، الفائقة في وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة ، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ، ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة ، لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذى يقع منه التفاضل ، فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ويتميز في أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه .

---

(١) النكت في اعجاز القرآن ص ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٣ .

قالوا وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به . قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع وهشاشة فى النفس لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان فصيحان ، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة .

قلت : وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم ، ولا يشفى من داء الجهل به ، وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام)) (١) .

ومن هذه الأقوال ، ما قلناه عما ورد فى مؤلفات إعجاز القرآن من شذرات هنا وهناك تحاول وصفه والوصول إلى حقيقته ، ولكن لم نجد من ذلك ما يشفى الغلة ويروى الظمأ ، ولكن (الخطابي) من العلماء الذين عنوا بكشف أسرار القرآن الكريم ، ولقد وفقه الله سبحانه ، إلى مالم يوفق إليه من سبقه من سر النظم العظيم ، يقول :((وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة)) (٢) .

وذلك أنه يرى الإعجاز إنما يكون في إختيار الألفاظ المناسبة تماما لأداء المعنى المطلوب ، لأن اللغة العربية إنما هي بحر يزخر بمالا يحصى من المفردات التي لا يمكن لبشر أن يحصيها ، ناهيك عن أن يدرك معانيها ، لذا كان القرآن معجزا لأنه راعى تماما هذه الناحية ، واختار من الألفاظ ما يناسب المعاني .

كما أن المعاني من الصدق والحكمة وشرف الغاية ، ما أقام دولة الاسلام ، وأضاء القلوب بنوره ، وكان الرابط الجامع لهذين ـ المعنى ، والكلمة ـ بواسطة النحو ، الذى وفق بين المعنى المطلوب وبين المفردات المنتقاة . وهذا هو

---

(١) رسالة الخطابي ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٧ .

النحو وحقيقة معناه الربط بين الكلمات على حسب المعاني ، وهذه هي النظرية التي وسعها فيما بعد (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) .

وإذا كان (الخطابي) قد شرح هذه العناصر الثلاثة ، فليس بالمستوى الذى وصل إليه الشيخ (عبد القاهر)، من فهم عميق وشرح واف، حيث يقول في مستهل كتاب الدلائل ، ((معلوم أن ليس النظم سوى تعلق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض))[1] .

ومضمون هذا المعنى هو ما جاء في تعريف (الخطابي) للإعجاز إذ نراه يصف ألفاظ القرآن الكريم بقوله : ((لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه))[2].

ثم وصف النظم فقال : ((ولا ترى نظما أحسن تأليفا ولا أشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه))[3] .

ثم بين بعد ذلك المقصود من المعاني حيث يقول : ((واعلم أن القرآن إنما صار معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني ، من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، و نهي عن منكر وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعا كل شيء منها الى موضعه الذى لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه))[4] .

كما اهتم الخطابي بشأن اللفظ وعظيم قدره ، ذلك أنه لا يقدر على اختيار الألفاظ المناسبة في المكان المناسب ، إلا من أوتي قدرا كبيرا من

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) رسالة الخطابي ، ص ٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧ - ٢٨ .

البلاغـة ، وشأوا بعيدا في تخير الألفاظ لتوضع في الموضع المناسب لتؤدى المقصـود ، وتبلغ الهدف والغاية ، في التفهم ، حيث يقول : ((إن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات ، هو وضع كل نوع من الألفـاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أبـدل مكانه غيره جاء منه ، إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وامـا ذهاب الرونق ، الذى يكون معه سقوط البلاغـة ، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني ، يحسب اكثر الناس أنها متساوية ، في إفادة بيـان مراد الخطاب ، كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر .... واستشهد في هـذه بقوله تعالى :

(اعملـوا آل داوود شكـــرا)[1] .

واذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما ، اعتبرت كل واحد منهما بضده ، وذلك أن ضد الحمد الذم ، وضد الشكر الكفران ، وقد يكون الحمـد علـى المحبوب والمكروه ، ولا يكون الشكر إلا على المحبـوب))[2] .

والشيخ (عبد القاهر) لا يخالفه في هذه القضية ، بل يمكن القول أنـه استفاد من آراء (الخطابي) ، حيث يقول :

((ولا جهة لاستعمال هذه الخصال[3] ، غير أن يؤتى المعنى من الجهـــة التي هي أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنـه ، وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزيـــة))[4] .

فكل من (الخطابي) و(عبد القاهر الجرجاني) ، لا يرى فضلا للفظة إلا إذا وضعت إلى جوار أختها ، واختيرت بدقة ، بحيث تؤدى المعنى المطلوب

---

(١) سورة سبأ من الآيـة ١٣ .
(٢) اعجاز القرآن للخطابي ص ٢٩ ، ٣٠ .
(٣) وهي حسن الدلالة وتمامها أو تبرجها في صورة أبهى وأزين .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٨٧ .

وهذا لا يتأتى لكل انسان تمكن الاحاطة به لبشر ، وبهذا يرد أن على من قال بشرف اللفظ من حيث هو لفظ في حد ذاته ، يقول (عبد القاهر) :

((واذا كان هذا كذلك ، فينبغي أن ينظر الى الكلمة قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التي بها يكون الكلم اخبارا وأمرا ونهيا ، واستخبارا وتعجبا ، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل الى افادتها الا بضم كلمة الى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة))[1] .

وقد بين في آخر حديثه عن الألفاظ أن الاعجاز لا يقوم على تخير الألفاظ المناسبة فقط ، يقول : ((ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لاعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التى منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه))[2] .

كما أخذ في بيان ووصف النظم وتعريفه : ((فالحاجة الى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان))[3] .

لقد ناصر كل فريق رأيا كما علمنا ، وهو يؤيد رأيه بحجج ،بعضهم بعد عن الصواب قليلا ، وآخرون حاموا حوله فمهدوا الطريق لمن أتى بعدهم ، كما أنهم بلا شك استفادوا ممن قبلهم ، ومن هؤلاء (ابن جني ت ٣٩٢ هـ) .

لا شك في أياديه البيض على البلاغة ، ولا بد من ذكر اسمه وتذكره ، وعند قراءة ما يثلج صدورنا في موضوع الاعجاز ، وذلك أن آثاره

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٧ .
(٢) بيان اعجاز القرآن للخطابي ص ٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٦ .

واضحة فيمن أتى بعده ، فقد أخذ (ابن جني) يثبت أهمية (المعنى) ، وأهميته للعرب كذلك في صفحات من كتابه ، يقول :

((ويدلك على تمكن المعنى في أنفسهم ، وتقدمه للفظ عندهم ، تقديمهم لحرف المعنى في أول الكلمة ، وذلك لقوة العناية به ، فقدموا دليله ليكون ذلك امارة لتمكنه عندهم ، وعلى ذلك تقدمت حروف المضارعة في أول الفعل ، اذ كن دلائل على الفاعلين من هم ، وما هم وكم عدتهم))[1] .

وأقرب مثال ضربه (ابن جني) ليدل على أهمية المعنى للعربي : هو العناية التامة بحروف المضارعة عندما تأتي في أول الكلمة ، لأنها تدل على الفاعلين من هم ، وكم عددهم ، وما هم ؟ .

كما تعدى (ابن جني) ذلك الى أهمية المعنى في اعراب الجملة وأثبت أن هناك ارتباطا وثيقا بينهما ، يقول :

((هذا الموضع كثيرا ما يستهوى من يضعف نظره الى أن يقوده الى فساد الصنعة . وذلك كقولهم في تفسير قولنا : (أهلك والليل) ، معناه الحق أهلك قبل الليل ، فربما دعا ذاك من لا دربة الى أن يقول (أهلك والليل) فيجره ، وانما تقديره الحق الحق أهلك وسابق الليل ، وكذلك قولنا زيد قام : ربما ظن بعضهم أن زيدا هنا فاعل في الصنعة[2] ، كما أنه فاعل في المعنى ، وكذلك تفسير معنى قولنا : سرني قيام هذا وقعود ذاك ، بأنه سرني أن قام هذا وان قعد ذاك ربما اعتقد في هذا وذاك فانهمافي

---

(١) الخصائص ١/٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) الصنعة : يقصد بها الاعراب .

موضع رفع لأنهما فاعلان في المعنى . ولا تستصفر هذا الموضع ، فإن العرب أيضا قد مرت به وشمت روائحه ، وراعته . وذلك أن الأصمعي أنشد في جملة أراجيزه شعرا من مشطور السريع طويلا ممدودا مقيدا التزم الشاعر فيه أن جعل قوافيه كلها في موضع جز الا بيتا واحداً من الشعر (١) :

يستمسكون من حذار الألقاء   بتلعات كجذوع الصيصاء
ردى ردى ورْد قطاة صماء   كدرية أعجبها برد الماء (٢)

تطرد قوافيها كلها على الجر الا بيتا واحدا وهو قوله :

((كأنها وقد رآها الرواء))

والذى سوغ ذلك - على ما التزمه في جميع القوافي - ما كنا على سمته من القول . وذلك أنه لما كان معناه : كأنها في وقت رؤية الرواء تصور معنى الجر من هذا الموضع ، فجاز أن يخلط هذا البيت بسائر الأبيات وكأنه لذلك لم يخالف)) .(٣)

---

(١) نسب هذا الشعر في اللسان الى غيلان الربعي . ومعنى البيت ((يعنى بالتلعات هنا سكانات السفن ، وقوله من حذار الإلقاء أراد من خشية أن يقعوا في البحر فيهلكوا ، وقوله كجذوع الصيصاء أى أن قلوع هذه السفينة طويلة حتى كأنها جذوع الصيصاء وهو ضرب من التمر نخله طوال ، وامرأة تلعاء بينة التلع ، / اللسان مادة (تلع) ٨ / ٣٥ .

(٢) يخاطب السفينة فيقول لها : ارجعي حتى تصلي المرفأ كما ترد قطاة صماء وصممها ضيق في أذنيها . الشعر من أرجوزه مطولة لغيلان الربعي أنظر ٢ / ٢٥٠ الخصائص .

(٣) الخصائص ١ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

وما لحظ على إعراب زيد في قولنا : زيد قام من أن زيدا وإن كان فاعلا في المعنى ، إلا أنه يبقى على إعرابه مبتدأ ، وهذا معناه أن هناك فرقا ما بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى ، يقول ((فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى ، فهو مالا غاية وراءه ، وإن كان تقدير الإعراب مخالفا لتفسير المعنى ، تقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه ، وصححت طريق تقدير الإعراب حتى لا يشذ شيء منها عليك)).(١)

يريد أن يقول أن هناك فرقا بين الإعراب وبين المعنى في الجملة فإذا قدرت على حسب معنى الجملة ، أو معنى الكلمة في الجملة ، فهذا مالا يقصده ، اما إذا أعرب الكلمة مستقلة عن معناها في الجملة ، فإن المعنى يظل كما هو ، والذى يتعدل الاعراب .

ثم مثل له بأمثلة : ((إياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر اصلاحه ، ألا تراك تفسر نحو قولهم : ضربت زيدا سوطا ، أن معناه ضربت زيدا ضربة بسوط ، وهو لا شك كذلك ، ولكن طريق إعرابه أنه على حذف المضاف اى ضربته ضربة سوط ، ثم حذفت الضربة على عبرة حذف المضاف ولو ذهبت تتأول ضربته سوطا على أن تقدير إعرابه : ضربة بسوط كما أن معناه كذلك للزمك أن تقدر أنك حذفت الباء ، كما تحذف حرف الجر في قوله : أمرتك الخير ، واستغفر الله ذنبا ، فتحتاج إلى اعتذار من حذف حرف الجر وقد غنيت عن ذلك كله بقولك : إنه على حذف المضاف ، اى ضربة سوط ، ومعناه ضربة بسوط ، فهذا لعمرى معناه .

فأما طريق إعرابه وتقديره فحذف المضاف)).(٢)

ولقد عرض (الشيخ عبد القاهر) هذا المثال نفسه (ضربته سوطا) وشرحه بمثل ما قال فيه (ابن جنى) تقريبا . حيث يقول :

((وينظر إلى هذا المكان قولهم (ضربته سوطا) ، لأنهم عبروا عن الضربة التي هي واقعة بالسوط باسمه ، وجعلوا أثر السوط سوطا ، ويعلم

---

(١) الخصائص ١ / ٢٨٣ ، ٢٨٤

(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٨٤ .

على ذلك أن تفسيرهم له بقولهم ان المعنى ضربته ضربة بسوط بيان لما كان عليه الكلام في أصله ، وأن ذلك قد نسي ونسخ ، وجعل كأن لم يكن فاعرفه)) .[1]

ولقد شرح (الشيخ عبد القاهر) هذه المعاني وطبقها على عدد كبير من الأمثلة ، حيث يقول :

((وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه .

فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وزيد هو منطلق .

وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرج وإن خرجت خرجت ، وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج إن خرجت وأنا إن خرجت خارج .

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك جاءني زيد مسرعا وجاءني يسرع وجاءني وهو مسرع أو هو يسرع وجاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع .

فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجيء به حيث ينبغي له .

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه ، نحو أن يجيء بما في نفي الحال ، وبلا إذا أراد نفي الإستقبال ، وبإن فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون وماذا فيما علم أنه كائن .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٢٤ .

و ينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع (الواو) من موضع الفاء و موضع الفاء من موضع (ثم) و موضع (أو) من موضع (أم) و موضع (لكن) من موضع (بل) .

و يتصرف في التعريف والتنكير و التقديم و التأخير في الكلام كله ، و في الحذف و التكرار ، و الإضمار و الإظهار ، فيضع كلا من ذلك مكانه و يستعمل على الصحة وعلى ما ينبغي له .

و هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا و خطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، و يدخل تحت هذا الاسم إلا و هو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضع ووضعه في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه ، و استعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية و فضل فيه الا وأنت تجد مرجع تلك الصحة و ذلك الفساد و تلك المزية ، و ذلك الفضل إلى معاني النحو و أحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ، و يتصل بباب من أبوابه)) .(1)

أى أن (عبد القاهر) يرى أن النحو ليس هو حركات توضع على أواخر الكلمات ، و إنما الفرق في المعاني الطارئة على العبارات التي يحدثها ذلك الوضع و النظم الدقيق ، و لذلك فليست العمدة في معرفة قواعد النحو وحدها ، و لكن فيما تؤدى إليه هذه القواعد و الأصول ، وكأن تلك الأمثلة انما هي توسع فيما أورد (ابن جنى) من شرح على قوله (زيد قام) .

و لقد أشرقت شمس البلاغة العربية بظهور (الباقلاني) في القرن الثالث الهجرى (ت ٤٠٣ هـ) . و ذلك بما قدمه من آراء تدل على سداد

---

(1) دلائل الاعجاز ص ١١٧ ، ١١٨ .

في الرأى و رسوخ في العلـــم ، فجمع كل ما سبق من آراء و اهتم بكل لفظة فيه ، وبكل رأى ، و أضاف إليه ووسع حتى أنه يمكنني القول بأنه من أهـم من كتب في الإعجاز القرآني ، و في البلاغة العربية إلى عهـــده ،وأن مؤلفاتـه من أهم المراجع التي اعتمد عليها (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في وضع نظريته و تأليف كتبه ، و اذا نسب الفضل لكتب الباقلاني ، فلـم أكن متناسية ما كتبه العلماء الأوائل أمثال(سيبويه)، وأستاذه(الخليـــل) ولم أنسى فضل (ابن جنى) و (الخطابي) ، و (الرماني) ،ولكـن شاء الله أن اطلعت على نسخة منقولة عن مخطوطة (للباقلاني) (هداية المسترشدين) .(١)

ذلك أنه أخذ يرد على ما يراه غير صائب في إثبات الإعجاز ، ردا مدعما بالأدلة المنطقيه ، حيث يقول : ((ولم نقل نحن أن البلاغة مقصـــورة على تجنيس المقاطع و تشاكل الفواصل ، بل قلنا : إن هذا من البلاغـــة إذا تلاءمت الألفاظ ذوات الفواصل ، و شرفت المعاني ، و حسنت وسلمـت من التكرار و الاختلاف و كانت مع ذلك واردة على حسن نظم و تأليف)) .(٢)

فلم ير أن الإعجـاز و البلاغة تكمن في أواخر المقاطع من تشاكل فـــي الفواصل ، و تناسب فيما بينها ، بل هذا يعتبر جزءا من البلاغة ،لأنـــه شرط في البلاغة بالإضافة إلى ذلك تلاؤم الألفاظ ، و شرف المعانـــي و كانت مع ذلك مؤلفة في أحسن نظوم التأليف .

(و الشيخ عبد القاهر) لم يبعد في الدلائل عن هذا المعـــنى ، و إن اختلف الأسلوب ، عندما قال :

((لوعمد عامد إلى ألفاظ فجمعها من غير أن يراعي فيها معنى ، و يؤلف منها كلاما ، لم تر عاقلا يعتد السهولة فيها فضيلة ، لأن الألفاظ لا تراد

---

(١) عن نسخة نقلها الدكتور عبده أحمد هليل ، عن مخطوطة بمكتبـــة الأزهر . في رسالة له مخطوطة في مكتبة كلية اللغة العربيـــة بالجامعة الأزهرية رقم (٢١) عام ٣٤٢ هـ .

لأنفسها . وإنما تراد لتجعل أدلة على المعاني فإذا عدمت الذى له
تراد أو اختل أمرها فيه لم يعتد بالأوصاف التي تكون في أنفسها عليهما ،
وكانت السهولة وغير السهولة فيها واحداً ، ومن ها هنا رأيت العلماء
يذمون من يحمله تطلب السجع والتجنيس على أن يضم لهما المعنى ، ويدخل
الخلل عليه من أجلهما ، وعلى أن يتعسف في الاستعارة بسببهما ، ويركب
الوعورة ، ويسلك المسالك المجهولة)) .(١)

أى أنه لا يمكن أن يجار على المعنى أو على الاستعارة طلبا للكلام
المسجوع ، لأن الكلام بذلك لا يكتسب فضيلة يعتد بها .

وكذلك من عمد إلى ألفاظ فجمعها من غير نظام يتبعه ، لا يكون لكلامه
مزية، لسهولة تلك الألفاظ .

ولقد استشهد لذلك بأدلة ، يقول : ((كالذى صنع أبو تمام في
قوله : (٢)

سيف الأمام الذى سمت هيبته
لما تخرم أهل الأرض مخترما

قرت بقران عين الدين وانشترت
بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

وقوله :

ذهبت بمذهبه السماحة والتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب (٣)

ويصنعه المتكلفون في الأسجاع ، وذلك أنه لا يتصور أن يجب بهما ،
ومن حيث هما فضل ، ويقع بهما مع الخلو من المعنى اعتداد . وإذا

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ وفي أسرار البلاغة ص ٤ ، ٥ .
(٢) الشتر : هو انقلاب في جفن العين / انظر اللسان مادة شتر ٤ / ٣٩٣
الاصطلام : الاستئصال واصطلم القوم أبيد وا. اللسان ١٢ / ٣٤٠ ،
الأشترين : مالك النخعى وابنه ابراهيم النخعي والبيتان في معجم
الشواهد العربية للبحترى وهو من البسيط . ص ٣٣٧ .
(٣) البيت من الكامل . انظر معجم شواهد العربية ص ٤٩ .

نظرت الى تجنيس أبي تمام : أمذهب أم مذهب : فاستضعفته ، والى تجنيس القائل :

((حتى نجا من خوفه وما نجا)) .[1]

وقول المحدث :[2]

ناظراه فيما جنى ناظراه أودعاني أمت بما أودعاني

فاستحسنته ، لم تشك بحال أن ذلك لم يكن لأمر يرجع الى اللفظ ، ولكن لأنك رأيت الفائدة ضعفت في الأول ، وقويت في الثاني ، وذلك أنك رأيت أبا تمام لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة لا تجد لها فائدة ان وجدت الا متكلفة متمحلة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة ، وقد أعطاها ، ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، ولهذه النكتة كان التجنيس وخصوصا المستوفى منه المتفق في الصورة من حلي الشعر ومذكورا في أقسام البديع)) .[3]

ولقد أخذ (الباقلاني) يعقب على ما روى عن (مسيلمة الكذاب) وفيه يقول : ((فان قال قائل : فيجب لأجل هذا ، أى لأجل أن فواصل القرآن المتناسبة من أسباب بلاغته - أن تقولوا : ان كلام مسيلمة أية معجزة لتشاكل مقاطعه وفواصله)) .[4]

ثم ذكر (الباقلاني) بعض ما روى عن (مسيلمة) ، يفرق بينه وبين القرآن ، يقول :

((ولم نقل نحن أن البلاغة مقصورة على تجانس المقاطع وتشاغل الفواصل بل قلنا ان هذا من البلاغة اذا تلاءمت الألفاظ ذوات الفواصل ، وشرفت

---

(١) منسوب لراجز .

(٢) هو أبو الفتح البستي أو شمسويه . وقيل هو لطاهر البصرى . تخرم : التخرم والانخرام : التشقق . انظر اللسان مادة خرم ١٧٠/١٢ . قران : اسم واد قرب الطائف ، وقران قرية قرب اليمامة وقيل : قران بين مكة والمدينة انظر معجم البلدان ٣١٨/٤ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٤٥٦ - ٤٥٧ . (٤) مخطوطة هداية المسترشدين .

المعاني ، وحسنت وسلمت من التكرار والاختلاف ، فكانت مع ذلك واردة على حسن نظم وتأليف)) (١) .

(فالباقلاني) يرد على من قال بأن البلاغة في الفواصل ، وعلى من تساءل عن شأنها ، حيث نفي أن تكون البلاغة مقصورة على تشاكل أواخر العبارات ، أو في نهاية الآيات ، وذلك ما فعله (عبد القاهر) بعدئذ في الدلائل ، حيث قدم لهذا الموضوع بحديثه عن الإعجاز القرآني وعن التحدى كيف وقع ، وحدد بم تكون المحاجة ، إلى أن قال : ((ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في تركيب الحركات والسكنات حتى كأنهم تحدوا الى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليها في زنة كلمات القرآن ، وحتى كأن الذى بان به القرآن من الوصف في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض ، لأنه يخرج إلى ما تعاطاه (مسيلمة) من الحماقة في :

((إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر ، والطاحنات طحنا))
وكذلك الحكم إن زعم زاعم أن الوصف الذى تحدوا إليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل كالذى تراه في القرآن لأنه أيضا ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن ، وإنما الفواصل في الآى كالقوافي في الشعر ، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو ، فلو لم يكن التحدى إلا الى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي لم يعوزهم ذلك ، ولم يتعذر عليهم)) . (٢)

ويبدو أن (عبد القاهر الجرجاني) قد أشار بذلك الى ماكتبه (أبو العلاء المعرى) في كتابه (الفصول والغايات) وذلك حين قال : ((وقد خُيل إلى بعضهم - إن كانت الحكاية صحيحة - شيءٌ من هذا حتى وضع على ما زعموا فصول الكلام أواخرها كأواخر الآى مثل يعلمون ويؤمنون وأشباه ذلك . ولا يجوز أن يكون الإعجاز بأن لم يلتق في حروفه

---

(١) مخطوطة هداية المسترشدين .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

ما يثقل على اللسان)) .[1]

وكما اتفق العالمان الجليلان (الشيخ عبد القاهر) ، و (الباقلاني) على أن السجع أو انهاء أواخر الجمل بفواصل متوازنة ليساير الاعجاز ، اتفقا أيضا عن أن بلاغة القرآن الكريم لا يكمن فقط في ألفاظه وفي بلاغتها ، وانما في ضم هذه الألفاظ كل الى قرينة له ، لكن (الشيخ عبد القاهر) قد كان محدد الأفكار ، لم يرسل بالفكرة مائجة تحتمل أشياء ومعاني غير واضحة . .

وسوف نرى كيف وصف (الباقلاني) كلمات القرآن الكريم بصفات متعددة حين قال : ((قد قلنا من قبل أنه لا يمتنع أن يقال : أن الاعجاز في نظمه وبلاغته جميعا ، ويجب على هذا الجواب أن تجعل بلاغته في ألفاظه ، أو زائدا على نفس اللفظة التي يستعملها أهل اللغة في سائر أقسام كلامهم . بل تقول انها ضم لفظة الى قرينة لها ومناسبة لمخرجها ، لا تنبوان في النفس والسمع ، فان اللفظة اذا قرنت الى مثلها في الشرف والجزالة ، وكانت مناسبة وقريبة المخرج من مخرجها كان لها بالضم والاجتماع ، ما لا يكون لكل واحدة منها اذا أفردت عن نظير لها ، وقرنت بغير شكلها ، وهذا أيضا معلوم ومحسوس من حال الألفاظ الشريفة اذا ضم بعضها الى بعض))،[2] لا ينظر الى اللفظة فقط بل من حيث ضمها الى قرينتها المناسبة لها في الشرف والجزالة ومخارج الحروف ، وليست من حيث هي لفظة مفردة مستقلة بذاتها ، وقد علق بهذا المعنى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، عندما شرح خصائص

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٥٨ .

(٢) مخطوطة هداية المسترشدين .

ومزايا بعض الآي ، اذ يقول : ((أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالاعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا[1] باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟

فقد اتضح اذن اتضاحا لا يدع مجالا للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها[2] في ملاءمة معنى اللفظة ، لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ))[3] .

كما يقول عن نمط نظم القرآن الكريم ، بأنه عبارة عن ((ضم لفظة الى أخرى اذا ضمت اليها كانت لفق المعنى وطبقه ، غير زائدة عليه ولا ناقصة عنه ، وموصلة الى العلم بالمقصود ، وبالكلام في أحسن معرض وأحلاه في القلوب والأسماع ولو بدلت الكلمة بغيرها ، أبدلها ذلك الموقع في النفوس والأسماع))[4] .

وهنا نجد (الشيخ عبد القاهر) مقتنعا بهذه الفكرة تماما ، فهو يقول :

((وكذلك قولهم : لفظ ليس فيه فضل عن معناه : محال أن يكون المراد به اللفظ لأنه ليس هاهنا اسم أو فعل أو حرف يزيد على معناه

---

(١) علق بالشيء علقا وعلقة : نشب فيه . وفي الحديث : فعلقت الأعراب به أي نشبوا وتعلقوا . انظر اللسان ، مادة (علق) ١٠/ ٢٦١ .

(٢) أي البلاغة وعدمها .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٨٩ - ٩٠ .

(٤) المصدر نفسه .

أو ينقص عنه ، كيف وليس بالذرع وضعت الألفاظ على المعاني ، وإن اعتبرنا المعاني المستفادة من الجمل ، فكذلك ، وذلك أنه ليس ها هنا جملة من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل يحصل بها الإثبات أو النفي أتم ، أو أنقص مما يحصل بأخرى ، وانما فضل اللفظ عن المعنى أن تريد الدلالة بمعنى على معنى فتدخل في أثناء ذلك شيئا لا حاجة بالمعنى المدلول عليه اليه وكذلك السبيل في السبك والطابع ، وأشباههما، لا يحتمل شيء من ذلك أن يكون المراد به اللفظ من حيث هو لفظ)) .(١)

(والشيخ عبد القاهر) يصيب المحز ويطبق المفصل حين يرد على كل من ردد فكرة أن الألفاظ في حد ذاتها تؤدى المعنى ، غير زائدة عليه وغير خارجة عنه ولا ناقصة عن تأدية المعنى وحجته أن ليس هناك اسم أو فعل أو حرف يزيد على معناه أو ينقص في تأدية المطلوب .

وما طبق على اللفظ يطبق على المعاني التي لا تكون ولا تحصل فائدة بها ، إلا إذا كانت جملة ، فسواء كانت الجملة من فعل وفاعل أو مبتدأ أو خبر ، أتت لإثبات أو نفي ، تكون حالها في الجملة أدل على المقصود من أخرى .

ويتحرز (الشيخ عبد القاهر) في رده ، فيحدد ما أطلقه غيره فيقول : إلا إذا أريد بالزيادة وجود ألفاظ زائدة عن المعنى المطلوب فتكون بمثابة الحشو الذى لا طائل تحته .

ولقد لاحظنا من خلال شرح ما قصده (الشيخ عبد القاهر) أن (الباقلاني) ، وإن لم يحدد بالضبط وبدقة اسم (النظم) أو (معاني النحو) ، بل ذكر ما ينتج من تغير للمعنى إذا تغير مكان اللفظ وذلك حين يقول : ((ولو أبدلت الكلمة بغيرها أبدلها ذلك الموقع في النفوس والأسماع)) . وهذا رأى الخطابي أيضا .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

وهذا هو لب قضية النظم ، التي لم يسفر نقابها إلا (الشيخ عبد القاهر) فانبلج فجر البلاغة العربية يدل بنفسه ويضيء ليل البيان العربي .

ولقد عرض (الشيخ عبد القاهر) رأى (الباقلاني) . ولكل من رأى رأيه دون أن يذكر اسمه يقول : ((حين قالوا نطلب المزيه ظنوا أن موضعها اللفظ بناء على أن النظم نظم الألفاظ ، وأنه يلحقها دون المعاني وحين ظنوا أن موضعها ذلك واعتقدوه ، وقفوا على اللفظ ، وجعلوا لا يرمون بأوهامهم إلى شيء سواه ، إلا أنهم على ذاك لم يستطيعوا أن ينطقوا في تصحيح هذا الذى ظنوه بحرف بل لم يتكلموا بشيء إلا كان نقضا وإبطالا ، لأن يكون اللفظ من حيث هو لفظ موضعا للمزية ، وألا رأيتهم قد اعترفوا من حيث لم يدروا ، بأن ليس للمزية التي طلبوها موضع ومكان تكون فيه إلا معاني النحو وأحكامه وذلك أنهم قالوا : إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة ، فقولهم بالضم لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنيهما لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل (ضحك خرج) أن يحدث من ضم (خرج) إلى (ضحك) فصاحة ، وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة ، توخى معنى من معاني النحو فيما بينهما ، وقولهم : على طريقة مخصوصة يوجب ذلك أيضا ، وذلك أنه لا يكون للطريقة - إذا أنت أردت مجرد اللفظ - معنى)) .(1)

ثم يؤكد (الباقلاني) وجهة نظره في النظم ، من أنه ضم كلمة إلى أخرى دون أن يبين تلك الحدود ، وذاك الموقع الذى يجب أن تقع فيه ، سوى أن يكون ذلك بطريقة يظهر أثرها في النفس ، كما أنه يخرج فصاحة الكلمة في حد ذاتها ، وجزالتها من الموضوع حيث يقول : ((ليست جزالة اللفظة وشرفها فقط ، ولكن ضمها إلى أخرى ، وإفرادها على وجه يكون أوقع

---

(1) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

في النفس لو أوردت على غيره ، وضمت إلى سوى ما قرنت به)).[١]

ويقول (الشيخ عبد القاهر) : ((وهل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة ، الا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها أخواتها)).[٢]

كما يقول في موضع آخر عبارات يؤيد فيها (الباقلاني) ، والقائل مثله ، وأن البلاغة ليست في شرف اللفظ وجزالته .

وكذلك يرد على (الباقلانـي) في رأيه الذى يقضي بأن النظم عبارة عن ضم لفظة إلى أخرى ، دون تحديد ما هية هذا الضم ((فمن أقرب ذلك أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام أن ذلك يكون بجزالة اللفظ ، وإذا تكلموا في زيادة نظم على نظم ، أن ذلك يكون لوقوعه على طريقة مخصوصة وعلى وجه دون وجه ، ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء ، ويقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يخلى منه السامع بطائل)).[٣]

ولقد تجلت في شخص (الشيخ عبد القاهر) روح الأمانة العلمية ، وتواضع العالم ، وخلقه العظيم ، حيث نراه بعد أن أتم مناقشة تلك الآراء ، يقول : ((وهذا سبيل كل ما قالوه ، إذا أنت تأملته ، تراهم في الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية في معاني النحو وأحكامه ، من حيث لم يشعروا ، ذلك لأنه أمر ضرورى لا يمكن الخروج منه)).[٤]

ولقد بين كذلك (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) أنه لا يصح أن يكون الإعجاز في القرآن الكريم من جهة مفردات ألفاظه الدائرة فى سائر ضروب الكلام وعلى لسان العي المعجم والفصيح المفوه، ولأنهم معتادون للنطق بكل

---

(١) مخطوطة هداية المسترشدين .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٨٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٠٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٦٢ .

كلمة منه على وجه الإيراد بها في النظم والنثر ، وقطعا هذا الوجه باطل ، وهذا نص عبارة (الشيخ عبد القاهر) .

((ثم إن هذا الوصف ينبغي أن يكون قد تجدد بالقرآن ، وأمرا لم يوجد في غيره ، ولم يعرف قبل نزوله . وإذا كان كذلك فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة ، لأن تقدير كونه فيها يؤدى إلى المحال ، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة قد حدث في حذاقة حروفها وأصدائها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن ، وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن ، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن ، ولا يجوز أن تكون في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة ، لأنه يؤدى إلى أن يكون قد تجدد في معنى الحمد والرب ، ومعنى العالمين ، والملك واليوم والدين وهكذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن)) .[1]

وجهة كون القرآن معجزا يقول فيها (الباقلاني) :

((قلنا نحن الجمهور من الناس إن جهة كونه معجزا ، ما هو عليه من بديع النظم وعجيب التأليف والرصف المشتمل على المعاني الصحيحة المعلومة الخارجة عن جميع أوزان كلامهم ونظومهم ، التي جرت عاداتهم بالتكلم بها ، وما هو عليه - مع ذلك - من البلاغة وشرف اللفظ)) .[2]

فإذا رأى (الباقلاني) أن جهة الإعجاز ، إنما تكون في بديع النظم ، وما يحتويه من المعاني الصحيحة التي تفوق كل أوزان الكلام والنظوم التى اعتادها المتكلم ، فإن (الشيخ عبد القاهر) ، قال بذلك

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٥٧ .

(٢) مخطوطة هداية المسترشدين .

((واعلم أنهم لم يبلغوا في إنكار هذا المذهب ، ما بلغوه إلا لأن الخطأ فيه عظيم ، وأنه يفضي بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ويبطل التحدى من حيث لا يشعر ، وذلك أنه ان كان العمل على ما يذهبون إليه من أن لا يجب فضل ومزية ، إلا من جانب المعنى ، وحتى يكون قد قال حكمة أو أدبا ، واستخرج معنى غريبا أو شبيها نادرا ، فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس في الفصاحة والبلاغة ، وفي شأن النظم والتأليف ، وبطل أن يجب بالنظم فضل وأن تدخله المزية ، وأن تتفاوت فيه المنازل ، وإذا بطل ذلك فقد بطل أن يكون في الكلام معجز ، وصار الأمر إلى ما يقوله اليهود ومن قال بمثل مقالهم في هذا الباب . ودخل في مثل تلك الجهالات ، ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار)).(١)

اى أنه لا يكون فضل ومزية من جانب المعنى من حيث كونه يحتوى على حكمة أو أدب ، وهذا معناه أن لا بد من نبذ كل ما قاله الناس عن جهة الكلام البليغ والمعجز ، وأن لا يجعلوا جل اهتمامهم متجها إلى المعنى .

ولقد حدد (الباقلاني) جهة اعجاز القرآن : في أنها فضل بلاغته على سائر البلاغات ، ونظمه على وجه ، وطريقة تخالف سائر النظوم والأوزان يقول : ((وقد بينا من قبل ، أنه لا يجوز أن يكون جهة الإعجاز فيه مفردات ألفاظه الدائرة في سائر ضروب الكلام ، وعلى لسان العي المعجم والفصيح المفوه لأنهم معتادون للنطق بكل كلمة منه على وجه لا يراد لها في النظم والنثر ، فبطل هذا الوجه)).(٢)

وبهذا اقنعنا (الباقلاني) بأنه لا يمكن أن يكون الإعجاز

---

(١) دلائل الاعجاز ص٢٥٧ .

(٢) مخطوطة هداية المسترشدين .

بالألفاظ مفردة ، و بالألفاظ معروفة متداولة بين العي المعجم و الفصيح البليغ ، ذلك آن العرب قد اعتادت النطق بالكلمات العربية الصحيحة و بالنطق الصحيح .

ولقد طرق (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) هذا الموضوع أيضا ولكنه عرض للاقناع بحجة أخرى ، فيكون قد التقى مع (الباقلاني) في الفكرة الأساسية ، وهي نفي الاعجاز عن الألفاظ المفردة من حيث هي ألفاظ : ((فلو كانت الكلمة اذا حسنت من حيث هي لفظ ، وإذا استحقت المزية و الشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها ، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم ، لما اختلفت بها الحال ولكانت اما أن تحسن أبدا أولا تحسن أبدا ، ولم تر قولا يضطرب على قائله حتى لا يدرى كيف يعبر ، وكيف يورد و يصدر كهذا القول ، بل أن أردت الحق فانه من جنس الشيء يجرى به الرجل لسانه ، و يطلقه فاذا فتش نفسه وجدها تعلم بطلانه ، و تنطوى على خلافه ذاك لأنه مما لا يقوم بالحقيقة في اعتقاد ، ولا يكون له صورة في فؤاد)).(١)

اذ لو كانت المزية في ذات الألفاظ منفردة لكان بعض الكلمات ، اما أن يحسن أبدا و اما أن لا يحسن أبدا .

وكذلك لو كانت المزية في ذات اللفظة منفردة ، لم يكن هناك قول أفضل من قول .

كما يقول (الباقلاني) في موضع آخر ((وكل لفظة بليغة قد سبقوا الى التكلم بها ، والتواضع على معناها ، وهم المبتدئون بالنظر بها ، دون الأخذ عنهم ، فكيف يقال : ان بلاغة اللفظ خارقة للعادة ، فيجب على هذا أن يكون النظم البديع الخارج عن أوزان كلام العرب هو الخارق للعادة)).(٢)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٩٢ .

(٢) هداية المسترشدين .

أي أن من الدلالة على أن الإعجاز لا يكون في الألفاظ مفردة ،أن العرب قد كانوا قبل البعثة يتكلمون بهذه الألفاظ و يستعملونها في عباراتهم ومختلف معانيهم ، فلو كانت المزية في ذاتها لكان كلام الأوائل معجزا ، ولم يقل أحد بذلك .

وشبيه بهذا ما رد به (الشيخ عبد القاهر) على شبهه (بلاغة اللفظ) وأنه سر الإعجاز ، وان كان رده بعكس الطريقة التي سلكها (الباقلاني) ، إلا أن المعنى في النهاية واحد ، إذ رأى (الشيخ عبد القاهر) أنه لو كانت البلاغة في اللفظة مفردة لكانت تلك الألفاظ اكتسبت من البلاغة و من المعاني،مالم تتصف به قبل نزول القرآن .

ولقد استفاد (الشيخ عبد القاهر) من هذا المعنى فقال : ((وهل تشك اذا فكرت في قوله : (وقيل ياأرض ابلعي ماءك وياسماء اقلعي وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين) .(1)

فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذى ترى و تسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف ، إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ؟ وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها ، وأن الفضل تناتج ما بينها ، وحصل من مجموعها .

وإن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه ، وهي مكانها من الآية .

قل (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها ، وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ، وكيف بالشك في ذلك ، ومعلوم

---

(1) سورة هود آيه ٤٤ .

أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم في أن كان النداء بيا دون أى نحو يا أيتها الأرض ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعي الماء ، ثم أن اتبع نداء الأرض ، وأمرها بما هو شأنها ، نداء السماء ، وأمرها ، كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل وغيض الماء ، فجعل الفعل على صيغة (فعل) الدالة على أنه لم يفض إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : (وقضى الأمر) ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو استوت على الجودى ، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة .

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب ؟

فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا ، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة ، وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ)).(١)

ويستمر (الباقلاني) في الرد على كل دعوى بعدد من الحجج والبراهين وقضية اللفظ من الأمور التي شغلته ، فشغل بها صفحات (هداية المسترشدين) حيث يقول : ((وإذا كان ذلك ، علم أيضا أن (النبي صلى الله عليه وسلم) لم يتحد بالبلاغة ، عارية من النظم البليغ البديع ، الذى هو نظم القرآن ، فلو أنهم أتوا بالألفاظ البليغة الفصيحة على غير وزن القرآن ، لم يكونوا معارضين ، كما لا يعارض الشاعر في شعره ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٩ ، ٩٠ .

بأن يأتي بالألفاظ البليغة من الوزن وصحة الروى والقافية ، فهذا يدل على أنه متحد بالبلاغة على نظم مخصوص هو نظم القرآن ، وذلك هو الذى تعذر وامتنع عليهم)) .(١)

ثم إن بلاغة (اللفظ) وحدها ليس بالمعول عليه في شأن البلاغة ، يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((وهل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟)) (٢) . وهو ما عبر عنه (الباقلاني) بقوله : ((وهذا قدح داخل على من قال : أن البلاغة هي جزالة اللفظ وحسنه فقط ؟ فإذا قيل إنه استعمال لفظ لمعنى مكان لفظ يسد في الكشف عن المعنى مسده ، الا أنه لا يحل في الشرف ، في النفوس والأسماع محل البليغ ، أو أنه : ضم لفظة إلى لفظه أخرى يكون بالضم بلاغة رائعة ، فإنه لا يدخل عليه هذا الكلام)). (٣)

وهكذا فقد كانت حجج (الباقلاني) قوية ، وبراهينه واضحة بأن لا مزية في اللفظ المفرد ، وهو يقول بعد ذلك ، ولا ترجع المزية للمعنى : ((ولا يجوز أن يكون الإعجاز في معانيه الصحيحة التى اشتمل عليها القرآن ، لأن المعاني يشترك في إيرادها والتعبير عنها العجم والفصح ، وكل ذى عقل سليم)) . (٤)

كما أن المزية لا ترجع للنظم المجرد إذ لا يجوز أن يكون جهة الإعجاز فيه كونه منظوما مؤلفا فقط ، لأن النظم والتأليف جار على الألسنة قبل البعثة ، وذلك عادة لهم ، فيجب لأجل ذلك أن تكون

---

(١) هداية المسترشدين .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٨٨ .

(٣) هداية المسترشدين .

(٤) المصدر نفسه .

جهة الإعجاز فيه تظهر على وجه يفارق جميع الأوزان والنظوم ، وقدر ما فيه من البلاغة الرائقة المؤثرة في النفوس والأسماع)).[1]

ولقد استطاع (الباقلاني) أن يحوم قريبا من نظرية النظم لدى (عبد القاهر) ذلك أنه يرى أن لا مزية في اللفظ المفرد ، ولا في المعاني ، بل في النظم ، ولكنه لم يحدد الطريقة التي فاق بها الأوزان وسما على جميع النظوم ، لذلك قال : (الشيخ عبد القاهر) :

((فمن أقرب ذلك أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام أن ذلك يكون بجزالة اللفظ ، وإذا تكلموا في زيادة نظم على نظم ، أن ذلك يكون لوقوعه على طريقة مخصوصة وعلى وجه دون وجه ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء ، ويقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يحلى منه السامع بطائل)).[2]

أى أن أحدا من البلغاء الأوائل لم يستطع أن يتوصل إلى حقيقة الإعجاز التي وصل إليها (الشيخ عبد القاهر) .

ولا تفتأ أصداء فكرة (الباقلاني) عن إعجاز القرآن تتردد في كتابه (إعجاز القرآن) ، والموضوع هو نفسه - إعجاز القرآن - والشبه التي حامت حوله ، وكيف يكون الإعجاز ، وبما يثبت عجزهم . يقول :
((ومن الوجوه التي يقع بها إعجاز القرآن ، وهو الذى بيناه من الإعجاز الواقع في النظم والتأليف ، والرصف ، فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوها منها : أنا قلنا : إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم ، ومباين لأساليب خطابهم .

ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ، ولا الكلام الموزون غير المقفى ، لأن قوما من كفار قريش ادّعوا أنه شعر ، ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعرا ،

---

(١) هداية المسترشدين .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٤٠٨ .

ومن أهل الملــة من يقول : إنه كلام مسجع إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم .

ومنهم من يدعي أنه كلام مـــوزون ، فلا يخرج بذلك عن أصنـــاف ما يتعارفونه من الخطاب)). [1]

كما بين عجز العرب والناس عامة عن مجاراة القرآن الكريم لأن ((الوجوه التي نقول : إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها ، فليس مما يقدر البشـر على التصنـع له ، والتوصل إليه بحال ، ويبين ما قلناه أن كثيرا مـــن المحدثين قد تصنـع لأبواب الصنعة حتى حشا جميع شعره منها ، واجتهد أن لا يفوته بيت ، إلا وهو يملؤه من الصنعة ، كما صنع أبو تمام في لاميته [2] ومن الأدباء من عاب عليه هذه الأبيات ونحوها على ما قد تكلف فيها مـــن البديع ، وتعمل من الصنعة ، فقال : قد أذهب ماء هذا الشعـــر ورونقه ، وفائدته اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه)). [3]

((وانما يبين ذلك ، بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثيـــر ، أو خطاب طويل ، فتراها ما بينها تدل على نفسها ، وتعلـــو على ما قرن بها لعلو جنسها ، فاذا ضمت الى أخواتها ، وجاءت فـــي ذواتها أرتك القلائد منظومة ، كما كانت تريك عند تأمل الأفراد منهـــا اليواقيت منثورة ، والجواهر مبثوثة)). [4]

أي أن الباقلاني ينفي استطاعة العرب مجاراة القرآن الكريم ، لأن الوجوه التي يكون بها الإعجاز ، لا يقدر أحد من البشر أن يحاكيها أو يصل إليها ، وضرب مثلا أن من المحدثين من قد تهيأ لأن يحشو جميع شعره من الوجـــوه التي يكون بها الكلام بليغا ، أمثال (أبي تمام) فذهب ما قد جمـــع

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٠ .

(٢) والتي يقول فيها :

متى أنت عن ذهليه الحي ذاهل
وصدرك منها مدة الدهر آهل

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٤) هداية المسترشدين (مخطوطة)

له أبو تمام من شعر ذى رونق وبهاء، إلى كلام متصنع فيه كلفة يمجها السمع .

ويواصل الحديث عن اعجاز القرآن الكريم قائلا : ((إن قال قائل : بينوا لنا ما الذى وقع التحدى إليه ؟ أهو الحروف المنظومة ، أو الكلام القائم بالذات ؟ أوغير ذلك ؟.

قيل : الذى تحداهم به ، أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن ، منظومة كنظمها ، متتابعة كتتابعها ، مطّردة كاطرادها ولم يتحدهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذى لا مثل له .

وإن كان كذلك فالتحدى واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة التي هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتأليفها وهي حكاية لكلامه ، ودلالات عليه وأمارات له ، على أن يكونوا مستأنفين لذلك لا حاكين بما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم)).(١) .

(فالباقلاني) يرى أن التحدى واقع في الحروف المنظومة ، وليس المقصود بالحروف المنظومة ترتيب الحروف في الكلمة المفردة ، وإنما يقصد بالحروف المنظومة التي يتكون منها كلام ، لأنه بصدد استبعاد أن يتحدوا بكلام الله القديم .

ولقد كانت هذه الفكرة هي أساس قول (الشيخ عبد القاهر) :

((ومما يجب احكامه بعقب هذا الفصل الفرق بين قولنا حروف منظومة ، وكلم منظومة .

وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، وليس نظمها بمقتضى عن معنى (٢) ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل ، اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، فلو أن واضع اللغة

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٦٠ .

(٢) أى بلازم لمعنى .

كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدى إلى فساد)). [1]

أى أن (الشيخ عبد القاهر) لا يرى أن الاعجاز واقع في نظم الحروف، أى ذات الكلمة ، لأن نظمها لا يحتاج إلى ترتيب في الفكر ، وضرب لذلك مثلا : بأن قائلا لو قال (ربض) وهو يريد ضرب ، لما كان في ذلك فساد ، وإنما المعول عليه نظم الكلمة في الكلام : ((واما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق)). [2]

ويضع (الباقلاني) حدا ،لما يعرف به (اعجاز القرآن) : فمنه ما يمكن الوقوع عليه والتعمل له ، ويدرك بالتعلم ، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به .

((أما مالا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغات ، فذلك هو الذى يدل على إعجازه)). [3]

ويمضي (الباقلاني) مبيناً وجه الإعجاز ودليله في القرآن حيث قدم صورا عالية من البيان العربي فيقول : ((ولم أقصد استيفاء ذلك ، وإنما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل ، وأشرت اليك بما أشرت لتتأمل)). [4]

ثم عرف وجه إعجاز القرآن بـ ((أنه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه في البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه)). [5]

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٩٣ (٢) المصدر نفسه ص ٩٣
(٣) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٧٥
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٥ .
(٥) المصدر نفسه ص ٣٥ .

ثم أخذ يناقش بعض الآراء التي تعترض على بعض الآي من مثل قوله تعالى : (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ، وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم) (١)

((فان قال قائل : فقد نجد في آيات من القرآن الكريم ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ، ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة ، وانما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة ، وحد يتجاوز حد الألفاظ المستفدة ، وان كان الأكثر على ما وصفته به ؟ قيل له : نحن نعلم أن قوله تعالى (حرمت عليكم ..) ليس من قبيل الذى يمكن اظهار البراعة فيه ، وابانة الفصاحة عليه ، وذاك يجرى عندنا مجرى ما يحتاج الى ذكره من الأسماء والألقاب ، فلا يمكن اظهار البلاغة فيه ، فطلبها في نحو هذا ضرب من الجهالة ، بل الذى يعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب ، وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى ، وذلك حاصل في هذه الآية ان تأملت)) (٢) .

(فالباقلاني) يجعل الآية الكريمة مما حسن لفظه وخلا من البراعة ومن النظم ، وهو ليس أكثر من مفردات مضمومة واحدة منها الى جنب الأخرى ، وانما الحكمة في الترتيب والمعنى . وهذا ان كان ينطبق على بعض أقوال البلغاء والحكماء ، فلا أجده ينطبق على هذه الآية الكريمة ، وليست مثالا يمكن تطبيقه عليها . لأن نظمه أعجب من معناه ، ومزيد عظمتها تكمن في كلماتها البسيطة ، وخلوها من التشبيهات والاستعارات ، فما أجمل من أنه جعل الفعل الماضي مبنيا للمجهول دلالة عظمته سبحانه .

---

(١) سورة النساء ، آية ٢٣ .

(٢) اعجاز القرآن ص ٢٠٧ .

ولقد طرق (الشيخ عبد القاهر) موضوع ما حسن لفظه ومعناه دون نظمه، ولكنه لم يستشهد بالآيات الكريمة في هذا المقام ، لأن القرآن الكريم أسمى وأجل من ذلك بل إن جماله في لفظه ومعناه ونظمه وفوق ذلك مما لا يعلمه إلا رب العالمين ، فعجائبه لا تنقطع ، وفوائده لا تنضب موارد ها .

يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم ، بل ترى سبيله في ضم بعضه الى بعض سبيل من عمد الى لآل خرطها في سلك لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق ، وكمن نضد أشياء بعضها على بعض ، لا يريد في نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة ، بل ليس ألا أن تكون مجموعة في رأى العين .

وذلك إذا كان معناك معنى لا يحتاج أن تصنع فيه شيئا غير أن تعطف لفظا على مثله ، كقول (الجاحظ) : ((جنبك الله الشبهه وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبين الصدق سببا ، وحبب إليك التثبت ، وزين في عينك الإنصاف وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة ، وما في الجهل من القلة)) [1]،[2] ((فما كان من هذا وشبهه لم يجب به فضل إذا وجب إلا بمعناه ، أو بمتون ألفاظه دون نظمه وتأليفه ، ذلك لأنه لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعا ، وحتى تجد إلى التخير سبيلا ، وحتى تكون قد استدركت صوابا)). [3]

ولقداتخذ (الباقلاني) من (البحترى) مثالا في توضيحه جوانب البلاغة لديه ((وذلك لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره ، ويقدمونه على من في عصره ، ومنهم من يدعي له الإعجاز غلوا ويزعم أنه يناغي

---

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٢٩ .

(١) انظر مقدمة الحيوان .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٠ .

النجم في قوله علوا ، والملحدة تستظهر بشعره ، وتتكثر بقوله وترى كلامه من شبهاتهم ، وعباراتهم مضافة إلى ما عندهم من ترهاتهم فبينا قدر درجته وموضع رتبته ، وحد كلامه.)). (١)

ولكن هناك من يعيب طريقة (الباقلاني) هذه ، يقول الدكتور (عبد الرؤوف مخلوف) : ((وغاية (الباقلاني) من هذه التقدمة أن يهون من شأن الشعر ، وأن يهون من أمر البحترى وأن يشكك في مذهب الذين يفضلونه على كثير من معاصريه ، وكأنه حين يسلم له ذلك أو اكثره ، يكون قد أقام دليلا آخر على فنية القرآن وإعجازه ، وفوته سائر كلامهم ، بعد ما أقام دليلا من ضعف شعر امرئ القيس)). (٢)

ويسترسل الدكتور (عبد الرؤوف مخلوف) في عيب (الباقلاني) على التمثيل بشعر (البحترى) ، وعلى طريقته في إثبات اعجاز القرآن الكريم ، ويأخذ عليه هذا الأسلوب قائلا : ((ولكن (الباقلاني) كان ينقد شعر (البحترى) على نحو ما نقد شعر (امرئ القيس) ، وغايته أن يثبت أن جميع شعر العرب نازل في الفنية عن القرآن ، ومن هنا فيما يرى - يثبت له أن القرآن فائق في صنعته لجميع كلامهم ، فيكون معجزا)). (٣)

وكأني بالدكتور (عبد الرؤوف) يريد أن يقول : إن طريقة (الباقلاني) في توضيح فكرة النظم لم تكن موفقة في إثبات اعجاز القرآن ، ذلك لأن الدكتور (عبد الرؤوف) أخذ يناقض آراء (الباقلاني) فكرة فكره ، وهو في صفحات تالية من كتابه يصرح عن رأيه هذا قائلا ((وعندى أن ذهاب (الباقلاني) في النقد هذا المذهب لا يدل على بصر بطرائق العرب في استعمالها ، وإنما يدل على تحامل منه على

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٤٥ .

(٢) الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن / دراسة تحليلية ونقدية تأليف الدكتور عبد الرؤوف مخلوف ص ٤١٤ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٤١ .

البحترى و محاولة لثلبه وعيبه بالباطل)). (١)

فكيف تكون هذه وجهة نظر (الباقلاني) ، و هو الذى يقول عن (البحترى) : ((حتى أن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح ، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ، ولا يتأتى فيه بشيء ، وإنما اتفق له في مواضع معدودة،خروج يرتضى و تنقل يستحسن)). (٢)

ثم إنه عندما تحدث عن الأدباء و الشعراء إذا أجاد أحدهم في معنى قصر في الآخر ، يقول : ((إن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت و لا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه ، التي يتصرف فيها من ذكر قصص ، و مواعظ و احتجاج .... - و متى تأملت شعر الشاعر البليغ ، رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى ، فإذا جاء الى غيره قصر عنه ، ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم ، لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعه الشعر ، و لا شك في تبريزهم في مذهب النظم ، فاذا كان الاختلال يتأتى في شعرهم ،لاختلاف ما يتصرفون فيه ، ستغنينا عن ذكر من هو دونهم)). (٣)

و في قول (الدكتور عبد الرؤوف مخلوف) حيف على (الباقلاني) و على قصده من تحليل قصيدة لأحد كبار الشعراء ، لأن (الباقلاني) قصد أن الكلام البشرى مهما سما نجد فيه الخلل ، و لا يمكن أن يكون القرآن كذلك ، ولقد ترددت معنى هذه الفكرة في أصداء كتابه المذكور مرات منها ((هيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه ، و أن يكون الليل كالنهار و الباطل كالحق ، و كلام رب العالمين ككلام البشر)). (٤)

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٤ ٤ .

(٢) اعجاز القرآن ص ٣٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٥ .

وكيف يرى الدكتور عبد الرؤوف مخلوف أن طريقة نقد (الباقلاني) هذه لا تدل على بصر بطرائق العرب في استعمالها ، و (الباقلاني) وسّع مفهوم النظم ، ورده إلى جملة أمور عرض لها في كتابه ، جعلها على رأس الموضوعات البلاغية المختلفة التي تستعملها العرب في شعرها ونثرها ، كما رأى في القرآن وحدة ، ونظاما يجعلان منه عملا أدبيا رائعا متكاملا ، ذلك هو اتساق في جملته وائتلاف السورة منه ائتلافا يبين فيه ترابط أجزائها وأن اعجازه لا يتوقف ولا يبين من الصور الجزيئة التي نراها في استعارة أو تشبيه أو كناية ، فإن ذلك مما يمكن أن نراه في كثير من شعر العرب ونثرها ، وأما الذى يستأثر به القرآن ، ولا نجد نظيره في غيره من الكلام ، فهو التحام أجزائه على تباين الموضوعات التي تعرض لها بحيث تطلع كل سورة علينا ، وهي كل متكامل متناسق فيه من جميع صفات العمل الأدبي الرائع يقول : ((أنا لا نجعل الإعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة ، ووقفا عليها ، ومضافا اليها ، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة ، آخذة بحظها من الحسن والبهجة ، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المشْتَشْنَع)) .(١)

كما يقول في موضع آخر : ((وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا)) .(٢)

ويدل على وضوح رأى (الباقلاني) وأنه على غير ما فهمه مخلوف ما ذكره الدكتور (عبد القادر حسين) ((أن بلاغة القرآن الكريم لا تقع بوجه من الوجوه العشرة التي ذكرها لأقسام البلاغة ، فالتشبيه عنده ليس معجزا ولا التجنيس ولا المطابقة ، وإنما الإعجاز للألفاظ ، والنظم والتأليف)) .(٣) أى أن التشبيه عنده ليس معجزا وحده .

---

(١) اعجاز القرآن ص ١١٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٧ .
(٣) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٣٦٤ .

وفي نهاية القرن الرابع أطل امام المعتزله ، قاضي قضاة الدولة البويهية بايران (القاضي عبد الجبار ت ٤١٥ هـ) . له مصنفات عدة ، منها (المغني في أبواب التوحيد والعدل) تحدث فيه عن اعجاز القرآن الكريم ، وما يتصل بالقرآن ، و (نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم) .

وله نظرات ثاقبة في تفسير اعجاز القرآن ، والوجه الذى يقع به ، مستفيدا بآراء من سبقوه ، ومبينا ما غلطوا فيه ، وما اشتبه عليهم منه ، ولقد استهل فصول بيان اعجاز القرآن بما قاله (الجبائي) [1] ، وهو (أستاذ عبد الجبار) يقول :

((قال شيخنا : انما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه ، وحسن معناه ، ولا بد من اعتبار الأمرين ، لأنه لو كان جزل اللفظ ، ركيك المعنى ، لم يعد فصيحا ، فاذن يجب أن يكون جامعا لهذين الأمرين وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص)) .[2]

فقد حصر فصاحة الكلام في جزالة لفظه وحسن معناه ، وهذان العنصران لا بد من توفرهما معا في الكلام الفصيح حتى يكون كذلك ، واذا اختل شيء منها بطل وصفه بالفصاحة .

ثم نفي أن يكون (النظم المخصوص) هو المعول عليه في فصاحة الكلام أو هو الأساس في الاعجاز .

غير أن النظم الذى قصده (الجبائي) ليس هو ما نعرفه من توخي معاني النحو بين الكلمات ، وقد بين ذلك في الجملة التالية ، حتى لا يدع

---

(١) الجبائي : هو أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي . قدم مدينة السلام سنة أربع عشرة وثلثمائة ، وكان ذكيا حسن الفهم ثاقب الفطنة صانعا للكلام ، مقتدرا عليه قيما به وتوفى سنة احدى وعشرين وثلثمائة انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٤٧ .

(٢) المغنى في أبواب التوحيد والعدل ١٦/١٩٧ ط ١ . ١٣٨٠ هـ - =

مجالا للشك في قصده : ((لأن الخطيب عند هم قد يكون أفصح من الشاعر والنظم ، مختلف ، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم وتقع المزية في الفصاحة ، فالمعتبر ما ذكرناه ، لأنه الذى يتبين في كل نظم ، وكل طريقة ، وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء - يسبق إليه ، ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء ، فيساويه في ذلك النظم ، ومن يفضل عليه بفضله في ذلك النظم .

فإن قيل : أليس الفصيح المقدم ، قد يكون مفحما ، لا يمكنه الشعر كما يمكن من هو دونه ، فهلا ظهرت المزيه بطريقة النظم)) .(١)

ومع هذا يمكن القول أن (الجبائي) لم يرد أن يهون من شأن النحو الذى به ترتبط الجمل والكلمات ، وبه تتم المعاني نظرا لأن ذلك اللفظ (نظم) متعارف عليه لدى بيئة الأشاعرة ، ولا اعتقد أن (الجبائي) زهد في النحو ، فليس في كلامه موضع لذلك ، وكذلك لم يأت به بأى شكل يثبته .

وعلى كل حال فإن (الشيخ عبد القاهر) ، قد تناول موضوع النظم وأخذ يناقشه جملة جملة ، فقال :

((إنهم قالوا : إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة : فقولهم (بالضم) لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما ، لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل (ضحك خرج) أن يحدث من ضم (خرج) إلى (ضحك) فصاحة ، وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توخى معنى من معاني النحو فيما بينهما . وقولهم : على طريقة مخصوصة : يوجب ذلك أيضا. وذلك أنه لا يكون للطريقة - إذا أنت أردت مجرد اللفظ - معنى ، وهذا سبيل كل ما قالوه إذا أنت تأملته

= مطبعة دار الكتب تقويم نصه / امين الخولي .

(١) المغنى في ابواب التوحيد ص ١٩٧

تراهم ، في الجميع قد دفعوا إلى جعل المزيه في معاني النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا ، ذلك لأنه أمر ضروري لا يمكن الخروج منه)). (١)

(فالشيخ عبد القاهر) يرى في قول القائل بالضم على طريقة مخصوصة كلامافيه نقص ، فلم يأت تعريفهم للنظم بالمفهوم الصحيح الكامل. إذ لا بد أن يراعى في الضم قواعد النحو ، ولا بد كذلك من مراعاة المعنى بين الألفاظ .

فإن كان قولهم ، لابد من ضم الألفاظ بعضها إلى بعض هو مؤشرات نظرية النظم ، إلا أن أهم عناصرها وهو توخي معاني النحو وأحكامه لم يكن بارزا في تلك الأقوال ، بل لم تكن تلك الصورة واضحة أمامهم .

ولقد اعترض على فكرة (الشيخ عبد القاهر) هذه الدكتور (أحمد عبد السيد الصاوى) حيث يقول :

((ومن هذا (فعبد القاهر) يحمل على (عبد الجبار) ، ويرى أنه دفع إلى معرفة النظم ، ومعاني النحو دون أن يشعر به ، وهو كلام يدعو إلى التساؤل ، فهل يضع اى مبتكر نظرية دون أن يشعر بها ؟ وأخيرا لنا أن نقول : كان يكفي (عبد القاهر) ان يعترف بفضل عبد الجبار في وضعه نظريته ، ويرجع الفضل في تحليلها وتفسيرها تحليلا دقيقا لنفسه ، بحيث أصبح فعلا صاحبها الذى صورها وطبق عليها ، واستخرج على أساسها (علم المعاني) المعروف بين علوم العربية)). (٢)

وإني أجد (الدكتور الصاوى) محقا فيما ذكره عن (الشيخ عبد القاهر) ذلك أن(عبد الجبار)قد وضحت له علاقة اللفظ بالمعنى ، ودور النحو في تأدية المعنى المطلوب والذى يقتضيه المقام ، وذلك يتضح في متابعة

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٢) النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني / دراسة مقارنة ص ٩٧ ، ط ٢ ١٩٨٢م .

أفكار (عبد الجبار) .

و مع هذا فإن (عبد الجبار) لم يسر على منوال أستاذه (أبي هاشم الجبائي) فما علق به (الدكتور شوقي ضيف) من ((أن عبد الجبار إنما قصد في رد فكرة النظم (الباقلاني) وأضرابه من الأشعرية الذين كانوا يذهبون مذهبه ، وكأنه هو والجبائي يقفان مع الرماني في محاولته بسط بلاغة الألفاظ ، والمعاني وتبيين وجوهها)) .[1]

و في الواقع أنه في تعليقه هذا لا يتفق مع ما قاله بعد قليل من أن ((عبد الجبار يودع بين أيدينا الآن مفاتيح النظم التي استمد (عبد القاهر) من توقيعه عليها كتابه ((دلائل الاعجاز)) .[2]

و الواقع أننا نجد في تعريف الفصاحة لدى (عبد الجبار) مؤشرات إلى نظرية النظم حيث فسر الفصاحة بقوله :

((إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواصفة التي تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذى به مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع)) .[3]

هذا هو عين تعريف (عبد القاهر) للنظم . حيث ذكر (عبد الجبار) أن لا فصاحة ، ولا نظم في الكلام إلا إذا ضمت الكلمات بعضها إلى بعض ، وشرط الضم أن يكون على طريقة معينة ، وحدد هذه الطريقة بأنها عبارة عن معاني النحو .

و مع هذا فإنه لا بد لهذه الكلمات أن تكون ذات هيئة معينة ((لأنه قد يكون لها عند الإنضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها)).[3]

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٦ ط ٤ دار المعارف .
(٢) المرجع نفسه ص ١١٧ .
(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل ص ١٩٩ .

ثم أخذ في بيان العنصر الثاني ، وهو حسن المعنى ، ذلك أنه يرى أهمية المعنى في علو شأن اللفظ ، ولكن ظهور المزية وبيان الفصاحة يتم به ولأجله ، يقول : ((إن المعاني وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية ، وإن كانت تظهر في الكلام لأجلها)) .(١)

يقول في هذا (الشيخ عبد القاهر) : ((واعلم أنهم لم يعيبوا تقديم الكلام بمعناه ، من حيث جهلوا أن المعنى إذا كان أدبا أو حكمة ، وكان غريبا نادرا ، فهو أشرف مما ليس كذلك ، بل عابوه من حيث كان من حكم من قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص ، أن لا يعتبر في قضيته تلك . إلا الأوصاف التي تخص ذلك الجنس ، وترجع إلى حقيقته ، وأن لا ينظر فيها إلى جنس آخر ، وإن كان من الأول بسبيل ، أو متصلا به اتصال مالا ينفك منه)) .(٢)

ثم تحدث (القاضي عبد الجبار) عن شأن المفردات في الجملة ، وفصاحتها ((ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره)) .(٣)

وهذا المعنى قد أخذه (الشيخ عبد القاهر) ،واستشهد له بعدة أبيات من الشعر ، بعد أن شرحه قائلا : ((ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك ، وتوحشك في موضع آخر ، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة : (٤)

تلفت نحو الحي حتى وجدتني
وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

---

(١) المغنى في أبواب التوحيد والعدل ص ١٩٩ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٥٥ . (٣) المغنى ١٦/ ٢٠٠ .

(٤) البيت للصمه القشيرى . . وهو من الطويل . انظر معجم شواهد العربية ص ٢١٠ .

وبيت البحتري :

وإني وإن بلغتني شرف الغنى
وأعتقت من رق المطامع أخدعي (١)

فإن لها في هذين المكانين مالا يخفى من الحسن ، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد | أضججت هذه الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ماوجدت هناك من الروح والخفة ، والإيناس والبهجة)) . (٢)

ويشير (عبد الجبار) إلى دور النحو في تغيير معنى الجملة إذا تغير اعرابها ، مما يؤدي إلى التفاوت في بلاغة الكلام ، يقول : ((ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى أفصح منها إذا استعملت في غيره وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها ، وكذلك القول في جملة من الكلام)) . (٣)

وهو ما ترددت أصداؤه في ثنايا دلائل الاعجاز ، حيث استشهد لذلك بآي القرآن الكريم ، ليوضح فكرته والتي هي (نظرية النظم ، يقول : ((وهل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها)). (٤)

وأخيرا أختتم آراء (عبد الجبار) برأيه في إعجاز القرآن ، يقول : ((واعلم أن التحدي ، وإن كان قد يصح بقدر من الفصاحة والبلاغة ، فمتى اختص

---

(١) البيت من الطويل . انظر معجم شواهد العربية ص ٢٣٠ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٩٠ - ٩١ . والبيت من البسيط .
(٣) المغني ١٦ / ٢٠٠ .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٨٨ .

ماله قدر عظيم في الفصاحة بطريقة من النظم خارجة عن العادة ، يكون وجه الإعجاز فيه أظهر وأبين ، وظهور عجز الغير عنه أكشف ، فلما كان الأمر كذلك أجرى الله تعالى حال القرآن على مثله ليكون وجه الاعجاز فيه أبين ، فخصه الله تعالى بطريقة خارجة عن نظمهم ونثرهم ، وبقدر من الرتبة في الفصاحة خارج عن عادتهم ، فلذلك اشتبهت الحال فظن بعضهم أن وجه الإعجاز يرجع إلى النظم ، وبعضهم : أنه يرجع إلى قدر الفصاحة ، في أنها لو انفردت لكان معجزا مخالفا لمرتبته في طريقة النظم ، لأنها لو عريت عن الرتبة المخصوصة في الفصاحة لم يكن معجزا وان كان ذلك مقويا لحاله ومؤكدا لأمره كما نعلم أن حسن المعنى يؤكد كون الكلام الفصيح معجزا ، وإن كان لو انفردت لم يختص لهذه الصفة فإن قال : أليس من يتمكن من الشعر يتبين ممن لا يتمكن منه ، وإن كان فصيحا في نثر الكلام فالمزية قد ظهرت بالنظم وإن انفرد)) .(١)

ويقول في موضع آخر : ((ولهذه الجملة جعلنا الطريقة الخارجة عن العادة في النظم مؤكدة لكونه معجزا ، إذا كان له رتبة عظيمة في الفصاحة)) .(٢)

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ١٦ / ٢٢٥ .

المبحث الثالث

المناظرة بين متى بن يونس وأبي سعيد السيرافي

إن فكرة عبد القاهر في اعجاز القرآن ، وفي الكلام البليغ ، تنهض على أساس فكرة النظم ، ومعنى النظم عنده تعلق الكلم بعضها ببعض مرتبطة بواسطة معاني النحو ، وهذه الفكرة ليست مستحدثة ، بل لقد سبق بها (عبد القاهر) أى أنه لم يكن مخترعا لها ، ولا موجدها من العدم ، اذ وجدت شذرات هنا وهناك في بعض كتب من سبقوه ، فوسعها وبسط القول فيها ، ومن تلك الآثار التي استفاد منها عبد القاهر ، ما ظهر من الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات ، وتعصب اليونان للغتهم وثقافتهم ، ويظهر ذلك واضحا جليا في الصراع الذى نشب بين الحسن بن عبد الله المرزباني المعروف بالسيرافي، (١) وبين أبي بشر متى بن يونس . (٢)

---

(١) أبو سعيد السيرافي: هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان وأصله من فارس مولده بسيراف ، وفيها ابتدأ بطلب العلم وخرج عنها قبل العشرين ومضى إلى عمان ، وتفقه بها ثم عاد إلى سيراف ، كان فقيهاً على مذهب العلماء العراقيين . توفي في رجب لليلتين خلتا منه سنة ثمان وستين وثلثمائة في خلافة الطائع [أنظر الفهرست لابن النديم ص ٩٣] ، كان مفتيها في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة ، كما كان زاهدا ورعا لم يأخذ على الحكم أجراً ، له كتب كثيرة ، منها الوقف والإبتداء، المدخل الى كتاب سيبويه، صنعه الشعر والبلاغة .

(٢) ابو بشر متى بن يونس (يونانى) لقنائى من أهل دير قنى أو دير القديس مر مارى على بعد سبعة عشر فرسخاً إلى الجنوب من بغداد ، حصل على ثقافته العلمية في المدرسة المشهورة لذلك الدير ، وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره ، وتوفى ببغداد في التاسع عشر من رمضان سنة ٣٢٨ هـ . ومن تلاميذه : أبو زكريا يحيى بن عدى المنطقي التكريتى كان نصرانيا يعقوبي النحلة ، وقرأ على أبي بشر ، توفي سنة ٣٦٣ هـ أنظر الفهرست ص ٣٦٨ انظر تاريخ الأدب لكارول بروكلمان حـ ٤ / ١١٩، ١٢٠ .

وكان موضوع هذه المناظرة دفاع (أبي سعيد السيرافي) عن النحو العربي ، وانتصار (متى) للمنطق اليوناني .

وقد كان رأى (أبي سعيد) : أن مقياس الكلام هو معرفة الإعراب ، والوقوف على دقائقه ولطائفه ، ومعانيه ، ((لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف)) [1] .

هذا هو الميزان الذى به يعرف مقدار صحة الكلام من خطئه ، فهو انما يكون بمعرفة النحو وقوانينه ، وتطبيقها على الكلام ، وذات هذا المعنى قد (صاغه (عبد القاهر) بأسلوبه قائلاً :

((ذاك لأنهم لا يجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه ، إذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها)). [2]

وهذا يعنى أن المعاني والألفاظ ذات أهمية بالغة في التعبير عن خوالج النفوس إلا أنها تبقى كالدرة في صدفها لا يفتحها ولا يستخرج كنزها الا النحو ، الذى يفتح أبواب المعاني المغلقة .

وإن كان المنطق الذى تباهى به (متى) وسائر اليونانيين ، يعتمد على العقل في استخلاص النتائج ومعرفة المعاني ، وبالتالي فإنهم يزهدون في النحو ومعرفة أحكامه ، لأنه لا حاجة بهم إلى تلك المعارف ، فإن (أبا سعيد) امتحن (متى) بإستخراج معاني (الواو) من ناحية منطق أرسطو ، فبهت متى ، وما كان منه إلا أن قال : ((هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ، لأن لا حاجة بالمنطق إليه ، وبالنحوى حاجة شديدة إلى المنطق)). [3]

يقول (السيرافي) :

((أسألك عن حرف واحد ، وهو دائر في كلام العرب ومعانيه متميزة عند

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٠٩ . دار احياء التراث العربي – بيروت .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٧٥ .

(٣) الامتاع والمؤانسة ١ / ١١٤ .

أهل العقل ، فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق ارسطاطاليس الذى تُدل به ، وتباهى بتفخيمه ، وهو الواو ، ما أحكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هو على وجه واحد أو وجوه ؟ فبهت متى ، وقال ، هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطق إليه ، وبالنحوى حاجة شديدة إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى ، والنحو يبحث عن اللفظ ، فإذا مر المنطق باللفظ فبالعرض ، وإن عثر النحوى بالمعنى فبالعرض)) .(١)

فقام (ابو سعيد) بالرد على تلك المغالطة ، فردها بحجج مقنعة بهت منها (متى) فقال هذا نحو ، والمنطق ليس به حاجة إلى النحو .

(وعبد القاهر الجرجاني) أيضا يرد على (متى) ، وعلى كل من زهد في النحو وجهل أو انكر أهميته يقول عن أهمية النحو :

((إنه المعيار الذى لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم ، حتى يرجع اليه ، ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسه ، وإلا من غالط في الحقائق نفسه ، وإذا كان الأمر كذلك فليت شعرى ، ما عذر من تهاون به ، وزهد فيه ، ولم ير أن يستقيه من مصبه ، ويأخذه من معدنه ، ورضى لنفسه بالنقص ، والكمال لها معرض ، وآثر الغبينة ، وهو يجد إلى الربح سبيلا)) .(٢)

وكذلك ممن أشاد بعلم النحو قبل (عبد القاهر الجرجانى) (ابن فارس) حيث يقول : ((فأما الإعراب فبه تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين ، وذلك أن قائلا لو قال (ما أحسن زيد) غير معرب أو (ضرب عمر زيد) غير معرب - لم يوقف على مراده . فاذا قال : (ما أحسنَ زيدا) أو (ما أحسنُ زيدٍ) أو (ما أحسنَ زيدٌ) أبان بالإعراب عن المعنى الذى أراده .

وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها : فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني)) .(٣)

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١/١٠٩ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٧٥ .

(٣) الصاحبي / لابن الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ص ٣٠٩ ، ت / السيد أحمد صقر / مطبعة عيسى البابي .

فقول (ابن فارس) هذا فيه وضحت أهمية علم النحو للتفريق بين معاني العبارات وبين المعاني . كما وضح أن النحو علم انفردت بأهميته اللغة العربية .

ولقد شغلت قضية اللفظ والمعنى (متى بن يونس) مثل غيره ، ورد عليه (أبوسعيد) ، كما فعل جل العلماء . يقول (متى) :

((والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى .

فقال (أبو سعيد) : أخطأت ، لأن الكلام والنطق واللغة واللفظ والافصاح والاعراب والابانة والحديث والاخبار والاستخبار والعرض والتمني والنهي والحض والدعاء والنداء والطلب كلها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة ، ألا ترى أن رجلا لو قال : نطق زيد بالحق ولكن ما تكلم بالحق ، وتكلم بالفحش ولكن ما قال الفحش ، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح ، وأبان ولكن ما أوضح ، أو فاه بحاجته ولكن ما لفظ ، أو أخبر ولكن ما أنبأ لكان في جميع هذا محرفا ومناقضا وواضعا للكلام في غير حقه ، ومستعملا اللفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره)) [(٢)] .

فعندما فضل (متى) المعنى ، وجعل له خالص المزية على اللفظ استنكر ذلك (أبو سعيد السيرافي) ، ومثل له ببعض أمثلة خلص منها الى أنه مناقض وواضع للكلام في غير موضعه ، وأن سوء استعمال اللفظ أدى الى افساد المعنى أى أنه ينفي أن تلصق المزية بالمعنى دون اللفظ ، وهو المعنى الذى قال به (عبد القاهر الجرجاني) ورد ه في ثنايا كتابه الدلائل قائلا : ((واعلم أن الداء الدوى ، والذى أعي أمره في هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ ، وجعل لا يعطيه من المزية ان هو أعطى الا ما فضل عن المعنى يقول ما في اللفظ لولا المعنى ، وهل الكلام الا بمعناه ؟ فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون أودع حكمة وأدبا ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر)) [(٢)] .

ولقد تعددت طرق الطعن على أهمية علم النحو ومعرفة طرقه وسبله ، وتلك حجج الضعيف ، يقول (متى) في دفاعه الواهي عن نفسه وعن آرائه السقيمة في الموازنة بين النحو والمنطق :

((يكفيني من لغتكم هذه ، الاسم والفعل والحرف ، فاني اتبلغ القدر الى

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١ / ١٤٤ . (٢) دلائل الاعجاز ص ٢٥٣ .

أغراض قد هذبتها لي يونان)) . (١)

حيث يرى أن النحو عبارة عن معرفة أقسام الكلمة ، وغير ذلك ليس مهما ، و هذا الرأي خطل واضح بين كما قال (أبو سعيد) :

((أخطأت ، لأنك في هذا الاسم و الفعل و الحرف ، فقير إلى وضعها و بنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها ، و كذلك أنت محتاج بعد هذا الى حركات هذه الأسماء و الأفعال و الحروف)) (١) .

و كذلك يقول (الشيخ عبد القاهر) زاريا على كل من يرى علم النحو : ((ضربا من التكلف و بابا من التعسف ، و شيئا لا يستند إلى أصل ، و لا يعتمد فيه على عقل ، و أن ما زاد فيه على معرفة الرفع و النصب و ما يتصل بذلك مما تجده في المبادئ ، فهو فضل لا يجدي نفعا ، و لا تحصل منه على فائدة)) . (٢)

و أهمية التقديم و التأخير في شأن بلاغة الكلام ليست أقل شأنا ، من أهمية قضايا النحو ، بل لكل منهما فضل كبير في الكلام البليغ ، يقول (أبو سعيد السيرافي) :

((معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ و سكناته ، و بين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، و بين تأليف الكلام بالتقديم و التأخير ، و توخي الصواب في ذلك و تجنب الخطأ من ذلك)) . (٣)

و كما هو الملاحظ على الجهد الشاق ، و البحث المضني الذى بذله (عبد القاهر) في جمع شتات أفكار و عناصر نظرية النظم ، نقدر مدى عبقرية هذا الامام الجليل الذى دقق النظر و البحث فيما بين السطور ، إذ يقول :

((و أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني ، و ترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس)) . (٤)

---

(١) الامتاع و المؤانسة ١ / ١١٥ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٥٦ .
(٣) الامتاع و المؤانسة ١ / ١٢١ .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٩٣ .

وهذا العنصر الأساسي في نظرية النظم لدى(عبد القاهر)، قد طرقه (أبو سعيد السيرافي)في مناظرته مع(متّى)، إذ يقول :

((وإذا قال لك آخر : كن نحويا لغويا فصيحا ، فإنما يريد : افهم عن نفسك ما تقول)) (١) .

ويقصدون من ذلك أن على المتكلم أن يرتب المعنى في نفسه ثم يرتبه بعد ذلك في النطق .

ومن ثم لا بد لتمام آلة الكلام البليغ من أن يؤدى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، ولا بد كذلك من أن يختار اللفظ المناسب للمعنى،ليؤدى المطلوب من المتكلم فيقول(أبو سعيد)في وصفه لهذا الكلام ((وقدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه ، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه ، هذا إذا كنت في تحقيق شيء على ما هو به)) .(٢)

وهو المعنى الذى ترددت معانيه لدى (الشيخ عبد القاهر) يقول : ((ولا جهة لاستعمال هذه الخصال : غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هو أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له ،وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزيه)) .(٣)

وهناك تطبيقات نحوية على تلك النظرية ، وذلك عندما يذكر(ابو سعيد) بعض استعمالات الواو المختلفة ومنها ((أن تكون مقحمة ، نحو قول الله عز وجل : (فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه) (٤) أى ناديناه .

ومثله قول الشاعر: (فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى) ، والمعنى انتحى بنا)) (٥)

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١ / ١٢٥ .
(٢) الامتاع والمؤانسة ١ / ١٢٥ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٨٧ .
(٤) سورة الصافات آية ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٥) الامتاع والمؤانسة ١ / ١١٨ .
وتمام البيت : بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل) من الطويل وهو لامرئ القيس . من شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٩ ط.دار بيروت ١٣٨٩ هـ .

قال (السيرافى) : ((ومنها معنى الحال في قوله عز وجل (ويكلم الناس في المهد وكهلا) [١] أى يكلم الناس في حال كهولته)).[٢]

كما فرق (السيرافى) بعد ذلك بين : (زيد أفضل الأخوة) (وزيد أفضل إخوته) وقال ان التعبير الأول صحيح والثاني غير صحيح .

وقضية اللفظ والمعنى من الأهمية بمكان ، حيث لا يغفلها أى باحث في موضوعات البلاغة ، ولا يمكن أن تذهب عن (السيرافى) قضية كهذه ، لأنه يدافع عن مبدأ النحاة ، وعن نظرتهم إلى بلاغة الكلام البليغ والمعجز ، يقول وقد عاب على (متّى) قوله : ((إن النحوى إنما ينظر في اللفظ دون المعنى ، والمنطقي ينظر في المعنى لا في اللفظ)).

فهذا التقرير والنقد لآراء (متى) إنما يحمل في طياته اهتمامه بقضية اللفظ والمعنى ، كغيره من العلماء الذين ما فتئوا يزودون كتب البلاغة بمختلف الآراء مصحوبة بالشواهد والأمثلة ، قائلا :

((أما تعرف أن الكلام اسم واقع على أشياء قد ائتلفت بمراتب ، وتقول بالمثل ((مثال ذلك أن تقول هذا ثوب))، والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوبا ، لأنه نسج بعد غزل ، فسداته لا تكفى دون لُحمته ، ولُحمته لا تكفي دون سداته ، ثم تأليفه كنسجه ، وبلاغته كقصارته ، ورقة سلكه كرقة لفظه وغلظ غزله ككثافة حروفه ، ومجموع هذا كله ثوب ، ولكن بعد تقدمه كل ما يحتاج إليه فيه)) .

وتبدو أهمية النحو في نظم الكلام البليغ الذى تفوق به العرب على سائر أصحاب اللغات واللهجات .

والجدير بالذكر أن بعض الباحثين المحدثين اعتبر ما جاء في هذه المناظرة اساسا لنظرية (النظم) عند (عبد القاهر) ومن هؤلاء الدكتور (إبراهيم سلامة)

---

(١) سورة آل عمران آيه ٤٦ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ١ / ١١٨ .

الذى رأى تأثر (عبد القاهر) بالمنطق اليوناني لأن المنطق يخضع للعقل و (عبد القاهر) وإن كان يميل إلى الذوق وإلى الطبع في تحليل المعاني الأدبية إلا أنه أخضعها للعقل متأثراً بأرسطو ، يقول :

((وعبد القاهر وإن كان يستسيغ المعاني الادبية الا أنه كثيرا ما يخضعها للمعاني العقلية التي تأثر بها المناطقة ، كما تأثربها الكثير غيره من النحاة)) (١)

فهذا الدكتور (إبراهيم سلامة) يدل بعد حديث طويل على أن (عبد القاهر) متأثر بتلك المناقشة أو الحوار العلمى بين (متى بن يونس) و(أبي سعيد السيرافى) فقد بين ذلك وأيده بأدلة ليس فيها كبير اقناع بل اهتم بأن المنطق أساسه العقل ، وطريقة (الشيخ عبد القاهر) مرجعها العقل فكان (العقل) إذاً هو نقطة التقائهما .

وهذا في الواقع دليل ليس كافيا للحكم على أدب أمة ونتائج تفكير وبحث طويل . (٢)

وكذلك الدكتور (بدوى طبانه) الذى رأى أن (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) قد اعتمد في (نظرية النظم) على ما انتجه اليونانيون، كما استفاد من تلك المناظرة : يقول :

((والواقع أن هذه الفكرة لم يكن (عبد القاهر) مخترعا لها ، وإن كان هو الذى بسط فيها القول ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه)) (٣) .

فلم يكن (عبد القاهر) مخترعا ومبتدعا (لنظرية النظم) ، فهذا صحيح ولكن الواقع أنه استفاد مما قدمه الأوائل مما ساعده على وضع أصول هذه النظرية واستخلاص نتائجها . ولكن الدكتور (بدوى طبانه) رأى أنه اعتمد على السابقين من جراء الصراع الذى نتج عن امتزاج الثقافات يقول :

---

(١) بلاغة أرسطو ص ٣٥٩ .
(٢) انظر بلاغة أرسطو . ابراهيم سلامة . ص ٣٥٢ الى ٣٦٠ .
(٣) البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى ط ٦ / ص ٢٢١ مكتبة الأنجلو المصرية .

((وظهرت هذه الفكرة واضحة جلية في الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات، وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم، ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ، ومنها الثقافة النحوية)) (١) .

والواقع أن مقدمات نظرية النظم قد سبقت ذلك الامتزاج بكثير فقد بينت في مستهل هذا الفصل أثر(الخليل) و(سيبويه). كما بينت في فصول أخرى ترقى الفكر العربي في استنباط المعاني وما وراءها عندما أخذ القراء في تفسير القرآن الكريم أمثال : قتادة ومجاهد . الذين كانت لهما آراء مبدئية في المجاز . وهو من أعظم فنون البلاغة العربية . وهكذا فلم تكن تلك المناظرة ولا ذاك التراث كله ذا أثر في أساس بلاغتنا العربية .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٢١ .

الملحــــق

نموذج للخلاف بين العلمــاء على قضيــة اللفـــظ والمعـــني

يقول الشاعـــر :[1]

ولما قضينامن منى كل حاجــــة

ومسّح بالأركان من هو ماســـح

وشدت على حدب المهارى رحالنا[2]

ولا ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـــا

وسالت بأعناق المطيّ الأباطـــح

ويعتبر (ابن قتيبة) من أوائل الذين افتتحوا القول في هذه الأبيـات حيث استشهد بها على الضرب الذى حسن لفظه وحلا ، وخلا من المعنى الذى به الفائدة يقول :

((وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائـدة في المعنى .

هذه الألفاظ كما ترى ، أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظـرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركـان وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فـي الحديث ، وسارت المطى في الأبطح))[3].

---

(١) قائل هذه الأبيات يزيد بن الطثرية ، والطثرية أمه . قتلته بنو حنيفـــة يوم الفلج ، كما في الشعر والشعراء / طبقات لابن قتيبة ص ٩٩ ، ط ١ / بيروت وتنسب كذلك : لكثير عزة ، والابيات من الطويل .

(٢) الحدب : خروج الظهر ودخول البطن ، انظر القاموس المحيط ١ / ٥٤ ، ٥٥ باب الباء فصل الحاء .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٦٦ ، ٦٧ .

والملاحظ أن (ابن قتيبة) يستهين كثيرا بمعاني هذه الأبيات التي ترددت في كتب السابقين عليه ، وفي كتب من أتوا بعده ، وأشاد (عبد القاهر) بها ورد على من استهان بها .

أما (ابن طباطبا العلوى ت ٣٢٢هـ) فيقول :

((فأما قول القائل :

ولما قضينا من منى كلّ حاجـــة	ومسّح بالأركان من هو ماسـح
وشدت على حدب المهارى رحالنا	ولا ينظر الغادى الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـــا	وسالت بأعناق المطي الأباطـح

هذا الشعر هو استشعار قائله لفرحة قفوله الى بلده ، وسروره بالحاجة التي وصفها من قضاء حجه وأنسه برفقائه ، ومحادثتهم ووصفه سيل الأباطح بأعناق المطي كما تسيل بالمياه فهو معنى مستوفى على قدر مراد الشاعر))(١)

كما عرض لهذه الأبيات (قدامة بن جعفر ت ٣٢٧هـ) في نعت اللفظ وذلك عندما وصف اللفظ بصفات منها سهولة المخارج مع فصاحة وخلو من البشاعة فقد استشهد بعدة أبيات منها هذه الأبيات ، حيث يقول :

((أن يكون سمحا ، سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، مثل أشعار يؤخذ فيها ذلك وإن خلت من سائر النعوت للشعر))(٢) .

ولم يزد (أبو علي القالي ت ٣٥٦هـ) على ما ذكره السابقون غير شرح لبعض مفرداتهـــا .

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ص ٨٨ ط ١ بيروت ١٤٠٢هـ .

(٢) نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ص ٧٤ ، ط ١ ، ١٣٩٩هـ .

((وأنشد أبو العباس :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح
(1)
أطراف الأحاديث ما يستظرف منها ويؤثر)).

أى أن هذه الأبيات لم تأخذ حقها الا عند (ابن جني) الذى أفاض في استنباط أنواع الجمال في هذا الشعر ، والتدليل على أن الجمال ليس في المعنى وحده ، بل جمال اللفظ وحسن تنضيده هو الذى رفع هذه الأبيات لأرقى منزلة حيث يقول :

((فإن قلت : فإنا نجد من ألفاظهم ما قد نمقوه ، وزخرفوه ، ووشوه ، ودبجوه ، ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفا ، بل لا تجد قصدا (2) ولا مقاربا ، ألا ترى إلى قوله :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

فقد ترى الى علو اللفظ ومائه وصقاله وتلاهم أنحائه.

ومعناه مع هذا ما تحسه وتراه : انما هو ، لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين ، وتحدثنا على ظهور الابل ، ولهذا نظائر كثيرة ، شريفة الألفاظ رفيعتها ، مشروفة المعاني خفيضتها ، قيل :

هذا الموضع قد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه ، ولا أرى ما أراه

---

(1) ذيل الامالي والنوادر . ص ١٦٦ دار الكتاب العربي - بيروت .
(2) قصدا : القصد : استقامة الطريق . انظر القاموس المحيط ١ / ٣٣٩ باب الدال فصل القاف .

القوم منـــه ٠)) .[1]

(فابن جني) يرى أن هذه الألفاظ المنمقة تحمل أيضا كنزا من المعاني التي يطول نثرها ، ولكن جودة الصياغة وحسن اختيار الألفاظ ، أكسبها منزلة عالية ، فاختصرها في تلك الأبيات القليلة .

ولكن هناك من جفا طبعه ، فخفى عليه تدبر دقائق المعاني يقول :

((وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر ، وخفاء غرض الناطق ، وذلك أن في قوله : (كل حاجة)[2] مايفيد منه أهل النسيب والرقة ، وذوو الأهواء والمقه مالا يفيده غيرهم ، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم . ألا ترى أن من حوائج (منى) أشياء كثيرة غير ما الظاهر عليه ، والمعتاد فيه سواها ، لأن منها التلاقي ومنها التشاكي ، ومنها التخلي إلى غير ذلك مما هو تال له ، ومعقود الكون به ، وكأنه صانع عن هذا الموضع الذى أومأ إليه ، وعقد غرضه عليه ، بقوله آخر البيت :

((ومسح بالأركان من هو ماسح)) .

أى إنما كانت حوائجنا التي قضيناها ، وآرابنا التي أنضيناها ، من هذا النحو الذى هو مسح الأركان ، وما هو لاحق به ، وجار في القربة من الله مجراها ، أى لم يتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح)) .[3]

---

(١) الخصائص : ١ / ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٢) المقه : النعت أمقه ومقهاء . والأمقه العبيد ، والمكان لا ينبت فيه من شجر . القاموس المحيط جـ ٤ / ص ٢٩٤ فصل الميم باب الهاء .

(٣) الخصائص ١ / ٢١٨ ، ٢١٩ .

فهذه مناسك الحج وما يقوم به الحجيج من أداء أعمال توجبها هذه المناسبة قد عبر عنها بطلاوة ورقة وعذوبة .

ونفذ من هذا البيت إلى نهاية مطاف الحجيج ، فوصف مشاعر الراحة والأنس التي تعترى هذه النفوس بعد أداء تلك المناسك وأثناء عودتهم إلى منازلهم ، فدارت الأحاديث اللطيفة ، لقطع المسافة في المحاورات والمحادثات وأوقات ملؤها الطمأنينة . يقول في ذلك :

((وأما البيت الثاني فإن فيه :

((أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا))

وفي هذا ما أذكره لتراه فتعجب ممن عجب منه ، ووضع من معناه ، وذلك أنه لوقال : أخذنا في أحاديثنا ، ونحو ذلك لكان فيه معنى يكبره أهل النسيب وتعنو له ميعة الماضي الصليب ، وذلك أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الأليفين والفكاهة بجمع شمل المتواصلين - ألا ترى إلى قول الهذلي :

وإنَّ حديثا منك لو تعلمينه جني النحل في ألبان عوذ مطافل[1]

وقال آخر :

وحديثها كالغيث يسمعه راعي سنين تتابعت جذبا[2]
فأصاخ يرجو أن يكون حيًّا ويقول من فرح هيا ربّا

الأبيات الثلاثة ، فإذا كان قدر الحديث مرسلا عندهم هذا ، على ما ترى ، فكيف به إذا قيده بقوله ((بأطراف الأحاديث)) ، وذلك أن في قوله : (أطراف الأحاديث) وحيا خفيا ، ورمزا حلوا ، ألا ترى أنه يريد

---

(١) البيت من الطويل وهو لأبي ذؤيب الهذلي ، وكان شاعرا فحلا لا غميزة فيه ولا وهن . وقد عدّه ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية . انظر طبقات فحول الشعراء ١٣١/١ .

(٢) الأبيات غير منسوبة وهي من الكامل ونسبت إلى الراعي .

بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ، ويتفاوضه ، ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح ، والإيماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأدمث وأغزل وأنسب أن يكون مشافهة وكشفا ومصارحة وجهرا ، وإذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم ، وأشد تقدما في نفوسهم من لفظهما ، وإن عذب موقعه ، وأنق له مستمعه . نعم ، وفي قوله :

((وسالت بأعناق المطي الأباطح))

من الفصاحة مالا خفاء به ، والأمر في هذا أيسر وأعرف وأشهر ، فكأن العرب إنما تحلى ألفاظها وتدبجها وتشيها ، وتزخرفها عناية بالمعاني التي وراءها ، وتوصلا بها إلى إدراك مطالبها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من الشعر لحكما ، وإن من البيان لسحرا)(١) . فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصايد وشراكا للقلوب ، وسببا وسلما إلى تحصيل المطلوب وعرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعاني ، والمخدوم لا شك أشرف من الخادم))(٢).

(ولأبي هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ) :

رأيه في تمييز جيد الكلام من رديئه ، ونادره من بارده ، حيث أن المعاني لديه ليس لها ذاك النصيب من العناية والدربة ، وإنما اختيار اللفظ المناسب وجودة السبك وحسن الرصف ، وهو لم يزد على ذلك تفصيلا وشرحا ، فكيف يكون الكلام المرصوف الجيد ، أو المسبوك المحبوك ، ولقد ضرب أمثلة عدة للشعر الجيد السبك المشيد المباني ، ولكن لم يشرح فيها أكثر من ذلك .

يقول :

((الكلام أيدك الله ، يحسن بسلاسته وسهولته ، ونصاعته وتخير ألفاظه وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل

---

(١) الخصائص ١/٢١٩ ، ٢٢٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٠ .

أطرافه ، وتشبه أعجازه بهواديه. وموافقة مآخيره لمباديه ، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلا ، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه .

فإذا كان الكلام كذلك ، كان القبول حقيقيا ، وبالتحفظ خليقا))[1].

ولقد تميز طبعه بأنه ليس من زواد المعاني وليس من طالبيها لأنه لو كان مدار الأمر على المعنى لطرحوا أكثر التكلف والعناء ، وربحوا كثيرا من عرض مختلف المعاني ، يقول : ((ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدا كثيرا ، وأسقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا))[2] .

ولقد عرض لنفس المثال الذى تحدث عنه (ابن قتيبة) بإفاضة ، ولم يزد عليها (أبو هلال) غير تعليق يسير إذ يقول :

((ودليل آخر . . أن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ، وسلسا سهلا ، ومعناه وسطا ، دخل في جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر ، كقول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح

---

(١) الصناعتين لأبي هلال ص ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣ .

وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ، وهي رائقة معجبة ، وإنما هي :

ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان وشدت رحالنا على مهازيل الابل ولم ينظر بعضنا بعضا ، جعلنا نتحدث وتسير بنا الابل في بطون الأودية)) (١) .

وعلى ما نالته هذه الأبيات من عدم الإشادة بالمعانى لدى (أبي هلال) وغيره حظيت لدى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) بالدرس والشرح والتفصيل الذى بنى أساسه على من سبقه ، ولقد استشهد بهذه الأبيات ، وشرح لنا مكامن جودتها ، وبين أن غيره استحسن ماءهنا وطلاوتها من غير أن يبين جهة دماثتها . يقول :

((انظر إلى الأشعار التي أثنوا عليها من جهة الألفاظ ، ووصفوها بالسلاسة ، ونسبوها الى الدماثة ، وقالوا كأنها الماء جريانا والهواء لطفا)) (٢) .

تلك الأوصاف المتعددة التي نقلها عن غيره ، لم تبين الوجه الصحيح للجودة لذا فقد أخذ يشرح مواطن جمال هذه الأبيات القليلة ، وما حوته من معان كثيرة ، ومن استعارة قد أدت دورها في إبراز المعنى .

يقول (الشيخ عبد القاهر) :

((راجع فكرتك واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ، ودع عنك التجوز في الرأى ، ثم انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفا ، إلا إلى استعارة وقعت موقعها وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى السمع)) (٣) .

---

(١) الصناعتين لأبي هلال ص ٧٣ ، ٧٤ .
(٢) أسرار البلاغة ص ١٥ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٦ .

ولم تكن جودة تلك الأبيات عائدة إلى ذات اللفظ ، لأنه لو كان الأمر كذلك لكان لكل كلمة منفردة ، ومنفصلة عن البيت من الشأن والعلو ما للبيت من الجودة ، وهو نفس المعنى الذى عبّر عنه (أبو هلال العسكرى) حين قال :

((ودليل آخر ... أن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا ، وسلسا سهلا ومعناه وسطا ، دخل في جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر))(١) .

يقول (الشيخ عبد القاهر) الذى لم ير للمعنى ، أو اللفظ فضلا مستقلا ، إلا بضم جواهر الألفاظ بعضها إلى بعض ضما رقيقا، تجعل منها قلادة ثمينة وعقدا رفيع الصنعة ، بادى الجمال . يقول :

((فهل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها ، حتى ان فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة ، ولو ذكرت على الإنفراد ، وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه ، وتأليفه وترصيفه ، وحتى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي وإن ازدادت حسنا بمصاحبة أخواتها ، واكتست رونقا بمضامة أترابها))(٢).

كما أن هذه الكلمات المتلائمة قد حوت فيضا من المعاني رفيقا ، يملأ نفس القارئ بهجة ، وقد شرحه (الشيخ عبد القاهر) بإفاضة ، كما فعل (ابن جني) بل استنار ببعض جمل تخللت ذاك الشرح .

يقول الشيخ (عبد القاهر) :

((إن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر : أنه قال :
ولما قضينا من منى كل حاجة ، فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم ، ثم نبه بقوله :

((ومسح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر ، ثم قال : (أخذنا بأطراف

---

(١) الصناعتين ص ٧٣ .
(٢) أسرار البلاغة ص ١٧ ، ١٨ .

الأحاديث بيننا) فوصل بذكر مسح الأركان ما وليه من زم الركاب ، وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة (الأطراف) على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر ، من التصرف في فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطرفين من الإشارة ، والتلويح والرمز والايماء)) (١) .

ولقد استقى هذا المعنى من (ابن جني) وقد تقدم الحديث وخاصة وخاصة عند قوله : ((يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح ، والإيماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأدمث وأغزل وأنسب من أن يكون مشافهة وكشفا ومصارحة وجهرا)) (٢) .

ولقد شارك (الشيخ عبد القاهر) في هذا المعنى (ابن جني) وبخاصة في ما يخص موضوع الإشارة والتلويح وماله من أثر في النفس أبقى وأجمل من التصريح ، والعرب إنما يهمها الرمز والإيماء لأنه يلهمها سعة الخيال وخصب التفكير ، اكثر من الشرح والتفصيل .

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) الخصائص ١/ ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

الفصل الثاني

قضية المجاز وما يتفرع عنها في أسرار البلاغة
ويشتمل على مبحثين

المبحث الأول : المجاز وجهود السابقين .

المبحث الثاني : خلاصة جهود عبد القاهر في قضية المجاز .

المبحث الأول

المجاز وجهود السابقين

ان أهم ما سمت به اللغة العربية ، ما عرف عنها من استعمال التشبيهات والمجازات والاستعارات .

ومع هذا فتحديد ظهور هذه المصطلحات البلاغية غير معروف على وجه الدقة

ولكن من خلال دراسة بعض الكتب المتقدمة أمثال (معاني القرآن) (للفراء) ، و (تأويل مشكل القرآن)(لابن قتيبة)، نقف على بعض هذه المصطلحات .

فقد ورد في (معاني القرآن) بعض شواهد تنص على خروج الألفاظ عن أصل استعمالها في اللغة ، قبل(سيبويه)وقبل ظهور (الكتاب) .

يقول :

((وقوله (فظلّت أعناقُهم لها خاضِعِيْن) [1]، والفعل للأعناق فيقول القائل : كيف لم يقل : خاضعة : وفي ذلك وجوه كلها صواب . أولها أن (مجاهدا) [2] جعل الأعناق : الرجال الكُبراء . فكانت الأعناق هاهنا بمنزلة قولك : ظلت رؤوسهم رؤوس القوم وكبراؤهم لها خاضعين)) [3] .

---

(١) سورة الفرقان من الآية ١٠ .

(٢) مجاهد : ((وهو مجاهد بن (جبر) أبو الحجاج المكي أحد الأعلام من التابعين والأئمة المفسرين ، قرأ على عبد الله بن السائب وعلى عبد الله بن عباس بضعاً وعشرين ختمة ويقال ثلاثين . . أخذ عنه القراءة عرضا عبد الله بن كثير وأبو عمرو ابن العلاء وقرأ عليه الأعمش ، وقال (قتادة) : أعلم من بقي بالتفسير مجاهد . قال سلمة بن كهيل كان مجاهد ممن يريد بعلمه الله . مات سنة ثلاث ومائة وقيل سنة أربع وقيل سنة اثنتين وقد نيف على الثمانين . يقال مات وهو ساجد رحمه الله)) ٢ / ٤١ ، ٤٢ غاية النهاية في طبقات القراء للجزري ، نشر : ج . برجستراسر على نفقة الناشر سنة ١٣٥٢ ، ١٩٣٣م .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢ / ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

((فهي إذا مجاز مرسل علاقته الجزئية ، لأن العنق جزء الانسان ولا يخفى مالهذا الجزء من الخصوصية التي يشترطها أرباب الصناعة في نيابة الجزء عن الكل ، وللوفاء بحق المعنى المراد ، فخضوع العنق دليل الاستسلام والانقياد ، وما نقله الفراء عن مجاهد أحد وجوه في تأويل الآية بدأ الفراء بذكره وكأنه الوجه الأرجح عنده))[١] .

كما ورد معنى (المجاز) في تفسير (قتادة) ، وقد نقله (ابن قتيبة) حين قال : ((وقال الله تعالى : (سنفرُغ لكم أيّها الثّقلان)[٢] والله تبارك وتعالى لا يشغله شأن عن شأن ، (ومجازه) سنقصد لكم بعد طول الترك والإمهال ، قال (قتادة) : قد دنا من اللّه فراغ لخلقه ، يريد أن الساعة قد أزفت وجاء أشراطها))[٣] .

كما نُقل عن (قتادة) في تفسيره لقوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق)[٤] أى عن شدة الأمر ، كذلك قال (قتادة)[٥] وقال " ابراهيم " : عن أمر عظيم ، وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه شمّر عن ساقه ، فاستعيرت الساق في موضع الشدة))[٦] .

أما ما ورد في كتاب (العين) (للخليل بن أحمد الفراهيدى) فيعتبر من الإشارات الثواني إلى المجاز ، الذى يقول في مادة (عُش) :

((العش : ما يتخذه الطائر في رؤوس الأشجار للتفريخ ، ويُجمع عششة واعتش الطائر إذا أتخذ عشاً ، قال يصف الناقة :

يتبعها ذو كُدْنة جرائض
لخشب الطّلح هصُور هائضُ

---

(١) (المجاز في القرآن واللغة بين الإجازة والمنع) للدكتور عبد العظيم المطعني ١ / ٣٠ مكتبة وهبة .
(٢) سورة الرحمن آية ٣١ .
(٣) (تأويل مشكل القرآن) لابن (قتيبة) ص ١٠٥ شرح ونشر السيد أحمد صقر / ط ٢ ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣م دار التراث .
(٤) سورة القلم من الآية ٤٢ .
(٥) (قتادة) : ابن (دعامة) ابو (الخطاب) السّدوسي البصري . أحد الأئمة في حروف القرآن . روى القراءة عن أبي العاليه . مات سنة سبع عشرة ومائة للهجرة . انظر ٢ / ٢٥ (غاية النهاية في طبقات القراء).
(٦) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٣٧ .

بحيث يعتش الغراب البائض (١)

قال : البائض

وهو ذكر ،فان قال قائل الذكر لا يبيض ، قيل هو في البيض سبب ، ولذلك جعله بائضاً على قياس والد بمعنى الأب ، وكذلك البائض ، لأن الولد والبيض في مذهبه شيء واحد)) . (٢)

فهذه من الخطوات الصائبة نحو المجاز ، حيث صرح بأنه يصبح إطلاق بائض على ذكر الطائر مع أن الذكر لا يبيض ، وانما صح ذلك لأن الذكر سبب في البيض فصح إطلاقه لجهة السببية .

وهذه الخطوات قد اتسعت إلى حد ما ، حتى عهد سيبويه ، الذى وجدت له آراء متفرقة في كتابه (الكتاب) .

وفي صدد حديثي عن نشأة المجاز ، أشير إلى (سيبويه) ، اذ اشتمل مؤلفه على التعريض لبعض أساليب المجاز . حيث يقول :

((وتقول : مُطِر قومُك الليلَ والنهارَ على الظرف وعلى الوجه الآخر ، وان شئت رفعته على سعة الكلام ، الذى سمي فيما بعد المجاز وهو من التوسع ،كما قال : صِيد عليه الليلُ والنهارُ ، وهو نهاره صائم وليله قائم ،وكما قال (جرير) :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السُّرى
ونمت وما ليل المطي بنائم (٣)

---

(١) من رجز لأبي محمد الفقعسي.

ذو كدنة : من كدن (وهو كثرة الشحم واللحم) ١٣/٣٥٥

جرائض : في مادة (جرض) من اللسان ٧/١٣١ يقول : (أن الجرائض الجمل الذى يحطم كل شيء بأنيابه ٥ / ٢٦٤ اللسان .

هصورها : الهصر : الكسر . هصر الشيء يهصره : جبذه وأماله ، ويقال أسد هصور

(٢) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى ١/٧٩ . ت / عبد الله درويش.

(٣) البيت من الطويل انظر ٢/٤٤٢ من اللسان مادة (ربح)

السرى : سير الليل عامته ، وقيل السرى سير الليل كله)) ١٤/٣٨١ مادة(سرا) اللسان .

المطى : ((المطية من الدواب التى تمطوفى سيرها ، وجمعها مطايا ومطيّ مادة (مطا) اللسان ١٥/٢٨٥

فكأنه في كل هذا جعل الليل بعض الاسم ، وقال آخر :

أما النهار ففي قيد وسلسلة والليل في قعر منحوت من السّاج [(١)]

فكأنه جعل النهار في قيد والليل في بطن منحوت ، أو جعله الاسم أو بعضه)[(٢)]

ويريد (سيبويه) في إستشهاده بقول القائل : مُطر قومك الليل والنهار) على الرفع على أنه نائب مناب الفاعل .

ولقد عدد (سيبويه) الأمثلة ، فمنها للجملة الفعلية كقول العرب : صيد عليه الليل والنهار ، وكما في بيتي الشعر المتقدميين ، وكلها على سبيل التوسعة في الكلام .

كما وردت له عدة أقوال في بعض الآيات القرآنية ، والتي سارت بعده أمثالا على المجاز تتردد في كتب البلاغة .

ففي قوله تعالى :(واسأل القرية التي كنا فيها ، والعير التي أقبلنا فيها)[(٣)] .

إنما يريد أهل القرية ، فاختصر عمل الفعل في القرية ، كما كان عاملا في الأهل لو كان هاهنا))[(٤)] .

ومثل ذلك من كلامهم : بنو فلان يطؤهم الطريق ، يريد يطؤهم أهل الطريق ، وقالوا : صدنا قنوين ، وإنما يريد صدنا بقنوين ، أو صدنا وحش قنوين ، وإنما قنوان اسم أرض))[(٥)] .

والملاحظ على (سيبويه) أنه بين عمل الفعل في (القرية) التي حلت محل (أهل) يقول في ذلك الدكتور عبد العظيم المطعني :

((الآية الكريمة فيها مجازان عقليان . ولم يفت صاحب الكتاب أن يبين

---

(١) البيت من البسيط وهو غير منسوب .
منحوت : النحت : النشر والقشر ، والنحت : نحت النجار للخشب ، انظر اللسان مادة (نحت) ٢/٠٩٧ .

(٢) الكتاب ١/١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) سورة يوسف آية ٨٢ .

(٤) الكتاب ١/٢١٢ .

(٥) المصدر نفسه ١/٢١٣ .

أصل الكلام ، فكان حق الفعل (اسأل) أن يعمل في الأهل لا في القرية ولا في العير من حيث أنهما قرية وعير .

والعلاقة في الموضعين واضحة ، فهي في القرية المكانية ، وفي العير المجاورة أو المصاحبة ، فقد أوقع الفعل فيهما على غير ما حقه أن يقع عليه ومثال هذا أن تقول : أسعدت المدينة ، وأنت تريد أهل المدينة))[١] .

وقد ذكر (سيبويه) في باب (ماجرى مجرى الفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين في باب اللفظ لا في المعنى)[٢] .

((وذلك قولك : ياسارق الليلة أهل الدار ، فتجرى الليلة على الفعل في سعة الكلام ، كما قال : صِيد عليه يومان ، وولد له ستون عاما . فاللفظ يجرى على قوله هذا معطى زيد درهما ، والمعنى انما هو في الليلة ، وصيد عليه في اليومين ، غير أنهم أوقعوا الفعل عليه لسعة الكلام))[٢] .

والملاحظ على (سيبويه) في هذه العبارة أنه أجرى الليلة على الفعل في سعة الكلام ، وهذا مثل قول القائل : صيد عليه يومان ، والمعنى إنما هو : صيد عليه الوحش في يومين ولكنه اتسع واختصر .

وكذلك قول القائل : (سرقْتُ الليلةَ أهلَ الدارِ) أى سرقت في الليلة أهل الدار .

والملاحظ في المثالين السابقين : أنه استشهد بهما على سبيل ايقاع الفعل عليه لسعة الكلام ، واقامته مقام المفعول . اى استعملت الظروف استعمال الأسماء ، وليس على سبيل الإسناد إلى الظروف .

كما عقد فصلا آخر وضح فيه ما سبق أن أجمله واختصره ، يقول :

---

(١) المجاز في القرآن واللغة ١ / ١٠ .
(٢) الكتاب ١ / ١٧٥ ، ١٧٦ .

((هذا باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام ، والايجاز والإختصار)) [(١)] :

((فمن ذلك أن تقول على قول السائل كم صيد عليه ؟ وكم غير ظرف لما ذكرت لك من الاتساع والإيجاز ، ولكنه اتسع واختصر ، ولذلك أيضا وضع السائل كم غير ظرف ، ومن ذلك أن تقول : كم ولد له ؟ فتقول : ستون عاما ، فالمعنى ولد له الأولاد ، وولد له الولد ستين عاما ، ولكنه اتسع وأوجز .

ومن ذلك أن تقول : كم سير عليه ، وكم غير ظرف فيقول يوم الجمعة ، ويومان ، فكم هاهنا بمنزلة قوله : ما صيد عليه ، وما ولد له من الدهر والأيام ؟ فليس كم ظرفا ، كما أن " ما " ليس بظرف)) [(٢)] .

فقد وضح (سيبويه) في هذا الباب كيف أجرى المجاز ، وكيف فسّر قوله على سعة الكلام . فعند سؤلك كم صيد عليه ؟ تقول : صيد عليه يومان وكم هنا على هذا الأساس ليست ظرفية وكذلك " ما " . وتقدير الكلام في قول القائل : (ولد له ستون عاما) كم ولد له ؟ فيقول : ستون عاما . وهو يقصد ولد له الأولاد ، وولد له الولد ستين عاما ، وهذا التوسع في الكلام والايجاز والاختصار كثير في كلام العرب ، يقول : ((وهذا الكلام كثير منه ما مضى ، وهو أكثر من أن أحصيه ، ومنه ما ستراه أيضا فيما يستقبل ان شاء الله)) [(٢)]

وعلى هذا النحو مضى (سيبويه) يشرح الأمثلة التي تحتاج في تفسيرها إلى تأويل من القرآن ومن الشعر ، ويلحظ بذلك أنه لم يشر في قليل أو كثير إلى المجاز ، ولكنه فقط ذكر أن تلك الأمثلة مما يحتاج تفسيرها الى تأويل ، لعدم العلاقة المباشرة بين المعنى والكلمة التي استعملت في التعبير عنه .

---

(١) الكتاب لسيبويه ١/ ٢١١ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢١٤ ، ٢١٥ .

ولقد استعمل للتعبير عن هذه الظاهرة اسم (التوسع) وهو تفسير شامل ان استعمله في توضيح بعض العلاقات البلاغية التي يحتاج في تأويلها خروج إلى غير مقتضى الظاهر .

وهكذا فقد سبق (سيبويه) غيره في التمهيد لموضوع (المجاز) ، كما كان سباقا إلى معظم الموضوعات البلاغية .

وعلى كلٍ فإثبات رأى (سيبويه) في المجاز وكذلك إثبات رأى غيره من المتقدمين عليه ، والذين فسروا بعض الكلمات على المجاز ، وبينوا كيف خرجت عن أصل وضعها في اللغة . يدل كل ذلك على ثبوت المجاز في اللغة وفي القرآن .

أما (الفراء ت ٢٠٧ هـ) فقد درس أساليب القرآن الكريم دراسة أدبية واستطاع أن يتوصل إلى موضوع متكامل عن المجاز ، وإن لم يصرح باسمه المتعارف عليه الآن .

إن اشارات (الفراء) الى المجاز ، والى الأساليب البلاغية الأخرى أتت ضمن شرحه لنصوص القرآن الكريم ، وبيان معانيه في مؤلفه (معاني القرآن) . ولقد حاولت جمع بعض من النصوص القرآنية ، والتي وجهها توجيها مجازيا ، وسنلاحظ أنه في بعض الأحيان يسند أقواله بأقوال السلف الصالح من أمثال قتادة ومجاهد وابن عباس[1] .

ففي صدد حديثه عن قوله تعالى : (لا عاصم اليوم من أمر اللّهِ الاّ من رَحم)[2] حكاية عن قِصَّة (نوح عليه السلام) مع قومه ، يقول :

((كأنك قلت لا معصوم اليوم من أمر الله ، وقوله تعالى : (من ماء دافق)[3] معناه مدفوق ، وقوله في عيشة راضية ، معناها مرضية ، وقول الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي[4]

---

(١) وفي هذه الاقوال دليل على صحة القول بوجود المجاز في القرآن الكريم .

(٢) سورة هود من آية ٤٣ .
(٣) سورة الطارق من الآية ٦ .
(٤) هذا البيت من البسيط . وقائله (الحطيئة).

معناه المكسو : نستدل على ذلك أنك تقول : رَضِيتُ هذه المعيشة ، ولا تقول رَضِيتْ ، ودَفِقَ الماءُ ، ولا تقـول دَفَـقَ ، وتقول كُسِيَ العريان ولا تقـول كسا)) [١] .

وترددت مقالته هذه أيضا في حديثه عن قوله تعالى : (في يوم عاصف) [٢] أن العصوف وإن كان للريح فإن اليوم يوصف به ، لأن الريح فيه تكون ، فجـاز أن تقول يوم عاصف ، كما تقول يوم بارد ، ويوم حـار)) [٣] .

وحين تعرض الفراء لقوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم) [٤] . يقول : ((ربما قال القائل لا تربح التجارة ، وإنما يربح الرجل التاجر ؟ وذلك مـن كلام العرب ، ربح بيعك ، وخسر بيعك ، فحسن القول بذلك ، لأن الربـح والخسران ، إنما يكونان في التجارة ، فعلم معناه ، ومثله في كلام العرب ، هذا ليل نائم ومثله من كتاب الله : (فاذا عزم الأمـر) [٥] ، وانما العزيمـة للرجال ، فلو قال قائل قد ربحت دراهمك ودنانيرك ، وخسر بزك ورقيقـك ، كان جائزا ، لدلالة بعض على بعض)) [٦] .

ومن هذا التعليق الذى أورده (الفراء) نستطيع أن نتبين أنه استشـف (المجاز العقلي) من خلال دراسته لأقوال العرب فطبقه على شرح الآيـة ، فالعرب تقول : ربح بيعك ، وخسر بيعك ، وهم يعنون أن يكون الربح والخسران في التجارة ، وإنما انطبق على الآية الكريمة ، لأن المعنى يكون ربح الرجل التاجر وإنما صح هذا القول لدلالة بعض الكلام على بعض .

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢ / ١٥ / ١٦ .
(٢) سورة ابراهيم من الآية ١٨ .
(٣) المصدر نفسه ٢ / ٧٣ .
(٤) سورة البقرة من الآية ١٦ .
(٥) سورة محمد من الآية ٢١ .
(٦) معاني القرآن ١ / ١٤ ، ١٥ .

كما أنه حين تعرض للآية الكريمة ، قوله تعالى : (بل مكر الليل والنهار)[١] ، والتي ورد الكلام فيها ، قال : ((المكر ليس لليل والنهار انما المعنى بل مكركم بالليل والنهار ، وقد يجوز أن نضيف الفعل الى الليل والنهار ، ويكونا كالفاعلين ، لأن العرب تقول : نهارك صائم ، وليلك قائم ، ثم تضيف الفعل الى الليل والنهار ، وهو في المعنى للآدميين ، كما تقول نام ليلك ، وعزم الأمر انما عزمه القوم ، فهذا ما يعرف معناه ، فتتسع به العرب))[٢] . وقوله : ((تتسع به العرب)) انما هو تريد بعرضه (سيبويه) عن هذه المعاني انما للاتساع في الكلام . ومع هذا فيعتبر ما تضمنه (معاني القرآن) (للفراء) عن (موضوع المجاز) أكثر توسعا مما ذكر سيبويه . ومن المعاني البلاغية التي أوردها (الفراء) هو خروج الاستفهام عن وضعه الحقيقي الى معان أخر متعددة ، ورأى كذلك خروج الاستفهام عن معناه الوضعي الى معان مجازية وضرب كثيرا من الأمثلة ، ففي قوله تعالى : (قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون)[٣] . يقول في تخريج معنى الاستفهام : ((ان شئت جعلت (ماذا) استفهاما محضا على جهة ، كقوله : ويلهم ماذا أرادوا باستعجال العذاب ؟ . وان شئت عظمت أمر العذاب فقلت : بماذا استعجلوا . وموضعه رفع اذا جعلت الهاء راجعة عليه ، وان جعلت الهاء في منه للعذاب وجعلته في موضع نصب أوقعت عليه الاستعجال))[٤] .

وسواء المعنى الأول أو الثاني فان كلا منهما صرف عن المعنى الظاهر وهذا هو معنى المجاز .

كما أشار (الفراء) الى (المجاز المرسل) ، وان لم يسمه أيضا ، ولم يشر الى العلاقة فيه ، يقول في قوله تعالى : (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون)[٥] .

---

(١) سورة سبأ من الآية ٣٣ .

(٢) معاني القرآن ٢ / ٣٦٣ .

(٣) سورة يونس من الآية ٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ١ / ٤٦٧ .

(٥) سورة آل عمران آية ١١٣ .

قال فيه : ((السجود في هذا الموضع اسم للصلاة لا للسجود لأن التلاوة لا تكون في السجود ، ولا في الركوع)) [١] .

فالمعنى أن السجود هنا بمعنى الصلاة ، ودليل ذلك أن التلاوة لا تكون في السجود ، وانما في الصلاة ، ويكون (الفراء) بذلك قد توصل الى القرينة المانعة ، من ايراد المعنى الأصلي الوارد في الآية الكريمة ، وهو السجود ، وتلك القرينة المانعة هي تلاوة القرآن الكريم في السجود .

ولقد كان الحديث في هذا الموضوع مسهبا في فصل آخر [٢] ، ويأتي مع (الفراء) ، (أبو عبيدة) ، [٣] فهو من معاصري الفراء .

ولقد كانت له اشارات بلاغية في مصنفه (مجاز القرآن) ، حيث خرّج بعض المعاني تخريجات مجازية ، وان لم يرد بتسمية مؤلفه هذا مجاز القرآن المعنى الاصطلاحي المعروف للمجاز الآن .

ففي قوله تعالى : (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) [٤] .

يقول (أبو عبيدة) في صدد شرح هذه الآية ، وفي بيان مدلولها :

((جاءت على لفظ الاستفهام ، والملائكة لم تستفهم ربها ، وقد قال تبارك وتعالى : (اني جاعل في الأرض خليفة) ، ولكن معناها معنى الايجاب :أي أنك ستفعل ، وقال جرير ، فأوجب ولم يستفهم لعبد الملك بن مروان :

---

(١) معاني القرآن ١ / ٢٣١ .
(٢) انظر الموضوع بتوسع في فصل (بلاغة عبد القاهر ومدى صلتها بالبلاغة اليونانية) .
(٣) من الأعلام الأفذاذ الذين عاشوا في القرن الثاني الهجرى . توفى سنة ٢١٠ هـ .
(٤) سورة البقرة من الآية ٣٠ .

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح (١)

وتقول وأنت تضرب الغلام على الذنب : ألست الفاعل كذا ؟ ليس باستفهام ولكن تقرير)) (٢) .

ولقد استشهد (الدكتور عبد العظيم المطعني) بهذه الآية وببيت جرير ولكنه انتقد على (أبي عبيدة) ، أنه لم يوفق في توجيه الاستفهام في الآية الكريمة ، وان أصاب في تخريج الاستفهام عن أصل وضعه الحقيقي ، حيث يقول :

(((أبو عبيدة) أصاب عين الحق في بيت جرير ، فهو بلا خلاف استفهام أريد منه التقرير والايجاب ، أى أنتم خير من ركب المطايا ، أما الآية الكريمة فليس قوله فيها أنها للإيجاب بمسلم على إطلاقه ، بل الظاهر من السياق ، أن الاستفهام للإنكار)) (٣) يقصد من ذلك أنه موافق (أبي عبيدة) في تخريج الاستفهام في بيت جرير من أنه استفهام أُريد منه التقرير والإيجاب . وغير موافق له على تخريج الاستفهام في الآية الكريمة أنه للايجاب ، بل يرى (الدكتور عبد العظيم المطعني) أن الاستفهام في الآية الكريمة للإنكار . وقد أورد عدة أدلة في كتابه يحاول بها تأييد رأيه .

وإني أرى أن الملائكة لا تستنكر عمل الله جل جلاله ، ولا تنكره ، بل تعجب من صنيعه ، ومن بديع تصريفه للأمور أن يخلق الأرض وينشئها ثم يجعل فيها من يخطئ ويسفك الدماء ، فهذا تعجل مؤمن مأخوذ بعظمة الله الذى يدبر الأمور بحيث لا يشذ منها شيء عن شيء ، والله أعلم .

وهناك من الآيات التي جاء فيها الاستفهام ، وخرّجه (أبو عبيده) عن أصل وضعه ، فكان بذلك من الذين أشاروا إلى المجاز ولم يصرحوا باسمه .

---

(١) البيت من الوافر ص ٧٧ ديوان جرير ، دار بيروت للطبع
بطون راح : (البطن من الانسان والحيوان خلاف الظهر) اللسان ١٣ / ٥٢ مادة (بطن) .
الراح : الواحدة راحه : الكف .

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ٣٥ ، ٣٦ علّق عليه الدكتور محمد فؤاد سيزكين مكتبة الخانجي .

(٣) المجاز في اللغة والقرآن ١ / ٣٩٠

وكذلك فعل في المجاز المرسل ، وسأعرض مثلاً واحدا مما ذكر (أبو عبيدة) بإذن الله ، حيث يقول في قوله تعالي : (وأرسلنا السماء عليكم مدرارا) [١] . مجاز السماء ها هنا مجاز المطر ، يقال : ما زلنا في سماء أى في مطر ، وما زلنا نطأ السماء ، أى أثر المطر ، وأنى أخذتكم هذه السماء ومجاز أرسلنا : أنزلنا وأمطرنا)) [٢] .

وهذا مثل مشهور في كتب البلاغة ، حيث عُرفت السماء بمعنى المطر

كما عرض (للمجاز العقلي) وإن لم يهتد إلى إطلاق اسم المجاز العقلي عليه ، فيقول في قوله تعالى (والنهار مبصرا) [٣] ((له مجازان أحدهما أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل ، والمعنى : أنه مفعول ، لأنه ظرف ، يفعل فيه غيره ، لأنه لا يبصر ، ولكنه يبصر فيه الذى ينظر ، وفي القرآن الكريم قوله (في عيشة راضية) [٤] ، وإنما يرضى بها الذى يعيش فيها قال جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى
ونمت وما ليل المطيّ بنائم [٥]

والليل لا ينام ، وإنما يُنام فيه)) [٦] .

والجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) يعد مرحلة جديدة في تاريخ البلاغة عامة ، وفي علم المجاز خاصة ، لأننا سنلحظ تغيرا ملحوظا في فهم معاني الآيات التي فيها المجاز وسنرى له في المجاز أسلوبا يختلف عن سابقيه ، حيث كانت الإشارات هنا مرادفة لتفسير المعاني ، بينما نلحظ اتجاها نحو وضع مسميات ، وتحديدها لتوضيح الاختلاف بين الأساليب ، وإن كانت هذه المسميات وتلك التحديدات بسيطة ، إلا أنها تُعد بداية الطريق .

---

(١) سورة الانعام من الاية ٦ .
(٢) مجاز القرآن ١/١٨٦ .
(٣) سورة يونس من الاية ٦٧ .
(٤) سورة الحاقة من الآية ٢١ .
(٥) البيت من الطويل .
(٦) مجاز القرآن ١/٢٧٩ .

ولقد طعن ناس من الملحدين ، ومن ليس لهم علم ولا خبرة في سلك طرق اللغة العربية ، ودراسة وجوهها، في آية النحل قوله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سُبُل ربك ذُلُلاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)) (١) .

((ولقد كانت دعوى الملحدين ، بأن العسل إنما هو شيء تنقله النحل مما يسقط على الشجر ، ثم تبنى بيوت العسل منه ، ومواضع هذا النحل خفي فلا دخل للبطن فيه .

والمجاز واقع في قوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب) ، فالعسل ليس بشراب ، وإنما هو شيء يحول بالماء شرابا ، أو بالماء نبيذا ، فسماه كما ترى شرابا ، اذ كان يجيء منه الشراب .

وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم . وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كانوا غضابا (٢)

---

(١) سورة النحل آيه ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) البيت من الوافر . وقائله : هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان بن مضر . لقب بـ (مُعود الحكماء) لقوله في القصيدة :
أعود مثلها الحكماء بعدي ، ، إذا ما الحق في الأشياع نابا .
وهو فارس شاعر مشهور ، وهو خامس خمسة من إخوته ، كلهم ساد ووسم بخصلة حميدة عرف بها . جو القصيدة : هو في هذه القصيدة كبير قد علت به السن ، وأضحت سلمى كذلك في مشيبها ، فأقصر كل منهما عن جهل الصبا ولهوه ، كما شابت لداته من النساء فعدلن عنه . ثم استرجع ذكريات الصبا ، كما عبر عن عزة قومه) بالبيت الآنف الذكر وهو ٢٣ من القصيدة نفسها المفضليات ص ٣٥٤ القصيدة ١٠٤ .

فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط ، ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها ، فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها ، ومن حمل اللغة على هذا المركب ، لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا)).(١)

فـ (الجاحظ) يرى أن في المثالين السابقين الآية الكريمة ، وبيت الشعر مجازا . لأن الذى يخرج من بطون النحل العسل وليس الشراب ، وأن العرب ترعى المراعي التي هي بسبب الغيث ، ولا ترعى السماء ، لأن السماء لا تسقط .

ثم هاجم بعنف كل من حمل معنى الآية ، وبعض كلام العرب على الظاهر وفسره كما ورد . لأن ذلك صنيع جاهل بلغة العرب وبطرقها وفنونها وبدروب القول فيها . و (الجاحظ) على ثقة من أهمية علم المجاز ، وعلى فهم عميق به ، لأنه يقول عنه : ((وللعرب إقدام على الكلام ، ثقة بفهم أصحابهم عنهم وهذه أيضا فضيلة أخرى)).(٢)

أى أن العرب لها المقدرة على إخراج الكلام في صور متعددة على غير الظاهر المعروف المتداول ، ثقة منهم بفهم بعضهم لبعض ، لأن تلك أصبحت عادتهم . وذكر ذلك بعد أن طرق فن المجاز وبابه وضرب له أمثلة فقال ما قال .

ولعل من أهم ما قدمه (الجاحظ) وانتهى اليه بعد تلك الدراسات العميقة في البيان العربي ، أنه خلص بتعريف للاستعارة .

ابن قتيبه ت ٢٧٦ هـ :

لقد عرف المجاز بين الدارسين ، ووضحت معالمه ، حتى أن بعض خصوم الدعوة وجد من المجاز مغمزا اعترض به على القرآن الكريم . ولكن (ابن قتيبه) ألف كتابه (تأويل مشكل القرآن) للرد على الطاعنين . ومن ذلك خلص إلى توجيه المجاز وجهه الصحيح : يقول في ذلك :

((وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ، ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله))(٣) بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ،

---

(١) الحيوان ٤٢٥/٥ ، ٤٢٦ .

(٢) الحيوان ٣٢/٥ .

(٣) سورة آل عمران ٧ .

و نظر مدخول ، فحرفوا الكلام عن مواضعه وعدلوه عن سبله ، ثم قضوا عليه بالتناقض ، والإستحالة واللحن وفساد النظم والإختلاف .

وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغُمر ، والحدث الغِر ، واعترضت بالشبه في القلوب ، وقدحت بالشكوك في الصدور .... فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يكسبون)) .(١)

وهو بهذا يؤيد المجاز ويرد على الطاعنين على القرآن من جهته . لأن المجاز موضوع وظاهرة بيانيةمعتادة في الكلام كغيرها من الظاهرات الأدبية يقول :

((وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها طرق القول ومآخذه.ففيها الاستعارة والتمثيل ، والقلب ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار ،والتعريض والإفصاح ، والكناية والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع ، والجمع مخاطبة الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز إن شاء الله تعالى)) .(٢)

وما هذه العبارات ، وتلك الجمل المتتابعة من (ابن قتيبة) إلا لأن الناس انقسموا قسمين في الحكم على المجاز الفريق الأول : الذى ينفي وجود المجاز بها نفيا مطلقا :- وهو بذلك يتعرض لرد (ابن قتيبة) حيث ، يقول : ((وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز ،فانهم زعموا أنه كذب ، لأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل .

وهذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم ، ولو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا : كان أكثر كلامنا فاسدا ، لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ،وأقام الجبل ، ورخص السعر .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠ .

وتقول : كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن وإنما كون .

وتقول كان الله ، وكان بمعنى حدث ، والله جل وعز قبل كل شيء بلاغايه لم يحدث فيكون بعد أن لم يكن)). (١)

وخلاصة رأى منكرى المجاز : أن المجاز بزعمهم كذب وباطل ، لأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل ، لأنهما غير عاقلين ، ولا ينتظر منهما إجابة حيث لا يعقلان السؤال .

وابن (قتيبة) يرى البطلان في كلامهم ، لأن هذا المفهوم يؤدى إلى أن يكون كل كلام العرب المبنى على المجاز خطأ ، وقد عرف عن العرب ، قولهم نبت البقل ، وطالت الشجرة وأينعت الثمرة .

بل تؤدى هذه الدعوى إلى أكثر من ذلك ، ففي ما يخص (جل ثناؤه) عندما يقال (كان الله) بمعنى حدث ، وسبحانه وتعالى قبل كل شيء وبعد كل شيء ، لأنه بلا غاية ، فلم يحدث ولن يحدث ، فعلى دعواهم يكون المعنى أنه كان ، وهذا من أشنع جهالاتهم ومن أشنع ما يقال .

وأيضا هناك من النصوص القرآنية التى شرحها (ابن قتيبة) ليثبت أهمية المجاز في لغتنا ، وأنه في كثير من المعاني ،لا يمكن تفسير الكلام على وجهه المعروف يقول :

((ولو قلنا للمنكر لقوله تعالى : (جدارا يريد أن ينقضّ) (٢) : كيف كنت أنت قائلا في جدار رأيته على شفا انهيار : رأيت جدارا ماذا ؟ لم يجد بدا من أن يقول : جدارا يهم أن ينقض أو يكاد أن ينقض أو يقارب أن ينقض وأيا ما قال فقد جعله فاعلا لا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ)) (٣)

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة . ص ١٣٢ .

(٢) سورة الكهف آيه ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٣ .

الفريـــق الثاني :-

وهو الفريق الذى يقول بالمجاز في كل ما من شأنه أداء المعاني وهـــذا هو الفريق المغالي ، وعلى النقيض من الأول ، ولقد انبرى (ابن قتيبة) للرد على هؤلاء أيضا بأن بين ماجره قولهم هذا من تغيير أمور ثابتة وانكار ما هو واضح في القرآن الكريم ، يقول :

((وذهب قوم في قول الله وكلامه : إلى أنه ليس قولاً ، ولا كلاماً علـــى الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعاني ، وحرّفوه في كثير من القرآن إلى المجـــاز كقول القائل : قال الحائط فمال ، وقل برأسك إلى ، يريد بذلك الميــــل خاصة ، والقول فضْل .

وقال بعضهم في قوله للملائكة : (اسجدوا لآدم) (١) هو الهام منـــــه للملائكة ، كقوله : (وأوحى ربك الى النحل) (٢) ، أى ألهمها .

وكقوله : (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء) (٣)

وذهبوا في الوحي ها هنا الى الالهام)) (٤)

ويستشهد بآيات وأدلة أخرى ليدل على فساد قولهم أن المعاني في القــرآن الكريم كلها مجاز ، يقول : ((قالوا : ونحو هذا قوله تعالى : (يَوْمَ نَقُــولُ لِجَهَنَّم هَل امْتَلأْتِ ، وَتَقُول هَلْ مِنّ مَزِيدْ) (٥) وليس يومئذ قول منه لجهنـــم ولا قول من جهنم ، وإنما هي عبارة عن سعتها)) (٦)

وبهذا المعنى قد خرّجوا الآية من الحقيقة ، وجعلوا قول جهنم مجازا أى غير حقيقة ، وإنما هي عبارة ليدل سبحانه على سعتها .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٣٤ .
(٢) سورة النحل آيه ٦٨ .
(٣) سورة الشورى من الآية ٥١ .
(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٠٦ .
(٥) سورة من آيـه ٣٠ .
(٦) تأويل مشكل القرآن آيه ١٠٨ .

و هذا ليس جائزا ، لأن القول قد عرف عن العرب أنه يقع المجاز فيه ((فيقال : قال الحائط فمال ، و مل برأسك إلى أى أمله و قالت الناقة ، و قال البعير)).(١)

فالقول من الحائط و الناقة و البعير . جائز في كلام العرب ، و قد ملئت أشعارهم بقول مالا يعقل .

و هذا يدعو الى بيان أن هناك فرقا بين القول و الكلام ، فالأول يقع فيه مجاز ، و الثاني (الكلام) لا يكون فيه المجاز ،لأن معناه النطق بعينه ، خلا موضع واحد و هو أن تتبين في شيء من الموات عبرة وعظة ،فتقول : خبر و تكلم و ذكر لأنه دلك معنى فيه ، فكأنه كلمك ، قال الشاعر :

وعظتك أجداث صُمُتْ
و نعتك ألسنة خفُتْ
و تكلمت عن أوجه
تبلى وعن صور سُبتْ
و أرتك قبرك في القبو
ر، و أنت حي لم تمتْ (٢)

فإذا القول بالمجاز في الكلام لا يقع إطلاقاً إلا في موضع واحد و هو العبرة من الموات، لأنه من الوضوح حيث يدل و كأنه ناطق فعلاً ، و مما يدل على أن الكلام كله لا يقع فيه المجاز بل هو حقيقة ، أنّ أفعال المجاز لا يكون منها مصادر ، و هذا المقياس لو طبق هنا ، اى على الكلام لوجدناه يكون منه المصدر ، و خروج المصدر من الفعل يكون للتأكد ، يقول : ((و تبين له أيضاً أن أفعال المجاز لا تخرج

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٩ .

(٢) قائل هذا الشعر هو ابو العتاهية و الأبيات من الكامل ذكرها ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/٣٠٦ (دار الكتب ١٣٤٣ هـ) وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/٧٩٤ .
وفي تأويل مشكل القرآن ص ١٠٩ ، ١١٠ . وأبو العتاهية (هو اسماعيل بن القاسم مولى لعنزة ، و يكنى أبا اسحاق و أبو العتاهية لقب و كان جرارا و يرمى بالزندقة و كان أحد المطبوعين ، و ممن يكاد يكون كلامه كله شعرا .
انظر الشعر و الشعراء ٢/٧٩١ لابن قتيبة .

منها المصادر ، ولا تؤكد بالتكرار ،فتقول أراد الحائط أن يسقط ،ولا تقول أراد الحائط أن يسقط إرادةً شديدةً ، وقالت الشجرة فمالت ، ولا تقول : (قالت الشجرة فمالت قولا شديدا) والله تعالى يقول : (وكلّم الله موسى تكليما) [1] ، فوكد بالمصدر ، معنى الكلام ، ونفى عنه المجاز وقال : (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) [2] فوكّد القول بالتكرار ووكد المعنى بإنما)) .[3]

وهذا كله انما أورده (ابن قتيبة) ليرد على من يرى المجاز في كل شيء حتى وفي كل شيء ورد في القرآن الكريم ، يصرفونه عن وضعه ، وعن قوله ، لأن هذا يؤدى إلى إنكار آيات وحقائق قررها سبحانه ، ويجب علينا الإيمان بها ، كعذاب القبر ، ووجود السحر ، وغير ذلك مما يطول شرحه وبيانه وليس المجال مجاله .

وآن لى في هذه المقالة أن أبين مقصد (ابن قتيبة) في المجاز على أنه مقابل للحقيقة ، أوغير ذلك .

إن المجاز عند (ابن قتيبة) مقابل للحقيقة . والذى يدعوني لأن أقول ذلك : ما أورده من الآيات البينات التي اشتملت على المجاز ففسر مجازها وقرره ، وان أوردها على الحقيقة لا يصح ، إذ يؤدى ذلك إلى الخطأ في تقدير أمور تتصل بذات الله العليه ، ففي قوله تعالي : (سنفرغ لكم أيها الثقلان) [4] ، والله تبارك وتعالى لا يشغله شأن عن شأن ، ومجازه : سنقصد لكم بعد طول المترك والإمهال)) .[5]

فهذا يعنى أن تفسير بعض الآى على الحقيقة لا يصح

---

(١) سورة النساء من آية ١٦٤ .
(٢) سورة النحل من الآية ٤٠ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١١١ .
(٤) سورة الرحمن آية ٣١ .
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٠٥ .

ويؤدى إلى الكفر ، فلا بد من التأويل ، وهو ما يسمى بالمجاز ، إذن فالمجاز مقابل للحقيقة ، ولكن الكيفية تختلف عنها ، أى عن الحقيقة .

كما أطل في القرن الثالث الهجرى : أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ)

له كتابات عليها طابع النزعة اللغوية ، وكذلك النحوية ، كما له رأى فى المجاز . لذلك سوف أعرض لرأيه فيه ، وخاصة أنه من مجوزى المجاز ، وله اشارات متعددة وردت في كتابه (الكامل) . ولقد اخترت مثالاً منها ، وإن لم يصرح بذكر كلمة (المجاز) فيه . يقول :

ومن أمثال العرب إذا طال عمر الرجل أن يقولوا : لقد أكل عليه الدهر وشرب ، إنما يريدون أنه أكل هو وشرب دهرا طويلا . قال الجعدي :

كم رأينا من أناس هلكوا
أكل الدهر عليهم وشرب (١)

والعرب تقول : نهارك صائم وليلك قائم ، أى أنت قائم في هذا وصائم في ذاك ، كما قال الله عز وجل : (بل مكر الليل والنهار)والمعنى والله أعلم ، بل مكركم في الليل والنهار . وقال جرير :

لقد لمتنا ياأم غيلان في السرى
ونمت وماليل المطي بنائم (٢)

أما المجاز عند (ثعلب ت ٢٩١ هـ) : فقد وضحت الإشارة إليه عند شرحه لقوله تعالى :
(والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) (٣) أى في قبضته ، كما تقول، هذه الدار في قبضتي)) (٤) .

وقوله تعالى : (نسوا الله فنسيهم) (٥) تركوا الله فتركهم .

---

(١) البيت من الرمل ، وقائله : النابغة الجعدى كما نسب في اللسان مادة (طرب) ١ / ٥٥٧ ونسب الى النابغة الذبياني في ديوانه ص ٢٦ .
(٢) البيت من الطويل ١/ ١٢٨ ، ١٢٩ وقد تقدم الحديث عنه .
(٣) سورة الزمر من الآية ٦٧ .
(٤) مجالس ثعلب / لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب شرح / عبد السلام هارون دار المعارف ٢/ ٥٥٠ ، ط ٤ .
(٥) سورة التوبة آية ٦٧ .

والله عز وجل لا ينسى إنما يترك (فأنساهم أنفسهم)[١] أى أنساهم أن يعملوا لأنفسهم))[٢] .

وقال تعالى :

(والسموات مطويات بيمينه)[٣] ، قال : هو كما تقول الدار بيدى ، والشيء في يدى[٤] .

ولقد كانت هناك بعض اشارات مهمة لعلم المجاز قد أضافها أبو القاسم الآمدى (ت ٣٧٠هـ) :-

من رواد الأدب والفكر العربي في القرن الرابع ، له أهمية في علم البلاغة بصفة عامة ، والمجاز بصفة خاصة .

لذا سوف أعرض لبعض الآيات والشواهد الأخرى ، والتي خرج فيها المعنى إلى معنى آخر .

يقول :

((في قوله تعالى : (واسأل القرية)[٥] التي كنا فيها ، يريد أهل القرية))[٦] .

كما أن الاستفهام إذا كان خارجا عن طلب الفهم كان من قبيل المجاز كما مر بنا في التمثيل له لدى العلماء السابقين .

فهذا (الآمدى) أيضا قد بين أمثلة خروج الاستفهام إلى غير طلب الاستفهام . يقول في ذلك : ((ومن خطئه قوله :

رضِيْت وهل أرضى اذا كان مُسخطي
من الأمر مافيه رضى من له الأمر

فمعنى هل في هذا البيت . . التقرير ، والتقرير على ضربين :-

---

(١) سورة الحشر من الآية ١٩ .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٥٥٠ ، ٥٥١ .
(٣) سورة الزمر من الآية ٦٧ .
(٤) المصدر نفسه ٢ / ٤٦٨ .
(٥) سورة يوسف آية ٨٢ .
(٦) الموازنة ١ / ١٧٤ .

تقرير للمخاطب على فعل قد مضى ووقع ، أو على فعل هو في الحال ليوجب المقرر بذلك ، و يحققه ، و يقتضى من المخاطب في الجواب الاعتراف بـــه ، نحو قوله : هل أكرمتك ؟ هل أحسنت إليه ؟ هل أودك وأوثرك ؟ وهل أقضى حاجتك ؟

و تقرير على فعل يدفعه المقرر ، و ينبغي أن يكون قد و قع ، نحو قولـه : هل كان منى إليك قط شيء كرهته ؟ وهل عرفت منى غير الجميل ؟)). (١)

ابن جنى و قضية المجاز (ت ٣٩٢ هـ) :

لقد كانت آثار (ابن جنى) في موضوع (المجاز) واضحة جلية ، اذ استقصى الموضوع و أثاره من البداية ، و سنمضي لنرى ما الذى أضافـــه (ابن جنى)، يبدأ في مستهل باب (في الفرق بين الحقيقة و المجـــاز) بتعريف المجاز ، و ذلك بالمقارنة بين تعريف الحقيقة و بين تعريف المجـــاز، يقـــول :

((الحقيقة ما أقر في الإستعمال على أصل وضعه في اللغة ، و المجاز ما كان بضـد ذلك .

و إنما يقع المجاز و يعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة ، و هي الاتساع و التوكيد ، و التشبيه ، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البته) . (٢)

فملخص تعريف المجاز أنه ضـد الحقيقة ، و تفسير هذا الملخص يكـــون بشرح العناصر الثلاثة التي ذكرها في تعريفه و هي :

(الاتساع) ، (و التوكيـد) ، (و التشبيه) ، و هي مالا بد أن تشتمل

---

(١) الموازنـــة : ١/ ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) الخصائص ٢ / ٤٤٢ .

عليه جملة المجاز .

كذلك يجب إيراد قرينة تدل على المعنى المراد ، وأن المعنى الموضوع استعمل في غير معناه الأصلي .

ويطبق هذا الشرح على قوله صلى الله عليه وسلم :

في الفرس (هو بحر) (١)

وهذا الحديث توجد فيه المعاني الثلاثة .

أما الاتساع فلأنه زاد في أسماء الفرس التي هي فرس طِرف وجواد ونحوها البحر ، حتى انه ان احتيج إليه في شعر أو سجع أو اتساع استعمل استعمال بقية تلك الأسماء ، لكن لا يفضى إلى ذلك إلا بقرينة تسقط الشبهه)) (٢)

فالمعنى الأول متوفر وذلك أنه اتسع عليه أفضل الصلاة والسلام في استعماله الألفاظ ، فاستعمل (بحر) اسما للفرس ، وعلى هذا الأساس يمكن أن تستعمل كلمة بحر للدلالة على الفرس ، في كل مجازات العرب ولكن بشرط إيراد قرينة تدل على المراد ، ولقد ضرب ابن جنى عدة أمثلة لذلك ، منها قول الشاعر :

علوت مطا جوادك يوم يوم
وقد ثَمَد الجِياد فكان بحراً (٣)

---

(١) في كتاب الجهاد من صحيح البخارى : ((عن أنس بن مالك قال : كان فزع بالمدينة ، فاستعار النبي صلى الله عليه وسلم فرسا لنا يقال له مندوب ، فقال : ما رأينا من فزع ، وان وجدناه لبحرا)) .

(٢) الخصائص ٢ / ٤٤٢ .

(٣) ثمد : الثَّمْد ، الثَّمَد : ((الماء القليل الذى لا مادّ له وقيل : هو القليل يبقى في الجَلد)) اللسان مادة (ثمد) ٣/١٠٥ .

وكأن يقول الساجع : فرسك هذا إذا سما بغرته كان فجراً وإذا جرى إلى غايته كان بحراً ، أو نحو ذلك ، ولو تعرى الكلام من دليل يوضح الحال لم يقع عليه بحر ، لما فيه من التعجرف في المقال من غير إيضاح ولا بيان ، ألا ترى أن لو قال : رأيت بحرا ، وهو يريد الفرس لم يعلم بذلك غرضه ، فلم يجز قوله : لأنه الباس والغاز على الناس)).(١)

إذن فالضابط في معنى التوسع - اى استعمال الكلمة في غير ما وضعت له في أصل اللغة توسعاً - ، وجود قرينة تعرف منها قصد المتكلم .

ففي قول الشاعر (علوت مطا جوادك) دليل أن المقصود بقوله (بحر) الجواد ، ولولا القرينة لا لتبس الأمر ولم تفهم غرض المتكلم .

المعنى الثاني : التشبيه :

يقول (ابن جنى) ((وأما التشبيه فلأن جريه يجرى في الكثرة مجرى مائه)).(٢)

والملاحظ أن المجاز يحمل في طياته معنى التشبيه أيضا ، وذلك أنه شبه الفرس في سرعته وجريه بالبحر في اتساعه وتدفقه .

المعنى الثالث : التوكيد :

يقول (ابن جنى) ((وأما التوكيد فلأنه شبه العَرَض بالجوهر ، وهو أثبت في النفوس منه ، والشبه في العَرَض منتفيه عنه ، ألا ترى أن من الناس من دفع الأعراض ، وليس أحد دفع الجواهر)).(٢)

---

(١) الخصائص ٢ / ٤٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٤٤٣ .

و مثال آخر قول الشاعـــر :

تغلغل حب عُثمـــة في فؤادى

فباديه مع الخافى يسير (١)

أى فباديه إلى الخافى يسير ، اى فباديه مضموما إلى خافيه يسير ،وذلـك أنه لما وصف الحب بالتغلغل فقد اتسع به ، الا ترى انه يجوز على هـــــذا أن تقول .

شكوت اليها حبها المتغلغلا

فما زادها شكواى الا تدلُّلا (٢)

فيصف بالتغلغل ما ليس أصله في اللغة أن يوصف بالتغلغل وانما ذلـك وصف يخص الجواهر لا الأحداث ، ألا ترى أن المتغلغل في الشيء لا بـــد أن يتجاوز مكانا إلى آخر ، وذلك تفريغ مكان ، وشغل مكان ، وهذه أوصاف تخص في الحقيقة الأعيان لا الأحداث ، فهذا وجه الاتساع ، وأما التشبيــه فلأنه شبه مالا ينتقل ولا يزول بما يزول وينتقل .

أما المبالغة والتوكيد : فلأنه أخرجه عن ضعف العرضية الى قوةالجوهرية)) . (٣)

اى أكد غرضه بأن أكسبه قوة الجوهرية ، وبعد أن كـــان مكتسبـــا ضعـــف العرضيـــة ، حتى وصفه بالتغلغل فأكسبه قوة الجوهريـــة

وهكذا يمضي (ابن جنى) يبدى رأيه في المجاز ،ويدعمه بالأمثلـــة شارحا موضحا .

حتى وصل به المطاف إلى ما يسمى (بالشجاعة في اللغة) من الحـــذف

---

(١) البيت من الوافر وقائله : عبيد الله بن عبد الله بن عتبه .

(٢) البيت من الطويـــل .

(٣) الخصائص ٢ / ٤٤٤ .

والزيادة والتقديم والتأخير وشرحه بأمثلة متعددة .

وفي النهاية جعل المجاز يلحق بعامة الأفعال ، نحو (قام زيد) (وقعد عمرو) ، (انطلق بشر) ، (وجاء الصيف) ، فهذه كلها من المجاز ، لأن الفاعل كان منه القيام أي هذا الجنس من الفعل ، ولا يمكن أن يكون حصل من الفاعل (زيد) كل القيام ، لأنه يكون بذلك ينطبق عليه قيام الماضي والحاضر والمستقبل ، وهذا لا يجتمع لانسان واحد في وقت واحد ، بل ((هذا محال عند كل ذى لب ، فإذا كان كذلك علمت أن قام زيد مجاز لا حقيقة ، وإنما هو على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة ، وتشبيه القليل بالكثير)) (١)

ولقد استدل (ابن جنى) على أن الفعل لا يكون ولا يحصل من فاعله كله ، وإنما اطلق على الجميع مجاز .

وخلاصة رأى ابن جنى في المجاز :

ان المجاز أوسع من التشبيه البليغ ، والاستعارة والمجاز المرسل ، وهذه الدائرة المتسعة ، قد جعلت من التشبيه فرعا في المجاز بل كما سبق أن ذكرت عن (ابن جنى) أنه جعل اللغة العربية أكثرها مجازا وهذا الموضوع واسع جدا حتى أصبح قضية لها أنصارها ، ولها منكروها وهناك من وقفوا وسطا فيها .

الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) ودوره في قضية المجاز :

يعد (الباقلاني) أحد أبرز أعلام القرن الرابع ، كتب في الاعجاز بإفاضة ولقد أثبت أن القرآن الكريم نسيج وحده ، وأن أدب البشر مهما

---

(١) الخصائص ص ٢ / ٤٤٨ .

سما فإنه لن يصل إلى درجة بلاغة القرآن الكريم ، ولقد اقتضى تقرير الباقلاني هذا دراسة النصوص الأدبية دراسة فاحصة شاملة وكذلك دراسة الصور البلاغية من استعارة وتشبيه وتمثيل ومطابقة وتجنيس وغير ذلك .

ومع هذا فإن دراسته للمجاز لم تكن إلا من خلال الإستعارة .

القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) :

لقد كان (القاضي عبد الجبار) أحد أئمة الاعتزال المدافعين عنها بحماس بالغ ، وبمقدرة منقطعة النظير ومن خلال هذا الدفاع استطعنا أن نتبين موقفه من المجاز ، ونستطلع وجهة نظره ، فقد تدرج بالبحث العلمي لهذا الموضوع ، حتى وصل إلى النقطة التي انتهى غيره عندها وأضاف إليها ما يعرف (بعلاقة الفاعليه) .

وسنلاحظ أن (القاضي عبد الجبار) قد انتهى إلى ما وصلنا الآن عن المجاز عندما أتم حديث علاقات المجاز الست المعروفة .

وسوف أبدأ بإذن الله بتحليله لقوله تعالى :

١ - (وجاءوا على قميصه بدم كذب) [1] . يقول :

((فأما قوله : (بدم كذب) فمن أحسن ما يوجد في مجاز الكلام أنهم صوروه بخلاف صورته فصار كالكذب ، ويحتمل أن يكون المراد بدم واقع من كاذب على معنى قوله : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) [2] ، أي أهلها وسكانها)) .[3]

لقد افترى اخوة يوسف ، فقالوا لأبيهم : هذا دم يوسف وهو في الحقيقة دم غيره ، فهذا الكذب الذى قال به اخوة يوسف لأبيهم إنما وقع على الدم

---

(١) سورة يوسف من آية ١٨ . (٢) سورة الأنبياء آية ١١ .

(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١٩٠ / دار النهضة الحديثة - بيروت لبنان .

مجازاً ، وإن الذى قام بمهمة التلفيق والكذب هذه هم إخوة يوسف ، وتقد يرهم في الإعراب فاعل ، وهو ما يعرف بعلاقة الفاعلية .

وقد جرى الشيخ عبد القاهر الجرجاني على نفس الطريقة ، إذ حد المجاز العقلي ، فقال : ((كل جملة أَخْرَجَت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول)) .(١)

فعمم (المجاز) بأنه في كل جملة أفادت معنى غير المعنى الموضوعة له ومثل له بقولهم : نهارك صائم وليلك قائم ، وقوله تعالى (فما ربحت تجارتهم)) (٢) ، وقول الفرزدق :

سقاها خروق في المسامع لم تكن
علاطاً ولا مخبوطة في الملاغم (٣)

ثم بين جهة المجاز ، فقال : ((أنت ترى المجاز في هذا كله ، ولكن لا في ذوات الكلم وأنفس الألفاظ ، ولكن في أحكام أجريت عليها . أفلا ترى أنك لم تتجوز في قولك : نهارك صائم وليلك قائم ، في نفس صائم وقائم ، ولكن في أن أجريتها خبرين على النهار والليل .

وكذلك ليس المجاز في الآية في لفظة (ربحت نفسها) ولكن في إسنادها إلى التجارة ، وهكذا الحكم في قوله سقاها خروق .. الخ ليس التجوز في نفس سقاها ولكن في أن أسندها إلى الخروق)) .(٤)

كذلك : ((ومما طريقة المجاز فيه الحكم ، قول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت
فإنما هي إقبال وإدبار

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٤٨ . (٢) سورة البقرة من الآية ١٦ .
(٣) بحثت عن البيت في ديوان الفرزدق فلم أجده / دار بيروت للطباعة والنشر ، جزء٢ن .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٢٨٦ .

وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما، فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة ، وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر لغلبة ذاك عليها ، واتصاله بها ، وانه لم تكن لها حال غيرها ، وكأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار)). [1]

فيفهم من كلام (عبد القاهر) أن التجوز في جعل الاقبال والادبار خبرا عن الناقة .

كما جعل من المجاز الحكمي النسب الإضافية فقال : ((وما يجب أن يعلم في هذا الباب أن الإضافة في الاسم كالإسناد في الفعل ، فكل حكم يجب في إضافة المصدر من حقيقة ومجاز فهو واجب في إسناد الفعل)) [2] ومثل لذلك بقوله : ((أعجبني وشي الربيع الرياض ، وصوغه تبرها وحوكه ديباجها)). [2]

فالمجاز الحكمي (أو العقلي) عند عبد القاهر واقع في الكلام ، سواء كان بين الفعل وفاعله أو المبتدأ والخبر أو النسب الاضافية .

٣ - ومن الآيات التي وجهها القاضي عبد الجبار على المجاز قوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) [3] يقول فيها :

((قالوا : ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه الفاعل لتصرف العبد وكسبه فقال : ((فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)). [3] ، فأضاف قتلهم ورميهم إلى نفسه .

والجواب عن ذلك : إن ظاهر الكلام يقتضي أنه تعالى هو الذى قتل الكفار دون المؤمنين ، وذلك يوجب في كل قتل أن يكون تعالى فعله ، وأن يوصف بأنه قتل الأنبياء والصالحين .

---

(١) دلائل الاعجاز ٢٩٢ .

(٢) أسرار البلاغة ٣٤٤ .

(٣) سورة الأنفال من الآية ١٧ .

وبعد ، فإن حمله على ظاهره يوجب التناقض ، لأنه تعالى أثبت له بقوله : (إذ رميت) ثم نفاه عنه بقوله : (وما رميت ولكن اللّه رمى) فلا بد من تأويله على خلاف الظاهر ، ومتى وجب الدخول في التأويل بطل التعلق لهم بالظاهر .

والمراد بالآية أنه تعالى بين للمؤمنين أن ما فعلوه من قتل الكفار لم يكن على جهة الاستبداد منهم وبحولهم وقوتهم ، وأنهم وصلوا إليه بمعونته تعالى وألطافه ، لأنهم لو لم ينصرهم بالإمداد بالملائكة والربط على القلب وتثبيت القدم والقاء الرعب في قلوب الكفر لم يتم عن قتلهم ما تم ، وقد بينا جواز إضافة الطاعة إليه تعالى اذا وقعت بتيسيرة وألطافه ومعونته .

فأما قوله تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فقد يصح حمله على ما قلناه ، لأنه بألطافه وتأييده تم له في الرمى ما تم) .[1]

وهذا ما عرف فيما بعد بالمجاز العقلي حسب ما عرفه الشيخ عبد القاهر وذلك لأن (إسناد القتل والرمى إلى اللّه تعالى كما هو ظاهر الآية ليس من قبيل الحقيقة وإنما فقط لأنه أعان عليه بأية جهة من جهات العون التى ذكرها لتثبيت القدم ، والربط فكان سببا في قتلهم وإيصال الرمى إليهم ، وهذا هو المجاز العقلي حسب ما تعارف عليه المتأخرون) [2] .

وفي قوله تعالى ((وربما قيل في قوله تعالى : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم) [3] كيف تصح الشهادة من اللسان ؟

وجوابنا : بأن ينطقه الله ، وكذلك الكلام في أيديهم وأرجلهم وفي ذلك زجر عظيم لأن المقدم على الذنب إذا تصور أنه يجزى عليه في الآخرة بهذه الشهادة كان ذلك من أعظم زواجره .

---

(١) المتشابه ص ٣١٧ وفي تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١٥٩ .
(٢) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار للدكتور عبد الفتاح لاشين ، ص ٣٥٢ دار الفكر العربي .
(٣) سورة النور من الآية ٢٤ .

فإن قيل ما اللسان واليد والرجل هي المتكلم بهذه الشهادة ؟

قيل له : هذا هو الظاهر والله عز وجل قادر على أن يحييها مفردة لتتكلم بهذه الشهادة ، كما روى عنه صلى الله عليه وسلم - في الذراع أنها كلمته (وقالت : لا تأكلني فإني مسمومة) .

وإلى هذا فالكلام يشير به إلى الحقيقة ، وليس هناك خروج عنها ، ثم قال : ((ومن العلماء من يقول : هذه الشهادة من فعل الله تعالى فإن وجدت في الأعصاب فيكون الله تعالى المتكلم وأضيفت الشهادة إليها على وجه المجاز)). (١)

ففي الآية الكريمة معنى حقيقي ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن ينطق هذه الجوارح بالشهادة ، ويكون ذلك من أعظم الزواجر للمذنب إذا تصور أنه يجزى عليه في الآخرة بهذه الشهادة .

ويصح فيها المجاز ، على إسناد الشهادة التي هي لله تعالى إلى محلها وإلى ما تكون به وهو الألسنة ، والأرجل والأيدى على معنى المجاز العقلي .

وهذا ما يعرف بالمجاز الذى علاقته المحلية .

٤ - ((قال القاضي : قوله تعالى : (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيباً) (٢) لا يدل على أن في ذلك اليوم يخاف الولدان ويعذبون ، وذلك أن هذه الطريقة تذكر لعظم حال يوم القيامة يبين ذلك أنه تعالى أضاف ذلك الى اليوم وقد علمنا أن اليوم لا يجعل ولا يفعل وأن الفاعل سواه)). (٣)

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) سورة المزمل من الآية ١٧ .

(٣) المتشابه ص ٦٦٩ .

كما يقول في كتابه تنزيه القرآن : « كيف يصح وصف اليوم بذلك وكيف يضاف إليه ؟ وجوابنا أن المراد ما يحصل في ذلك اليوم من الأهوال فضرب له هذا المثل ، كما يقال مثله في المخاطبات عند ذكر الأمور الهائلة »(١)

فأسند جعل الولدان شيبا الى (اليوم) (والزمن) ، وهذا ليس حقيقيا وإنما أسند اليه لأن هذه الأهوال العظيمة تقع في ذلك اليوم .

ما أن أتى زمن ابن رشيق القيرواني الا وقد وضحت صورة المجاز، فعرفه قائلا :

(ومعنى المجاز طريق القول ومأخذه ، وهو مصدر (جزت مجازاً) كما تقول قمت مقاما ، وقلت مقالا من كلام عبد الله بن مسلم بن قتيبة في المجاز ، قال : لو كان المجاز كذبا لكان أكثر كلامنا باطلا ، لأنا نقول نبت البقل وطالت الشجرة وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص السعر ، ونقول : كان هذا الفعل منك في وقت كذا والفعل لم يكن ، وإنما يكون ، وتقول : كان الله ، وكان بمعنى حدث ، والله قبل كل شيء ، وقال في قول الله عز وجل : (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه)(٢) لو قلنا لمنكر هذا كيف تقول في جدار رأيته على شفا انهيار ؟ لم يجد بدا من أن يقول : يهم أن ينقض ، أو يكاد أو يقارب ، فإن فعل فقد جعله فاعلا ، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من ألسنة العجم إلا بمثل هذه الألفاظ)(٣)

ثم تعرض ابن رشيق لقضية ، أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، حيث يقول :

« والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع ، وماعدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالا محضا

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٤٣٩ .

(٢) سورة الكهف من الآية (٧٦).

(٣) العمدة ١/ ٢٦٦ توفى ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) .

فهو مجاز لاحتمال وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز ، إلا أنهم خصوا به ، أعني اسم المجاز بابا بعينه وذلك أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب كما قال جرير بن عطيه :

اذا سقط السماء بأرض قوم
رعيناه وان كانوا غضابا (١)

ويقول الدكتور عبد العظيم المطعني عن هذه الفكرة بأنها محدثة إذ ابتدأها ابن رشيق فقط ولم يسبقه غيره إليها .

(وبعد هذا نرى ابن رشيق يعرض لقضية ما نحسب أحدا قبله عرض لها ، وهي أبلغية المجاز على الحقيقة). (٢) وفي الواقع ان أبلغية المجاز الحقيقية واضحة في رسالة الرماني . ولقد أجرى ابن رشيق المجاز على هذا البيت قائلا :

((أراد المطر لقربه من السماء ، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب ،لأن كل ما أظلك فهو سماء ، وقال (سقط) يريد سقوط المطر الذى فيه ، وقال (رعيناه) ، والمطر لا يرعى ، ولكن اراد النبت الذى يكون عنه ، فهذا كله مجاز))(٣)

ففي نص عبارة ابن رشيق جواز أن يريد الشاعر من السماء المطر ويصح أن يريد بها السحاب ، وذلك لأن كل ما أظلك فهو سماء .

ولا أعتقد أن هذا التعليل ينطبق على بيت الشاعر ، ذلك أن الشاعر يريد من قوله (السماء) المطر ، لأنه يقول : (سقط) ولا يكون السقوط الا للمطر وكذلك (رعيناه) ولا يكون الرعي الا لما تسببه المطر .

---

(١) العمدة ١/ ٢٦٦ .
(٢) المجاز في اللغة والقرآن الكريم ١/ ٢١٤ .
(٣) العمدة ١/ ٢٦٦ .

مع أنـه شرح بنفسـه معـنى (سقـوط) و (رعينـاه) .

والجاحظ قد فسـر هذا البيت على أن الشاعر أراد بالسماء الرعي الذي يكون منـه المطـر .(١)

(١) انظر ص ١١٩ / ١٢٠ من البحث رأى الجاحـظ .

المبحث الثاني

خاصة جهود عبد القاهر

وبعد أن بينت مجهودات العلماء السابقين في علم المجاز ، فإني سوف أستعرض مجهودات (الشيخ عبد القاهر) - بإذن الله - والتي كانت علما واسعا غزيرا ، مؤيدا بشواهد وأدلة مقنعة ، فخلص بذلك كله إلى قواعد هذا العلم وحدّه بما لم يسبقه غيره إليه ولم يهتد إليه من أتى بعده . لأنه انتبه إلى أدق التفصيلات في علم البلاغة . ولن استطيع ، ولا أى دارس أن يستقصى ما اشتملت عليه بحوثه في دراسة واحدة . لغزارة ما كتب ودقة ما وضح وفصل .

لذا آثرت هنا أن أبين الخطوط الرئيسية في موضوع المجاز ، لأنه ليس يغني عن الرجوع إلى مؤلفاته.

١ - يقول (الشيخ عبد القاهر) عن تعريف المجاز إنه . ((كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز ، وإن شئت قلت : كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى مالم توضع له ، ومن غير أن تستأنف فيها وضعا ، لملاحظة بين ما تجوز بها إليه . وبين أصلها الذى وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز)) (١).

٢ - ومن مجهودات الشيخ عبد القاهر البارزة ، أنه أخضع موضوع المجاز لنظرية النظم ، وهذا مالم ينظر إليه أحد قبله ، ذلك أنه رأى أن النقل في المجاز ليس في ذات اللفظ ، وإنما في معناه ، يقول :

(هو أن يكون التجوز في حكم يجرى على الكلمة فقط ، وتكون الكلمة

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٢٠ .

متروكة على ظاهرها ، ويكون معناها مقصودا في نفسه ، ومرادا من غير تورية ولا تعريض . والمثال فيه قولهم :

نهارك صائم ،وليلك قائم ، ونام ليلي وتجلى همي ،وقوله تعالى (فما ربحت تجارتهم)(١) . وقول الفرزدق :

سقاها خروق في المسامع لم تكن
علاطا ولا مخبوطة في الملاغم (٢)

أرد الشاعر أن يقول ، ان هؤلاء القوم من الشهرة بحيث عرفت ابلهم من خروق في آذانها ، وهي علامة مميزة انفرد بها قوم الفرزدق ، لذلك قدمها في الشرب على ابل غيرهم .

وهذا المعنى غير ما أشار اليه المعلق في الحاشية ، حيث يقول : (ذكر ابل قوم من السادة ضلت فعرف الناس من علاطها أصحابها ، فسقوها وعنوا بها)(٢) .

والواقع أن الشاعر قال : (لم تكن علاطا) فكيف يصح أن تكون صفة هذه الابل .

ثم يتابع (الشيخ عبد القاهر) قوله :

((فان قيل : قولك الا النظم يقتضي اخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز ، وذلك ما لا مساغ له . قيل ليس الأمر كما ظننت ، بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز ،

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٦ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٨٦ والبيت من الطويل .
خروق : الخرق : الرجة وجمعه خروق . انظر اللسان ١ / ٧٣ مادة خرق .
علاط : العلاط : وسمة في عرض عنق البعير والناقة . انظر اللسان ٧ / ٣٥٣ مادة (علط) .
مخبوطة : خبط فهو مخبوط . وخبطه خبطا : وسمه بالخباط وهو الوسم في الوجه . انظر اللسان ٧ / ٢٨٣ .
ملاغم : ما حول الفم الذى يبلغه اللسان . انظر اللسان مادة (لغم) ١٢ / ٥٤٥ .

وذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو))(١) .

٣ - ومن جهود الشيخ عبد القاهر الخاصة في هذا الموضوع ، أنه قسمه الى قسمين :

أ - مجاز عقلي

ب - مجاز لغوى .

وأخذ في حد كل قسم وبيانه ، وضرب أمثلته ، وان كان المجاز العقلي عرف فيما سبق عند العلماء الأوائل ، الا أن أحدا لم يضع له هذا الاسم وكذا المجاز اللغوى الذى يقول في حده : (انك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها ، ولكن تريد معنى ما هو ردف له أو سببه ، فتجوزت لذلك في ذات الكلمة وفي اللفظ نفسه)(٢) .

٤ - وكان من جهود الشيخ عبد القاهر في المجاز العقلي قضية :
<u>هل لكل مجاز حقيقة يرجع اليها ؟ :</u>

فكانت اجابة الشيخ عبد القاهر الفاصلة في هذا الموضوع أنه ليس بلازم ، ففي المجازات مالا يعهد وجود فاعل له ، وقد خالفه جمهور البلاغيين ، مثل فخر الدين الرازى ، والخطيب القزويني ، وهذه المسألة مبسوطة فى كتب البلاغة المتأخرة . يقول في ذلك :

((اعلم أنه ليس بواجب في هذا أن يكون للفعل فاعل في التقدير ، اذا أنت نقلت الفعل اليه عدت به الى الحقيقة ، مثل أنك تقول في : (ربحت

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

تجارتهم) ربحوا في تجارتهم ، وفي (يحمى نسائنا ضرب) : نحمى نسائنا بضرب ، فإن ذلك لا يتأتى في كل شيء ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل في قولك : أقدمني بلدك حق لي على إنسان فاعلا سوى الحق ، وكذلك لا تستطيع في قوله :

وصيرني هواك وبي ... لحينى يضرب المثلُ (١)

وقوله - أبو نواس -

يزيدك وجهه حسنا ... إذا ما زدته نظرا (٢)

أن تزعم أن لصيرني فاعلا ، قد نقل عنه الفعل ، فجعل للهوى كما فعل ذلك في (ربحت تجارتهم) (ويحمى نسائنا ضرب) ولا تستطيع كذلك أن تقدر ليزيد في قوله : يزيدك وجهه فاعلا غير الوجه ، فالاعتبار اذن بأن يكون المعنى الذى يرجع إليه الفعل موجودا في الكلام على حقيقته)) . (٣)

يقرر الشيخ عبد القاهر أنه ليس واجبا تقدير فاعل لكل مجاز عقلي ، فمن المجازات ما يصح فيها تقدير فاعل ، ومنها مالا يوجد له في الاستعمال المشهور فاعل . ولقد ضرب لذلك ، الكثير من الأمثلة لإثبات رأيه .

---

(١) البيت من الوافر وقائله محمد بن اليزيدى .

(٢) البيت من الوافر وقائله أبو نواس .

(٣) دلائل الاعجاز ض ٨٨ ، ٢٨٩ .

٥ = كما كان من مجهوداته العظيمة في هذا الباب أنه اهتدى إلى دقائق معانيه على أن هذا الموضوع من الاتساع والشمول بحيث لم يلم شتاته باحث قبله . فقسم المجاز من حيث الطرفان ووجه الشبه والقرينة .

٦ = كما بين قيمة المجاز البلاغية :

للمجاز قيمة كبيرة ليس في المعاني البلاغية فقط ، بل لأن هذه المعاني تدخل في القرآن الكريم وتحتاج في تفسيرها إلى دراية بهذا العلم ، وخبرة في معرفة أصوله ، يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني :

(وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والإتساع في طريق البيان ، وأن يجيء بالكلام مطبوعا مصنوعا وأن يضعه بعيد المرام ، قريبا من الأفهام).(١)

ثم إن الشيخ عبد القاهر كأنه يرد على من يقولون أن المجاز العقلي لا ميزة فيه بدليل مثل هذه المجازات التي أصبحت كأنها حقائق ، فيتابع قوله :

((لا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يقول : أتى بي الشوق إلى لقائك ، وسار بي الحنين إلى رؤيتك ، وأقدمني بلدك حق لي على إنسان وأشباه ذلك مما تجده لسعته وشهرته يجري مجرى الحقيقة التي لا يشكل أمرها ، فليس هو كذلك أبدا ، بل يدق ويلطف حتى يمتنع على مثله إلا على الشاعر المفلق والكاتب البليغ ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها ، والنادرة تأنق لها)).(٢)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٨ .

ولقد بدأت نقطة خلاف بين الباحثين حول من الذى ابتكر المجاز العقلي وما الذى يقصده (الدكتور طه حسين) حين قال :

((ولكي يقرر عبد القاهر مذهبه هذا ، فإنه يتعمق في دراسة المجاز والتشبيه تعمقا لم يسبق إليه ، ولكن من غير أن يخرج بحال من الحدود التي رسمها أرسطو ، أما المجاز العقلي ، فهو من ابتكار (عبد القاهر) ، ويصح أن نسميه المجاز الكلامي)) .(١)

إن كلام (الدكتور طه حسين) يدل على أن (عبد القاهر) صاحب المجاز العقلي ويدل على ذلك كلمة إبتكار ، ثم إنه مع ذلك يراه دائرا في فلك أرسطو .

ومع هذا فقد بعد (الدكتور أحمد مطلوب) عن فهم مقصد (الدكتور طه حسين) ، حيث يقول : ((ولا نظن أن المقصود بكلام الدكتور طه حسين أن نقول عبد القاهر هو الذى أوجد هذا الفن ، وإنما قصده أنه وضع لهذا اللون من المجاز مصطلحا فسماه عقليا وإسناديا وحكميا ، وفي الاثبات ميزة عن الآخر وفصل القول فيه ، والأمثلة التي ذكرها وأعادها الدكتور تدل على أنه لون عرفه العرب منذ الجاهلية ، وجاء في القرآن)) .(٢)

ونجد (الدكتور أحمد مطلوب) يسير على طريقة (الدكتور محمد أبوموسى) في عدم نسبة إبتكار المجاز العقلي إلى عبد القاهر الجرجاني ، لأن (الدكتور شوقي ضيف) يقول : (والذى لا شك فيه أنه يعد مكتشف المجاز ، لا في الكلمات ، وإنما في الإسناد ، ولذلك سماه مجازا حكميا أو عقليا) (٣) .
ولقد ناقشه (الدكتور محمد حسنين أبو موسى) حين قال :

((حسبت أن هناك خطأ في الكتاب ، أو في ترتيب صفحاته ، فقد عهدت الاستاذ عافاه الله دقيقاً في فهمه الكثير من مسائل هذه اللغة

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٣٠ ، المنسوب لقدامة بن جعفر / المطبعة الاميرية ببولاق ، القاهرة ١٩٤١م .
(٢) عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده ، نشر وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ١ / بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م ، ص ٢٤٢ .
(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٥ ، ط ٤ / دار المعارف - القاهرة .

أما أن عبد القاهر مكتشف المجاز الحكمي فذلك باطل بدليل ما قدمناه من جهود السابقين على عبد القاهر).(١)

قضيـــة النعت بالمصادر :

هناك من الأبيات ما ترددت في كتب البلاغة ودارت حولها قضية ، نظرا لاختلاف آراء العلماء فيها ، ومن ذلك قول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت

فإنما هي اقبال وادبار (٢)

لقد استشهر هذا البيت منذ القدم ، فقد استشهد به(سيبويه)على التجوز في الإخبار عن اسم العين بالمصدر يقول : (فجعلها الإقبال والإدبار، فجاز على سعة الكلام ،كقولك نهارك صائم وليلك قائم).(٣)

ولقد قدم لشرح هذه القضية بقوله : (وأما قولك : إنما أنت سير فإنما جعلته خبراً لأنت ولم تضمر فعلاً ،وسنبين لك وجهه إن شاء الله).(٤)

فقد أجاز(سيبويه)أن نخبر ب (سير) عن أنت ، ولسنا في حاجة إلى تقدير فعل ، لأن المصادر يصح أن يخبر بها .

ولكن سنلاحظ أن هناك من سار على طريقة(سيبويه)وآخرون لم يسيروا . ومنهم من جوز الوجهين معاً مثل المبرد (ت ٢٨٥ هـ) حيث يقول : (كما قال الشاعر :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت

فإنما هي إقبال وإدبار

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ص ١٧٠ . دار الفكر العربي .
(٢) البيت من البسيط .
(٣) الكتاب ١/٣٣٧ . (٤) المصدر نفسه ١/٣٣٦ .

أى ذات إقبال وإدبار ، ويكون على أنه جعلها الإقبال والإدبار لكثـــرة ذاك منها). (١)

أى أن (المبرد) أجاز أن يكون في البيت تقدير محذوف فيكون على معـــنى ذات إقبال وإدبار .

كما يجوز أن تكون جعلتها الإقبال والإدبار . اى كأنما تجسمت الإقبال والإدبار كله . لتدل بذلك على تمكن الاضطراب والحيرة من الناقة أو البقرة لفقد وليدها ، ولتمكن الحزن والأسى من نفس الخنساء .

وهذا الرأى الأخير هو ما سار عليه (الشيخ عبد القاهر الجرجانـــي) - كما سنرى - .

ونلحظ (للآمدى) دورا هاما في هذا البيت . وما ذلك إلا أن الصورة قد وضحت في ذهنه ، فانعكس ذلك على كتاباته في هذا الموضوع ، ونضـــوج هذه الفكرة ليس وليد الساعة ، بل هي نتائج اعتمد في استخلاصها علـــى ما تقدم به سابقوه .

وهذا واضح في تعليقه على بيت الخنساء حين يقول : (فجعلت الناقة هي الإقبال والإدبار ، لأن ذلك كثر منها ، وإن شئت كان المعـــنى ذات إقبال وإدبار ، فأقمت المضاف إليه مقام المضاف ، فهذه طريقـــة الوصـــف بالمصادر). (٢)

---

(١) المقتضب ٣ / ٢٣٠ ومعنى بيت الخنساء : أنها ضربت الناقة مثـــلا لحالها عند فقدها أخاها صخرا . وذلك أنه في حال نسيان تلـــك الناقـــة أو البقرة وليدها فإنها ترتع ، ولكن عندما تعاودها ذكرى فقده ، تعود لحالة الاضطراب والحيرة ، فإذا هي مقبلة مدبرة .

(٢) الموازنة ١ / ١٧٣ ط / دار المعارف .

وحتى (الآمدي) سار على طريق (المبرد) في هذا البيت حيث أجاز أن يكون تقدير البيت : هي إقبال وإدبار ، لأن ذلك كثر منها ، وأجاز أن يكون التقدير على معنى ذات إقبال وإدبار .

فا (الآمدي) بين في هذا النص غرض الوصف بالمصدر ، وأنه يصح في حالة خاصة وهي المبالغة .

ويعقب على تقريره هذا أمثلة متعددة لبيين غرضه ووجهة نظره حيث يقول : ((ولكن قد تستعمل هذه المصادر وصفا على نحو ما ذكرته فيقال : هند الحسن كله ، ودعد الجمال أجمعه ، وزيد الهرم أقصاه وعبد الله البغض نفسه والتيه عينه ، فإن شئت كان المعنى هند صاحبة الحسن كله ودعد ذات الجمال أجمعه ، وزيد أخو الهرم ، وعبد الله ذو التيه ، فأقمت المضاف اليه مقام المضاف)) .(١)

أما ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) : فانه لا يرى في هذا البيت تقدير محذوف وذلك حفاظا على المعنى المطلوب وهو المبالغة . ولم ير فيه وجها آخر يقول : ((وما كان مثله ، من قبل أن من وصف بالمصدر فقال : هذا رجل زور وصوم ، ونحو ذلك ، فإنما ساغ ذلك له لأنه أراد المبالغة ، وأن يجعله هو نفس الحدث ، لكثرة ذلك منه ، والمرة الواحدة هي أقل القليل من ذلك الفعل ، فلا يجوز أن يريد معنى غاية الكثرة ، فيأتي لذلك بلفظ غاية القلة ولذلك لم يجيزوا زيد إقباله وإدباره قياسا على زيد إقبال وإدبار)) .(٢)

وإن (ابن جنى) لا يرى ذلك الوصف بالمصدر جائزا فقط بل هو الوجه المطلوب ، لأن القائل يريد المبالغة فجعله نفس الحدث لكثرة حدوثه منه .

---

(١) الموازنة ١ / ١٧٣ .

(٢) الخصائص ٣ / ١٨٩ .

وهولا يرى ذلك وجها مطلوباً بل هو الأقوى . يقـول :

((وأقـوى التأويلين في قولها :

(فإنما هي إقبال وإدبـار)

أن يكون من هذا ، أى كأنها مخلوقة من الإقبال والإدبار لا على أن يكون من باب حذف المضاف أى ذات إقبال وذات إدبار ، ويكفيك من هذا كلـه قول الله عز وجل (خلق الانسان من عجل)) (١) وذلك لكثرة فعله اياه ، وإعتياده له . وهذا أقوى معنى من أن يكون أراد : خلق العجل من الإنسان لأنه أمر قد اطرد واتسع ، فحمله على القلب يبعد في الصنعة ويصفّر المعنى وكأن هذا الموضع لما خفى على بعضهم قال في تأويله : إن العجل هنـا الطين ، ولعمرى إنه في اللغة كما ذكر ، غير أنه في هذا الموضع لا يراد بـه إلا نفس العجلة والسرعة)) .(٢)

ولقد أعاد الحديث عن هذا البيت ، وأنه على المصدر نفسه للمبالغـة وهذا من ألطف الوجوه وأصنعها . يقـول :

إن شئت على وجه آخر أصنع من هذا وألطف ، وذلك أن تجعلـه نفسه هو المصدر للمبالغة كقول الخنساء :

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكـرت
فإنما هي إقبال وإدبـار

إن شئت على ذات إقبال وإدبار ، وإن شئت جعلتها نفسها هي الإقبال والإدبار ، أى : مخلوقة منها ، ويدلك على أن هذا معنى عندهم لا علـى حذف المضاف ، بل لأنهم جعلوه الحدث نفسه)) (٣) وذلك لأن المعنى فـي

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٣٧ .

(٢) الخصائص ٢ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٣) المحتسب ٢ / ٤٦ تحقيق : على النجدى ناصف ، الدكتور عبد الفتاح شلبي لجنة احياء التراث الاسلامي بمصر / القاهر) ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م .

البيت يختلف عنه في الآية الكريمة (واسأل القرية) اى : أهلها هكذا علقت عن أبي على في تفسير هذه اللفظة ، وقت القراءة عليه).(١)

وآن لي الآن أن أبين رأى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني)، وسوف أبين بإذن الله - مدى صلة هذا الرأى (بسيبويه) وصلته (بابن جنى) الذى سار (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) على نفس طريقته في التحليل فاعتمد عليه في نفس الفكرة ذاتها ، وإن كان قد استعار بعض ألفاظ (ابن جنى) . كما سنرى أنه اعتمد فى طريقة عرض الأمثلة لكلامه على الآمدى وإن اختلفت تلك الأمثلة .

يقول (الشيخ عبد القاهر):

(ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت
فإنما هي إقبال وإدبار

وذاك أنها لم تُرد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها ، وأنه لم يكن لها حال غيرها كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار ، وإنما كان يكون المجاز في نفس الكلمة لو أنها كانت قد استعارت الإقبال والإدبار لمعنى غير معناهما الذى وضعا له في اللغة ، ومعلوم أن ليس الاستعارة مما أرادته في شيء).(٢)

(فالشيخ عبد القاهر الجرجاني) يرى أن الخنساء أرادت أن تصف شدة إقبال وإدبار هذه الناقة ، كأنها تجسدت من الإقبال والإدبار نفسه .

---

(١) سر صناعة الاعراب لابن جنى جـ١ ٢٤ ط١ ١٤٠٥ تحقيق/ د . حسن هنداوى .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٩٢ .

ولم يكن مجازا في نفس الكلمة ، لأنها لم تستعر الإقبال والإدبار لغير معناهما الذى وضعا لأجله في اللغة . ثم يتابع تعليقه على هذا البيت قائلا :

((واعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معد ما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، مثل قوله عز وجل :

(واسأل القرية)[1]))[2] .

فهو يخرج هذا البيت من دائرة تقدير محذوف مثل (ابن جني) ، لأن المعنى في البيت كما قدم يختلف عنه في الآية الكريمة .

ويصر الشيخ عبد القاهر الجرجاني على رأيه هذا مثل ابن جنى ، بل يعد تقدير محذوف يخرج البيت من البلاغة إلى شيء تافه باهت ، وكأنه يرد على المبرد ومن له مثل رأيه . يقول :

لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذا نحن قلنا : فإنما هي ذات إقبال وإدبار : أفسدنا الشعر على أنفسنا ، وخرجنا إلى شيء مفسول ، وإلى كلام عامي مرذول ، وكان سبيلنا سبيل من يزعم مثلا في بيت المتنبي :

بدت قمرا ومالت خُوط بان
وفاحت عنبرا ورنت غزالا[3]

أنه في تقدير محذوف ، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت : بدت مثل قمر ومالت مثل خوط بان ، وفاحت مثل عنبر ورنت مثل غزال . :

في أنا نخرج إلى الغثاثة ، وإلى شيء يعزل البلاغة عن سلطانها ويخفض من شأنها ، ويصد أوجهنا عن محاسنها ، ويسد باب المعرفة

---

(١) سورة يوسف آية ١٨ .
(٢) الدلائل ص ٢٩٢ .
(٣) البيت من الوافر .

بها ، وبلطائفها علينا ، فالوجه أن يكون تقدير المضاف في هذا على معنى أنه لو كان الكلام قد جيء به على ظاهره ، ولم يقصد إلى الذى ذكرنا من المبالغة والاتساع ، وأن تجعل الناقة كأنها قد صارت بجملتها إقبالا وادبارا ، حتى كأنها قد تجسمت منهما) [1] .

يريد الشيخ عبد القاهر أن يقول : أن المعنى في بيت المتنبي في قوله : بدت قمرا ، ومالت خوط بان ، يختلف عن المعنى عند تقديره بدت مثل قمر ، ومالت مثل خوط بان ، لأن في هذا الكلام الأخير خروجا عن البلاغة بل هو كلام عار منها .

ولم يصح تقدير محذوف في بيت المتنبي ، ولا في بيت الخنساء ، لأن كلا منهما أراد المبالغة والاتساع . وهذا لا يتأتى إذا قدر محذوف.

---

(١) الدلائل ص ٢٩٣ .

الفصل الثالث

قضية اعجاز القرآن الكريم كما في الرسالة الشافية

(وبه ملحق الصرفة)

الفصل الثالث

قضية إعجاز القرآن
كما في الرسالة الشافية

لقد بلغ القرآن الكريم ذروة البلاغة ، مما استحق به أن يكون معجزة البيان العربي ، ولا غرو فالقرآن الكريم قد سحر العرب ، وهم أرباب البلاغة وفرسان البيان منذ اللحظة الأولى ، فأخذوا لذلك يبحثون عن السر وراء هذا الانقلاب السريع الذى خالج نفوسهم ، وقلب حياتهم رأساً على عقب ، حتى أصبح مبدأهم قوله تعالى : (قُل إن صلاتي ونُسُكِي ومَحْيَاى ومَمَاتى للهِ ربِّ العَالمِينْ ، لا شريك له ، وبذلك أُمِرْتُ وأنا أولُ المسلمين) (١) .

لقد أحدث القرآن ما أحدثه في نفوسهم وعقولهم ، مما دعاهم إلى تغيير مبادئهم ، وإلى أن ينهلوا من ورده الصافى ، يتلمسون مواضع بيانه وسره ، الذى سحرهم وهم قوم اشتهروا بالبلاغة والبراعة ، فكانت سلاحهم الذى يذود عنهم ، ولبيانهم الذى يسجل بطولاتهم وأخبارهم وأحوالهم بكل دقة وبراعة ، نراهم أمام روعة القرآن البيانية ، وقفوا مبهوتين مسحورين ، وان أدركوا الإعجاز بسلائقهم .

فماجت بفريق منهم الأرض واهتزت من تحت أقدامهم ، واضطربت نفوسهم حائرة ، بماذا يردون على هذا النبأ العظيم ، ومن ثم اختلط عليهم الأمر اختلاطاً حمل بعض سفهائهم على أن يقولوا مرة انه سحر ، ومرة إنه كلام بشر ، وثالثة أساطير الأولين .

كل هذا كان بعض محاولاتهم ، لأن يطفئوا نور الله بأفواههم ولكن يأبى الله الا أن يتم نوره .

واختلطت الأمور بعد عصر النبوة على بعض النفوس ، فنهض علماء المسلمين للدفاع عن القرآن ودحض الشبهات الدخيلة .

وكان (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) أحد من تصدوا للدفاع عن القرآن الكريم ، ورد كل الشبهة التى تحوم حول اعجازه ، فوقف معظم مؤلفاته على هذا الفرض ، وجعل هدفها الأول بيان الحق ، وجلاء كل صغيرة وكبيرة قد تحول بين المرء

---

(١) سورة الأنعام من الآية ١٦٢ .

وقلبـــه .

فجعل من (الرسالة الشافيـة) ، ومن (دلائل الاعجـاز) مرجعين هامين يستطيع كل معاند ، يرى في نفسه شبهة في اعجاز القرآن الرجوع اليهما ، حـيث يقف على أن العرب ، وهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان ، قد عجزوا عن الاتيـان بمثل القرآن الكريم ، أو محاولة التصدى له بأية محاولة ، ويجد الأدلة الدامغـة التي تهطـل كل شبهـة وتزيل كل ريب .

قال (الشيخ عبد القاهر) : ((هذه جُمل من القول في بيان عجز العرب ، حين تحدوا إلى معارضة القرآن ، وإذ عانهم وعلمهم أن الذى سمعوه فائت للقـوى البشرية ، ومتجاوز للذى يتسع له ذرع المخلوقين ، وفيما يتصل بذلك ، مما لـه اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ، ومراتبهم ، وبعلم الأدب جملة)) [1] .

اذاً فهدف الرسالة واضح ، وهو إثبات عجز العـرب عن معارضة القرآن ، وتقرير ذلك بكل ما يمكن من البراهين ، ودحض الشبهة ، بصرف دلالات الأحوال ، ودلالات الأقوال .

وهناك كثير من العلماء قد أجهدوا أنفسهم في تقصـي حقيقة الإعجاز وطبيعته لأن الإعجاز من الأمور التي تتعلق بجمال الكلام وفنونه وليس ظاهرة كونية ، كتلك التي أُنزلت على الرسل والأنبياء السابقين كقلب العصا حية ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبـرص .

بل هي حقيقـة تتعلق بموضوع جمال الكلام ، لأن آية التحدى تطالب بعشر سور من مثله ، أو بسورة ولو مفـتراه .

ومسألة الجمال تخضع للذوق والإحساس الخاص ، وخاصة أن العرب آنذاك قـد بلغوا مرحلة عظيمة في جمال القول والتفنن في الكلام والمُحاجّـة .

لهذا كان على الباحث في إعجاز القرآن الكريم ، أن يتتبـع نظرات السابقـين في إعجـاز القرآن الكريـم ، حتى يلمح بارقة أمل جديدة في وجوه إعجازه .

---

(١) الرسالة الشافية ص١١٧ / ضمن ثلاث رسائل ط ٣ ،ت ، محمد خلف اللـه أحمـد /د.محمد زغلول سلام .

لهذا سوف أعرض رأى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في إعجاز القرآن في رسالته الشافية ، ومن خلال ذلك سوف أعود برأيه إلى أصل قد يكون استمد منه أو من أوحى اليه بفكرة ، وكذلك أنوه بالآراء التى ردها وأبطلها .

وسأبدأ إن شاء الله (بالجاحظ ت٢٥٥ هـ) وأستطلع آراءه البيانية في إعجاز القرآن ، ولم أكن بذلك متخطية للعلماء السابقين ، ذلك أن البحث في إعجاز القرآن لم يكن محدداً لذاته أو منفرداً بمؤلفات خاصةٍ به ، ويدلنا على ذلك التاريخ الأدبي في القرن الثالث الهجرى ، الذى احتدم فيه الصراع بين الفِرق الكلامية ، فنشأت طوائف وجماعات لا مجال لذكر تاريخها هنا .

وعلى كلِ حال ، فأشهر ما أثر عن الجاحظ (رسائل الجاحظ) ، تحدث فيها عن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن بلاغة القرآن الكريم هو معجزته الكبرى .

يقول الجاحظ :

((إن محمداً صلى الله عليه وسلم مخصوصٌ بعلامة لها في العقل موقع كموقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة ، وللعرب عامة ، مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء والدهاة والحكماء وأصحاب الرأى والمكيدة ، والتجارب والنظر في العاقبة إن عارضتموني بسورة واحدة ، فقد كذبت في دعواى وصدقتم في تكذيبي))(١) .

إن دعوته صلى الله عليه وسلم عُرفت بين العرب عامة ، وانتشر تحديه للكافة ، بأن يأتوا ولو بسورةٍ واحدةٍ ، يعارضون بها القرآن الكريم ، فيصدقون ، ويكون كاذباً في دعوته .

وكانت حجته هذه من جنس ما عُرف لديهم وشاع بينهم من القول السديد والشعر البليغ .

هذا هو التحدى الذى قُوبل به العرب ، فلما لم تكن المعارضة والدعوة إليها صريحة قائمة ، ثبت عجزهم ، وبطلت دعواهم بعدم إعجاز القرآن .

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٢٧٣ / جـ ٣ / ط ١ ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م تحقيق عبد السلام هارون .

وإن هذه الفكرة قد تناولهـا (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في (الرسالة الشافيـة) حين قال :

((فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ، وفي مثل قريش ذوو الأنفس الأبيـة والهمم العلية ، والأنفة والحمية من يدعي النبوة ، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالـى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ به كل شريعـة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقاً وغرباً وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعـده إلى آخر ما صدع به صلى الله عليه وسلم ، ثم يقـول : وحجتي أن الله تعالى قـد أنزل عليّ كتاباً عربيـاً مبينـاً ، تعرفون ألفاظه ، وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه))(١) .

أي أن العرب ، قد عُرفت بحميتهـا ، ومقدرتها البالغة في المحاجة والمخاصمة وتعلم هي أن سلامتها بحميتهـا وسلامة أبنائها وذراريها في انشاء قول يماثل مـا أنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم لا يقولون مثل قوله ، وهو أسلم من خوض الحـروب وإتلاف النفوس والمهج ، يقول (الشيخ عبد القاهر) في ذلك :

((هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياسة ، ولهم دين ونحلة ، فيؤلب عليهم الناس ، ويدبر في إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفي قتل صناديدهم وكبارهم ، وسبي ذراريهم ، وأولادهم ، وعدته التي يجد بها السبيل إلى تأليـف من يتألفه ، ودعاء من يدعوه ، دعوى له إذا هي أبطلت بَطُل أمره كله ، وانتقـض عليه تدبيره ، ثم لا يعرض له في تلك الدعوى ولا يُشتغل بإبطالها مع إمكان ذلـك ومع أنه ليس بمتعـذرٍ ولا ممتنـع ؟ .

وهل مثل هذا إلا مثل رجل عرض له خصم من حيث لم يحتسبه فادعى عليه دعوى إن هي سمعت كان منها على خطر في ماله ونفسه ، فأحضر بيّنة على دعواه تلـك ، وعند هذا المدّعى عليه ما يبطل تلك البينـة أو يعارضها ، وما يحول على الجملـة بينه وبين تنفيذ دعواه ، فيـدع إظهار ذلك والاحتجاج به ، ويضرب عنه جملة ، ويدعه وما يريد من إحكام أمره وإتمامه ، ثم يصـير الحال بينهما إلى المحاربة وإلى الإخطار بالمهج والنفوس فيطاوله الحرب ويقتل فيها أولاده ، وأعزته ، وينهك عشيرته ويغـنم أمواله ولا يقـع له في أثنـاء تلك الحال أن يرجع إلى القاضي الذى قضى لخصمـه

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٢٠ .

ولا إلى القوم الذين سمعوا منه وتصوروه بصورة المُحِق . فيقول :

« لقد كانت عندى حين ادعى ما ادعى - بينة على فساد دعواه وعلى كذب شهود ه قد تركتها تهاوناً بأمره أو أنسيتها ، أو منع مانع دون عرضها »[1] .

وقضت الحكمة أن لا تلجأ أمة إلى الحرب ولا تدفع بأبنائها الى الموت ، وفي يدها أن تمنع ذلك بأقصر طريق ، وهو طريق الكلام .

إذ أن الخصم لم يكن يحاجهم بأكثر من معارضة القرآن بمثله . وقد عرض لهذه الشبهة (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في رسالته الشافية ، وكان مرجعه في ذلك الجاحظ الذى يقول :

((ومُحالٌ في التعارف ، ومستنكرٌ في التصادق ، أن يكون الكلام أقصر عندهم وأيسر مئونة عليهم ، وهو أبلغ في تكذيبهم ، وأنقض لقوله ، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه ، فيجتمِعُوا على ترك استعماله والإستغناء به ، وهم يبذلون مهجهم وأموالهم ، ويخرجون من ديارهم في إطفاء أمره ، وفي توهين ما جاء به ، ولا يقولون بل لا يقول واحد من جماعتِهم : لم تقتلون أنفسكم ، وتستهلكون أموالكم ، وتخرجون من دياركم ، والحيلة في أمره يسيره ، والمأخذ في أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاماً في نظم كلامه ، كأقصر سورة يحدّ لكم بها ، وكأصغر آيةٍ دعاكم إلى معارضتها ، بل لو نسوا ما تركهم حتى يذكرهم ، ولو تغافلوا ما ترك أن ينبههم ، بل لم يرض بالتنبِيه دون التوقيف ، فدل ذلك العاقل على أن أمرهم في ذلك لا يخلو من أحد أمرين :

إما أن يكونوا عرفوا عجزهم ، وأن مثل ذلك لا يتهيأ لهم فرأوا أن الإضراب عن ذكره ، والتغافلَ عنه في هذا الباب وإن قرّعهم به ، أمثل لهم في التدبير ، وأجدر أن لا يتكشف أمرهم للجاهلِ والضعيف ، وأجدر أن يجدوا إلى الدعوى سبيلاً وإلى محاربة الأنبياء سبباً . فقد ادعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه ، وهو قوله عزّ ذكره :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مِثلَ هذا)[2]

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٢١ .

(٢) سورة الأنفال آية ٣١ .

وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ثم لا يبذلون مجهودهم ولا يخرجون مكنونهم وهم أشد خلق الله عز وجل أنفة وأفرط حمية، وأطلب بطائله، وقد سمعوه في كل منهل وموقف.

والناس موكلون بالخطابات، مولعون بالبلاغات، فمن كان شاهداً فقد سمعه ومن كان غائباً فقد أتاه به من لم يزوده»)[1].

ولقد تتبعت هذه الفكرة، فوجدت أن الخطابي قد تبع فيها الجاحظ، وسبق بها عبد القاهر الجرجاني .. يقول:

((إن النبي صلى اللهُ عليه وسلم قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه، وانقطعوا دونه، وقد بقي صلى الله عليه وسلم يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهراً لهم النكير زارياً على أديانهم، مسفهاً آراءهم، وأحلامهم، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيها النفوس، وأريقت المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال.

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم، لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل، وهذا ما لا يفعله عاقل، ولا يختاره ذو لب، وقد كان قومه قريش خاصة، موصوفين برزانة الأحلام، ووفارة العقول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون، وقد وصفهم اللهُ تعالى في كتابه بالجدل واللدد، فقال سبحانه: (ما ضربوه لك إلا جدلاً، بل هم قوم خصمون)[2]، وقال سبحانه: (وتنذر به قوماً لدّا)[3].

فكيف كان يجوز على قول العرب ومجرى العادة، مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة - أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه، وأن يضربوا عنه صفحا، ولا يحوزوا الفلج والظفر فيه، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه، ومعلوم أن رجلا عاقلاً

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٢٧٤، ٢٧٥ جـ.
(٢) سورة الزخرف آية ٥٨.
(٣) سورة مريم آية ٩٧.

الفواقر: ج/فاقرة وهي الداهية. انظر اللسان مادة (فقر) ٥/٠٦٤.
مبيرة: ((مبير: أي مهلك يسرف في اهلاك الناس)) اللسان مادة (بور) ٤/٠٨٦.
يهتبلوا: من الاهتبال وهو الاغتنام والاحتيال والاقتصاص. انظر اللسان مادة هبل ١١/٠٦٨٧.

لو عطِش عطشا شديدا ، خاف منه الهلاك على نفسِه وبحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشاً ، لحكمنا أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه ، وهذا بين واضح لا يشكل على عاقل)) (١) .

فعجز العرب عن معارضة القرآن الكريم ، ووقوفهم أمام إعجازه مبهوتين حائرين ، يدل على عظمة القرآن القاهرة ، التي خذلتهم فجعلتهم يستقلون أطول طريق في رد هذه الدعوى على صاحبها ، ألا وهو طريق الحرب ، ذلك أنه لا يعقل أن يكون الماء أمام عطاشى فلا يشربون منه ، فإن لم يفعلوا دل ذلك على عجزهم وقصورهم عن تناوله .

و (الباقلاني) قد احتج بهذه الفكرة أيضا ، وذلك حين يقول :

((فإذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعده ، أن تركهم الإتيان بمثله كان لعجزهم عنه ، والذى يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن : أنه تحداهم إليه ، حتى طال التحدى وجعله دلالة على صدقه ونبوته ، وضمّن أحكامه إستباحة دمائهم ، وأموالهم وسبي ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا ، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه ، بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم ، ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال وإكثار المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الأوطان وعن تسليم الأهل والذرية للسبي .

فلما لَم يحصل هناك معارضة منهم ، علم أنهم عاجزون عنها ، يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد ، لا سيما مع استعظامه ما بدهه بالمجيء من خلع آلهتِه ، وتسفيه رأيه في ديانته ، وتضليل آبائه ، والتغريب عليه بما جاء به ، وإظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته ، والتعرف على إرادته ، والعدول عن الفِه وعادتِه والإنخراط في سلك الاتباع بعد أن كان متبوعاً والتشييع بعد أن كان مشيّعا ، وتحكيم الغير في ماله ، وتسليطه إياه على جملة أحواله ، والدخول تحت تكاليف شاقة ، وعبادات متعبة ، بقوله وقد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سلب النفوس دونه .

هذا والحمية حميتهم ، والهمم الكبيرة هممهم ، وقد بذلوا له السيف فأخطروا بنفوسهم وأموالهم ، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه ، وإلى تكذيبه بأهون

---

(١) رسالة الخطابي ضمن ثلاث رسائل ص ٢١ ، ٢٢ .

سعيهم ومألوف أمرهم ، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو ينقطع دونه وتين أو يشتمل به خاطر وهو لسانهم الذى يتخاطبون به ، مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها متطلع ، والرتبة التي ليس فوقها منزع)) (١) .

وإن كانت قريش قد ردت على الدعوى الإسلامية مناهضة بالسيف ، فذلك لأنها لم تستطيع أن تقف أمام بلاغة القرآن الكريم ببلاغة تضاهيه ، وكلام يدانيه .

وإن من المتعارف عليه من عادات الناس أن لا يعترفوا لخصومهم بالفضيلة ، وهم يجدون سبيلا إلى دفعها ، ولا يفعلون ، وقد عرف عن قريش ذوى النفوس الأبية ، أن يعلم الرجل أن بأقصى الإقليم من يفوقه شاعرا أو خطيبا ، أو كاتبا ولا تتحرك في نفسه الرغبة في مناهضته ولا يفعل .

فكيف إذا دعاه رجل إلى مباراته وحركه لمقاومته فلا يؤدى ذلك ، وخاصة إذا كان الأمر فيه مصير أمة وتغيير عقيدة .

ومثالنا (جرير) و (الفرزدق) ، وهما أقل شأنا ، وساجلاتهما ومباراتهما لا يتوقف عليها تحديد مصير ، فإن واحدا منهما لا يرضى أن يُقال أن غيره من الشعراء أفضل منه ، ولا ينهض لمباراته ، وإثبات تفوقه .

يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((أما الأحوال فدلت من حيث كان المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف وطبائعهم التى لا تتبدل . أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها ، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم ، كيف وأن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذى هو فيه من يبأى بنفسه (٢) ، ويدل بشعر يقوله ، أو خطبة يقوم بها أو رسالة يعملها ، فيدخله من الأنفة والحمية ، ما يدعوه إلى معارضته وإلى أن يظهر ما عنده من الفضل ، ويبذل مالديه من البنه ، حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل ، وبنوع من التمحل ، هذا وهو لم ير ذلك الانسان قط ، ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ، ويهيج على تلك

---

(١) اعجاز القرآن الباقلانى ص ٢٠ ، ٢١ ت / السيد أحمد صقر / دار المعارف ط٤

(٢) يبأى : اى يفخر ويباهى .

المعارضة ، ويدعو إلى ذلك التعرض ، وإن كان المدعى ذلك بمرأى منه وسمع ، كان ذلك أدعى له إلى مباراته وإلى إظهار ما عنده ، وإلى أن يعرف الناس أنه لا يقصر عنه ، أو أنه منه أفضل ، فإن انضاف إلى ذلك أن يدعوه الرجل إلى مماتنته ويحركه لمقاولته ، فذلك الذى يسهر ليله ويسلبه القرار ، حتى يستفرغ مجهوده في جوابه ، ويبلغ أقصى الحد في مناقضته ، وقد عرفت قصة جرير والفرزدق)) (١).

ولقد سجل (الباقلاني) كذلك أمر العرب الشعراء في المنافحة والمنافرة لقول الشعر ، يقول :

((ألا ترى أنهم قد ينافر شعراؤهم بعضهم بعضا ؟ ولهم في ذلك مواقف معروفة ، وأخبار مشهورة ، وآثار منقولة مذكورة ، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة ، يتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم ، فلن يجوز والحال هذه - أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها ، تحداهم ، أو لم يتحدهم إليها)) (٢) .

ولقد صدق (الباقلاني) ، فالعرب عرفت حميتها وحرصها على المبارزة بالأقوال مهما كان الأمر ، وذلك لمقدرتها على طرق شتى ضروب القول . فلو كانوا قادرين على مثل القرآن ، لما تأخروا سواء كان القرآن متحديا أو غير متحد .

ولقد اضطربت العرب وماجت بهم الأرض ، فإذا هي تمور فيهتزعزع سلطان عقولهم ، وسلطان مناصبهم لا يستطيعون أن يثبتوا على رأى ، ويتفقوا على كلم يقفون بها في وجه المسلمين ، وضد القرآن الكريم ، لذا خرست الألسن وتقطعت بهم أسباب القول دون أن ينبس أحدهم ببنت شفه ، تدل على محاولتهم أن يأتوا بمثل القرآن بل كانوا بين أمرين :

إما أن يخبروا عن أنفسهم بالعجز والقصور ، وذلك حين يخلو بعضهم إلى بعض ، وكانوا في حال صدق نفسي .

وإما أن يقولوا قول من أعوزته الحيلة ، وهو أن القرآن سحر مرة ، أو أنه

---

(١) الرسالة الشافية ص ١١٩ .
(٢) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٣ ، ٢٤ .

مأخوذ من فلان و فلان أناس غير معروفين .

و كتب التاريخ و السيرة و البلاغة ، كلها تسجل هذه الفكرة ، لم يؤثر أن أرهفت محاولات لمضاهاة القرآن الكريم . إلا تلك الترهات التي عرفت عن مسيلمة - إن كانت الرواية صحيحة - و هي خبط عشواء من القول يستطيع أن يدرك ضعفه أي ملم بالعربية له ذوق و حس نقي .

فهذا الخطابي يقول : ((صار المعاندون له ممن كفر به و أنكره ، يقولون مرة أنه شعر لما رأوه كلاما منظوما ، و مرة سحر إذ رأوه معجوزا عنه ، غير مقدور عليه ، و قد كانوا يجدون له و قعا في القلوب و قرعا في النفوس يريبهم و يحيرهم ، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعا من الاعتراف ، و لذلك قال قائلهم : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، و كانوا مرة لجهلهم و حيرتهم يقولون :

((أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة و أصيلا)) .(١)

مع علمهم أن صاحبه أمي و ليس بحضرته من يملي عليه أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي جماعها الجهل و العجز)) (٢)

و قصة الوليد بن المغيرة المخزومي مع القرآن الكريم و تردده و حيرته قد سجلها القرآن الكريم ، ووصف حال صاحبها على ضوء انفعالاته النفسية ، و صفا تعجز عنه كتب الأدب ، لو ملئت كل الصحف حتى تجف الأقلام .

لأن الآية الكريمة في سطور قلائل استطاعت أن تنقلنا إلى جو ملؤه الجهل و الكفر و العناد ، فأشاعت في نفوسنا موجات رهبة الموقف و المصير الذى سوف يلقاه هذا الكافر حسب وصف الآية العظيمة .

يقول (الخطابي) مسجلاً هذا الحدث الشهير :

((أنه لما طال فكره في أمر القرآن الكريم ، و كثر ضجره منه ، و ضرب له الأخماس من رأيه في الأسداس لم يقدر على أكثر من قوله : ((إن هذا إلا قول البشر)) (٣) ، عنادا للحق و جهلا به و ذهابا عن الحجة و انقطاعا دونها ،

---

(١) سورة الفرقان آيه ٥ .
(٢) رسالة الخطابي ص ٢٨ .
(٣) المدثر آيه ٢٥ .

وقد وصف القرآن حاله ، وشدة حيرته فقال سبحانه :

(إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا الا سحر يؤثر ، إن هذا الا قول البشر) (١)

وكيفما كانت الحال ودارت القصة ، فقد حصل باعترافهم قولا ، وإنقطاعهم عن معارضته فعلاً ، أنه معجز ، وفي ذلك قيام الحجة وثبوت المعجزة)) (٢) .

ولم يفت (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) هو الآخر تسجيل هذه القصة الرائعة المروعة ، يقول :

((وأما دلالة الأقوال فكثيرة ، منها حديث ابن المغيرة روى أنه جاء حتى أتى قريشاً فقال : إن الناس يجتمعون غداً بالموسم . وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس ، فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم ؟ فقالوا مجنون يخنق فقال : يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحا فصيحا عادلاً فيكذبونكم ، قالوا : نقول هو شاعر . قال : هم العرب . وقد رووا الشعر وفيهم الشعراء ، وقوله ليس يشبه الشعر فيكذبونكم ، قالوا : نقول هو كاهن ، قال : أنهم لقوا الكهان ، فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة ، فيكذبونكم . ثم انصرف إلى منزله ، فقالوا صبأ الوليد - يعنون أسلم - ولئن صبأ لا يبقى أحد الا صبأ ، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة : أنا أكفيكموه قال فأتاه محزوناً فقال : مالك يا ابن أخ ؟ قال هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك تستعين بها على كبرك ، وحاجتك ، قال أولست أكثر قريش مالاً ؟ قال بلى : ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه ، قال : والله ما يشبعون من الطعام فكيف يكون لهم فضول ؟ ! .

ثم أتى قريشاً ، فقال : أتزعمون أنى صبأت ، ولعمرى ما صبأت ، إنكم قلتم : محمد مجنون ، وقد ولد بين أظهركم ، ولم يغب عنكم ليلة ولا يوماً فهل رأيتموه يخنق قط ؟ فكيف يكون مجنوناً ولم يخنق قط ؟ وقلتم شاعر ؟ وأنتم شعراء فهل أحد منكم ، يقولُ ما يقول ؟

---

(١) سورة المدثر من آيه ١٨ - ٢٥ .

(٢) رسالة الخطابي ص ٢٨ - ٢٩ .

وقلتم كاهن ، فهل حدثكم محمد في شيء يكون في غدٍ ، إلا أن يقول إن شاء الله ، قالوا : فكيف تقول يا أبا المغيرة ؟ قال أقول هو ساحر ، فقالوا : وأيّ شيء السحر ؟ قال : شيء يكون ببابل ، من حذقه فرق بين الرجل وامرأته ، والرجل وأخيه أليس ما تعلمون أن محمدا فرق بين فلان وزوجته ، وبين فلان وابنه ، وبين فلان وأخيه ، وبين فلان ومواليه ، فلا ينفعهم ولا يلتفت إليهم ، ولا يأتيهم ؟ قالوا : بلى فاجتمع رأيهم على أن يقولوا إنه ساحر ، وأن يردوا الناس عنه بهذا القول ، وانصرف فمر بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منطلقاً إلى رحله وهم جلوس في المسجد ، فقالوا : هل لك يا أبا المغيرة إلى خير ؟ فرجع إليهم فقال : ما ذلك الخير ؟ فقالوا : التوحيد ، قال : ما يقول صاحبكم إلا سحراً ، وما هو إلا قول البشر يرويه عن غيره ، وعبس في وجوههم وبسر ثم أدبر إلى أهله مكذباً ، واستكبر عن حديثهم الذى قالوا له ، وعن الإيمان فأنزل الله تعالى : ((إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر) (١))) (٢) .

هذه القصة الشهيرة ، وإن اختلفت الأساليب في روايتها إلا أن لسان حالها ناطق دون حاجة إلى مزيد من تعليق المؤلفين ، لأنها صورة حية ناطقة تدل على إعجاز القرآن ، وأنه على درجةٍ من البيان الرفيع الذى لا يصل إليها بشر مهما سما في علم البيان ولو عاش في أفيائه الأزمان كلها ، أو تربى في أحضانه أعمارا .

وحتى العرب الأوائل الأقحاح ، والذين عاشوا وسط الجزيرة ، ونشأوا في أفصح قبائلها وأشهرها فصاحة وبلاغة وطلاقة لسان وأكثرها حرصاً على إخراج شعراء لهم من بعد الشهرة الشيء الكثير ، حتى هؤلاء الشعراء لم يثبت لأحد منهم مزية حتى انقطع جميع الشعراء دون مجاراته والوصول إليه .

وقصة تحكيم (أم جندب) بين (امرئ القيس) و(علقمة) وقصة (المنصور) مع (حماد الراوية) عندما سأله عن أشعر الناس ، ورأى سيدنا (عمر) في أشعر الشعراء ، كل هذه القصص دليل حي على عدم وصول أحدٍ منهم درجة أذهلت الجميع فجعلتهم لا يفكرون في مضاهاته .

---

(١) سورة المدثر آيه ١٨ - ١٩ .

(٢) الرسالة الشافية . ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

ولسوف أعرض لرأى (الشيخ عبد القاهر) من الرسالة الشافية لنرى ما يقول في هذا الموضوع ، يقول :

((واعلم أن ها هنها باباً من التلبيس أنت تجده يدور في أنفس قوم من الأشقياء ، وتراهم يُوَمِئون إليه ، ويهمسون به ، ويستهوون الغِر الغبى بذكره ، وهو قولهم : قد جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له ، وحتى لا يطمع أحد في مداناته ، وحتى ليقع الإجماع فيه أنه الفرد الذى لا ينازع ثم يذكرون (امرأ القيس) والشعراء ، الذين قدموا على من كان معهم في أعصارهم ، وربما ذكروا (الجاحظ) ، وكل مذكور بأنه كان أفضل من كان في عصره ولهم في هذا الباب خبط ، وتخليط ، لا إلى غاية وهى نفثة نفثها الشيطان فيهم ، وإنما أتوا من سوء تدبيرهم لما يسمعون ، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل ، وذلك أن الشرط في المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة وتخرس الألسن عن دعوى المداناة ، وحتى لا تحدث نفس صاحبها بأن يتحدى ، ولا يجول في خلد أن الإتيان بمثله يمكن ، وحتى يكون يأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه مثل ذلك في كله .

وليت شعرى من هذا الذى سلم لهم أنه كان في وقت من الأوقات ، من بلغ أمره في المزية ، وفي العُلُو على أهل زمانه هذا المبلغ ، وانتهى إلى هذا الحد ، وإن قيل (امرؤ القيس) ، فقد كان في وقته من يباريه ويماتنه ، بل لا يتحاشى من أن يدعى الفضل عليه : فقد عرفنا حديث علقمة الفحل ، وأنه لما قال امرؤ القيس وقد تناشدا أينا أشعر ، قال : أنا غير مكترث ولا مبال حتى قال امرؤ القيس ، فقل وانعت فرسك وناقتك ، وأقول وأنعت فرسي وناقتي ، فقال علقمة : إنى فاعل والحكم بيني وبينك المرأة من ورائك - يعنى أم جندب امرأة امرئ القيس ، فقال (امرؤ القيس) :

خليلى مرا بى على أم جندب
نقض لبانات الفؤاد المعذب (١)

---

(١) البيت من الطويل وفي الديوان ص ٦٤ دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في كل -ذهب
ولم يك حقا كل هذا التجنب (١)

وتحاكما إلى المرأة ففضلت علقمة .

وجرى بين امرئ القيس والحارث اليشكرى في تتميمة أنصاف الأبيات التي أولها :

أحار أريك برقا هب وهنا   كنار مجوس تستعر استعارا (٢)

ما هو مشهور ، حتى قال امرؤ القيس : لا أماتنك بعد هذا ثم وجدنا الأخبار تدل على خلاف لم يزل بين الناس فيه ، وفي غيره أى أشعر ؟ وعلى أى لم يستقر الأمر في تقديمه قرارا يرفع الشك)) .(٣)

ولقد عرضت هذه القصص في المصنفات ليستشهد بها في مناسبات مختلفة .

فهذا (الخطابي) قد استشهد بها وعرض لها في مقام غير الذى عرضها فيه (الشيخ عبد القاهر) .

يقول (الخطابي) : ((وسبيل من عارض صاحبه في خطبة أو شعر ، أن ينشئ له كلاما جديدا ، ويحدث له معنى بديعا ، فيجاريه في لفظه ويباريه في معناه ليوازن بين الكلامين فيحكم بالفلج لمن أبر منهما على صاحبه وليس بأن يتحيف من أطراف كلام خصمه ، فينسف منه ، ثم يبدل كلمة مكان كلمة ،فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع ، وتلفيق ، ثم يزعم أنه قد واقفه موقف المعارضين ، وإنما

---

(١) البيت من الطويل ، وقائله علقمه بن عبدة بن ناشرة بن قيس بن عبيد بن ربيعة ابن مالك بن زيد مناه بن تميم ، وهو شاعر جاهلي . وهذه القصة في خزانة الأدب كاملة . انظر الخزانة ١/ ٥٦٥ .

(٢) البيت من الوافر ، انظر معجم شواهد العربية ص ١٤٣ .

(٣) الرسالة الشافية ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

المعارضة على أحد وجوه :

منها أن يتبارى الرجلان في شعر أو خطبة أو محاورة فيأتي كل واحدٍ منهما بأمر محدث من وصف ما تنازعاه ، وبيان ما تباريا فيه يوازى بذلك صاحبه ، أو يزيد عليه فيفصل الحكم عند ذلك بينهما بما يوجبه النظر من التساوى والتفاضل ، نحو ما تنازعه (امرؤ القيس) و(علقمة بن عبدة) من وصف الفرس في قصيدتيهما المشهورتين فافتتح امرؤ القيس قصيدته بقوله :

((خليلي مرا بي على أمِّ جندب))

فلما صارا إلى ذكر الفرس وسرعة ركضه قال :

ولِلزجز أُلهوب وللساق دِرَّة
ولِلسَّوط منه وقع أهوج منعب (١)

وابتدأ علقمة قصيدته بقوله :

ذهبت من الهجران في غير مذْهب

فلما صار إلى ذكر الفرس وركضه قال :

ففضَّ على آثارهِنَّ بحاصب
وغيبْةِ شُؤبُوب من الشد ملهب
فأدركهن ثانياً من عنانهِ
يمر كمر الرائح المتحلب

فكانا قد حكما بينهما امرأة امرئ القيس ، فقالت لِزوجها : علقمة أشعر منك فقال : وكيف ذلك ؟ قالت : لأنه وصف الفرس بأنه أدرك الطريدة من غير أن يجهده أو يكده ، وأنت مريت فرسك بالزجر ، وشدة التحريك والضرب فغضب عند ذلك وطلقها)) (٢)

---

(١) زجر : الزجر : المنع والنهي والانتهار ، أنظر اللسان مادة (زجر) ٣١٨/٤ ألهوب : الألهوب أن يجهد الفرس في عدوه حتى يثير الغبار - انظر اللسان مادة (لهب) ١/ ٧٤٤ .
للساق درة : الدرة : بالكسر : كثرة اللبن وسيلانه . أنظر اللسان مادة (درر) ٤/ ٢٧٩ .

(٢) رسالة الخطابي ص ٥٨ ، ٥٩ والبيت في اللسان ١/ ٧٤٤ .

والقِصة نفسها في المصنفين ، والأسلوب يختلف . لكن كلاً من (الخطابي) و (الشيخ عبد القاهر) قد ساق هذه الرواية شاهداً على مناسبة غير التي ذكرها الآخر .

(فالخطابي) في سبيل رده على دعوى أَنَّ هناك من عارض القرآن الكريم ، وجعل حماقات مسيلمة شاهداً له على ذلك ظاهِر الخَلط ، وأنه بعيد عن البلاغة ، ولن تنطبِق شروط المباراة التي وضعها العرب ، وهي معروفة مشهورة ، والقصة السابقة الذكر شاهد عدل على أَنَّ كلام (مسيلمة) لم يخضع لأى شرط من شروط المعارضات .

يقول : (الخطابي) عارضاً حقيقة شبهة من إدّعى أَنَ القرآن قد عُورِض .

((فان قيل : ما أنكرتم أَنَّ المعارضة قد حَصلت منهم لبَعْضِه وهو ما بلغ مقداره عدد الآى من بَعْضِ السُّوَر القِصار ، نحو ما حُكى عن مُسيلمة من قوله :

((يا ضفدع نِقّى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ولا الوارِد تنفرين)) وحُكى عن بعضهم من قوله :

((ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى بين شراسيف وحشا)) .

وكما قال آخر منهم : ((الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له مشفر طويل ، وذنب أثيل ، وما ذاك من خلق ربنا بقليل .

قيل : أما قول مسيلمة في الضفدع فمعلوم ، أنه كلامٌ خالٍ من كلِ فائدة لا لفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم ، ولا فيه شيء من الشرائط الثلاث التى هي أركان البلاغة .

وإنما تكلف هذا الكلام الغث لأجل ما فيه من السجع ، والساجع عادته أن يجعل المعاني تابعة لسجعه ، ولا يبالي بما يتكلم به إذا استوت أساجيعه واطردت)) (١) .

---

(١) رسالة الخطابي ص ٥٥ ، ٥٦ .

فعلى خلط كلام مسيلمة احتج به بعضهم على أن هناك من قامت به قائمة ، وبلغ شأنا بحيث إقتدر على معارضة القرآن . وكان رد (الخطابي المنطقي) . أن هذه التفاهات التي عرفت عن (مسيلمة) لا تنطبق عليها الشروط التي وضعها العرب والتزموا بها في مقابلاتهم الشعرية ، وتلك القصة وغيرها شاهد على أن كلام مسيلمة تنقصه حتى أقل الاعتبارات البلاغية . هذا ((مع قصور آيه وقصر معانيه ، خال من أوصاف المعارضات وشروطها ، وإنما هو استراق واقتطاع من عرض كلام القرآن ، واحتذاء لبعض أمثلة نظومه ، وكلا لن يبلغوا شأوه ، أو يصيبوا في شيء من ذلك حذوه)) (١)

وهذا (ابن قتيبه) و (الجاحظ) قد تكلم كل منهما في هذه القضية وأدلى بدلوه في هذا الموضوع . يقول (الجاحظ) :

((فقد رأيت أصحاب (مسيلمة) ، وأصحاب (ابن النواحه) إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام ، الذى يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه ، وأخذ بعضه ، وتعاطى أن يقارنه ، فكان للذلك التدبير الذى لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له)) (٢)

وظلت قضية إعجاز القرآن الكريم تطرح لينال المغرضون من الإسلام ، والحانقون عليه مرادهم ، وليحطموا من شأن القرآن الكريم قدر المستطاع لينفض أكثر الناس من حوله ، ولكن هيهات (فالشيخ عبد القاهر) ومن سبقه من علماء المسلمين قد جردوا سيوف القول لطعن ملاحد (٣) هؤلاء الذين يتذرعون بتوافه الأسئلة فيجعلون منها قضية .

وذلك أن منهم من يقول أن الرجل يكون في المديح أشعر منه في المراثي ، وفي الغزل أشعر منه في الحكم والآداب ، واتخذوا من هذا السؤال قضية وحجة : أنهم إنما عجزوا عن معارضة القرآن لأنهم لا يستطيعونه البته .

وسوف نرى كيف دافع كل واحدٍ من جهابذة البلاغة عن هذه القضية .

---

(١) رسالة الخطابي ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) الحيوان للجاحظ ، ٤/ ٨٩ .
(٣) ملاحد : جمع الحد . والحد : مال وعدل ومارى وجار . انظر اللسان مادة (لحد) ٣/ ٣٨٨ .

يقول (الشيخ عبد القاهر الجرجانى) : ((في جزء آخر من السؤال ، و هو أن يقولوا ، إنا قد علمنا من عادات الناس و طبائعهم أن الواحد منهم تواتيه العبارة و يطيعه اللفظ في صنف من المعاني يمتنع عليه مثل تلك العبارة و ذلك اللفظ في صنف آخر .

فقد يكون الرجل - كما لا يخفى - في المديح أشعر منه في المراثي و في الغزل و اللهو و الصيد أنفذ منه في الحكم و الآداب و تراه يستطيع في الأوصاف و التشبيهات مالا يستطيع مثله في سائر المعاني ، و ترى الكاتب ، و هو في الإخوانيات أبلغ منه في السلطانيات و بالعكس . هذا أمر معروف ظاهر لا يشتبه .

و إذا كان كذلك ، فلعل العجز الذى ظهر فيهم عن معارضة القرآن لم يظهر لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم ، و لكن لأنهم لا يستطيعونه في مثل معاني القرآن)). (١)

هذا هو الداء الذى ابتغى ذووه تفشيه بين الناس ، و لكن هيهات لهم أن يبلغوا المراد ، و قد عرف الدواء ، و تناقلته مصنفات العلماء .

يقول (الشيخ عبد القاهر) في صدد الرد على هذه الدعوى :

((إنه سؤال لا يتجه حتى يقدر أن التحدى كان إلى أن يعبروا عن معاني القرآن أنفسها ، و بأعيانها بلفظ يشبه لفظه ، و نظم يوازى نظمه ، و هذا تقدير باطل ، فإن التحدى كان إلى أن يجيئوا في أى معنى شاءوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه ، يدل على ذلك قوله تعالى : (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) . (٢)

أى مثله في النظم ، و ليكن المعنى مفترى ، فلا إلى المعنى دعيتم و لكن إلى النظم ، و إذا كان كذلك كان بيناً أنه بناء على غير أساس و رمى من غير مرمى ، لأنه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهة ، و في شيء مخصوص ، على ما امتنعت معارضته من الجهات كلها و في الأشياء أجمعها ، فلو كان إذا سبق (الخليل)

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٣٨ .

(٢) سورة هود آيه ١٣ .

(وسيبويه) في معاني النحو إلى ما سبقا إليه من اللفظ والنظم ، لم يسبق (الجاحظ) في معانيه التي وضع كتبه لها إلى ما يوازي ذلك ويضاهيه ، أو كان (بشار) إذ سبق في معناه إلى ما سبق إليه ، لم يوجد مثل نظمه فيه لشاعر في شيء من المعاني ، لكان لهم في ذلك متعلق ، فأما وليس من نظم يقال : أنه لم يسبق إليه في معنى إلا ويوجد أمثاله ، أو خير منه في معان آخر ، فمن أشد المحال وأبينه الاعتراض به)).(1)

وموضوع تحدي القرآن الكريم لكافة العرب أن يأتوا بمثله أو بما يضاهيه ، قد عرض له أغلب الدارسين لإعجاز القرآن ، وقد عرض (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) لما عرض له (علي بن عيسى الرماني ت ٣٨٦ هـ) الذي شرح الإعجاز في عشرة أبواب ، وبين أن التحدي للكافة وأن العجز كان منهم حيث قال :

((وأما التحدي للكافة فهو أظهر في أنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة مع توفر الدواعي إلا للعَجْزِ عنها)).(2)

ويشرح (الرماني) أنّ التحدي ظاهر في أن يأتوا بمثل القرآن وقد عجزوا عنه . لأن القرآن فائت للقوى البشرية . يقول (الشيخ عبد القاهر):

((هذه جمل من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن وإذعانهم أن الذي سمعوه فائت للقوى البشرية ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين))(3)

فهذا التصريح الذي استهل به رسالته الشافية في سبيل بيان أن التحدي كان لجميع العرب قاطبة ، وبيان علمهم ويقينهم الذي لا يدخله شك في عجزهم عن المعارضة لأن الذي تحداهم به صلى الله عليه وسلم متجاوز لمقدرة البشر .

وكذلك شهرة قريش البيانية قد غلبت شهرتها التجارية ، ومنزلتها الاقتصادية حتى لم يخل سفر يتحدث عن التاريخ في تلك الحقبة إلا بدأ بالحديث عن لسان قريش الخصوم ، وأسلوبها الذي يتسم باللدد في الخصومة ، كما أن شهرة المنافرات الشعرية بين شعرائها المصاقع ، قد رنت في كل أذن ، وتصدرت كل ديوان .

---

(1) الرسالة الشافية ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(2) النكت في اعجاز القرآن ص ١١٠ ضمن ثلاث رسائل .

(3) الرسالة الشافية ص ١١٧ .

ذلك أنه تدور بينهم مساجلات شعرية ، ومنافرات كلامية ، سطرتها كتب الأدب واحتفظت بها كتب التاريخ ، لما بلغته من الفصاحة والبلاغة .

ولقد عرض (الباقلاني) لهذه الفكرة قائلاً :

((ألا ترى أنه قد ينافر شعراؤهم بعضهم بعضاً ، ولهم في ذلك مواقف معروفة ، وأخبار مشهورة ، وآثار منقولة مذكورة وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة ، والذلاقة ، ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم .

فلن يجوز - والحال هذه - أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها ، تحداهم أو لم يتحدهم إليها .

ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر ، وهو أنه لو كان مقدورا للعباد لكان قد اتفق إلى وقت مبعثه ، من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به ، وكانوا لا يفتقرون إلى تكلف وضعه ، وتعمل نظمه في الحال .

فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفة ، ونظم بديع ، ولا عارضوه به ، فقالوا : هذا أفصح مما جئت له ، وأغرب منه ، أو هو مثله - علم - أنه لم يكن إلى ذلك سبيل وأنه لم يوجد له نظير)).(1)

هذا المأخذ على قريش قد عرض له أكثر من عالم وكانت أساليبهم في عرض الفكرة مختلفة متباينة .

فهذا (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) قد عرضها من منحنى آخر ونفذ لها من كوّة ثانية ، يقول :

((معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل ، وأن للتفاضل فيه غايات ، ينأى بعضها عن بعض ، ومنازل يعلو بعضها بعضا ، وأن علم ذلك علم يخص أهله . وأن الأصل والقدوة فيه للعرب ومن عداهم تبع لهم وقاصر فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي

---

(1) إعجاز القرآن ص ٢٣ ، ٢٤ .

صلى الله عليه وسلم ، الذى نزل فيه الوحى ، وكان فيه التحدى ، أنهم زادوا على أولئك الأولين ، أو كملوا في علم البلاغة أو تعاطيها ، لما لم يكملوا له ، كيف ونحن نراهم يجهلون عنهم أنفسهم ، ويبرؤن من دعوى المداناة معهم ، فضلاً عن الزيادة عليهم ، هذا (خالد بن صفوان) يقول : كيف نجاريهم وإنما نحكيهم ، أم كيف نسابقهم ، وإنما نجرى على ما سبق إلينا من أعراقهم)) (١) .

وها نحن بعد أن استعرضنا بعضا من الأقوال في الإعجاز وطرفاً من الآراء التي انتثرت في صفحات الكتب وتبينا أن هؤلاء أئمة البلاغة وذواقة نصوصها الذين لم تعرف العربية شيئاً لهم في التعرف على طعوم الكلام واختلاف مذاقاته .

ولم نعرف في الأدب العربي من طاوعتهم أقلامهم . كتبوا فأحسنوا ، واحتجوا فنجحوا ، كما علمنا عن أولئك الأوائل .

إلا أنهم وقفوا أمام بلاغة القرآن الكريم حيارى في وصفها بوصف لا مدخل لشبهة أو لنقص فيه ، ذلك لأنهم أعرف الناس بقدر القرآن الكريم وأعرف الناس بقدر أقلامهم .

ولكنهم رأوا مالا قبل لهم ولا لمخلوق به .

وقد رأى بعضهم الإعجاز في النظم ، الذى انفرد به القرآن الكريم في صياغته ، مثل (الباقلانى) ثم تلاه (عبد القاهر الجرجانى) وغيرهما .

ومع هذا فقد ظل إعجاز القرآن الكريم معجزة الأبد ، لأنه أمر ضيق كثير الالتواء لمن تلمس جوانبه .

---

(١) الرسالة الشافية ص ١١٧ ، ١١٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

ملحـــق

الإعجـــاز بالصـــرفـــــه

على الرغم من شغف المسلمين بالقرآن الكريم ، وإنشغالهم بترديده والمحافظة عليه ، لم تظهر الدراسات القرآنية والاهتمام بمعرفة مكامن الإعجاز إلا في أواخـــر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث .

لأن اتساع رقعة البلاد الإسلامية ، ودخول كثير من غير العرب في الإســـلام أدّى إلى ضرورة شرح آيات القرآن الكريم ، وتفسيرها لأولئك الذين لهـــم حـــظ قليل في اللغة العربية ، فكان هذا داعياً ، لأن يضع العلماء تفسيراً للغريـــب من مفردات القرآن ، بل تفسيره كاملاً .

من هذه المقدمة الموجزة نستطيع أن نستنبط كيفية ظهور العلوم القرآنيـــة .

أما نشوء الفرق الإسلامية فقد كان نتيجة للخلاف الذى حدث بين المسلـــمين منذ وفاةِ النبي صلى الله عليه وسلم . وكانت الخلافة من أبرز المسائل الـــتي اختلفوا عليها .

ثم اتسع الخلاف بصورة أكبر وهي (حكم مرتكب الكبيرة) ، فقامت مرجئـــة الخوارج وأرجأت أمر المختلفين إلى الله ، أى أنهم رأوا تأخير حكم صاحـــب الكبيرة إلى يوم القيامة .

وهكذا تتابع ظهور الفرق الأخرى مثل المعتزلة . والتي قامت نتيجـــة لاعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى .

ولقد ساعد كذلك على ظهور هذه الفِرق دخول الناس في دين الله أفواجـــاً وجماعات ، من أديان مختلفة ، بذلك أدخلت إلى المسلمين نظريات تلك الأديان مما أدى إلى كثرة الفرق ، وتنوعها واشتداد الفرقة بين المسلمين . فكثـــر الجدل حول القرآن الكريم ، وحول وجه إعجازه .

ولقد كان مذهب الصّرفة من أشهر المذاهب التي قيلت في إعجاز القـــرآن الكريم .

وأما بالنسبة لأول من أثار مذهب الصَّرفة فإن(الدكتور عبد العزيز عرفه)يقـــول :

((ولعل (الراوندى) (١) هو أول من أثار مذهب الصرفه المشهور الذى يجعل وجه إعجاز القرآن ليس في النظم والتأليف ، وإنما هو في المنع والعجز اللذين أحدثهما الله في العرب ، الذين شوفهوا بالقرآن وتحدوا به ، ولولا هذا المنع والعجز لكانوا قادرين على الإتيان بسورةٍ من مثله بلاغة وفصاحةً ونظماً ونسبه إلى (أبي إسحاق إبراهيم بن سيار) (٢) المعروف بالنظام)) (٣)

وعلى كل فإن مسألة أول من قال بالصّرفه موضوعٌ لم تحدده الكتب ، ولم يتفق العلماء على نسبة ظهوره . فهذا الرافعي يقول : ((كان أول ما ظهر من الكلام في القرآن ، مقاله تعزىٰ إلى رَجُلٍ يهودى يسمى (لبيد بن الأعصم)، فكان

---

(١) ((عندما وصلت طائفة المعتزلة الى أوج مجدها بدأ يظهر رد الفعل ضدها فهذا أبو الحسين أحمد بن يحيي بن إسحاق الراوندى (الذى ولد بين سنتي ٢٠٥ هـ - ٢١٥ هـ) اعتنق مذهبهم في بادىء الأمر ، وكتب بعض المؤلفات التي تتفق مع آرائهم ، غير أنه تحول بعد ذلك إلى الشيعة المتطرفة ، وأقام نفسه خصماً شديداً لهم ، ثم وقع تحت تأثير أبي عيسى الورّاق المانوى المتستر ، فأنكر الإسلام نهائياً في كتابيه الأخيرين (كتاب الدامغ) (وكتاب الزمرد) ولذلك أودع السجن ، ولكنه هرب منه ، ومات - فيما يقال - في بيت لاوى اليهودى الذى تستر عليه حوالي سنة ٢٥٠ هـ ، وهذا التاريخ هو الذى يتفق مع ما ذكر عنه من أنه روى كتاب المقتضب للمبرد)) ٤ / ٢٨ بروكلمان / أنظر الفهرست ص ٤ (تكملة الفهرست)

(٢) هو إبراهيم بن سيّار بن هانىء ويكنى أبا إسحاق النظام الذى كان أعظم تلاميذ أبي الهذيل ، ترك البصرة - موطن نشأته - إلى بغداد بعد مدة ، وتوفى بها في عنفوان الشباب بين سنتي ٢٢٠ هـ - ٢٣٠ هـ ، وقد فارق شيخه بعد فترة ، ووقف حياته رئيساً لمدرسة ضد الدهرية والدّيْصانية أو بمعنى آخر ضد الفلسفة الهيلينية ، التي أثرت برغم هذا على بناء مذهبه الديني تأثيراً حاسماً ، وللرد على الدهرية والديصانية دافع عن القول بخلق القرآن ونشأ عن ذلك فكرة الظهور والكمون . ولتمكنه من اللغة لم يبرع في الجدل فحسب ، بل برع أيضاً في قول الشعر)) ٤ / ٢٦ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان دار المعارف ١٩٧٥م أنظر تكملة الفهرست ص ٢ .

(٣) قضية اعجاز القرآن وأثرها في تدوين البلاغة العربية ص ١٤٣ عالم الكتب ط ١ ١٤٠٥ هـ .

يقول إن التوراة مخلوقة ، فالقرآن كذلك مخلوق ثم أخذ ها عنه (طالوت بن أخته) وأشاعها ، فقال بها (بنان بن سمعان) الذى إليه تُنسب البنانية ، وتلقاها عنه (الجعد بن درهم) مؤدب (مروان بن محمد) آخر خلفاء بنى أمية ، وكان زنديقاً ، فاحش الرأى واللسان ، وهو أول من صرّح بالإنكار على القرآن والرد عليه)).[(١)]

ولكن الأستاذ (أحمد أمين)، يرى على ما يبدو في (الجعد بن درهم) غير ذلك ، حيث يقول : ((ولعل (الجعد) كان مظلوماً في هذا ، وأنهم استنتجوا من قوله أن القرآن مخلوق هذا الإستنتاج البعيد ، ويستنتج من ذلك أن (الجعد) كان في (دمشق) ولكنه بذر بذرته في العراق لما هرب إليه وقتل به ، وقال بذلك أيضا (جهم بن صفوان .. الترمذى) الذى مثله (سالم بن أحوز) (بمرو سنة ١٢٨ (هـ). فقد كان ينفى الصفات ، واستتبع ذلك نفى الكلام والقول بخلق القرآن))،[(٢)] ولكن المتفق عليه أن الذى أخذ هذا القول واشتهر به هو (النظام) يقول الرافعي[(٣)] : ((غير أن النظام هو الذى بالغ في القول بالصرفة فعرفت به) ، ويقول ((على أن القول بالصرفة هو المذهب الفاشي من لدنه قال به النظام ، يصوّبه فيه قوم ، ويشايعه عليه آخرون))[(٤)] .

ولكن كل المعلومات تشير إلى (الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد) ،لأن الموضوع بعد ذلك تدخلت فيه الدولة، فلابد أن يكون ذلك من تأثير المعلم في تلميذه

وإني سوف أبدأ البحث - بإذن الله - في موضوع الصرفه من لدن (الجاحظ) تلميذ (النظام) ، ثم أوضح موقف (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) منها .

ولكن قبل البدء في هذه الرحلة سأعرض لمعنى الصرفه موسعاً من كتاب الطِراز لتكون صورة الموضوع الذى سأتكلم فيه واضحةً أمام القارئ ، وذلك لأنك (لم تر أحداً فسر هذه الكلمة " الصرفه " كابن حزم الظاهرى))[(٥)].

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي ص ١٦٠ ، ١٦١ ط ٨ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م .

(٢) ضحى الإسلام ٣/ ١٦٢ ط ٨ مكتبة النهضة المصرية .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / لمصطفى صادق الرافعي ص١٦٢ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٦٣ . (٥) المرجع نفسه ص ١٦٣

ولمعرفة المزيد في هذا الموضوع ينظر ضحى الإسلام ، فجر الإسلام (لأحمد أمين) (وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي) . (الفِصَل في الملل والنحل لابن حزم الظاهرى).

يقول العلـوى :

((وهذا هو رأى(أبي إسحق النظام)،(وأبي إسحاق النَّصَيْبِي)من المعتزلـة ، واختاره(الشريف المرتضى) من الإماميـة ، واعلم أن قول أهل الصرفـه يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثـة ، لما فيه من الإجمال وكثرة الإحتمال كما سنوضحـه .

التفسـير الأول :

أن يريدوا بالصرفـه أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة ، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز ، والاستنزال عـن المراتب العالية ، والتكليف بالانقياد والخضوع ومخالفة الأهـواء .

التفسـير الثانـي :

أن يريدوا بالصرفـة ، أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بـد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه ، ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله علـى وجهين ، أحدهما أن يُقال : إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على وجه الاستمرار ، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهـم ومحاها عنهم .

ثانيهما : أن يقال : إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم خلا أن الله تعالـى صرف دواعيهم عن تجديدها مخافة أن تحصل المعارضة .

التفسير الثالث :

أن يُراد بالصرفة أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهـة القسر عن المعارضـة ، مع كونهم قادرين ، وسلب قواهم عن ذلك ، فلأجل هـذا لم تحصل من جهتهم المعارضة ، وحاصل الأمـر في هذه المقالة : أنهم قادرون على ايجاد المعارضة للقرآن ، إلا أن الله تعالى منعهم بما ذكرناه ، والذى غرّ هؤلاء حتى زعموا هذه المقالة ما يرون من الكلمات الرشيقة والبلاغات الحسنة ، والفصاحات المستحسنة ، الجامعة لكل الأساليب البلاغيـة في كلام العرب الموافقة لما فـي القرآن ، فزعم هؤلاء ، أن كل من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البديعـة ، لا يقصر عن معارضته ، خلا ما عرض من منع الله إياهم بما ذكره من الموانع ، والـذى يدل على بطلان هذه المقالة براهين)) .[1]

---

(١) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ٣ / ٣٩١ ، ٣٩٢ . تأليف : أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى ط المقتطف بمصر سنة ١٣٣٢هـ ، ١٩١٤م .

وبعد أن جمع العلوى عدة آراء للقائلين بالصرفة علق عليها قائلاً :

((إن العرب كانت لديها المقدرة في معارضة القرآن الكريم ، لما لها من قوه المعارضة وحسن البيان ، بيد أن الله سبحانه منع قدرتهم هذه عن معارضة القرآن .

وإن السبب في جرأتهم هذه ، أن القرآن الكريم احتوى الكلمات العربية الرشيقة والبلاغات الحسنة ، وقد غرهم ذلك لأنه مما تعارفوه في كلامهم إلا أنّ الله سلبهم القدرة على المعارضة .

وتلك دعاوى باطلة . ويدل على ذلك براهين :

البرهان الأول منها :

أنه لو كان الأمر كما زعموه ، من أنهم صرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها ، لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة ، وأن يميّزوا بين أوقات المنع والتخلية ، ولو علموا ذلك لوجب أن يتذاكروا في حال هذا الأمر المعجز على جهة التعجب ، ولو تذاكروه لظهر وانتشر على حدّ التواتر ، فلما لم يكن ذلك دلّ على بطلان مذاهبهم في الصرفه ، لا يُقال : إنه لا نزاع في أن العرب كانوا عالمين بتعذر المعارضة عليهم ، وأن ذلك خارج عن العادة المألوفة لهم ، ولكنا نقول من أين يلزم أنه يجب أن يتذاكروا ذلك ، لأنا نعلم حرص القوم على إبطال دعواه ، وعلى تزييف ما جاء من الأدلة ، فاعترافهم بهذا العجز من أبلغ الأشياء في تقرير حجته ، وهو إظهاره وإشهاره لأنا نقول هذا فاسد ، فإن المشهور فيما بين العوام فضلاً عن دهاة العرب أن بعض من تعذّر عليه بعض ما كان مقدوراً له ، فإنه لا يتمالك في إظهار هذه الأعجوبة ، والتحدث بها ، ولا يخفى دون هذه القضية ، فضلاً عنها ، فكان من حقهم أن يقولوا : إن كل واحد منا يقدر على هذه الفصاحة ، ولكن صار ذلك الآن متعذراً علينا ، لأنك سحرته عن الإتيان بمثله فلما لم يقولوا ذلك دل على فسادها)) (1) .

ويقصد من برهانه الاول : أنهم لو صرفوا عن المعارضة حقاً مع تمكنهم منها ، لعرفوا زمن المنع ، وأحسوا هذا المنع من ذات أنفسهم ، ولتذاكروا فيما بينهم حال هذا القرآن المعجز المُعْجب ولو ردت عنهم أقوالهم في العجب من هذا المنع ، ولو حصل شيء من هذا لوصل إلينا عن طريق التواتر .

---

(1) الطراز للعلوى ٣/٣٩٣ ، ٣٩٤ .

فلو قال قائل منهم : إن العرب عالمون بعجزهم عن المعارضة دون أن يتذاكروا ذلك .

لقيل : إن اعترافهم بهذا العجز لدليل على صحة دعواه صلى الله عليه وسلم في إثبات دعوته .

ولا يعقل أن يعترفوا ، وأن يسلموا بعجزهم ، وهم أشد الناس حرصاً على ابطال الدعوة .

ويقول البرهان الثاني :

((لو كان الوجه في إعجازه بالصرفة كما زعموه ، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن ، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته وحسن فصاحته ، كما أثر عن الوليد ابن المغيرة))[1].

أما برهانه الثالث فيقول فيه :

((الرجع بالصرفه التي زعموها ، هو أن الله تعالى أنساهم هذا الصنيع ، فلم يكونوا ذاكرين لها بعد نزوله ، ولا شك أن نسيان الأمور المعلومة فى مدة يسيرة ، يدل على نقصان العقل ، ولهذا فإن الواحد إذا كان يتكلم بلغة مدة عمره .فلو أصبح في بعض الأيام لا يعرف شيئاً من تلك اللغة ، لكان ذلك دليلاً على فساد عقله وتغيره ، والمعلوم من حال العرب أن عقولهم مازالت بعد التحدى بالقرآن ،وأن حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل ، فبطل ما عوّل عليه أهل الصرفة وكلامهم يحتمل أكثر مما ذكرناه من الفساد))[2].

وتفسير هذا البرهان :

أنهم أرادوا بالصرفة ، أن الله أنساهم الصيغ البلاغية التي تساعدهم على الإتيان بمثله ، فلم يستطيعوا أن يتذاكروها بعد نزول القرآن ، لا شك أن من حصل معه مثل ذلك في مدة يسيرة يعتبر ناقص العقل .

---

(١) الطراز للعلوى ٣/٣٩٤ ، ٣٩٥ .
(٢) المصدر نفسه ٣/٣٩٥ .

وذلك مثل من كان يتكلم بلغـة ، ثم أصبح في غضون أيام قلائـل ، لا يعرف شيئـا من تلك اللغة ، دل ذلك على فساد عقله وتبدله .

وإن الحقائق تؤكد وتدل أن عقول العرب قبل التحدى وبعده في حالةٍ واحدةٍ وأن ألسنتهم وفصاحتهم لم يشبها أىّ تغيير .

وبهذه البراهين الثلاثة يدحض العلوى قول القائلين بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم . يقـول :

((فإنا قـد أبطلنـا رأى أهـل الصرفـة ، وزيفنـا كلامهم ، فلا وجه لعده من وجوه الإعْجَاز)) .(١)

وبعد أن استعرضت مع (العلوى) ملخص لآراء القائلين بالصرفه ، فإني سأبـدأ - إن شاء الله - موضوع الصرفـه لدى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، مـن خلال ما كتبه الأوائل في هذا الموضوع ، لنرى إلى أىّ حد تأثر بغيره من علمـاء العربيـة .

فهذا (الجاحظ) قد قال بالصرفة ، عند حديثه عن الدهرية الذين يطعنون على ملك سليمـان .

فقد ساق عدة أمثلة ، يقدم بها لفكرة الصرف في رأيه وهي (المنع).

(يقول الجاحظ) في هذا الشأن :

((ومثل ذلك أن النبي صلى اللهَ عليه وسلم ، لما بشره الله بالظفر وتمـام الأمْـر ، بشر أصحابه بالنصر ، ونزول الملائكة ، ولو كانوا لذلك ذاكرين في كل حال ، لم يكن عليهم من المحاربة مؤونـة ، وإذا لم يتكلفوا المؤونـة لم يؤجروا .

ولكنّ اللّه تعالىٰ بنظره إليهم رفع ذلك في كثير من الحالات عن أوهامهم ، ليحتملوا مشقة القتال ، وهم لا يعلمون أيغلبون أم يغلبون ، أو يقتلون أم يقتلون)) .(٢)

فقصد بهذا أن المسلمين عند ما بشرهم الرسول صلى اللهَ عليه وسلم بنـزول الملائكة ، تحارب معهم ، وتساندهم ، وترفع عنهم عسر يوم الحرب ، فإنهم مع هـذا اتخذوا الأسباب وحاربوا كأنما لم يكن معهم مساعد .

---

(١) الطراز ص ٣٩٥/٣ .
(٢) الحيوان ٨٨/٤ ، ٨٩ ط ٢ ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦م .

و(الجاحظ) هنا يقول : إن الله غطى عن أعينهم وعن أنفسهم ما بشرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من مساعدة الملائكة ليخوضوا القتال ويجدوا فيه المشقة والنصب ، ومن ثم ينالهم الأجر والفوز والنجح في الآخرة .

وخلص من هذا المثال وغيره إلى شرح معنى الصرف ، الذى يراه في القرآن ، فقال :

((ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن ، بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك ، فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القضية على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال))[١].

فهو يُرِيْد أن المنع من معارضة القرآن الكريم إنما ليحمي المسلمين من قضية هم في غنى عنها ، لأنه لو عارض المشركون القرآن الكريم ، لأدى ذلك لأن يشغل المسلمون بالأخذ والرد فى هذه القضية حتى لا تنال من الأعراب الذين لم يتمكنوا من الإسلام بعد ، وكذلك النساء ، لما عرف من قلة خبرتهن ، فقد يلتبس عليهن الأمر ، وكذلك أشباه النساء في قلة الخبرة ، ومتابعة الهوى من الصغار وضعاف العقول .

واستشهد (بمسيلمة)[٢] وأصحاب (ابن النوّاحة)، إذ تبعهم أناس يعلمون أنه إنما سلخه عن القرآن فسلبه وادعى أنه من القرآن . يقول في ذلك :

((رأيت أصحاب (مسيلمة)، وأصحاب ابن النوّاحة) إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذى يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه

---

(١) الحيوان ٤/ ٨٩ .

(٢) هو أبو ثُمامة ، مسيلمة بن حبيب الحنفي من أهل اليمامة ، ادعى النبوة بمكة قبل الهجرة ، وصنع أسجاعاً عارض فيها بزعمه القرآن ، منها قوله :
((والشمس وضحاها ، في ضوئها وجلاها ، والليل إذا عداها يطلبها ليغشاها ، فأدركها من أتاها ، وأطفأ نورها ومحاها)) وقد كان قوى أمره في اليمامة ، وظهر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأرسل أبو بكر . . خالد بن الوليد ، في جيش لمقارعته فكان له النصر على بني حنيفة في يوم اليمامة ، وقتل مسيلمة ، وكثير من أتباعه، واستشهد من المسلمين ألف ومائتا رجل .

عبد الله بن النوّاحة : ذكره بعض من ألف في الصحابة ، فقرأته بخطه =

وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه فكان لله ذلك التدبير ، الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له)) .[1]

ويقول عبد الكريم الخطيب معلقاً على رأى الجاحظ هذا قائلاً :

((والجاحظ هنا لا يقول بالصرفة على اطلاقها ، ولكنها صرفه عن أمر هو معجز في ذاته ، فالقرآن في رأى الجاحظ معجز في ذاته ، ولكن الصرفة حمته من أن يتكلف للمعارضة بعض المتكلفين ، فيشوش على القرآن ، وذلك من شأنه أن يوقع في نفوس الأغرار والجهلة اضطراباً .

ولا شك أن هذه إحدى مغالطات الجاحظ وخلابته بما أوتي من قوة الحجة وسطوة البيان)) .[2]

ولقد وافق(عبد الكريم الخطيب)من قال أن(الجاحظ)، قال أن اعجاز القرآن حاصل ببلاغته ،ولكن الله صرف العباد عن معارضته .

ولكن الدكتور عبد العزيز عرفه ، ارتأى أن مقصد الجاحظ من القول بالصرفه أن الاعجاز في الصرف ذاته ، حيث يقول :

((فالصرفة عند (الجاحظ) تخالف مذهب الصرفة المشهور كما ترى ، ولعل الذى دعا (الجاحظ) إلى القول بصرفته هذه محاولته أن يجد تفسيراً لعدم إتيان العرب بمعارضته للقرآن ، ولو فيها أدنى شبهة ،والحق أن العرب

= بما هذا لفظه ، كان قد أسلم ثم ارتد ، فاستتابه(عبد الله بن مسعود) فلم يتُبْ ، فقتله على كفره وردته ، والنوّاحة كثيرة النوح) .

الإصابة في تمييز الصحابة رقم ٨٦٤٤/ جـ ٤ ط ١ ١٣٩٧ هـ ت/ د . طه محمد الزّيني ـ مكتبة الكليات الأزهرية .

(١) الحيوان ٨٩/٤ .

(٢) الإعجاز في دراسات السابقين ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

كان يمكنهم أن يجادلوا في أيّ شيء ، وأن يخونوا أى شيء إلا البيان ، فكان عندهم أجل من أن يخونوه ، فإذا علمنا ذلك استطعنا أنْ نفسر عدم إتيانهم بمعارضةٍ ، ولو لم تكن من مثله)) (١) .

والواقع إني أجد (الدكتور عبد العزيز عرفه) يدافع عن (الجاحظ) ويوضح معنى قوله بالصرفه في إعجاز القرآن ، ويحاول تبرئته من زمرة القائلين بها ، وذلك بعد أن يبين قوله بإعجاز القرآن الكريم بنظمه (٢) . حيث يقول : ((فواضح من كل هذا أن (الجاحظ) لا يرى (الصرفة) بمعنى أن لا إعجاز في النظم ، وانما الإعجاز في المنع أو العجز الذى أحدثه الله في العرب ولو خلوا لكانوا قادرين على الإتيان بمثله ، ولنما يرى أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه ، وأن العباد عاجزون على الإتيان بسورةٍ من مثله ، وإن وردت كلمة (الصرفة) على لسانه فإنما كان يريد بها نوعاً من التدبير الإلهى ، لئلا يكون لأهل الشغب متعلق حين يحاول المعارضة محاول)) (٣) .

وفي هذا الدفاع تبرئة لساحة (الجاحظ) من (الصرفة) ورد على كل من رمى به وزجه في زمرة القائلين بها .

وإنني أجد في رد (عبد الكريم الخطيب) (والدكتور عبد العزيز عرفه) تسرعاً ، إذ وافقا الجاحظ أن يكون هناك منع وصرف للعرب عن إتيان العرب بما يضاهي القرآن الكريم ، لئلا ينشغل العرب في هذه القضية ، بحيث تكون محل أخذ ورد . ولكن الواضح الصريح، نداء القرآن الكريم بآيات كثيرة من القرآن ، تدعو للإجتماع والحشد والتصدى ولو بكلام مفترى . يقول تعالى :
(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (٤) . وغير هذه الآية العديد من الآيات الكريمة .

وعلى كل حال فسنلاحظ بعد قليل رد (الخطابي) وغيره على مثل هذه الدعوى .

---

(١) قضية الاعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٢) وذلك في الصفحات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ من نفس المرجع .
(٣) المرجع نفسه ص ١٥٥ .
(٤) سورة الاسراء آية ٨٨ .

وإذا سرنا قليلاً إلى الأمام وجدنا (الخطابي) و(الرماني) من أشهر من تكلم في (الصرفة). ف(الرماني) اعتبرها من وجوه الإعجاز . وقد عبر عنها قائلاً :

((وأما(الصرفة) ، فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة)) (١) .

وكانت حجته في ذلك ، أن كثيرا من أهل العِلم قبله قد قالوا بقوله ، واعتمدوا على (الصرفة)في إثبات إعجاز القرآن ، وهو سلك نفس طريقهم واتخذ منهجهم نبراساً ، لذا رأى على ما يبدو أن لا داعي لإثبات الإعجاز بالصَّرف ، بل شرح الأدلة التي تثبت ذلك .

لأن مقدرة الصرف في حد ذاتها معجزة ، وأنها حجة يجب الرضى بها وتقبلها ، يقول :

((وذلك خارج عن العادة ، كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول)) (٢) .

ولقد شرح (الخطابي ت ٣٨٨ هـ) رأيه في (الصرفة)وبين وجهة نظره في ردها حيث يقول :

((وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة ، أى صرف الهمم عن المعارضة وإنْ كانت مقدوراً عليها ، وغير معجزة عنها ، إلا أن العائق من حيث كان أمرا خارجا عن مجارى العادات ، صار كسائر المعجزات فقالوا : ولو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمن النبوات ، وجعل معجزته في تحريك يده ، أو مد رجله في وقت قعوده بين ظهرانى قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال آيتي أن أحرك يدى أو أمد رجلى ، ولا يمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلى ، والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشيءٍ من جوارحهم ، فحرك يده ، أو مد رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدِروا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه ، وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبي ولا إلى فخامة منظره وإنما تعتبر

---

(١) النكت في اعجاز القرآن ص ١١٠ .

(٢) النكت في اعجاز القرآن ص ١١٠ .

صحتها بأن تكون أمراً خارجا عن مجارى العادات ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها)) (١) .

فبعد أن عرف (الخطابي) (الصرفة) بأنها صرف الهمم عن معارضة القرآن الكريم مع أن مقدرة العرب البيانية لها من المنزلة الرفيعة ما يجعلها تستطيع أن تأتى بمثل القرآن الكريم ، فكان الإعجاز بهذا المفهوم هو في المنع والصرف عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ، وليس في ذات القرآن الكريم .

وعلى كل فقد كانت عبارة (الخطابي) في هذا الموضع توحي لبعض من تعجل في قراءتها أنه يؤيد القول بالصرفة على أنها سر الإعجاز والأمر بخلاف ذلك ، يدل على ذلك قوله :

((وهذا أيضاً وجه قريب ، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (٢) . فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيلة التأهب والإحتشاد والمعنى في (الصرفة) التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها والله أعلم)) (٣) .

وهو بهذا القول الواضح الفصيح ، قد أبطل مفهوم (الصرفة) ، وبين أنه لا ينطبق بحال على إعجاز القرآن ، لأن الآية الكريمة التي استدل بها تتحدى الجن والانس أن يحتشدوا ، وأن يظاهر بعضهم بعضاً حتى يأتوا بمثل القرآن ، فهذا المعنى يدل على أن ذات القرآن معجز ، وليس التحدى في منع الناس عن مضاهاته .

وهذا المفهوم (للصرفة) لدى (الخطابي) ، قد اختلف في فهمه ، كل من (عبد الكريم الخطيب) ، (والدكتور حفني شرف) ، إذ يقول (عبد الكريم الخطيب) :

((وينكر (الخطابي) هذا الرأى الذى يقول : إن الإعجاز كان من قبيل (الصرفة) ، ثم يسقطه من حساب المعجزة ، والإعجاز)) (٤) .

---

(١) اعجاز القرآن للخطابي ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) سورة الاسراء من الآية ٨٨ .
(٣) بيان اعجاز القرآن ا ص ٢٣ .
(٤) الاعجاز في دراسات السابقين ص ١٨٥ .

أى أن (الدكتور عبد الكريم)، يرى في معنى نص (الخطابي) أنه ينفي أن تكون (الصرفة) وجهاً من وجوه الإعجاز .

ويستشهد برد (الخطابي) قائلاً :

((وهذا أيضاً وجه قريب [1]، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله سبحانه : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) [2] .

ويحلل (عبد الكريم الخطيب) ، رأي (الخطابي) قائلاً :

(((والخطابي) يرى في الصورة التي عرضها القائلون (بالصرفة)، والتى صوروا بها المعجزة - أن هذه الصورة يمكن أن تقوم عليها المعجزة الحسية التى تتحدى قوى البشر ، فيجيء النبي بمعجزة تمسك ألسنتهم عن الكلام يوما أو أياما ، أو ما شابه ذلك . أمّا معجزة القرآن فهي لا تتحدى قوى الناس في الجانب المادي المحسوس ، ولكنها تتحدى الملكات العقلية والطاقات النفسية والروحية الكامنة فيهم ، ليقولوا كلاما كهذا الكلام ، وما عطل الله من العرب ملكاتهم العقلية ، ولا حبس طاقاتهم النفسية والروحية ، بل كانوا يتكلمون ويجادلون ويهجون ما أحسوا يوماً أنهم فقدوا شيئاً من البيان الذى كان يجرى على ألسنتهم)) [3] .

يقول (عبد الكريم الخطيب) أن معنى (الصرفة) لدى (الخطابي) لا يدل على أنه يقول أن الإعجاز بها ، بل يرى أن معجزة القرآن الكريم تختلف عن غيرها من المعجزات ، لأنها تتحدى قوى الناس المادية ، والمحسوسة مع أنه سبحانه لم يعطل مقدرة العرب ، ولا قيدهم بل ترك لهم الأمر يجتمعون له كيف شاءوا ، وهذا المعنى لا ينطبق على معنى (الصرفة) التي وصفوا بها القرآن .

---

(١) ويشرح عبد الكريم الخطيب معنى قول الخطابي (وهذا أيضا وجه قريب) فيقول أى التصوير للمعجزة ووقوعها على نحو هذا ممكن ، ولكن ذلك في المعجزة المادية التي تظهر في واقع الحس متحدية القدرة الإنسانية ، أما في القرآن فجاءت المعجزة فيه على غير هذا) .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٣) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٣ .

ولكن (الدكتور حفني شرف) يزج (الخطابي) في زمرة القائلين بالصرفة حين يقول :

((ويتقدم (الخطابي) في بحثه خطوة فيناقش فكرة الصرفة ، في إعجاز القرآن ، ويذكر حجة القائلين بها ويعلق عليها ، بقوله :

((فهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها ، وهذا أيضاً وجه قريب)) . (١)

ولسنا ندري كيف يصفه (الخطابي) بالقرب ، مع أنه واضح الفساد ظاهر البطلان ، بل لعله أفسد ما قيل في الإعجاز ، وفساده واضح من قوله تعالى : ((قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)) (٢) .

وذلك لأنه يدل على أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، و(الصرفة) تخالف ذلك تمام المخالفة)) . (٣)

((ونستطيع أن نستدل بالآية على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة - وهو معنى (الصرفة) - لم يبق لاجتماعهم فائدة ، لأنه يكون والحالة هذه بمنزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل وينوه به .

كما أن الإجماع منعقد - قبل (النظام) وهو القائل بالصرفة ، على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، لا إلى الله سبحانه وتعالى .

كذلك فإنه لو لم يضف الإعجاز إلى القرآن ، أي أن المنع من المعارضة ، كان من قبل الله ، للزم على هذا زوال الإعجاز بإنقضاء زمان التحدى ، وهذا في غاية الفساد)) (٤) .

---

(١) بيان اعجاز القرآن للخطابي ص ٢٣ .
(٢) سورة الاسراء آيه ٨٨ .
(٣) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق ٤ / ٥١ سنة ١٣٩١ هـ ، سنة ١٩٧٠ م د . حفني محمد شرف .
(٤) المرجع نفسه ص ٥٣ .

وكما قدمت فالصرفة موضوع قد شغل العلماء كثيراً وكتب فيه (الشيخ عبد القاهر) . وكانت بعض آرائه مستقاة من نهر آراء العلماء السابقين وهو يرى في القول بالصرفة أن تكون العرب قد تراجعت وتناقضت بلاغتها عما كانت عليه في الجاهلية .

فلم تعد خطبهم وأشعارهم التي قالوها قبل التحدى وبعده في نفس المستوى - بل قصرت عنه قصوراً شديداً .

وأن تكون أشعار شعراء المسلمين التي قالوها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي الرد على المشركين قاصرة ناقصة المعنى والبلاغة . وكأن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لحسان قل وروح القدس معك ليس له فائدة ، لأنه كيف يكون معاناً ومؤيداً من عند الله ، ويقال أن بلاغته تقاصرت وتراجعت عما كانت عليه في الجاهلية .

يقول (الشيخ عبد القاهر) مبعداً أن تكون (الصرفة) وجهاً للإعجاز :

((وذاك أنه يلزم عليه أنْ يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان ، وفي جودة النظم وشرف اللفظ ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون ، وأن تكون أشعارهم التي قالوها ، والخطب التي قاموا بها .. وكل كلام اختلفوا فيه من بعد أن أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحدوا إلى معارضة القرآن قاصرا عما سمع منهم من قبل ذلك القصور الشديد ، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم ، ونضبت عنهم موارد قد كانت تغزر ، وخذلتهم قوى قد كانوا يصولون بها ، وأن تكون أشعار شعراء النبي صلى الله عليه وسلم التي قالوها في مدحه عليه السلام وفي الرد على المشركين ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية ، وأن يشك في الذى روى عن شأن (حسّان) من نحو قوله عليه السلام : قل وروح القدس معك ، لأنه لا يكون معاناً مؤيداً من عند الله وهو يعدم مما كان يجده من قبل كثيراً .

ويتقاصر أنفه حاله عن السّالف منها تقاصراً شديداً)) (١) ولقد عرض

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٤٦ .

لهذه الفكرة -(الباقلاني) ، ولكنه اقتضبها ، فلم يردها ولم يناقشها ، كما ردها وناقشها (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، فالذى رآه (الباقلاني) :

أن العرب حين تحدوا بمعارضة القرآن ، لم يعرف عن بلاغة العرب في الجاهلية أنها تناقصت ، ومقدرتها تراجعت ، وكذلك لم يتجدوا إلى معارضة القرآن ، فكيف كان الصرف والمنع إذاً . بل أوضاعهم البيانية كما علمناها ، وكما عرفنا أنها بلغت القمة في فصاحتها وبيانها .

يقول الباقلاني) :

((على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه ، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف لأنهم لم يتحدوا إليه ولم تلزمهم حجته)).[1]

وإن القول بهذه المقالة شنيع ، وضعيف ، لأنه يؤدى إلى جهالات كثيرة .

منها أن يكون حال النبي صلى الله عليه وسلم البيانية قد دخلها نقص واعتراها ضعف .

وأن تكون النبوة قد أدت إلى منعه شطرا من بيانه ، مع ما عرف له من شرف اللفظ وحسن النظم ، يقول (الشيخ عبد القاهر) :

((واعلم أنه يلزمهم أن يقضوا في النبي صلى الله عليه وسلم بما قضوا في العرب ، من دخول النقص على فصاحتهم ، وتراجع الحال بهم في البيان ، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يمنع شطرا من بيانه ، وكثيراً ما عُرف له قبلها من شرف اللفظ وحسن النظم ، ذاك لأنهم إذا لم يقولوا ذلك حصل منه أن يكون عليه السلام قد تلا عليهم : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا).[2]

---

(١) اعجاز القرآن ص ٣٠ .

(٢) سورة الاسراء آية ٨٨ .

في حال هو يستطيع فيها أن يجيء بمثل القرآن و يقدر عليه ، و يتكلم ببعض ما يوازيه في شرف اللفظ ، وعلو النظم)) .(١)

و(للصرفة)مداخل كثيرة واهية ، ذلك أن القول بها ، يعني أن هناك قوة خارقة صرفت مقدرة كل هؤلاء الناس البيانية عن مضارعة القرآن الكريم .

أى أن البرهان و الدليل في مقدرة هذه القدرة على الصرف و المنع وليس في القرآن نفسه .

يقول (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) :

((و جملَة الأمر أن علم النبوة عندهم ، و البرهان به إنما كان في الصرف و المنع عن الإتيان بمثل نظْم القرآن ، لا في نفس النظم ، و إذا كان كذلك ، فينبغي إذا تعجب المتعجب و أكبر المكابر أن يقصد بتعجبه و إكباره إلى المنع الذى في الآية و البرهان ، لا إلى الممنوع منه ، و هذا واضح لا يشكل)).(٢)

و لقد سبق (الباقلاني) بهذه الفكرة أيضاً ، حيث عبر هناك بجمل قصيرة و مفيدة . بين فيها أن القول بهذه المقالة يقتضي أن يكون القرآن في نفس منزلة الكلام العادى . يقول :

((و مما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن الكلام معجزاً ، و إنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه)).(٣)

و إن للصرف مسالك كثيرة في القول ، و دعاوى باطلة ، ذلك أن يقولوا : إن الشاعر عند ما يستحسن شعر غيره من الشعراء ، و يرى فيه فضلاً على شعره ، لا يداخله شك في أنه يستطيع أن يقدر على مضاهاته إذا اجتهد في ذلك ، ولكنه حِيل بينهم و بين ذلك الاجتهاد . يقول :

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٤٨ .

(٢) الرسالة الشافية ص ١٥٢ .

(٣) إعجاز القرآن ص ٣٠ .

((فإن قالوا : إنه ليكون أن يستحسن الشاعر الشعر يقوله غيره ويكبر شأنه ، ويرى فيه فضلاً ومزية على ما قاله هو من قبل ، ثم هو لا ييأس من أن يقدر على مثله إذا هو جهد نفسه وتعمل له ، فنحن نجعل لفظ القرآن ونظمه على هذا السبيل ، ونقول : إنهم سمعوا منه ما بهرهم وعظم في نفوسهم ، ولكنهم على حال أنسوا من أنفسهم بأنهم يأتون بمثله إذا هم اجتهدوا فحيل بينهم وبين ذلك الاجتهاد)) .(١)

(والشيخ عبد القاهر) يرد على هذه الدعوى ، ويناقش قائلها ، إذ المفروض في الذى يمنع من قولٍ يستطيع قوله . أن يقول مالي منعت وعجزت عما كنت استطيع أن أقوله ، يقول :

((وأول ما يدل على بطلان ما قلتم أن الذى عرفنا من حال الناس فيما سبيله ما ذكرتم التضجر والشكوى ، وأن يقولوا : مالنا ومن أين دهينا ؟ وكيف الصورة ؟

إنا وإن كنا نسمع قولاً له فضل ومزية على ما قلناه ، إنه بالذى ليس ينبغي أن يعجز عنه هكذا ، حتى لا نستطيع في معارضته ما نرضى فلا تدرى أسحرنا أم ماذا كان ؟ ففي أن لم يرو عنهم شيء من الجنس على وجه من الوجوه دليل أن لا أصل لما توهموه ، وأنه تلفيق باطل)) (٢) .

ولقد قال قائل منهم أنه السحر ، فسرت تلك المقالة في معظمهم سريان الدم في العروق ، يصفون القرآن بالسحر ، لأنه على حد زعمهم فرق بين الأهل والاخوان .

ولم يعرف عن أحد منهم أنه قال إنه قصور في عزائمنا ماذا دهانا ؟ كنا نقول مثل ذلك .

ويقول (الشيخ عبد القاهر) في القائلين بالصرفة :

((ثم إن هذه الشناعات التي تقدم ذكرها تلزم أصحاب (الصرفة) أيضا وذاك

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

أنه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن ، وعن أن يأتوا بمثله ، لأنه معجز في نفسه ، ولكن لأن أدخل عليهم العجز عنه ، وصرفت هممهم ، وخواطرهم عن تأليف كلام مثله ، وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعلمه وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له ، لكان ينبغي أن لا يتعاظمهم ، ولا يكون منهم ما يدل على اكبارهم أمره وتعجبهم منه ، وعلى أنه قد بهرهم ، وعظم كل العظم عندهم ، ولكان التعجب للذى دخل من العجز عليهم ، ولما رأوه من تغير حالهم ، ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلا ، وأن سد دونه باب كان لهم مفتوحا ، أرأيت لو أن نبيا قال لقومه (ان آيتي أن أضع يدى على رأسي هذه الساعة وتمنعون كلكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم) وكان الأمر كما قال ، مم يكون تعجب القوم ؟ أمن وضعه يده على رأسه أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم ؟)).(١)

والملاحظ أن (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) قد استقى هذه الفكرة من الخطابي ، وقد مضى الحديث عنها (٢) .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٥٢ ، ٣٦٠ .

(٢) ينظر ص ١٨٦ من هذا الفصل .

الباب الثاني

مصادر بلاغة الإمام عبد القاهر

ويتكون من أربعة فصول

الفصل الأول : العلماء الذين أخذ منهم الشيخ عبد القاهر ولم يذكر أسماءهم في كتبه.

الفصل الثاني : العلماء الذين أخذ منهم الشيخ عبد القاهر وذكر أسماءهم في كتبه.

الفصل الثالث : بلاغة الشيخ عبد القاهر، ومدى صلتها بالبلاغة اليونانية.

الفصل الرابع : جهود الشيخ عبد القاهر في علوم البلاغة. و

ويشتمل هذا الفصل على المباحث التالية :

المبحث الأول : الفصل والوصل.

المبحث الثاني : التقديم والتأخير.

المبحث الثالث : الحذف والقصر بـ (إنما)

المبحث الرابع : الكناية.

المبحث الخامس : الاستعارة.

المبحث السادس : التشبيه والتمثيل.

المبحث السابع : السرقات الأدبية.

الفصل الأول

العلماء الذي أُخذ منهم الشيخ عبد القاهر ولم يذكر أسماءهم في كتبه .

الفصل الأول

العلماء الذين أخذ منهم عبد القاهر ولم يذكر أسماءهم

إن نظرية النظم التي وضعها (الشيخ عبد القاهر الجرجاني)، هي أساس إعجاز الكلام المعجز، وهي أساس الكلام البليغ، وقد تحدث عنها في كل كتابه (دلائل الإعجاز)، ليس لأنه يريد تثبيتها، بل لأنه ربطها بكل أنواع الكلام.

ولقد استنبط هذه النظرية من بعض ما كتب في بعض المؤلفات فوسعه ووضحه.

وها هو ذا قد استوحى بعض ما جاء في كتاب (عيار الشعر) (لابن طباطبا العلوى)، وإن لم يصرح باسمه.

يقول (الشيخ عبد القاهر)، عندما قسم الكلام أقساما، ما حسنه للفظه، وما حسنه لمعناه، ومنه ما حوى جمال اللفظ والمعنى، ووضعت ألفاظه مواضعها التي بها اكتسب الفضل، وحاز الأولوية، يقول:

((ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة، ويأتيك منه ما يملأ العين غرابة، حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل وموضعه من الحذق، وتشهد له بفضل المنة، وطول الباع، وحتى تعلم إن لم تعلم القائل - أنه من قبل شاعر فحل، وأنه خرج من تحت يد صناع، وذلك ما إذا أنشدته، وضعت فيه اليد على شيء، فقلت: هذا هذا .. ما كان كذلك فهو شعر الشاعر، والكلام الفاخر، والنمط العالي الشريف، والذى لا تجده إلا في شعر الفحول البزل (١)، ثم المطبوعين الذين يلهمون القول الهاما)) (٢).

---

(١) البزل : جمع بازل وهو البعير في السنة التاسعة، يبزل نابه اى يطلع ويستعار للرجل المجرب انظر اللسان مادة (بزل) ١١ / ٥٢.

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٢٤.

فتلك أوصاف النمط العالي من الكلام ، والذى يأتي سلسا كالماء الذى لا يتأتى إلا لذوى الطبع ، والذين يلهمون القول إلهاما .

ولقد استنبط هذه الفكرة من (ابن طباطبا) ، والذى حام بدوره حول موضوع النظم ، فأخذ منه (عبد القاهر الجرجاني) ما قوم به اساس بناء هذه النظرية ، وذلك حين قال ابن طباطبا :

((فمن الأشعار أشعار محكمة متقنه أنيقة الألفاظ حكيمة المعاني ، عجيبة التأليف ، إذا نقضت وجعلت نثرا ، لم تبطل جودة معانيها ، ولم تفقد جزالة ألفاظها ، ومنها أشعار مموهة ، مزخرفة عذبة ، تروق الأسماع والأفهام ، إذا مرت صفحا . فإذا حصلت وانتقدت بهرجت معانيها ، وزيفت ألفاظها ، ومجت حلاوتها ، ولم يصلح نقضها لبناء يستأنف منه ، فبعضها كالقصور المشيدة ، والأبنية الوثيقة الباقية على مر الدهور ، وبعضها كالخيام الموتدة التي تزعزها الرياح ، وتوهيها الأمطار ، ويسرع إليها البلى ، ويخشى عليها التقوض)).[1]

يعنى أن هناك من الاشعار الجزل الرصين ، والمحكم المعاني ، الذى كسى ثوب جمال لا يفارقه حتى لو تحولت تلك الأشعار إلى نثر فإنها تظل محتفظة برونقها وبهائها ، فلا تفقد جزالة ألفاظها ، ولا روعة معانيها .

وإنما يتفاضل الشعراء فيما بينهم بفضل ما ينظمون من أشعار ، ويعود هذا الفضل بحسن عبارتهم ونظمهم ، واختيار المناسب من الألفاظ .

وبعض الألفاظ تحسن في مكان عنها في آخر ، وذاك الفضل يرجع إلى حذق الشاعر في موضع إختياره .

ولقد ضرب (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) عدة أمثلة للكلمة الواحدة وأثبت أنها في حد ذاتها ليس لها في شأن البلاغة شيء إلا بحسب المكان الذى توضع فيه ، والمناسبة التي تختار لها .

فهذا (المتنبي) قد نظم بيتا من قلائد شعره ، إلا أن استعمال كلمة واحدة في غير موضعها المناسب ، قد جلبت له الضعف ، كما في قوله :

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا العلوى ص ١٣ ط ١ ١٤٠٢ هـ . دار الكتب العلمية .

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه
لعوقـــه شيء عن الـــدوران

يقول (القاضي الجرجاني) :

((وهذا البيت من قلائده ، إلا أنك تعلم ما في قوله (شيء) من الضعف الذى يجتنبه الفحول ، ولا يرضاه النقاد ، وهو وأشباه هذا مما لم نرد استقصاءه ، وإنما دللناك على منهاجه ، وأريناك بابه ، وقد قدمنا ما استرذل لنا من شعره)) .[1]

فقد استرذل (القاضي الجرجاني) كلمة (شيء) في البيت ،وهذا يدل بوضوح على أهمية اختيار اللفظ المناسب في المكان المناسب ، لأن النقـــاد ، وكل متذوق للشعر ينكر استعمال الألفاظ التي لا تتلاءم مع جاراتها .

وهذا احساس شاع بين النقاد ، كما قال في ذلك (القاضي) : ((إلا أنك تعلم ما في قوله شيء من الضعف الذى يجتنبه الفحول ولا يرضاه النقاد))

وهذه هي الفكرة التي أخذها (الشيخ عبد القاهر) ، وجعل منها موضوعا طرق به سبل الاعجاز القرآني .

يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((ومن أعجب ذلك لفظة الشيء ،فانـــك تراها مقبولة حسنة في موضع ، وضعيفة مستكرهه في موضع ، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي [2] - :

ومن مالىء عينيـــه من شيء غـــيره
إذا راح نحو الجمرة البيض كالدّمـــى

وإلى قول أبي حيـــة : [3]

---

(١) الوساطة ص ١٨١ . (٢) البيت من الطويل .
(٣) أبو حية النميرى : هو الهيثم بن الربيع وكان يروى عن الفرزدق ، وكـــان كذابا . قال ذات يوم : عن لي ظبي فرميته ، فراغ عن سهمي فعارضـــه والله ذلك السهم ، ثم راغ ، فراوغه السهم حتى صرعه ببعض الخبـــارات . ولقيه بن مناذر فسأله أن ينشده ، فأنشده :
ألا حي من بعد الحبيب المغانيـــا لبسن البلى مما لبسن اللياليا

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة
تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول ، ثم انظر إليها في بيت المتنبي :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه
لعوقه شيء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها ، وحسنها فيما تقدم)) (١)

ولقد تبين لنا من ذلك أن ليس للكلمة شرف في ذاتها وانما بالمكان الذى تستعمل فيه ، لأن حسن اختيار الألفاظ يضفى رونقا وبهاء لا يكون إذا لم يحسن اختيار اللفظ ، ولقد نبه (القاضي الجرجاني) على أن الكلمة قد تأتي ضعيفة كما سبق .

ولقد وقع (المتنبي) في هوة سوء ترتيب الأفكار وتنظيمها حيث يقول : (٢)

ولذا اسم أغطية العيون جفونها
من أنها عمل السيوف عوامل

وقوله : (٣)

الطيب أنت اذا أصابك طيبه
والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

= فقال له ابن مناذر : أو هذا شعر ؟ فقال أبو حية : ما في شعرى شر من أنك تسمعه) البيت من الطويل . انظر الكامل ١/١٢٨ الشعر والشعراء ٢ / ٧٧٤ .

(١) دلائل الاعجاز ص ٩١ ، ٩٢ .

(٢) البيت من الكامل من قصيدة يمدح بها القاضي أبا الفضل الأنطاكي ديوانه ٣/٢٥٢

(٣) من نفس القصيدة الديوان ٣ / ٢٦١ .

وقولـــه : (1)

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمـــه
بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمـــه

وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم ، وعابوه من جهة سوء التأليـــف أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن علـــى غير الصواب ، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف واضمار ، أو غير ذلك مما ليـس له أن يصنعه ، وما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم)). (2)

وفساد هذا الشعر ، حتى تبرأت أركانه بعضها من بعض لاضطراب التأليف وسوء النظم ، إذ لم يطبق الشاعر أصول النحو وأحكامه ، فقدم وأخر ، وحذف وأضمر ما لا يحذف أو يضمر .

ولقد استنبط هذا المعنى من خلال عرض (القاضي الجرجاني) لأبيـــات (المتنبي) ، عندما قام بالوساطة بينه وبين خصومه ، حيث يقول :

((قلت : قد جمع في هذه الأبيات ، وفي غيرها مما احتذى به حذوهـــا بين البرد والغثاثه ، وبين الثقل والوخامـــة ، فأبعد الاستعارة ، . وعوّص اللفظ ، وعقد الكلام ، وأساء الترتيب ، وبالغ في التكلف ، وزاد على التعمـــق حتى خرج إلى السخف في بعض ، وإلى الإحالة في بعض)). (3)

وكان قد استشهد بقول المتنبي :

ولذا اسم أغطيه العيون جفونهـــا
من أنها عمل السيوف عوامـــل

---

(1) من الطويل .ساجمه : سجم الدمع سجوما وسجاما : قطر دمعها وســـال قليلا أو كثيرا . انظر الفيروزبادى ٤ / ١٢٩ وهذا البيت من أول مـــا أنشد المتنبي سنة سبع وثلاثين ومئة عند نزوله انطاكية ومنصرفه من ظفـــره بحصن مدح بها بسيف الدولة أبا الحسن العدوى، انظر ديوانه ٣ / ٣٢٥ .

(2) دلائل الاعجاز ص ١١٩ .

(3) الوساطة ص ٩٢ .

وقولـــه :

الطيب أنت اذا أصابك طيبــــه
والماء أنت اذا اغتسلت الغاسـل

وبعد أن سرد أبياتا عدة للمتنبي علق عليها قائـلا :

((فهو كما تراه سخافة وضعفا ، ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضعاف ما ذكره من هذه الاشارة ، وأنت لا تجد منها في عدة دواوين جاهلية حرفا ، والمحدثون أكثر استعانة بها ، ولكن في الفرط والندرة ، أو على سبيل الغلط والغلتة .

وقلت : احتطنا له ما قدمناه على ما فيه من فنون المعايب ، وأصناف القبائـــح ، كيف يحتمل له اللفظ المعقد ، والترتيب المتعسف لغير معنى بديع يفي شرفه ، وغرابته بالتعب في استخراجه ، وتقوم فائدة الانتفاع بازاء التأذى باستماعه ، كقوله :

وفاؤكما كالربـع أشجاه طاسمـــه
بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمـــه

ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة ، والتعقيد المفرط فيشك أن وراءها كنزا مــــن الحكمة ، وأن في طيها الغنيمة الباردة ، حتى اذا فتشها وكشف عن سترها وسهـر ليالي متوالية فيها ، حصل من ذلك كله على أن : ((وفاؤكما ياعاذلي بأن تسعداني اذا درس شجاني ، وكلما ازداد تدارسا ، ازددت له شجوا ، كما أن الربع أشجـاه دارسه فما هذا من المعاني التي لا يضيع لها حلاوة اللفظ ، وبهاء الطبع ، ورونـــق الاستهلال ، ويشح عليها حتى يهلهل لأجلها النسج ، ويفسد النظم ، ويفصل بـــين الباء ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه ، ويقدم ويؤخر ، ويعمى ويعوص)) (1) .

وها هوذا بشر بن المعتمر (٢) ، قد طرح مسألة اللفظ والمعنى ، وهي الـــتي

---

(١) الوساطة ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) بشر بن المعتمر : هو أبو سهل بشر بن المعتمر الهلالي ، الذى ينحدر فيمـا يبدو من الكوفة ، ولكنه استوطن بغداد ، ونظم تعاليم المعتزلة في شعر لكـي تشيع بين الناس ، لأنه كان على عكس مدرسة البصرة من أنصار على رضي اللـــه عنه ، وضعه هارون الرشيد في السجن ، غير أنه عاد فاكتسب نفوذا قويا في عهد المأمون ، وتوفى سنة ٢١٠ هـ . له قصيدتان تعليميتان في تاريخ الطبيعـــة ذكرهما الجاحظ وشرحهما ، كما ألف لهارون الرشيد صحيفة في البلاغة ، انظر ٢٦/٢٥/٤ من تاريخ العرب لكارول بروكلمان .

دارت في كتاب دلائل الاعجاز ، دون أن يشير (الشيخ عبد القاهر) في كثير من المواضع إلى ذكر أصحابها و من أوائل من كتبوا فيها ، مثل (الجاحظ) الذى نقل صحيفة (بشر) ، والتي يقول فيها :

((و التعقيد هو الذى يستهلك معانيك و يشين ألفاظك ، و من أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، و من حقهما أن تصونهما عما يفسدهما و يهجنهما)) .(١)

و تدل هذه الفقرة على أن (بشرا) في صحيفته ، يساوى بين أهمية اللفظ و المعنى ، و أن لكل منهما حقه من وجوب العناية به و الحكم على الأديب بالفنية بقدر ما يجيد فيهما معا .

المبالغة :
و هي من الألوان البديعة التي كثر وقوف النقاد و الشعراء عندها فمن راغب فيها مستحسن لها ، و من راغب عنها زاهد فيها ، عائب من يوردها في أدبه .

و قد وصف المتقدمون ما جاء منها بأوصاف عدة : الإفراط - الإفراط في الصفة - تجاوز المقدار - الإغراق - التبليغ - الغلو .

و كلمة المبالغة وردت قديما وصفا لمجاوزة الحد في المعاني .

لذلك كانت جميع الصور البيانية من تشبيه و مجاز و كناية تفيد المبالغة ، لأنه لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز ، ولا عن التصريح إلى الكناية ، ولا عن الكلام المجرد إلى التشبيه ، إلا لأغراض لا تؤديها هذه الأصول ، و من هذه الأغراض المبالغة .

و لقد وردت هذه الصور البيانية جميعها في القرآن الكريم ، و في الأحاديث الشريفة مما يدل على أن المبالغة أصيلة في اللغة العربية .

---

(١) البيان و التبيين ١ / ٨٦ للجاحظ .

ومن خلال أمثلة المبالغة وتعريفاتها دخل (الشيخ عبد القاهر) إلى قضية (الصدق والكذب في الشعر) ، وتلك القضية لم يكن (عبد القاهر) أول من عالجها ، وإنما سبقه إليها كثير من النقاد والعلماء .

ولقد سبقه بعضهم إلى شيء مما قاله ، مثل (ابن قتيبة) ، (وقدامه بن جعفر) و (المبرد) و (أبو هلال العسكري) .

ولقد وسمت المبالغة (بالصدق والكذب في الشعر) وهي قضية قد كتب فيها كثير من النقاد والأدباء ويسمى جانب (الكذب) (بالتخييلي) الذى وصفه (الشيخ عبد القاهر) بأنه « الذى لا يمكن أن يقال إنه صدق وإن ما أثبته ثابت ، وما نفاه منفي ، وهو مفتن المذاهب كثير المسالك لا يكاد يحصر إلا تقريبا ، ولا يحاط به تقسيما وتبويبا ، ثم إنه يجيء على طبقات ويأتي على درجات ». (١)

وإن المقصود منه أنه على شعب مختلفة ولا يصح أن توسم كل هذه الأنواع بالكذب فيه مجاوزة وتنفيرا .

لأنه قد يكون ما أثبته الشاعر غير ثابت ، وما نفاه غير منفي ، ولكن بعضه له أصل زيد عليه وبولغ فيه ، ولم يقصد قائله إلى الكذب ، وإنما قصد إلى تضخيم أمر أو تهوينه ، أو إلى الحث على فعل مكرمة أو التنفير من اقتراف سيئة .

موقف الشيخ عبد القاهر من العلماء الذين سبقوه في الحديث عن المبالغة :

لقد اشتد الخلاف كثيرا حول المبالغة ، فتفرقت بالعلماء السبل ، فمنهم المستحسنون لها المغالون في تقديرها .

ومنهم المستهجنون لها ، الزارون عليها وعلى من يزاولها . ومنهم من هو وسط بين المغالين والزارين .

والخوض في هذا الموضوع شائك ، لكثرة من ألف فيه ولتعدد آراء العلماء .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٤٧ .

لا يمكن أن نستقصي كل ما ورد بل سوف أجعل - بإذن الله كل مذهب مستقلا عن الآخر ، و من ثم أبين الآراء التي استفاد منها(عبد القاهر)و من قائلها .

فمن العلماء الوسط ، الذين فضلوا الإقتصاد في أداء المعاني :

١ - (المبرد) : الذى أورد قول الشاعر : (١)

فلو أن ما أبقيت مني معلـــق
بعود ثمام ما تأود عودهـــا

و قال : إنه متجاوز ، كقول القائل (في و صف فرسه) :
(و يمنعها من أن تطير زمامها)

و أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب بــــه الحقيقة ، و نبــه بفطنته على ما يخفى على غيره ، و ساقه برصف قوى ، و اختصـــار قريب ، قال (قيس بن معاذ) : (٢)

و أخرج من بين البيوت لعلــني
أحدث عنك النفس في السر خاليا

و إني لاستغشي و ما بي غشيـــة
لعل خيالا منك يلقـى خياليـــا (٣)

٢ - و من هؤلاء ايضا : (محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى) :

فقد ذكر في كتابه ((عيار الشعر)) أنه يفضل الاقتصاد في أداء المعانـــي و الإشارة بذلك . فهو مرة يقول : ((و الفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق ، و الجائز المعروف المألوف ، و يتشوف إليه ، و يتجلى له و يستوحش مـــن

---

(١) هذا البيت من الطويل و قائله إما أبو العوام بن كعب بن زهير أو الحسين بن مطير ،أو كثير عزة أو أعرابي .
(٢) هذا الشعر من الطويل وقائله : هو المجنون قيس بن معاذ أحد بني جعدة ابن كعب بن ربيعة بن صعصعة ، و يقال هو من بني عقيل بن كعب بن ربيعـــة و لقب بالمجنون لذهاب عقله بشدة عشقه . و هو من أشعر الناس على انهم قد نحلوه شعرا كثيرا رقيقا يشبه شعره)) انظر ٢ / ٥٦٣ من الشعر والشعراء .
(٣) انظر الكامل ١ / ١٧٢ .

الكلام الجائر ، والخطأ الباطل ، والمحال المجهول المنكر ، وينفر منه ، ويصدأ ، فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوما ، مصفى من كدر العي مقوما من أود الخطأ واللحن ، سالما من جور التأليف ، موزونا بميزان الصواب لفظا ومعنى وتركيبا اتسعت طرقه ، ولطفت موالجه ، فقبله الفهم وارتاح له ، وأنس به)) (١) .

ومرة أخرى يقول : أجزاء الشعر الجيد هي : ((اعتدال الوزن وصواب المعنى ، وحسن الألفاظ)). (٢)

ويجعل الصدق من مقومات الشعر الجيد ، وقد استشهد بقوله صلى الله عليه وسلم : ((إن من الشعر لحكمه)) وقال عليه السلام : ((ما خرج من القلب وقع في القلب ، وما خرج من اللسان لم يتعد الآذان)). (٢)

ثم قال : ((فإذا وافقت هذه الحالات ، تضاعف حسن موقعها عند مستمعها ، لا سيما إذا أيدت بما يجذب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها ، والتصريح بما كان يكتم منها ، والاعتراف بالحق في جميعها)). (٣)

وبذلك أشار بوضوح إلى ما يسميه النقاد المحدثون : (الصدق الفني) وهو ما قصده وأراده حين قال :

((من الأبيات الحسنة الألفاظ ، المستعذبة الرائقة سماعا الواهية تحصيلا ومعنى ، وإنما يستحسن منها اتفاق الحالات التي وضعت فيها ، وتذكر اللذات بمعانيها ، والعبارة عما كان في الضمير منها وحكايات ما جرى من حقائقها دون نسج الشعر وجودته ، وإحكام وصفه وإتقان معناه) (٤)

---

(١) عيار الشعر ص ٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢ .

(٤) عيار الشعر ص ٨٧ .

وقد مثل لذلك بقول جميل : (١)

فيا حسنها اذ يغسل الدمع كحلها
وإذ هي تذرى الدمع منها الأناملُ

عشية قالت في العتاب قتلتني
وقتلى بما قالت هناك تحاولُ

ومثل بعدد آخر من الأبيات ، وعلق عليها قائلا :

((فالمستحسن من هذه الأبيات حقائق معانيها الواقعة لأصحابها الواصفين لها . دون صنعه الشعر وأحكامه)) (٢) .

اذن فحسن هذه الأبيات وأشباهها عنده يرجع الى صدقها الفني ، والى ألفاظها العذبة ، وان لم تكن فيها صنعة لطيفة ولا نسج محكم جيد .

٣ الآمدى :

إن موقف (الآمدى) من قضية المبالغة ، في إيثار الصدق والإشادة به ، والاستحسان له،لا يختلف كثيراً عن موقف (ابن طباطبا) .

وفي ذلك يقول (الآمدى) :

((وقد كان قوم من الرواة يقولون : أجود الشعر أكذبه ، ولا والله ما أجوده الا أصدقه ، اذا كان له من يلخصه هذا التلخيص ويورده هذا الإيراد)) . (٣)

---

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر ، ويكن أبا عمرو ، وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك ، وصاحبته بثينة ، وهما جميعا من عذرة وكانت بثينة تكن أم عبد الملك . وعشق جميل بثينة وهو غلام صغير ، فلما كبر خطبها فرد عنها ، فقال الشعر فيها ، وكان يأتيها سرا ، ومنزلها وادى القرى) ١/ ٤٣٤ من الشعر والشعراء والبيتان من الطويل وفي معجم الشواهد الشعرية منسوب للبيد ولكنه غير موجود في ديوانه .

(٢) عيار الشعر ص ٨٧ ، ٨٨ . (٣) الموازنة ٢ / ٥٨ .

ولقد اختار (الآمدى) أمثلة كثيرة ليثبت دعواه ، وذلك عند ما أورد عن البحترى [1] وصفه الخيال :

فلا وصل الا أن يطيف خيالها ... بنا تحت جؤشوش من الليل أسفع

ألمت بنا بعد الهدوّ فسامحت ... بوصل متى تطلبه في الجد تمنع

وما برحت حتى مضى الليل فانقض ... وأعجلها داعى الصباح الملمّع

فولّت كأن البين يخلج شخصها ... أوان تولت من حشاى وأضلعي

ورب لقاء لم يؤمل ، وفرقة ... لأسماء لم تحز ولم تتوقع

أسر بقرب من ملم مسلّم ... وأشجى ببين من حبيب مودع

وكائن لنا بعد النوى من تفرق ... تزجيه أحلام الكرى ، وتجمّع

ومن لوعة تعتاد في إثر لوعة ... ومن أدمع ترفض في إثر أدمع

فانظر إلى هذه العبارة الحسنة ، وإخباره اياك بالشيء على ما كان ونحو ذلك في الحسن والصحة ، قوله [2] :

وإنى وإن ضنت على بودها ... لأرتاح منها للخيال المؤرق

إلى قوله [3] :

أضم عليه جفن عيني تعلقا

به عند إجلاء النعاس المرنق

فقوله : ((أضم عليه جفن عيني تعلقا)) من أحسن كلام ، وأصح معنى ، وأصدقه ، وأكثره ، وكثيرا ما ينال أكثر الناس ذلك عند جلاء النوم ، وإبتداء اليقظة ، إذا كان في رؤيا يلذها)). [4]

إلى أن يقول في موضع آخر .

---

(١) هذه الأبيات من الطويل ، انظر الأمالى ١ / ٢٢٨ .

(٢) من البحر الطويل .

(٣) البيت من الطويل .

(٤) الموازنة ٢ / ١٧٤ ، ١٧٥ .

((ومن حذق الشاعر أن يصور لك الأشياء بصورها ، ويعبر عنها بألفاظها المستعملة فيها ، واللائقة بها)).[1]

والآن وبعد أن شرحت آراء العلماء الأوائل ممن يفضل الصدق ، وينحى الفضل له في جمال الشعر ، لأنه - اى الشعر - يكون للنفس أقرب ومن القلب ألصق ، فإني سأبين رأى (الشيخ عبد القاهر) في هذه القضية ، ومن ثم نستنتج إلى أى مدى استفاد من سابقيه ، وكيف أنه أخذ منهم ، ولكنه لم يصرح بذكرهم .

يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول — ما يجرى من العقل على أصل صحيح - وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم وإن قضى له ، والحق مفلج ، وإن قضى عليه)).[2]

فهو صراحة يميل إلى نصرة العقل ، وما كان من الشعر قريبا من الواقع ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه .

والواضح من عبارة (الشيخ عبد القاهر) أنه يتفق مع (الآمدى) في تفضيل الصدق وإيثاره ، بل انه يجعل الصدق مقابلا للباطل ، ومرادفا له ولذلك كان تفسيره لقولهم (خير الشعر أصدقه) : بأن ((ما دل على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظة تروض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال)).[3]

ثم يقول : ((وقد ينحى به الصدق في مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما هو فيه)).[3]

---

(١) المصدر نفسه ٢/١٩٩ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٣٧ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٢٣٦ .

وفي هذا التفسير يوافق ما قال به الآمدى ، إذ يقول :

((وقالوا - يريد أهل العلم - في معنى قول عمر بن الخطاب : كان زهير بن أبي سلمى - لا يمدح الرجل إلا بما في الرجال)) أنه أراد لا يمدح السوقه بما يمدح به الملوك ، ولا يمدح التجار وأصحاب الصناعات بما يمدح به الصعاليك والأبطال ، وحملة السلاح ، فإن الشاعر إذا فعل ذلك فقد وصف كل فريق بما ليس فيه)).(١)

وهذه ترجمة لرأى عبد القاهر عند شرحه لقول البحترى : ((والشعر يكفى عن صدقه كذبه)) حيث يقول : ((إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح خطأ من الفضل ، والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظاً من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله)).(٢)

(فالبحترى) في رأى (عبد القاهر) ، ينكر من يكلفونه حدود منطقهم أن يلزموه أن يجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ويأخذ فيه بالقول المحقق ، حتى لا يدعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان .

أما قولهم :-

(خير الشعر أكذبه)

فقد نحا الشيخ عبد القاهر فيه منحى الآمدى حين فسر قولهم : (خير الشعر أكذبه) ، إذ يقول :

((إنهم لم يقولوا : خير الشعر أكذبه ، وهم يريدون كلاما غفلا ساذجا يكذب فيه صاحبه ، ويفرط نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ، ويقول للبائس المسكين : إنك أمير العراقين ولكن ما فيه صنعة يتعمل لها ، وتدقيق في المعاني يحتاج معه إلى فطنة لطيفة ، وفهم ثاقب وغوص شديد)).(٣)

---

(١) الموازنة ١/٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٥١ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

و هو بهذا يستضيء بقول الآمدى : ((لا يمدح السوقه بما يمدح بـه الملوك . .)) و يقول (الآمدى) في موضع آخر ، في أبيات للبحترى : [١]

فما بلغ الدمع الذى كنت أرتجى
ولا فعل الوجد الذى خلت يفعلُ

و ما كل نيران الجوى تحرق الحشا
ولا كل أدواء الصبابة يقتلُ

و قد كان قوم من الرواة يقولون : أجود الشعر أكذبه ، ولا والله ما أجوده إلا أصدقه ، إذا كان له من يلخصه هذا التلخيص ، و يورده هذا الإيراد على حقيقته)). [٢]

اما الجزء الأول من عبارة (الشيخ عبد القاهر) في تفسير الصدق ، فقد نحا فيها منحى (ابن طباطبا العلوى) ، الذى يقول :

((و تودع - اى الأشعار - حكمة تألفها النفوس ، و ترتاح لصدق القول فيها ، و ما أتت به التجارب منها)). [٣]

و إنه كما ذكرت ، فإن عبارة عبد القاهر ظاهرة في أنه أراد بالصدق ما يطابق الواقع ، و بالكذب فيه صنعة يتأنق لها الشاعر .

وإن مراد الصدق لدى (عبد القاهر) ما قارب الواقع ، بل يعد هذا النوع من أحسن الشعر ، ودليل ذلك استحسان (عبد القاهر) قول المجنون:

و انى لأستغشي و ما بي غشية
لعل خيالا منك يلقى خياليا

فقد ذكره (الشيخ عبد القاهر) ، و علق عليه ، بقوله : ((قد يتصور

---

(١) البيتان من الطويل .
(٢) الموازنة ٢ / ٥٨ .
(٣) عيار الشعر ص ١٢٥ .

أن يريد المغـــرم المتيم اذا بعد عهده بحبيبه أن يراه في المنام ، ولذا أراد ذلك جاز أن يريد النوم له خاصة فاعرفه)) .(١)

فالذى يقصده الشيخ عبد القاهر ، أن الشاعر هنا لم يكذب ، وإنما عبر عن شيء قد يعرض له ، فهو قريب من الواقع .

ولعل (الشيخ عبد القاهر) قد استأنس في هذا بقوله (أبي العباس المبرد) ، أو بما ورد في ترجمة (عبد بنى الحسحاس) في الشعر والشعراء لابن قتيبة الذى عاب بعض أبيات المبالغة ، التي تجافى الواقع ، ولم يستحسن منها إلا قول هذا الشاعر . (٢)

فما زال بردى طيبا من ثيابها
إلى الحول حتى أنهج البرد باليا

وقد قدم له بقوله : ((ومما أخذ عليه قوله ، وذكر التقاءه وعشيقته ، ثم عقب له بقوله : ((وقال آخرون : هو على التوهم لفرط العشق ، وهو نحو قول الأعرابي حين قيل له : ما بلغ من حبك لها ؟ فقال إني لأذكرها وبيني وبينها عقبة الطائف ، فأجد من ذكرها ريح المسك)) . (٣)

ولقد سبق ذكر عبارة ابن طباطبا الواضحة في الصدق الفني : ((إذا أيدت المعاني بما يجذب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها)) .(٤)

فليس بعيدا ولا مستغربا أن يكون نقادنا القدامى ، قد عرفوا الصدق الفني بجانب الصدق الواقعي .

المجيزون للمبالغة المستحسنون لها :

---

(١) أسرار البلاغة ٢٧٥ .
(٢) البيت من الطويل .
(٣) الشعر والشعراء ١ / ٤٠٨ ، ٤٠٩ .
(٤) عيار الشعر ص ٢٢ .

١ - النابغة الذبياني :

فقد سئل من أشعر الناس ؟ فقال من استجيد كذبه ، وأضحك رديئه .

وربما دل هذا على مذهبه في المبالغة ، ما روى من نقده لحسان بن ثابت إن كانت القضية صحيحة (١) وذلك أن أكثر نقده كان عيبا على حسان أنه لم يحسن المبالغة .

٢ - ابن قتيبة :

لقد وردت لابن قتيبة عدة أقوال يصرح فيها بحسن المبالغة لأنها وردت في القرآن الكريم ، واستشهد لذلك بعدة آيات منها قوله تعالى : (وبلغت القلوب الحناجر) (٢) حيث يقول : ((وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فإنه يأتي بكاد ، فما لم يأت بكاد ففيه إضمارها ، كقوله تعالى : ((وبلغت القلوب الحناجر) أى كادت من شدة الخوف تبلغ الحلوق ، وقد يجوز أن يكون أراد أنها ترجف من شدة الفزع وتجف ويتصل وجيفها بالحلوق فكأنها بلغت الحلوق بالوجيب وهم يصفون القلوب بالخفقان ، والنزوعند المخافة والذعر .

قال الشاعر في وصف مفازه تنزو من مخافتها قلوب الأدلاء (٣) ،

كأن قلوب أدلائها معلقة بقرون الظباء

ويقول في هذه الآية عند ما رد على الطاعنين على القرآن ، وذلك عندما تساءلوا كيف تبلغ القلوب الى الحلوق ، والقلب ان تحرك من موضعه مات صاحبه ، يقول :

((وقالوا في قوله تعالى : (وبلغت القلوب الحناجر) : كيف تبلغ القلوب الحلوق ، والقلب إن زال عن موضعه شيئا مات صاحبه)) (٤)

---

(١) نقد الشعر لقدامه بن جعفر .

(٢) سورة الأحزاب آيه ١٠ .

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبه ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣١ .

كما يذكر في تفسير قول الله عز و جل : (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) (١) ،((يريد أنهم ينظرون إليك بالعداوة نظرا شديدا يكاد يزلقك من شدته ، أي يسقطك)).(٢)

٣ - قدامه بن جعفر :

فإنه يستجيد المبالغة ، وذلك حين يقول : ((وأما المبالغة ، فمن شأن العرب أن تبالغ في الوصف والذم ، كما من شأنها أن تختصر وتوجز ، وذلك لتوسعها في الكلام واقتدارها عليه)) (٣) ، ومما يدل كذلك على أنه من أنصار المبالغة قوله : ((ومن هذا المعنى قول الشاعر أيضا :

فلما صرح الشر	فأمسى وهو عريان
مشينا مشية الليث	غدا والليث غضبان

فلم يرضى بتصريح الشر حتى عراه ، من كل ما يستره ، ولم يرض بمشية الليث حتى جعله غضبان ، وأشباه هذا كثير في القرآن)) (٤) .

كما يقول (قدامة) في كتابه (نقد الشعر) عن المبالغة :

((وهي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذى قصده ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ في ما قصد .

إلى أن يقول - والمبالغة الشديدة في هذا الشعر هي في قوله الحيية ومنه للحكم الخضرى أيضا .

فكن يا جارهم في خير دار
فلا ظلم عليك ولا جفاء

---

(١) سورة القلم آيه ٥١ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٠ .

(٣) نقد النثر ص ٧٨ ط القاهرة ، المنسوب لقدامة بن جعفر .

(٤) نقد النثر المنسوب لقدامة ص ٧٩ .

فقولــه ((فلا ظلم عليك ولا جفاء)) توكيد و مبالغة)).(١)

وكما نرى فإن الحديث عن المبالغة ، كان مفتوحا على مصراعيه قبل (الشيخ عبد القاهر) ، وما كان على (الشيخ عبد القاهر) إلا أن يحدد رأيــه بصراحة في هذا الشأن ، وأن يختار ما يلائم عبقريتــه البلاغية .

والملاحظ أن كل آرائه اعتمد فيها على من سبق ، وأخذ منهم ما أخــذ دون أن يذكر أسماءهم .

ولنرى ماذا بشأن استعماله التمثيل لتقريب المعنى وتوضيحه . فهنــاك من المعاني العامة ما يكون غفلا ساذجا في كثير من كلام الناس ثم نراه نفســه وقد عمد إليه بصير بشأن البلاغة وفنونها ، فأحدث فيها صورا جميلة بديعة .

وهو في هذا مثله مثل الصانع الحاذق ، يأتي على الحلى، كالخاتم والســوار فيكون مصنوعا بديعا ، قد أغرب صانعه فيه ، وآخر أتى بكلام غفل ساذج لــم يعمل فيه صانعه شيئا أكثر من أن يأتي بما يقع عليه اسم الخاتم إن كان خاتمــا وسواراً إن كان سوارا .

ولقد شرح (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) هذه القضية ، وأبدع فيهــا وضرب أمثلة كثيرة ليثبت دعواه بها .

ولقد استفاد في ذلك بما تقدم به (القاضي الجرجاني) في وساطته بــين المتنبي وخصومه .

فقول القائلين : الطبع لا يتغير ، ولا يستطيع أحد أن يخرج الإنسان عمــا جبل عليه ، فهذا المعنى متداول تعرفه العامه ، وتعبر عنه بطريقتها المعروفــة البسيطة ، التي لم تقع من القلوب موقعها وتؤثر في النفوس تأثيرا عميقا .

ولننظر إلى ذات المعنى ، وقد تناوله (أبو الطيب المتنبي) حيــــث يقــول : (٢)

---

(١) نقد الشعر ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) البيت من المتقارب وهو من قصيدة يمدح سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبــا وائل تغلب بن داود من الاسر . والبيت في الديوان ٣/ ٢٢ .

يراد من القلب نسيانكم
وتأبى الطباع على الناقل

((فتجده قد خرج في أحسن صورة ، وتراه قد تحول جوهرة بعد أن كان خرزة ، وصار أعجب شيء بعد أن لم يكن شيئا)).[1]

وهذا موضوع طويل له في أصول البلاغة جذور ممتدة إلى الأعماق ، جعل منها الشيخ عبد القاهر شجرة باسقة فروعها ظليلة يجد عندها متلمس معاني البلاغة وعلومها فيئا وظلا ظليلا .

وذلك حين قال : ((واعلم أن المخالف لا يخلو من أن ينكر أن يكون فيه على الجملة صور لم تكن أو يعرف ذلك)).[2]

أى أن المعنى الواحد عندما يعبر عنه بطريقتين لا شك في أن أحدهما اكتسب حسنا لم نجده في الأخرى .

ولقد أشار إلى أنه استقى هذه الفكرة من نبع العقل والحكمة الأول ، وذلك حين يقول :

((وإذ قد عرفت ذلك فإن العقلاء إلى هذا قصدوا ، حين قالوا إنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ، ثم يكون أحدهما فصيحا والآخر غير فصيح ، كأنهم قالوا إنه يصح أن يكون ههنا عبارتان أصل المعنى فيهما واحد . ثم يكون لإحداهما تحسين ذلك المعنى وتزيينه ، واحداث خصوصيه فيه تأثير لا يكون للأخرى)).[3]

وهذا الباب الواسع الذى كسر فيه الشيخ عبد القاهر ، وصال وجال صولة فارس مقدام ، قد هيأ له القاضي الجرجاني بتعليقات ومقارنات عقدها بين الأبيات .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ٣٨٥ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٣٨٤ .

فقد عقد بين البيت السابق لأبي الطيب المتنبي ، وبين قول العباس : (١)

لا تحسبني عنكم مقصـــرا

إني على حبكم مطبـــوعُ

ولم يزد على تلك المقارنة شيئا ، إلا أنه بهذا الصدد أورد شواهد كثـيرة وتعليقات عليها طفيفة ، فقد ذكر أنه ((حكى عن بعض الحكماء أنه سئل عن أسوأ الناس حالا فقال : ممن قويت شهوته ، وبعدت همته ، واتسعت معرفتـــه ، وضاقت مقدرته فقارنه بقول (أبي الطيب) حين قال : (٢)

وأتعب خلق الله من زاد همــه

وقصر عما تشتهى النفس وُجْـده

ووجه الشبه بين القولين واضح ، فقول الحكماء عن أسوأ الناس عند ما صيغـت نثرا وجملا ، لم تكتس منه البهرج والزهو ما اكتسبه قول المتنبي .

الاستعـــارة :

لقد أجل الشيخ عبد القاهر الجرجاني أمر الاستعارة ،لأنهـــا أبلغ من الحقيقة في تأدية المعنى .

وهذه قضية أخرى ، إذ لا يمكن أن تكون الاستعارة مجرد نقل الاسم من شيء إلى آخر ، بل هو نقل المعنى ، وإكسابه صفاته ، وهذا النقل يكون علـــى درجات ومراتب .

فإذا جعلوا - على سبيل المثال - الرجل بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ، ولا يعدم منها شيئا ، قالوا عنه هو أسد وإذا وصفوه بالخير والخصال الشريفة الكريمة ، أو بالحسن الذى يبهر قالوا عنه (هو ملك) ،وأن أرادوا

---

(١) الوساطة ص ٣٢٢ والبيت من الرجز .

(٢) الوساطة ص ٣٨٧ البيت في الديوان ٢ / ٢٢ قصيدة يمدح بها كافورا . وهو من الطويل .

أكثر ، نفوا عنه صفة البشر .

ولقد مثل الشيخ عبد القاهر الجرجاني لذلك بقوله تعالى : (ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم). (١)

ثم إنهم إذا استقصوا في ذلك نفوا عن المشبه اسم جنسه فقالوا : ليس هو بإنسان ، وإنما هو أسد ، وليس هو آدميا ، إنما هو ملك ، كما قال تعالى : (ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم)

ثم إن يريدوا أن يخرجوه عن جنسه جملة ، قالوا : هو أسد في صورة إنسان ، و هو ملك في صورة آدمي . (٢)
وقد أخرج هذا المتنبي في عبارة حسنة . وذلك في قوله :

نحن ركب ملجن في زى ناس   فوق طير لها شخوص الجمال

فهنا استعارتان : اذ استعار قوة الجن للناس .
و استعار سرعة الطير للجمال .

اى أنهم أناس أشداء أقوياء كالجن ، يمتطون جمالا سرعتها كالطير تسبح في الهواء .

و هذا الشرح و التقصي ، قد بني على ما عقده القاضي الجرجاني من مقارنه بين بيت أبي الطيب الذى اقتبسه من بيت أبي تمام حين قال : (٣)

في عُصبةٍ ان سروا فجن
أو يمحوا شقةً فطير

فاستعارة قوة الجن و سرعة الطير ، ليس لها من الجمال ما لبيت أبي الطيب و الجدير بالذكر هنا أن القاضي لم يشرح هذين البيتين كما فعل الشيخ عبد القاهر .

---

(١) سورة يوسف آيه ٣١ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٩٢ و البيت من الخفيف .
(٣) الوساطة ص ٢٨٤ البيت من الخفيف .

واستشهادات القاضي الجرجاني في هذا الصدد كثيرة ، كقوله :
قال أبو الطيب :

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا .

وهذا مصراع نادر ، مستوفى المعنى سائر المثل)) [1] ولقد استشهد كل من (القاضي) (والشيخ عبد القاهر) ببعض أبيات المتنبي :

وقوله : [2]

وعند من اليوم الوفاء لصاحب شبيب وأوفى من ترى أخوان

وقوله : [3]

إذا الهند سوت بين سيفي كريهة
فسيفك في كف تزيل التساويا .

---

(١) المصدر نفسه ض ٢٥٢ / البيت من الطويل .

(٢) البيت من الطويل في الدلائل ص ٤٣٦ .

(٣) في الدلائل ص ٤٣٧ . البيت للمتنبي من الطويل .

الفصل الثاني

العلماء الذين أُخذ منهم الشيخ عبد القاهر وذكر أسماءهم في كتبه.

الفصل الثاني

العلماء الذين

أخذ منهم الشيخ عبد القاهر و ذكر أسماءهم في كتبه

لقد اغترف الشيخ عبد القاهر الجرجاني من علم البلاغة ، ما أتاح له أن يكون ثروة بلاغية ضخمة ، فبفضل كتابيه دلائل الاعجاز و أسرار البلاغة ، أصبح للعربية علم بلاغة محدد ، و مقنن له مرجعه و قاموسه .

و لم يقم هذا الصرح الشامخ من الهواء ، بل ارتكز على ما وضعه العلماء قبله فجمع ما تناثر في تلك الكتب ، و قننه و شرحه شرحا علميا وافيا .

و كان في مسار بحثه الطويل ، يشير في كثير من الأحوال إلى من استقى منهم الأفكار ، و أخذ عنهم الآراء ، مرة ناقدا ، و أخرى مستفيدا .

و لقد أفردت هذا الفصل لأبين أسماء العلماء الذين أخذ منهم (الشيخ عبد القاهر) ، و الموضوعات التي اشترك فيها الطرفان ، و كذلك ما زاده (الشيخ عبد القاهر) .

ففي موضوع الحذف :

قد اعتمد (الشيخ عبد القاهر) على (سيبويه) في باب ما يحذف منه الفعل ، و ذلك لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل .

يقول (سيبويه) تحت هذا الباب : ((و من ذلك قول الشاعر ، و هو ذو الرمه و ذكر الديار و المنازل .

ديار مية إذ مي مساعفة ولا يرى مثلها عجم ولا عرب (١)

---

(١) هذا البيت من البحر البسيط . و قائل هذا الشعر ذو الرمه و هو : (غيلان بن عصبه بن بهيش ، و يكنى أبا الحارث ، و هو من بني صعب ابن ملكان بن عدى بن عبد مناة .
و كان ذو الرمه أحد عشاق العرب المشهورين بذلك ، و صاحبته مية بنت قيس ابن عاصم بن سنان . و كان يشبب بامرأة يقال لها خرقاء و هي من بني

كأنه قال : أذكر ديار مية . ولكنه لا يذكر أذكر لكثرة ذلك في كلامهم واستعمالهم اياه ، ولما كان فيه من ذكر الديار قبل ذلك)). (١)

فقد أجاز (سيبويه) نصب ديار بتقدير فعل محذوف تقديره (اذكر ديار)(١) وهذا المعنى هو الذى ذكره (الشيخ عبد القاهر) ، واستشهد له بنفس الشاهد .

ديار مية إذ مي تساعفنا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب

((أنشده بنصب ديار ، على اضمار فعل ، كأنه قال : اذكر ديار مية)) (٢) .

كما اعتمد (الشيخ عبد القاهر) على (سيبويه) في جواز حذف المبتدأ وأخذ نص شاهده حين قال :

((قال صاحب الكتاب :

اعتاد قلبك من ليلى عوائده وهاج أهواءك المكنونة الطلل

ربع قواء أذاع المعصرات به وكل حيران سار ماؤه خضل

قال أراد ذاك ربع قواء ، أو هو ربع)) (٣)

= البكاء بن عامر بن صعصعة . وهي التي عناها بقوله .

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام ؟ !

والرمه : بضم الراء ، وهي الحبل البالي ، ونسب اليها لشعر قاله.توفى سنة ١١٧ هـ انظر الشعر والشعراء لابن قتيبه ت/ احمد محمد شاكر جـ١/ ٥٢٤ طبعة دار المعارف .

(١) الكتاب ١/ ٢٨٠ ت / عبد السلام هارون ط٢ ١٩٧٧ م الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٧١ سيبويه ١/ ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٠ والبيتان من البسيط عوائده : نسوة عوائد : وعود وهن اللاتي يعدن المريض ، الواحدة عائدة : انظر اللسان مادة عود ٣/ ٣١٩ الطلل ما شخص من آثار الديار ١١/ ٤٠٦ من اللسان مادة (طلل). المعصرات : السحاب فيها مطر / اللسان مادة (عصر) ٤/ ٥٧٧ الربع : المنزل والديار يعنيها / اللسان مادة ربع ٨/ ١٠٢ أذاع بالشيء ذهب به ٨/ ٩٩ خضل : يعني غزير الماء رطب / انظر اللسان مادة (خضل) ١١/ ٢٠٨ وقائل هذا البيت عمر بن أبي ربيعه كما في الكتاب لسيبويه وعمر بن ابي ربيعة : هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعه المخزومي ، من بني مخزوم ،ويكنى أبا الخطاب . وأبو جهل بن هشام بن المغيرة ابن عم أبيه . وكان أبوه عبد الله يلقب بحيرا . وكان عمر فاسقا يتعرض للنساء الحواج في الطواف ، وغيره من مشاعر الحج ، ويشبب بهن ،فسيره

وهو نص عبارة سيبويه ، حين قال في هذا البيت :

((كأنه قال : وذاك ربع ، أو هو ربع)).[1]

كما استشهد (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) و (سيبويه) بقول (عمر بن أبي ربيعه) :

هل تعرف اليوم رسم الدار والطللا
كما عرفت بجفن الصيقل الخللا
دار لمية اذ أهلى وأهلهم
بالكانسية نرعى اللهو والغزلا

فاذا رفعت فالذى في نفسك ما أظهرت ، واذا نصبت فالذى في نفسك غير ما أظهرت).[2]

كما استشهد (عبد القاهر الجرجاني) على ما حذف من بيت عمر بن أبي ربيعة ، يقول صاحب الوساطة ، مصرحا بذكر اسمه قائلا :

((قال شيخنا رحمه الله : ولم يحمل البيت الأول على أن الربع بدل من الطلل ، لأن الربع أكثر من الطلل ، والشيء يبدل مما هو مثله ، أو أكثر منه ، فأما الشيء أقل منه ففاسد لا يتصور ، وهذه طريقة مستمرة لهم إذا ذكروا الديار والمنازل)).[3]

وان استشهاد الشيخ عبد القاهر بكلام صاحب الوساطة تأكيد لصحة الحذف في هذا الموضع ، لأنه لو كان (ربع) بدلا من الطلل ، لم يكن هنا حذف وأيده بكلام سيبويه الذى قدره مبتدأ .

= عمر بن عبد العزيز إلى الدهلك ، ثم ختم له بالشهادة . قال عبد الله بن عمر : فاز عمر بن أبي ربيعة بالدنيا والآخرة ، غزا في البحر فأحرقوا سفينته فاحترق : انظر جـ ٢ / ص ٥٥٤ من الشعر والشعراء / أحمد محمد شاكر دار المعارف .

(١) الكتاب ١/ ٢٨٢ .
(٢) الكتاب ١/ ٢٨٢ والشعر من البحر البسيط .
(٣) دلائل الاعجاز ١٧٠ .

كما استشهد الشيخ عبد القاهر بالجاحظ في موضوع الكناية وأنها لا تعمل عمل التصريح. في كتاب (البيان والتبيين)، حيث يقول :

((وهذا كلام ذكره أبو عثمان الجاحظ في كتاب (البيان والتبيين) وأنا أكتب لك الفصل حتى يستبين لك الذى هو المراد ، قال : ((والسنة في خطبة النكاح ، أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب ، ألا ترى أن (قيس بن خارجة) لما ضرب بسيفه مؤخرة راحلة الحاملين في شأن حمالة داحس ، وقال : مالي فيها أيها العشمتان ، قالا : بل ما عندك ؟ قال عندى قرى كل نازل ، ورضى كل ساخط ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب ، آمر فيها بالتواصل ، وأنهى فيها عن التقاطع ، قالوا فخطب يوما إلى الليل ، فما أعاد كلمة ولا معنى فقيل لأبي يعقوب : هلا اكتفى بالأمر بالتواصل عن النهي عن التقاطع ؟ أوليس الأمر بالصلة ، هو النهي عن القطيعة ؟ قال : أوعلمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإيضاح والتكشيف)).(1)

ولقد ذيل (الشيخ عبد القاهر) مقالة (الجاحظ) تلك بقوله : ((انتهي الفصل الذى أردت أن أكتبه ، فقد بصرك هذا أن يكون ايقاع نفى الوجود على صريح لفظ المثل كايقاعه على ضميره)).(1)

يريد أن ذكر الاسم أبلغ من ذكر ضميره في هذا الموضع ، فيقول :

((وإذ قد عرفت هذا فإن هذا المعنى بعينه قد أوجب في بيت ذى الرمة أن يضع اللفظ على عكس ما وضعه البحترى فيعمل الأول من الفعلين وذلك قوله :

ولم أمدح لأرضيه بشعري لئيما أن يكون أصاب مالا

أعمل (لم أمدح) الذى هو الأول في صريح لفظ اللئيم و (أرضى) الذى هو الثاني في ضميره ، وذلك لأن ايقاع نفى المدح على اللئيم صريحا ، والمجئ به مكشوفا ظاهرا ، هو الواجب من حيث كان أصل الغرض وكان الإرضاء تعليلا له ، ولو أنه قال : ولم أمدح لأرضى بشعرى لئيما ، لكان يكون قد أبهم الأمر فيما هو الأصل ، وأبانه فيما ليس بالأصل فاعرفه)).(2)

---

(1) دلائل الاعجاز ص ١٨٨ .

(2) المصدر نفسه ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، البيت من الوافر . انظر معجم شواهد العربية ص ٢٦٩ .

فالذكر و التصريح أبلغ في الكلام ، وله تأثير في السمع و النفس لا يكون مثله في الكناية . وقد مثل لذلك بأمثلة من كتاب الله و أعادها في آخر الدلائل حيث يقول : ((و الذى يوجبه التأمل أن يرد الأصل الذى ذكره الجاحظ من أن سائلا سأل عن قول قيس بن خارجه ((عندى قرى كل نازل و رضى كل ساخط و خطبة من لدن تطلع الشمس الى أن تغرب ، آمر فيها بالتواصل ، وأنهى فيها عن التقاطع)) فقال أليس الأمر بالصلة هو النهى عن التقاطع ؟ قال فقال أبو يعقوب : أما علمت أن الكناية و التعريض ، لا يعملان في العقول عمل الإفصاح و التكشيف ، و ذكرت هناك أن لهذا الذى ذكر من أن للتصريح عملا لا يكون مثل ذلك العمل للكناية ، كان لإعادة اللفظ في قوله تعالى ((و بالحق أنزلناه و بالحق نزل)) [1] ، و قوله (قل هو الله أحد ، الله الصمد) عمل لولاها لم يكن . و اذا كان هذا ثابتا معلوما فهو حكم مسئلتنا .

و من البين الجلي في هذا المعنى - و هو كبيت ابن الرومى سواء لأنه تشبيهه مثله - بيت الحماسة :

شددنا شدة الليث غدا و الليث غضبان [2]

و من الباب (قول النابغة) :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر و الإقداما [3]

لا يخفى على من له ذوق حسن هذا الإظهار ، و أن له موقعا في النفس و باعثا للأريحية لا يكون إذا قيل : نفس عصام سودته : شيئ منه البته)). [4]

الاستعاره :

لقد رأى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة ، و من هذا المنطلق ، فإنه لا يقبل قول من يعرف الاستعارة على أنها نقل الاسم من شيئ إلى شيئ .

---

(١) سورة الاسراء من الآية ١٠٥ . (٢) من البسيط .

(٣) من الأرجاز تكلمته : و جعلته ملكا هماما .

(٤) دلائل الاعجاز ص ٤٨٤ (٣) هو عصام بن شهير الجرمى ، و معنى شهير عظيم الرأس ، حاجب النعمان بن المنذر ، و يريد أنه اكتسب السؤدد بكمالاته لا بآبائه و لذلك اشتهر ان يقال للذى اكتسب السؤدد من غير سابق أسلافه أنه عصامي .

ديوان النابغة ص ٢٤٧ تح/محمد الطاهر بن عاشور .

لأن هذا التعريف معناه ، أن النقل لا يدل على أن المنقول اليه ، قد تغير في نفسه فاكتسب صفات أخرى ، غير ما هي عليه في الحقيقة ، يقول : ((رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبدا أبلغ من الحقيقة ، وإلا فإن كان ليس همنا إلا نقل اسم من شيء إلى شيء ، فمن أين يجب ليت شعري - أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة ؟ ويكون لقولنا رأيت أسدا مزية على قولنا : رأيت شبيها بالأسد ؟ وقد علمنا أنه محال ،أن يتغير الشيء في نفسه ، بأن ينقل إليه اسم قد وضع لغيره من بعد أن يراد من معنى ذلك الاسم فيه شيء بوجه من الوجوه بل يجعل كأنه لم يوضع لذلك المعنى الأصلي أصلا وفي أى عقل يتصور ، أن يتغير معنى (شبيها بالأسد) بأن يوضع لفظ أسد عليه وينقل إليه)) [1] .

وهو بهذا الرأى يخالف (القاضى الجرجانى) في الوساطة حيث يرى أن ((الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها ، وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى ، حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر)) [2] .

ولقد صرح (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) بنقله عن صاحب الوساطة حيث يقول :

((وقال القاضي أبو الحسن [3] : الاستعارة ما اكتفى فيه بالاسم المستعار عن الأصلي ، ونقلت العبارة ، فجعلت في مكان غيرها)). [4]

وأما قول الشاعر لبيد :

وغداة ريح قد وزعت وقرة

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها [5]

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

(٢) الوساطة ص ٤١ / ت محمد ابو الفضل ابراهيم / على محمد البجاوى .

(٣) هو ابو الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة .

(٤) دلائل الاعجاز ص ٣٩٣ .

(٥) من الكامل .

فقد استشهد به صاحب الوساطة على الاستعارة الحسنة ، يقول :

((وقد كان يقع ذلك (١) من خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت ، على تعمد وقصد ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسيء ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط .

فإذا جاءتك الإستعارة كقول لبيد :

وغداة ريح قد وزعت وقره   إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فقد جاءك الحسن والإحسان وقد أصبت ما أردت من أحكام الصنعة وعذوبة اللفظ)). (٢)

كما نلاحظ من نص صاحب الوساطة أنه استشهد به على الاستعارة الحسنة ولم يعلق عليه بأكثر من ذلك .

ولكن (الشيخ عبد القاهر) استطاع أن يستنبط الاستعارة من جوف هذا البيت ، ويوضح طريقتها فيه .

فاستعار لفظ ، اليد (للشمال) بعد أن شبهها بإنسان قد أخذ شيئا فأخذ يقلبه بيده ، ويتصرف فيه يقول في ذلك (الشيخ عبد القاهر) :

((لا خلاف في أن اليد استعارة ، ثم إنك لا تستطيع أن تزعم أن لفظ اليد قد نقل عن شيء إلى شيء ، وذلك أنه ليس المعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكنك أن تزعم أنه نقل لفظ اليد إليه ، وإنما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال في تعريفها الغداة على طبيعتها شبه الانسان قد أخذ الشيء بيده يقلبه ويصرفه كيف يريد ، فلما أثبت لها مثل فعل الانسان استعار لها اليد .

---

(١) ذلك : أى استعمال البديع والاستعارة .

(٢) الوساطة ينظر ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ وزعت : كوضعت.

وكما لا يمكنك تقدير النقل في لفظ اليد ، كذلك لا يمكنك أن تجعل الإستعارة فيه من صفة اللفظ ،ألا ترى أنه محال أن تقول أنه استعار لفظ اليد للشمال ، وكذلك سبيل نظائره ، مما تجدهم قد أثبتوا فيه الشيء عضوا من أعضاء الإنسان ، من أجل إثباتهم له المعنى الذى يكون في ذلك العضو من الإنسان)) .(١)

وهذا دليل قاطع على أن فضيلة الكلام انما تكون في معناه دون مجرد ألفاظه ، فمجرد نقل الاسم من شيء إلى شيء ، لا يؤدى المعنى المقصود بل نقل المعنى ، كما رأينا في نقل ما تؤديه لفظة يد من التصرف في الأشياء إلى فعل (الشَّمال) .

يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني : ((فقد تبين من غير وجه ، أن الاستعارة إنما هي ادعاء معنى الاسم للشيء ، لا نقل الاسم عن الشيء وإذا ثبت انها ادعاء معنى الاسم للشيء ، علمت أن الذى قالوه من أنها تعليق للعبارة على غير ما وضعت له في اللغة ، ونقل لها عما وضعت له ، كلام قد تسامحوا فيه لأنه اذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالا عما وضع له بل مقرا عليه)) .(٢)

لأن نقل مجرد الاسم ، يجعله يظل محتفظا بمعناه الحقيقي المعروف .
وقد عرض (الشيخ عبد القاهر) هذا البيت في الأسرار فقال :

((أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ، ويوضع موضعا لا يبين فيه شيء يشار إليه فيقال هذا هو المراد بالاسم ، والذى استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائبا منابه ، ومثاله قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذا أصبحت بيد الشَّمال زمامها

وذلك أن جعل للشمال يدا ، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه ، كإجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك انبرى لى أسد يزأر .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٩٤ .
(٢) المرجع نفسه ص ٣٩٥ .

ولقد شرح طويلا ، إلى أن قال ((أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرفا كتصرف الإنسان في الشيء يقلبه ، فاستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق التشبيه ، وحكم الزمام في استعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال اذ ليس هناك مشار اليه يكون الزمام كناية عنه ، ولكنه وفي المبالغة شرطها من الطرفين)) (١) .

والجدير بالذكر أن (الشيخ عبد القاهر) قد صرح بذكر صاحب الوساطة في مستهل الموضوع (٢) فبين ما استقاه من(القاضي أبي الحسن الجرجاني) .

ولأهمية وضع اللفظ في المكان المناسب للمعنى المراد ،ترددت صوت عبد القاهر في كل ما كتب ،وأجال النظر في كل ما قرأ ،ورد على كل فكرة دارت حول هذا الموضوع .

فصاحب الواسطة يرى في قول أبي نواس ، أنهما متحدان في المعنى وذلك اذا يعلق على هذين البيتين :

خُلِّيتَ والحسن تأخذه   تنتقى منه وتنتخب

وبيت عبد الله بن مصعب :

كأنك جئت محتكما عليهم   تخيّر في الأبوة ما تشاء

((فأحد البيتين هو الآخر في المعنى ، وإن كان أحدهما يتخير الحسن والآخر الأبوة)) (٣)

وإذا تأملنا قول بشار بن برد :

خلقت على ما في غير مخير   هواى ،ولو خيرت كنت المهذبا (٤)

وجدنا أنه كان مفتاحا لأبي نواس ، ومصعب ، إذ أنشد الأخيران على

---

(١) أسرار البلاغة ـ ص (٣٥) .
(٢) في ص ٣٩٣ في مستهل الفقرة ص كتاب الدلائل .
(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢٠٥ بيت ابو نواس من المديد / بيت مصعب من الوافر.
(٤) ديوانه ص ٢٤ جمع وتحقيق السيد بدر الدين العلوى / بيروت دار الثقافة (من الطويل) .

غرار ما أنشد بشار .

اى أن مرجع هذه الأبيات الثلاثة في المعنى واحد و هو اختيار الأفضل والأحسن ، و ذلك أمر واضح ، إذ لم يزيدوا على إخفاء ما أخذوه شيئا كثيرا .
و ذلك أن أبا تمام ((تناوله فأخفاه ، فقال :

ولو صوّرت نفسك لم تزدها
على ما فيك من كرم الطباع)) (١)

و هذا يعد من التفنن في الأخذ و السرقة - يقول القاضي : ((وحتى لا يغرك من البيتين المتشابهين أن يكون أحدهما نسيبا و الآخر مديحا وأن يكون هذا هجاء ، و ذاك افتخارا ، فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه و صنفه ، وعن وزنه و نظمه ، وعن رويه و قافيته ، فإذا مر بالغبي الغفل وجدهما أجنبيين متباعدين وإذا تأملهما الفطن الذكي عرف قرابة ما بينهما ، و الوصلة التي تجمعهما)) (٢) .

فكون أحد البيتين مدحا و الآخر غزلا ، لا يؤدى بحال إلى التباس الأمر على الحاذق في فهم ما بين المعاني من تشابه ، لأن الشاعر عندما يأخذ المعنى فإنه يعمد إلى تغييره من جهة نوعه ووزنه ، و قافيته و نظمه .

ولقد استعان (الشيخ عبد القاهر) برأى (القاضي الجرجاني) ، وصرح باسمه ، و أضاف إليه ، أن الشاعر لو عمد إلى البيت فغير لفظا مكان لفظ ليس غير ، لكان التغيير و إخفاء معالم البيت مستحيلا .

لأن ((الشيخ عبد القاهر)) يريد أن يخلص من ذلك إلى أن اللفظ في حد ذاته ، وبدون عوامل أخرى مساعدة ، لا يمكن بحال أن يؤدى المطلوب من المعاني و أن الذى يؤدى إلى التغيير الحقيقي و الاخفاء ، هو تغيير مكان اللفظ ، ووضعه في صورة غير التي كان عليها ، يقول :

---

(١) الوساطة ص ٢٠٥ البيت من الوافر .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٤ .

((وأمر ثالث ، وهو أنهم يقولون في واحد : أنه أخذ المعنى فظهر أخذه ، وفي آخر : أنه أخذه فأخفى أخذه ، ولو كان المعنى يكون معادا على صورته وهيئته ، وكان الآخذ له من صاحبه لا يصنع شيئا غير أن يبدل لفظا مكان لفظ ، لكان الإخفاء فيه محالا ، لأن اللفظ لا يخفي المعنى ، وإنما يخفيه إخراجه في صورة غير التي كان عليها . مثال ذلك أن القاضي أبا الحسن ذكر فيما ذكر فيه تناسب المعاني بيت أبي نواس :

خليت والحسن تأخذه … تنتقي منه وتنتخب

وبيت عبد الله بن مصعب :

كأنك جئت محتكما عليهم … تخير في الأبوة ما تشاء

وذكر أنهما معا من بيت بشار :

خلقت على ما في غير مخيَّر … هواي ولو خيرت كنت المهذبا

والأمر في تناسب هذه الثلاثة ظاهر)) .(١)

وإن من المعروف عن صاحب الوساطه ، إصراره على ترتيب المعاني ضمن الموازين البلاغية ، فوجد أن الشعراء يتفاضلون فيما بينهم حتى في تناول المعاني المعروفة المطروقة ، لأنه قد ينفرد أحدهم بلفظة تستعذب ، أو ترتيب يستحسن فيبدو المعنى وكأنه قد لبس حلة قشيبة ، حاز فيها الفضل على غيره ، يقول في ذلك :

((وقد يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشعر ، فتشترك الجماعة في الشيء المتداول ، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتيب يستحسن ، أو تأكيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى لها دون غيره ، فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع)) .(٢)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٤٦ .

(٢) الوساطة ص ١٨٦ .

((ولم تزل العامة والخاصة تشبه الورد بالخدود ، والخدود بالورد ، نشرا ونظما ، وتقول فيه الشعراء فتكثر ، وهو من الباب الذى لا يمكن إدعاء السرقة فيه ، إلا بتناول زيادة تضم إليه ، أو معنى يشفع به ، كقول على بن الجهم (١) :

عشية حياني بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

فاضاف بعضهن الى بعض ، وان اخذ فمنه يؤخذ ، واليه ينسب ، وكقول ابن المعتز (٢) :

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

والخجل إنما يحمر وجنتاه ، فأما منبت الأصداغ ، ومخط العذار فقليلا ما يحمران ، فهذا التمييز مسلم له ، وان لم يكن يسبق إليه ، ولو اتفق له أن يقول : حمرة في جوانبها بياض ، لكان قد طبق المفصل ، وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان ، فجعل الإحمرار في جوانب البياض ، فراغ عن موقع التشبيه (٣))) .

فقد أراد صاحب الوساطة أن التفاضل انما يقع بين الشعراء لزيادة يضيفها أحدهم فتضفى على المعنى حسنا ، ومثل له بتشبيه الخدود بالورد ، والورد بالخدود وفي هذا الموضع ، لا يمكن ان يدعى على أحد أنه أخذ وسرق ، إلا إذا تغنن في الوصف ، كما في قول (ابن المعتز) :

ولكن (عبد القاهر) تناول هذا الموضوع ، وأضاف اليه أن قول (ابن المعتز) قد حاز الفضيلة بالرغم من أنه من التشبيهات العامية ، ولكنه يجعل الصورة مركبة . وبأنْ جمع البياض الذى في جوانبه احمرار ، وشبهه بصورة خد الخجل المحمر .

---

(١) البيت من الطويل والبيت في الديوان ص ١٥٢ ت/ خليل مردم بك ، و(الشاعر) هو على بن الجهم عربي قرشي شاعر فصيح مطبوع ، وقد خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه،ثم ابغضه لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه ، وإذا خلا به عرفه أنهم يعيبونه ويثلبونه ، فيكشف الخليفة عن ذلك ، فلا يجد له حقيقة ، فنفاه إلى خراسان بعد أن حبسه مدة ، وكان مذهبه في الشعر مذهب مروان بن أبي حفصة فى هجاء آل أبي طالب ، وذمهم والإغراء بهم ، وهجا الشيعة وهجا الخليفة المتوكل مرة ، فنفاه إلى خراسان ، وكتب الخليفة إلى طاهر بن عبد الله صاحب خراسان ، أن يصلبه ، فقبض عليه وصلبه في الشاذياخ يوما الى الليل . وله أقوال في الغزل والعتاب والوصف ، وتوفى سنة ٢٤٩ هـ .

(٢) البيت من الوافر .

(٣) الوساطة ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

ولقد تحدث (الشيخ عبد القاهر) في كتابه (أسرار البلاغة) عن التشبيه وأنواعه وأن منها المركب والمتعدد ، فأفرد لذلك بابا خاصا شارحا فيه التشبيه وأنواعه .

فاستشهد ببيت (ابن المعتز) على أن الصورة بدت واضحة جلية ، حين اجتمعت في هيئة واحدة ، يقول الإمام (عبد القاهر) :

((ألا ترى أن قوله :

بياض في جوانبه احمرار　　　كما احمرّت من الخجل الخدود

لم يستوجب الفضل والخروج من التشبيه العامي ، وأن يقال قد زاد زيادة لم يسبق إليها ، إلا بالتركيب والجمع ، وبأن ترك أن يراعى الحمرة وحدها ؟))(1)

ولقد عده الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) من التشبيه المركب ، بعد أن فرق بين التشبيه المركب والمتعدد ، وضرب لهما أمثلة ، وشرحهما شرحا بارعا ، لم يرد في الوساطة مثله .

وقد ذكر وجها آخر لصحة التشبيه غير ما ذكره صاحب الوساطة ، وإن لم يكن بعيدا عنه ، ذكره في الأسرار ، حيث يقول :

((وقال(القاضي ابو الحسن رحمه الله) لو اتفق له أن يقول : احمرار في جوانبه بياض ، لكان قد استوفى الحسن ، وذلك لأن خد الخجل هكذا، يحدق البياض فيه بالحمرة ، لا الحمرة بالبياض ، إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك في الوردة فشبه على طريق العكس فقال هذا البياض حوله الحمرة ، كالحمرة حولها البياض هناك))(2) .

الفرق بين الاستعارة والتشبيه : وهناك خيط دقيق يفصل بين التشبيه والاستعارة ، ولقد اتفق الإمامان الجليلان على المقياس الدقيق الذى يفصل بين

---

(1) أسرار البلاغة ص ١٧٢ . البيت من الوافر .

(2) المصدر نفسه ص ١٧٢ .

التشبيه والاستعارة ، يقول في ذلك الإمام (عبد القاهر) :

((اعلم أن الوجه الذى يقتضيه القياس ، وعليه يدل كلام القاضي في الوساطة ، أن لا تطلق الاستعارة على نحو قولنا : (زيد أسد) (وهند بدر) ، ولكن تقول هو تشبيه ، فإذا قال : هو أسد ، لم تقل استعار له اسم الأسد ، ولكن تقول شبهه بالأسد)).[1]

أى أن العبارة تكون تشبيها ، إذا ذكر طرفا التشبيه ، مثل قولنا (هند بدر) (وزيد أسد) ، والأمر كذلك في قولنا (هو أسد) ، (وهي بدر) ، وهو ما مثّل له (القاضي الجرجاني) في (الوساطة) بقول (أبي نواس) حين قال :

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

يقول :

((ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة - وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت ، إذا ملكت عنانه ، فهو اما ضرب مثل ، أو تشبيه شيء بشيء)).[2]

وكلام القاضي ظاهر في دلالة المقصود من البيت : أن الحب كظهر ، أو الحب مثل ظهر ، أى انه تشبيه ذكر ركناه ، المشبه والمشبه به وليس استعارة ، لأن حد الاستعارة لديه :

((ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل)) [2] ، وقد مثل لها(عبد القاهر الجرجاني) ، بقوله ((عنت لنا ظبية)).[3]

وقد فرق بين الاستعارة والتشبيه بأنها اسقاط ((ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته ، وذلك أن تقول : عنت لنا ظبية وأنت تريد امرأة أو (وردنا بحرا) وأنت تريد الممدوح)).[3]

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٩٥ .

(٢) الوساطة ص ٤١ والبيت من البسيط .

(٣) أسرار البلاغة ص ٢٩٤ .

وظاهر ما قصده (الشيخ عبد القاهر) من تعريف الاستعارة أنها اسقاط أو حذف أحد أركان التشبيه ، وهو المشبه ، وإنه يدل على قصد المتكلم إخفاء التشبيه ، ويبين عن مراده ، بدليل الحال ، يقول :

((فأنت في هذا النحو من الكلام إنما تعرف أن المتكلم لم يرد ما الاسم موضوع له في أصل اللغة ، بدليل الحال ، أو افصاح المقال بعد السؤال ، أو بفحوى الكلام ، وما يتلوه من الأوصاف)). [1]

وهذا ما أراده (صاحب الوساطة) في وصف معالم الاستعارة من أنها ((نقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها ، وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى ، حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر)). [2]

ولكن (عبد القاهر) أسهب بعد ذلك في التعليل لذلك ، وأقنع بما لم يقنع به (القاضي) ، وإن اعتمد عليه في أصل الفكرة اعتمادا كليا ، كما رأينا ، إلا أنه زاد عليه بأمثلة توضيحية من الواقع لم ترد في الوساطة .

البديع :

لقد عرف عن البديع ما يضفيه على المعنى من جمال وروعة وما يودعه من رشاقة وخفة ، تجعل الكلام ينساب إلى القلوب ، انسياب الشذى في الأجواء .

ومع هذا اذا كثر طلبه في الكلام يوقع السامع في خبط عشواء ، وغالبا ما يطمس المعنى ويفسده .

ولا بد لمن أراد الخوض في عبابه أن يكون متمرسا في طلبه ومن العارفين بجواهر الكلام الذين لا يعرجون على هذا الفن ، إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته ، ولقد استشهد (الشيخ عبد القاهر) بما ورد في (الحيوان) للجاحظ

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٩٤ .

(٢) الوساطة ص ٤١ .

من خطب اعتمدت على الوزن والسجع ، ومع هذا فإنه لم يكن جائرا على المعنى حائفا عليه ، وذلك حين قال :

((فانظر إلى خطب الجاحظ في أوائل كتبه - هذا والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع ، فإنها تروى وتتناقل تناقل الأشعار ، ومحلها محل النسيب أو التشبيب من الشعر الذى هو كأنه لا يراد منه إلا الإحتفال في الصنعة ، والدلالة على مقدار شوط القريحة ، والإخبار عن فضل القوة والإقتدار على التفنن في الصفة قال في أول كتاب الحيوان :

((جنبك الله الشبهه ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سببا ، وبين الصدق نسبا ..)).[1]

وعلى اهتمام (عبد القاهر) بالنظم ، وأنه عمود الإعجاز ، ومقوّم الكلام فإنه لم يغفل الاهتمام باللفظ والمعنى ، فيرى ضرورة أن لا يطغى المعنى على اللفظ ، ولا يطغى اهتمام المتكلم باللفظ ، فيحيف على المعنى ، وهذا هو السجع المتكلف ، ولقد اشترط (الشيخ عبد القاهر) ((أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع ، بل قاده المعنى إليهما ، وعثر عليهما ، حتى أنه لورام تركها إلى خلافهما ، مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى ، وإدخال الوحشة عليه في شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره ، والسجع النافر)).[2]

ولقد استشهد لهذا النوع من السجع بما أورده (الجاحظ) في(البيان والتبيين ، حيث روى عن(عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي)قوله :

((كقول الأعرابي لعامل الماء : حلبت ركابي ، وحرقت ثيابي ، وضربت صحابي ، ومنعت ابلي من الماء والكلأ ؟

قال : أوسجع أيضا ؟ ، فقال الأعرابي : فكيف أقول ؟)).[3] أما نص عبارة (الشيخ عبد القاهر) فتقول : ((وقال الجاحظ : لأنه لو قال : خلاف

---

(١) أسرار البلاغة ص ٦ ، ٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ١٥٤ .

ابلي أو جمالي أو نوقى أو بعرانى أو صرمتي ، لكان لم يعبر عن خفى معناه وإنما حلئت ركابه ، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ؟ وكذلك قوله : وشققت ثيابي وضربت صحابي)).[١]

والملاحظ أن الشيخ عبد القاهر لم يسر على نهج الجاحظ في تقييد السجع وأى نوع منه مستحب ، وذلك عندما نقل قول القائل :

أنا ((وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستحسنه وأمر به شعراءه وعامة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالوا شعرا قليلا كان ذلك أم كثيرا ، وسمعوا واستنشدوا فالسجع،والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل ؟ .

وقال غيرهما : اذا لم يطل ذلك ، ولم تكن القوافي مطلوبة مجتلبة أو ملتمسة متكلفة)).[٢]

لأن (الجاحظ) نظر اليه وحدده من الناحية الدينية عندما استشهد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (قالوا : فقد قيل للذى قال : يا رسول الله . . أرأيت من لا شرب ، ولا أكل ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك يطل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الجاهلية ؟

قال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد الا الاقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس ، ولكنه عسى أن يكون أراد ابطالا لحق فشادق في كلامه)).[٣]

ومن الشبه التي عرضها (عبد القاهر الجرجاني) في كتابه (دلائل الإعجاز) ، وكان قد استنبطها من كتب (الجاحظ) ، شبهة أن الفصاحة تكمن في تلاؤم الحروف ، يقول :

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٠ .
(٢) البيان والتبيين ١ / ١٥٣ ، ١٥٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

((وهذه شبهة أخرى ضعيفة ، عسى أن يتعلق بها متعلق ، ممن يقدم على القول من غير روية وهي أن يدعى أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي وتعديل مزاج الحروف ، حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان كالذى أنشده (الجاحظ) ، من قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر (١)

وقول ابن بشير في أحمد بن يوسف حين استبطأه : (٢)

لا أذيل الآمال بعدك إني ... بعدها بالآمال جدّ بخيل
كم لها موقف بباب صديق ... رجعت من نداه بالتعطيل
لم يضرها والحمد لله شيء ... وانثنت نحو عزف نفس ذهول

قال الجاحظ : فتفقد النصف الأخير من هذا البيت ، فإنك ستجد بعض ألفاظه تتبرأ من بعض)). (٣)

ولقد كان نقل عبد القاهر من الجاحظ في هذا الموضوع بالنص تقريبا حينما يقول الجاحظ :

((ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر ، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطيع المنشد إنشادها إلا ببعض استكراه ، فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

ولما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذين البيتين ثلاث مرات في نسق واحد ، فلا يتتعتع ولا يتلجلج ، وقيل لهم : إن ذلك إنما اعتراه ، إذ كان من أشعار الجن ، صدقوا بذلك)). (٤)

---

(١) قائل هذا البيت هو : أبو العتاهية وهو من السريع . انظر معجم شواهد العربية ص ١٧٠.
(٢) الأبيات من الخفيف وقائلها محمد بن بشير وهو محمد بن بشير بن عبد الله ابن عقيل الخارجي من بني خارجه بن عدوان بن عمر وبن قيس ، شاعر فصيح حجازى من شعراء الدولة الأموية . انظر خزانة الأدب ٤/ ٣٧ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٩٨ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ٤٩ .

و معروف أن للكلام مراتب من حيث دقة و ضعها و حسن ترتيبها ، وتنضيدها وكل ما كان طريقه أغمض ووجه المشابهة فيه أغرب احتاج فيه إلى عمل الفكر والتدبر ، هذا النوع هو ما كان إلى القلب أقرب .

و هناك كلام قد ارتدى حلة بهية من الألفاظ ، ولكن بعد تدبرها لا ترى إلا ألفاظا منضودا بعضها بإزاء بعض ، وقد استشهد (الشيخ عبد القاهر) لهذا النوع ، بما ورد في (الحيوان)[1] ، يقول : ((واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج ، واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم ، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل ، فخرطها في سلك ، لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق ، وكمن نضد أشياء ، بعضها على بعض ،لا يريد في نضده ذلك ، أن تجيء له منه هيئته أو صورة ، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأى العين))[2].

اللفظ والمعنى :

إن أمر اللفظ والمعنى بالغ الأهمية ، لأن له صلة وثيقة بالإعجاز لذا تردد في كثير من المؤلفات واعتبر من القضايا الكبرى ، التي دافع عنها العلماء ، فأبدى كل منهم رأيه .

فقد ارتأى (الشيخ عبد القاهر) أن الإعجاز ، وفضل كلام على كلام ، انما تكون فيه المزيه من أجل العلم بأنفس الفروق و الوجوه فتستند إلى اللغة ،ولكنه أوجبها للعلم بمواضعها ، وما ينبغي أن يضع فيها ، يقول:

((وليت شعرى من أين لمن لم يتعب في هذا الشأن ، ولم يمارسه ولم يوفر عنايته عليه ، أن ينظر إلى قول الجاحظ ، وهو يذكر إعجاز القرآن ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم ، وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين له في نظامها ، ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب ، لأظهر عجزه عنها))[3].

---

(١) انظر مقدمة الحيوان .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٢٩ ، وفي مقدمة الحيوان .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٥٢ .

ولقد دارت رحى قضية (اللفظ والمعنى) وإلى أيهما يرجع الفضل ، وفي أيهما تكمن المزيه والفضل ، فرأى الشيخ أنها ليس فيهما بل في النظم ، ولقد استند في رأيه إلى رأى القدماء ، واختص منهم بالذكر (الجاحظ) حيث استأنس بما صرح به في كتابه البيان والتبيين حول المعنى ، ولكنه انفرد عنه بأن ضرب صوغ الخاتم من الذهب والفضة ، وأنه يختلف من خاتم إلى آخر حسب جودة صناعته ، وإتقان صوغه مثلا قرب به المعنى إلى الأذهان .

يقول الإمام عبد القاهر :

((واعلم انك لست تنظر في كتاب صنف في شأن البلاغة ، وكلام جاء عن القدماء ، إلاّ وجدته يدل على فساد هذا المذهب ورأيتهم يتشددون في إنكاره وعيبه والعيب به ، وإذا نظرت في كتب الجاحظ وجدته يبلغ في ذلك كل مبلغ ويتشدد غاية التشدد وقد انتهى في ذلك إلى أن جعل العلم بالمعاني مشتركا ، وسوى فيه بين الخاصة والعامة ، فقال : ورأيت ناسا يبهرجون أشعار المولدين ، ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط ، إلا في رواية غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصر ، لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفي أى زمان كان ، **وأنا سمعت أبا عمرو الشيباني** (١) وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد الجامع يوم الجمعة أن كلف رجلا حتى أحضر قرطاسا ، ودواة حتى كتبهما له .

وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا ، ولولا أن أدخل في الحكم بعض الغيب لزعمت أن ابنه لا يقول الشعر أيضا ، وهما قوله :

---

(١) أبو عمرو الشيباني : هو من الموالي ، واسمه اسحاق بن مرار ، كان يؤدب في احياء بني شيبان بالكوفة فنسب إليهم ، وكان راوية واسع العلم باللغة ثقة بالحديث كثير السماع ، وقد جمع دواوين أشعار القبائل وعنه أخذت وكان له بنون وبنو بنين يروون عنه كتبه ، وذكر أحد أولاده أن أباه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة وعاش أكثر من مائة سنة وكان يكتب بيده إلى أن مات وخلف بضع مؤلفات) ٢/١٠٨ جرجى زيدان وينظر الفهرست لابن النديم ص ١٠١ .

لا تحسبن الموت موت البلى　　　وانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا　　　أشد من ذاك على كل حال)) (١)

وان تاريخ هذه القضية طويل - قضية اللفظ والمعنى - يرجع الى زمن أبى عمرو الشيبانى . كما ذكر في نص (الشيخ عبد القاهر) :

فينقل (الجاحظ) رأى (الشيخ - أى أبي عمرو الشيباني -) فيقول :

((وذهب الشيخ الى استحسان المعاني ، والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي ، والقروى والبدوى ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وصحة الطبع وكثرة الماء ، وجودة السبك ، فانما الشعر صياغة وضرب من التصوير)) (٢) .

ما بين الحقيقة والاستعارة :

ان سبب فساد الكلام وحسنه ، يرجع الى النظم وما توخي فيه من تدبر قواعد علم النحو وتطبيقها . ولقد طبقها (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) على كل الموضوعات التي تحدث عنها . وذلك أن استعملت بعض الكلمات في بيت للبحترى ، ومن خلالها حكم الناس بأنها استعارة وهي في الحقيقة غير ذلك .

يقول الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) :

((ومثال ذلك أن أبا القاسم الآمدى ذكر بيت البحترى : (٣)

فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورِق
وحاك ما حاك من وشي وديباج

ثم قال : (صوغ الغيث وحوكه للنبات ليس باستعارة ، بل هو حقيقة ولذلك لا يقال : هو صائغ ، ولا كأنه صائغ ، وكذلك لا يقال هو حائك ، وكأنه حائك قال :

---

(١) دلائل الاعجاز ص٢٥٦ وفي الحيوان ٣ / ١٣٠ . والبيتان من السريع .
(٢) الحيوان ٣ / ١٣١ في الدلائل ص ٢٥٧ .
(٣) البيت من البسيط .

على أن لفظ حائك في غاية الركاكة اذا أخرج على ما أخرجه أبو تمام في قوله : (١)

إذا الغيث غادى نسجه خلت أنه

خلت حقب حرس له وهو حائك

قال :

وهذا قبيح جدا . والذى قاله البحترى (فحاك ما حاك) حسن مستعمل)) . (٢)

يقول الشيخ عبد القاهر :

((والسبب في هذا الذى قاله : أنه ذهب إلى أن غرض أبي تمام أن يقصد بخلت الى الحوك ، وأنه أراد أن يقول : خلت الغيث حائكا ، وذلك سهو منه ، لأنه لم يقصد بخلت إلى ذلك ، وانما قصد أن يقول : انه يظهر في غداة يوم من حوك الغيث ونسجه بالذى ترى العيون من بدائع الأنوار وغرائب الأزهار ما يتوهم منه أن الغيث كان في فعل ذلك ، وفي نسجه وحوكه حقبا من الدهر ، فالخيلولة واقعة على كون زمان الحوك حقبا لا على كون ما فعله الغيث حوكا فاعرفه)) . (٣)

وسأعرض للنص الذى يرد به على صاحب الموازنة ، كما جاء فى الأسرار

---

(١) البيت من الطويل وهو في الديوان ص ١٩٨ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٤٨٢ .

وفي الموازنة ، وان كان شرحه في الدلائل أعمق .

يقول الشيخ عبد القاهر :

((قال أبو القاسم الآمدى في قول البحترى :

فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق
وحاك ما حاك من وشي وديباج

صوغ الغيث وحوكه النبات ليست باستعارة ، بل هو حقيقة ولذلك لا يقال هو صائغ ، ولا كأنه صائغ ، كذلك ((لا يقال : حائك وكأنه حائك ، على أن لفظة حائك في غاية الركاكة ، اذا أخرج على ما أخرجه عليه أبو تمام في قوله :

اذا الغيث غادى نسجه خلت أنه
خلت حقب حرس له وهو حائك

وهذا قبيح جدا ، والذى قاله البحترى (وحاك ما حاك) حسن مستعمل فانظر ما بين الكلامين لتعلم ما بين الرجلين)) (١) .

أى أن (الشيخ عبد القاهر) ، يرى أنه لا توجد استعارة في قول البحترى بل هو حقيقة ، وهو ما عبر عنه بقوله : ((والذى قاله البحترى حاك ما حاك حسن مستعمل)) (١) .

وعلل لذلك بأنه لا يمكن أن يقال : كأنه صائغ ، وكأنه حائك بقوله : ((قد كتبت هذا الفصل على وجهه ، والمقصود منه منعه أن تطلق الاستعارة على الصوغ والحوك - وقد جعلا فعلا للربيع - واستدلاله على ذلك بامتناع

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٤٥ .

أن يقال : كأنه صائغ ، وكأنه حائك)). [١]

وذلك لأن معنى الاستعارة عند (الشيخ عبد القاهر) : إنما تكون في اعارة لفظ المشبه به للمشبه . يقول :

((وكان معنى الاستعارة ، أن تعير لفظ المشبه بلفظ المشبه به ، ولم يكن معنا في (صاغ الربيع) ، (أو حاك الربيع) إلا شيء واحد ، وهو الصوغ أو الحوك ، كان تقدير الاستعارة فيه محالا جاريا مجرى أن يشبه الشيء بنفسه ، وتجعل اسمه عارية فيه ، وذلك بين الفساد)). [٢]

وكما هو ملاحظ أن نقل (عبد القاهر) عن (الآمدى) لم يكن بالنص ، بل هناك اختلاف ، وبالرغم من أن (الشيخ عبد القاهر) قد ذكر أنه نقله عن الآمدى على نصه ، وذلك عندما قال : ((قد كتبت هذا الفصل على وجهه)). [٣]

والملاحظ أننا لم نجد في (الموازنة) ما قاله (الشيخ عبد القاهر) عن (الآمدى) قوله : ((وهذا قبيح جدا ، والذى قاله البحترى وحاك ما حاك)) حسن مستعمل ، فانظر ما بين الكلامين لتعلم ما بين الرجلين)). [٣]

والاستعارة لدى (الشيخ عبد القاهر) ، إنما أصلها التشبيه على حد المبالغة يقول : ((اما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل)) [٤]

وأضاف أن الاستعارة من البديع ، فقال : ((واما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع)) [٥] فدل بذلك على أن الاستعارة لديه من البديع يقول في ذلك الآمدى :

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٤٧ .
(٢) أسرار البلاغة ص ٣٤٧ .
(٣) المصدر نفسه ٣٤٥ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٥ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٤ .

((قال صاحب البحتري : وليس الأمر في اختراعه لهذا المذهب على ما وصفتم ، ولا هو بأول فيه ، ولا سابق إليه ، بل سلك في ذلك سبيل مسلم بن الوليد ، واحتذى حذوه ، وأفرط وأسرف ، وزال عن النهج المعروف ، والسنن المألوف ، وعلى أن مسلما أيضا غير مبتدع لهذا المذهب ، ولا هو أول فيه ، ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسم البديع - وهي الإستعارة والطباق والتجنيس منثورة متفرقة في أشعار المتقدمين)) .(١)

ولقد صرح (الشيخ عبد القاهر) في نقله رأى (الآمدى) وذلك حين قال :

((وقال الآمدى نفسه : ثم قد يأتي في الشعر ثلاثة أنواع آخر يكتسى المعنى العام بها بهاء وحسنا ، حتى يخرج بعد عمومه إلى أن يصير مخصوصا ، ثم قال : وهذه الأنواع هي التي وقع عليها اسم البديع وهي الاستعارة والطباق والتجنيس ، فهذا نص في موضع القوانين على أن الاستعارة من أقسام البديع ، ولن يكون النقل بديعا ، حتى يكون من أجل التشبيه على المبالغة)) .(٢)

ويريد أن يخلص (عبد القاهر) من جملة عبارته الأخيرة إلى أن الاستعارة أصلها التشبيه على حد المبالغة وأن الاستعارة من البديع ثم جعل بعد ذلك الاستعارة على الاطلاق بديعا ، يقول :

((وإذا كان كذلك ، ثم جعل الاستعارة على الاطلاق بديعا ، فقد أعلمك أنها اسم للضرب المخصوص من النقل ، دون كل نقل فاعرفه)) .(٢)

أى أن (الشيخ عبد القاهر) قيد الاستعارة بأن أساسها التشبيه والتمثيل ، لذلك نجده يعترض على (القاضي الجرجاني) ، وكل من سار في طريقه فيقول : ((وهكذا تراهم يعدونها في أقسام البديع حيث يذكر التجنيس والتطبيق والتوشيح ، ورد العجز على الصدر ، وغير ذلك ، من غير أن

---

(١) الموازنة ١ / ١٣ ، ١٤ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٦٦ .

يشترطوا شرطا ، و يعقبوا ذكرها بتقييد ، فيقولوا ((و من البديع الاستعارة التى من شأنها كذا)) فلولا أنها عندهم لنقل الاسم بشرط التشبيه على المبالغة إما قطعا ، و إما قريبا من المقطوع عليه ، لما استجازوا ذكرها مطلقة غير مقيدة ، يبين ذلك أنها إن كانت تساوق المجاز و تجرى مجراه حتى تصلح لكل ما تصلح ، فذكرها في أقسام البديع يقتضي أن كل موصوف بأنه مجاز فهو بديع عندهم حتى يكون اجراء اليد على النعمة و تسمية البعير حفصا و الناقة نابا و الربيئة عينا ، و الشاة عقيقه ، بديعا كله و ذلك بين الفساد)) .(١)

اى أن المتقدمين و منهم (الآمدى) ذكر الاستعارة في جنس البديع ، و لكن لم يقيدها أحد بأنها التشبيه على حد المبالغة .

أما القول في شعر البحترى (٢) عندما قال :

فكأن مجلسه المحجب محفل و كأن خلوته الخفية مشهد

فإن (الشيخ عبد القاهر) قد علق عليه بقوله :

((إن المكان لا يسمى مجلسا ، إلا و فيه قوم ، ثم قال : ألا ترى إلى قول مهلهل و(استب بعدك يا كليب المجلس) على الاستعارة ، فأطلق لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا ، بمعنى القوم الذين يجتمعون في الأمور ، و ليس المجلس إذا وقع على القوم ، من طريق التشبيه بل على وجه وقوع الشيء على ما يتصل به و تكثر ملابسته اياه ، و أى شبه يكون بين القوم و مكانهم الذى يجتمعون فيه ؟ إلا أنه لا يعتد بمثل هذا ، فإن ذلك قد نفق حيث ترسل العبارة)) .(٣)

و هذا تفصيل لعبارة الآمدى عندما ذكر شعر البحترى السابق ، حيث يقول : ((و المعنى عندى صحيح لأن المجلس المحجّب قد يكون فيه الجماعة الذين يخصهم ، و في الأكثر الأعم لا يسمى مجلسا ، إلا وفيه القوم ، الا ترى

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .
(٢) البيت من الكامل . انظر معجم شواهد العربية ص ١٠٧ .
(٣) أسرار البلاغة ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

إلى قول مهلهل :

((واستب بعدك يا كليب المجلس)) .(١)

أي أهل المجلس على الاستعارة . فجعل البحتري مجلسه الذي احتجب فيه مع من يخصه ، كالمحفل ، والمحفل : هو الجمع الكثير ، والخلوة الخفية قد يكون فيها منفردا ، وقد يكون معه محبوب فيها ، وبين المجلس والمحفل فرق ، فكأنه إذا خلا خلوة خفية ، ففيها معه من يشاهده ومن يشاهده يجوز أن يكون واحدا أو اثنين ، والمحفل لا يكون إلا عددا كثيرا ، فهذا أيضا فرق صحيح بين المحفل والمشهد .

وإنما أراد (البحتري) أنه لا يفعل في مجلسه المحجب إلا ما يفعله في المحفل ، ولا يفعل في خلوته الخفية إلا ما يفعله مع من يشاهده ، ينسبه إلى شدة التصون وكرم السريرة) .(٢)

---

(١) صدر البيت : نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس البيت من الكامل وفي معاني أبيات الحماسة يقول : المجلس الجماعة تجتمع للحديث واستب أي سب بعضهم بعضا ، وكان كليب لا توقد نار مع ناره ، ولا يضحك أحد في مجلسه ، ولا يسب أحد أحدا بحضرته ، هيبة له ، فلما قتل أوقدت النار ، واستب المجلس عند ذهاب من كان يهاب) ص ١٢٩ لأبي عبد الله النمري / تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان / مطبعة المدني - المؤسسة السعودية بمصر .

(٢) الموازنة ١ / ٣٩٣ .

الفصل الثالث

بلاغة الشيخ عبد القاهر، ومدى صلتها بالبلاغة اليونانية.

الفصل الثالث

بلاغة الشيخ عبد القاهر ومدى صلتها بالبلاغة اليونانيـــــة

لقد أدخل الامام عبد القاهر وثقافته العربية في تيار تشكيك متلاطـــــم ضمته دفتا الكتب ، واحتضنته بعض الأقلام مشككة ، وبعضها الآخر مؤمنـــة بصدقها وبراءتها من كل فكرة غريبة دخيلة ، وكان من المحتم على وأنــــا أتحدث عن (مصادر عبد القاهر) ، ان أخوض في هذا الخضم الواسع وأسهم بقلمي على أضع على الطريق غرسة تثمر في الغد .

ذلك أن هناك من نادى بصريح العبارات ، أن ثقافة (عبد القاهـــر) البلاغية مستقاة من نبع يوناني وليس هو فقط بل كل البيان العربي قـد بـــني قواعده على أسس الثقافة اليونانية .

ولقد ثار الكثير من الجدل بين المثبتين لأصالة البلاغة العربية والمشككين فيها .

فالأولون يذهبون إلى أن النقد العربي هو خلاصة الفكرة العربية فـــي الفن الأدبي الذى عرفت براعتهم فيه منذ عرف التاريخ الأدبي للأمة العربيـــة ، مؤمنة بأن التراث الخالد الحافل بأعظم المنظوم والمنثور ، لا يحتاج فـــي تصنيف كتبه وتشييد صرحه إلى عناصر دخيلة . في الوقت الذى ينكــر فيــه فريق آخر هذه الأصالة ، ويستنكرها على التفكير الفني عند العرب ، ولقــد حدث هذا عندما ازدهرت النهضة العلمية في العصر العباسي ، إذ تشبعـت الدراسات النقدية والبلاغية من معين يوناني وهلوا به ثقافتهم العربيـــــة ، وثقافتهم الإسلامية .

والبحث في هذا الموضوع متشعب ، إذ يحتاج إلى دراسة دقيقـــة لما خلفه اليونان ، ثم إلى دراسة واعية لجذور الأدب العربي ، لدى العـــرب أنفسهم وسأبين بدوري مدى أصالة هذا البيان ونصاعته العربية ، لأن (عبد القاهر الجرجاني) ارتكز في نظرياته وأبحاثه على ما قدمه العلماء الأوائـــل

من آثار مجيدة مستنيرا ومهتديا بكل ما قيل بين السطور منذ أيام (الخليل) و (سيبويه) ، فقد نضد تلك اللآلئ بما يضفيه عقله وثقافته الأصيلة وهذا شيء لا يشك فيه دارس (لعبد القاهر) ، وللتراث العربي ، ولكن هناك من حاول التنكر لهذه الأصالة برد جذورها إلى اليونان ، مع أن البحث موضوعي مما يجب معه أن يبعد عن التحيز وعن كل الأضواء الباهرة بما قدمه الأجانب .

ولقد كان الدكتور (بدوى طبانه) أحد الذين ذكروا أن العرب تأثروا بالثقافات المختلفة ولقد حدد الكتب التي رأى أنها تأثرت بالفكرة اليونانية ، حيث يقول : ((ولا تتضح الإفادة من الفكرة اليونانية في أى أثر من آثار التفكير البلاغي والنقدى عند العرب ، كما تتضح في هذين الكتابين (نقد الشعر) (لقدامه بن جعفر) والبرهان في وجوه البيان) (لابن وهب) ، وكان أولهما نصرانيا وأسلم ، ثم كان أحد النقلة والمترجمين لآثار اليونان في المنطق والفلسفة ، وقد أتاح له ذلك خبرة طويلة بمذاهب في الأدب والنقد ، وكان من الطبيعي أن تبرز آثار هذه المعرفة في كتابته عن الشعر العربي ونقده ، كما كان (ابن وهب) أحد علماء الكلام وأهل الجدل والمناظرة ، وكان من الضرورى أن يقف على ضروب التفكير ومناهج البحث عند من يستطيع الوقوف على نتاجهم من أبناء الأمم الذين برعوا في الجدل والسفسطة ، ونبغوا في المنطق ووسائل الإقناع فلا غرابة في أن تظهر آثار هذه الثقافة في كتابته عن وجوه البيان العربي ، ولم يكن ابن وهب وحده من بين المتكلمين الذين حذقوا ما عند اليونان من علم وثقافة)). (١)

فـ (الدكتور بدوى طبانة) يرى أن العرب قد تأثروا بالثقافة اليونانية وضرب مثلا لذلك كتاب (نقد الشعر) لـ (قدامه بن جعفر) و (البرهان في علوم القرآن) (لابن وهب) .

---

(١) النقد الأدبي عند اليونان ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ط ٢ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٣٨٩ .

ثم بين أن ذلك التأثر وتلك الإستفادة لا تضير العرب والأدب العربي بل هذا سبيل كل الأمم الاستفادة من بعضها . يقول : ((فإذا قيل إن الثقافة العربية قد أفادت من إحدى الثقافات الإنسانية ، أو تفاعلت معها ، كائنة ما كانت الثقافة ، فإن ذلك لا يضير الفكر العربي ولا يمكن أن يجرده من أصالته ، كما لو قيل إن الحضارة الإنسانية قد أفادت أو تأثرت بالحضارة العربية أو غيرها من الحضارات)).(١)

فالدكتور (بدوى طبانة) في هذا النص يبين أن الثقافة العربية قد استفادت من غيرها من الثقافات ، وهذا لا ينقصها قدرها ، كما لو قيل أن الثقافات الأخرى استفادت من الثقافة العربية ولقد خلص من ذلك الى التأكيد بأن العرب اطلعوا على آثار اليونان العلمية .

ولقد فصل الدكتور (شوقي ضيف) الحديث في هذا الشأن ، محافظا على حقيقة سلامة الأدب العربي من الموجات الأدبية الأجنبية ، فذكر أن اللغويين قد ظلوا محافظين في دراساتهم محافظة شديدة ، ولم يكن يعنيهم إلا أن يقيسوا الكلام بالمقاييس العربية الخالصة : ((لقد ظل للغويين نشاطهم ، حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، ولكنه لم ينحسر عن دراسات خصبة ، فقد كانوا محافظين محافظة شديدة ، ولم يكن يعنيهم إلا أن يقيسوا الكلام بالمقاييس العربية الخالصة ، فلم يحاولوا أن يطلعوا على آراء الأمم الأجنبية في البلاغة)).(٢)

فقد قدم مثلا لهذه الفئة المحافظة في دراساتها وعلمها (ابن دريد) يقول عن هذه الفئة المحافظة أنهم : ((أخذوا يتجهون منذ أواخر القرن الثالث إلى تعليم الشباب كيف يستقصون ألفاظ اللغة ، وكيف يمرنون على استخدامها ، ومن أجل ذلك أخذوا يكتبون لهم بعض النماذج ، ينشئونها

---

(١) النقد الأدبي عند اليونان ص ٢٤٦ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٦٢ د . شوقي ضيف ط ٤ دار المعارف .

إنشاء ، حتى يعينوهم على استظهار المعجم اللغوى ، و من خير من يصور ذلك(ابن دريد) في احاديثه التي نقلها عنه(القالي) في(أماليه)، و التي هيأت لنشوء فن المقامات عند(بديع الزمان الهمذاني) ، و من جاءوا بعده مثل (الحريرى) و حقا ظلت هذه البيئة تعنى بتسجيل ملاحظاتها على الشعر)). (١)

كما تحدث (الدكتور شوقي ضيف) عن مدى تأثر المتكلمين و هذه من أهم ما تحدث عنه لدينا ، لأنها متصلة بذاتها في موضوع علم البلاغة و كذلك لأنها من الدراسات التي اعتمد (عبد القاهر الجرجاني)عليها .

فقد رأى أنهم ((كانوا معتدلين فلا هم يحافظون محافظة اللغويين ولا هم يسرفون في التجديد ، بل يقفون موقفا وسطا ، و هو موقف جعلهم يقبلون على معرفة ما عند الأجانب من قواعد البلاغة ، ولكن في احتياط ، و هو احتياط يمثله (الجاحظ) خير تمثيل)) .(٢)

و في حقيقة الأمر أن (الجاحظ) لم يقبل على ما عند الأجانب من قواعد بلاغية ، بل هو لم يعترف بأن لديهم بلاغة تذكر أمام ما عند العرب ،وإن كان قد استشهد بتعريفات البلاغة لدى الأمم الأخرى ، فهذا لا يعنى إقباله عليها ، و اعترافه بفضلها على ما عند العرب.فنهر البلاغة العربية يفيض بالكثير من الجواهر التي تحتاج إلى تقييد وتنضيد . ثم إن الدكتور (شوقي ضيف) لا ينكر أن هناك أفكاراغزيرة قد أضافها إلى البيان العربي ، إلا أنه لم يستطع أن يتحرر من أفكار غيره بأن أصالة البيان العربي موروثة عن اليونان حيث يقول :

((و هو احتياط يمثله (الجاحظ) ، خير تمثيل إذ يضيف إلى الشذرات التى رواها عن الأمم الأجنبية سيولا من ملاحظات العرب المعاصرين و القدماء و أساتذة الاعتزال و بلغاء الكتاب)). (٣)

---

(١) البلاغة تطور و تاريخ ص ٦٢ د . شوقي ضيف .

(٢) المرجع نفسه ص ٦٣ .

(٣) البلاغة تطور و تاريخ ص ٦٣ .

• كما ذكر الدكتور (شوقي) أن الاحتياط في النقل ظل حتى القرن الثالث فقط ، ثم بعد ذلك ينادى بما نادى به غيره ، من أن البلاغة العربية إنما أخضعت الأفكار الأجنبية و هضمتها تماما ، حتى يسهل دمجها في البلاغة العربية ، و من هؤلاء الدكتور (محمد مندور) الذى يرى أن الأدب العربي وصل إلى الهرم في القرن الثالث الهجرى ، فلم يؤت نقل الثقافات الأجنبية ثماره ، بل حصلت تلك النشوة في القرن الرابع و الخامس الهجرى ، يقول : ((كان الاختلاط بالشعوب الأخرى قد أضعف من حيويتهم فأضاف كل هذا إلى فعل الزمن و التطور الذاتي لكل ما في الحياة ، وساعد على أن يصل بالأدب العربي إلى مرحلة الهرم ، ولم تكن الثقافات الأجنبية قد اختمرت بعد في النفوس ، ولا استطاعت أن تهزها فتجدد حياتها)).(1)

فهؤلاء الذين برأوا البيان العربي من الاعتماد الكلي على الفكر حتى القرن الثالث يعودون ليثبتوا عكس ذلك على أيدى المتفلسفة وغيرهم . والبعض الآخر يرى أن البيان منذ بداية تأليفه معتمد على الثقافة الاغريقية و ممن تزعم هذا النداء (الدكتور طه حسين) ، و (الدكتور ابراهيم سلامة) فلقد تناول (الدكتور طه حسين) (الجاحظ) بالنقد ، وكتاب (البيان و التبيين) بالدرس ، و خلص منه ، إلى غير الحقيقة الواقعة بالرغم من تدعيمه لبعض آرائه بحجج لكنها غير قوية ، كما أن هناك بعض التناقض في الأفكار .

و سيتضح ذلك من خلال استعراض و مناقشة بعض تلك الآراء :

فقد ذكر (الدكتور طه حسين) عن (الجاحظ) أنه قال:(لم يظهر فيهم من يستحق أن يسمى خطيبا ، و قد يتساهل فيعترف لهم بالزعامة في الفلسفة إلا أنه ينعت أرسطو نفسه في كتاب (البيان و التبيين) بأنه بكئ اللسان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام و تفصيله و معانيه وخصائصه

---

(1) النقد المنهجي عند العرب ص ٥٦ ط / مطبعة نهضة مصر .

ثم يقول : وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ولم يذكروه بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة .

ويؤكد (الجاحظ) في موضع آخر أن (البديع) وهو لفظ كان يطلق لذلك العهد على وجوه البلاغة كلها ، أمر خاص بالعرب مقصور عليهم ، وأن سواهم من شعوب الأرض كان يجهله جهلا مطلقا .

فالفرس عنده قوم لهم بلاغة ولكنها بلاغة مصنوعة متكلفة ، لا يصل إليها الخطيب ، إلا بعد كثير من الدرس والتفكير ، وبعد أن يحاول أن يحكي من تقدموه في حين أن البلاغة العربية مرتجلة طبيعية كأنها الماء يتفجر من ينبوعه ، هذا إلى أن الرسائل التي يضيفونها إلى الفرس ، غير مقطوع بصحة نسبتها إليهم ، وينبغي الاحتراس ممن اشتهر بالكتابة من الموالي كابن المقفع ، وعبد الحميد ، وأبي عبيد الله وغيرهم ، ممن لا يشق عليهم أن يضعوا هذه الرسائل وينحلوها القدماء » (١) .

ويسترسل (الدكتور طه حسين) في بيان ما استعرضه من آراء الجاحظ فيقول : ((وأما الهند ، فيقول (الجاحظ) : إن لهم معاني مدونة وكتبا مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف ، فهي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة)) . (٢)

اى أن (الجاحظ) يؤكد أن البيان الأعجمي كان مجهولا لدى العرب .

ولكن الدكتور (طه حسين) يرى أن (الجاحظ) : لم يقل ما قال إلا بعد أن سمع شيئا يروى عن آداب الأعاجم وبلاغتهم ، ولكن من المرجح جدا انه لم يخرج منها إلا بصورة غامضة غير دقيقة ، وأنه إنما عرف ارشادات لا قواعد وشذرات لا كتبا ومن المؤكد أنه لم يعرف شيئا عن كتاب الخطابة لأرسطو

---

(١) مقدمة نقد النثر المنسوب لقدامه بن جعفر ت / د . طه حسين وعبد الحميد العبادى القاهرة / طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤١ م ص (٢١)

(٢) مقدمة نقد النثر ص (٢) .

وكلما عرض لذكر المعلم الأول وقليلا ما يفعل ذلك ، لم يذكر له سوى التعريف المشهور ، الانسان حي ناطق))[١].

ولقد سار الدكتور (إبراهيم سلامه) ، موافقا الدكتور (طه حسين) ، فيما سبق عرضه من ((أن البيان العربي قد ابتدأ بالجاحظ حقا ، ولكنه بيان مخلوط ، قد اشتبك فيه النقد مع القاعدة البلاغية ، والتقت فيه عدة ثقافات أحرزها (الجاحظ) ، وعرف بها فتمثلت في نفسه تمثيلا استخرج عصارته الأخيرة وهضمها هضما أحال طبيعتها إلى طبيعة أخرى ، تبدو في شكل جديد ، بعيدة الصلة بينها وبين نهايتها ، وبين مصادرها الأولى))[٢].

وإلى هنا لم يخرج الدكتور (إبراهيم سلامه) عما قاله (طه حسين) ، ولكنه يزيد عليه فيقول : ((إذا عرفنا عن (الجاحظ) أنه لم يدرك ترجمه كتاب (الخطابه) ، فقد عرف ما فيه من أفواه النقلة الذين اعتزموا ترجمته))[٣].

فهو قول أضعف من أن يناقش ، ويقارن بالحقائق ،لأن حجته واهية ، لا تحتمل تيارات المناقشة ، وحقائق الآراء لأنه بعد ذلك يناقض مقالته فيقول :

((والجاحظ يلقف الثقافة من الفم والعقل ، كما يلقفها من الكتب ومن أسواقها))[٤].

وإن الذى دعا الدكتور (إبراهيم سلامه) إلى قول ذلك ما ساقه (الجاحظ) من تعريف للبلاغة حيث يقول : ((قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل من الوصل ، وقيل لليوناني ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة ، وقيل للهندى ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة ، وحسن

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٣ .
(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د . ابراهيم سلامه ص ٣٩٥ ط ٣ ، ١٣٧١ هـ مكتبة الأنجلو .
(٣) المرجع نفسه ص ٣٩٥ .
(٤) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د . ابراهيم سلامة ص ٣٩٥ .

الإشارة)) .(١)

اى أن ((الجاحظ اعتمد على تلك الثقافات في مؤلفه ، ولكن الواقع أنها غيض من فيض علم الجاحظ الواضح الدلالة على أصالته العربية ، وهذا رد أيضا على (الدكتور طه حسين) الذى رأى في (الجاحظ) أنه متناقض حيث يستشهد برأى الأعاجم في البلاغة ، ثم يتناسى ذلك ولا يعترف لهم بالفضل ، يقول عن (الجاحظ) : ((بأنه رجل عرف بالحماسة المتقدة للانتصار للعرب بالرغم مما ذكره (الجاحظ) في أول الكتاب عن تصور الأعاجم للبلاغة)) .(٢)

كما قرر الدكتور (طه حسين) أن البيان العربي خليط من ثقافات مختلفة وليس عربيا بحتا اعتمادا على نشوء (طبقة عمال الديوان وكتاب الخلفاء ، وكان أعظم هذه الطبقة أعاجم من الفرس ، وأهل الجزيرة والسريان والقبط ، وكان أفرادها جميعا قد ثقفوا بلغتهم الأصيلة ، ثم حذقوا فوق ذلك العربية ، مع سوء التلفظ بها أحيانا ، هذه الطبقة كانت تلى للخلفاء ، ورؤساء الدولة المناصب الإدارية والكتابية .

وقد أدخلت بذلك على اللغة العربية أساليب لم يعهدها العرب من قبل ، وسلكت في الكتابة طرقا أخذ بها من كان تحت أيديها من العمال)) .(٣)

وهل يعقل أن يكون هذا البيان العظيم الذى نزل به القرآن ، وقد جمعت خيوطه على أيدى بعض الكتاب ، وهم (ابن المقفع) و (عبد الحميد) وغيرهما ، وإن كان هناك كتاب الدولة من الأعاجم ، فهم عدد محدود ، وتأثيرهم غير ذى أهمية ، والعقل العربي قد نضج بيانه ، وقويت عناصره بنزول القرآن الكريم محاجا لهم بالبيان ، وذاك أمر بيد وأنه غير مؤكد لدى الدكتور (طه حسين) وغيره ، لأنه تشكيك كذلك في أى عنصر كان أثره أوضح وأقوى .

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٤٩ .

(٢) مقدمة نقد النثر د. طه حسين ص ٢ .

(٣) مقدمة نقد النثر ص ٦ .

إذا فعلى اى اساس كان الحكم بأثر هؤلاء الكتاب ؟ ((ولكن هنــاك قوما آخرين وأنا من هؤلاء - يفكرون في أن التأثير اليوناني أقوى من التأثير الفارسي ، رغم أن كثرة الكتاب من الفرس)) .(١)

ولقد أيد الدكتور (طه حسين) رأيه بما قاله (الجاحظ) : ((أما أنا فلم أر قوما قط أمثل طريقة في البلاغة من الكُتاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا)) (٢) ، ومن ذلك ترى أن جهود المتكلمين والساسة والكتاب قد تضامنت في القرن الثاني في تكوين ذلك البيان العربي)) .(٣)

واني ار أن ليس معنى ثناء (الجاحظ) على هذه الطبقة ، أنهم قد بنوا البيان العربي وكونوا عناصره ، وشيدوا أركانه بما أد خلوه من العلوم الأعجمية المترجمة .

بل يقصد (الجاحظ) أنهم من الذين اتبعوا الطرق الصحيحة تماما وإن أمثل طريقة التي وضعها النقاد الأوائل ،حيث النداء بالابتعاد عن اختيار التوعر ، والوحشي الساقط من الألفاظ ، هذه أمور معروفة منذ الجاهلية حيث الحوليات وتنقيح القصائد مما يشوبها من عيوب القافية وغير ذلك .

وهذا (الباقلاني) يعبر عن قصد (الجاحظ) بوضوح تام ، حيث يقول : ((ولا يخفى عليه في زماننا الفصل بين رسائل (عبد الحميد) وطبقته ، وبين طبقة من بعده ، حتى إنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل (ابن العميد) وبين رسائل أهل عصره ومن بعده ، ممن برعوا في صنعة الرسائل وتقدم في شأوها ، حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين وحتى خلص لنفسه طريقة ، وأنشأ لنفسه منهاجا ، فسلك تارة طريقة (الجاحظ) ، وتارة طريقة السجع ، وتارة طريقة الأصل ، وبرع

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ص ٥٨ ط ١ / بيروت ١٩٧٣م
(٢) انظر البيان والتبيين ١ / ٤١ ، ٤٢ انظر مقدمة نقد النثر ص ٦ ، ٧ .
(٣) مقدمة نقد النثر ص ٦ ، ٧ .

في ذلك باقتداره ، وتقدمه بحذقه ، ولكنه لا يخفى مع ذلك على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره ، وان كان قد يشتبه البعض ، ويدق القليل ، وتغمض الأطرافه وتشذ النواحي)) .(١)

وقول (الباقلاني) بأن طبقة الكتاب قد سارت في طريق عربية مختلفة منها سبيل (الجاحظ) ، وأخرى طريقة السجع ، يدل على أن هؤلاء تأثروا بالبيان العربي ، ولم يؤثروا فيه ، كما سيبين ذلك الدكتور (طه حسين) ، في محاولته إنكار أصالة البيان العربي ، فيقول بصريح العبارة ((وإذا فالقول بأن هذا البيان عربي بحت ، قول مبالغ فيه ،لأنه لا نزاع في أن الكتاب والمتكلمين وجلهم من الأعاجم قد ساهموا فيه ، كما أن القول بأنه أعجمي بحت وفق بينه وبين اللغة العربية ، كما وفق من قبل بين البيان اليوناني واللغة اللاتينية ، قول غير مستقيم)) .(٢)

ورأيه في إثبات تأثير العناصر الأجنبية على اللغة العربية واضح ، وقول لا جدال فيه ، ولكن برّأه من أن يكون أعجميا بحتا .

كما أنه أنكر وجود بيان عربي حتى منتصف القرن الثالث ، بل هو محاولات لوضع القواعد العربية ، بل إنه خليط من العربية والفارسية واليونانية :
((بل ليس صحيحا أنه كان قد وجد حتى منتصف القرن الثالث بيان عربي تام التكوين ، وكل ما في الأمر أنه وجدت جهود صادقة مفيدة ترمى إلى إنشاء هذا البيان ووضع قواعده)) .(٣)

وكذلك الدكتور (شوقي ضيف) حذا حذو الدكتور (طه حسين) في القول بأن قواعد العربية لم توضع حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وذلك

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ١٢١ .
(٢) مقدمة نقد النثر د . طه حسين ص ٧ .
(٣) مقدمة نقد النثر د . طه حسين ص ٧ .

حين رأى أن نشاط البحث يتصل بالكشف عن فقه اللغة و معرفة أسرارهـــــا و قلما اتصل بأبحاث البلاغة و الفصاحة)) .(١)

و حتى الدكتور (محمد مندور) يرى أنه حتى القرن الثالث الهجـــرى لم يحدث تغيير جذرى أو شامل لكل النفوس و العقليات ، لأن ((الزمـــن قد طال بالشعر العربي ، و كانت الحضارة ، قد دعمت عملها في إضعـــاف قوة البداوة و أصالة الطبع عند العرب ، و كان الاختلاط بالشعوب الأخـــرى قد أضعف من حيويتهم ، فأضاف كل هذا إلى فعل الزمن و التطور الذاتـــي لكل ما في الحياة ، و ساعد على أن يصل بالأدب العربي إلى مرحلة الهرم ، و لم تكن الثقافات الأجنبية قد اختمرت بعد في النفوس ، و لا استطاعـــت أن تهزها فتجدد حياتها و لو في تلك الحدود التي تستطيع فيها العناصر الدخيلة على حياة الشعوب الروحية أن تغير من عقليتها ، و إنما كان هـــذا الاختمار و تلك الهزة في القرن الرابع والخامس)) (٢) .

و لقد أكد ذلك في موضع آخر، أن العرب حتى القرن الثالث ، لم توضـــع لعلومهم تعريفات و مصطلحات لأن ((الذى يبدو لنا هو أن العرب قد فهموا تعاريف أرسطو لتلك الأوجه ، ثم اختلفوا في ترجمة الاصطلاحات أو وضعها للدلالة على ما فهموا ، و هذا ما يفسر اضطراب تلك الاصطلاحات و عـــدم إتفاقهم عليها في العصر الذى تتحدث عنه ، اى في أوائل عهدهم بتلـــك العلوم و الشواهد على ذلك كثيرة)). (٣)

و يقصد كذلك الدكتور (مندور) أن العرب ، أخذت خصائص علومهـــا من أرسطو و لكنها اختلفت في ترجمة المصطلحات الدالة عليها .

و هذا يعني أن تلك المصنفات استقت موارد ها من ينابيع اليونان و أن تلك الموضوعات لم تكن واضحة جلية ، لأنهم حتى القرن الثالث لم يتفقـــوا

---

(١) البلاغة تطور و تاريخ ص ٦٣ .

(٢) النقد المنهجي عند العرب ص ٥٦ .

(٣) النقد المنهجي عند العرب ص ٦٣ / ٦٤ .

على مسمياتها ، أو اختلفوا في ترجمة مصطلحاتها على ما ذكر الدكتور (محمد مندور) .

وهناك بعض المتناقضات التي انزلق فيها الدكتور (طه حسين) ، تدل على عدم اطمئنانه لما قرره عن البيان العربي ، وان تردد في أكثر من كتاب من مؤلفاته ، ومن ذلك قوله : ((ومن اليسير أن نتبين في البيان العربي لذلك العهد ثلاثة عناصر مختلفة : العنصر العربي وهو واضح شديد الوضوح ، ثم العنصر الفارسي الذى يميل الى البراعة والظرف في القول والهيئة ، ثم العنصر اليوناني الذى يتصل بالمعاني خاصة من حيث دقتها ، والعلاقة بينها وبين الألفاظ ، أى من حيث المبدأ الذى يدعو اليه (أرسطو) ، مبدأ وجوب الملاءمة بين الخطبة وبين السامعين لها))(١) .

يقول ذلك عن (أرسطو) وهو في الصفحات السابقة يقرر أن :

((الحركة الفكرية القوية التي ظهرت في ذلك العهد نفسه ، فلم تكن مساجد الكوفة والبصرة يومئذ مجرد أماكن يتعبد فيها المسلمون ويفصل في أقضيتهم ، بل كانت فوق ذلك مدارس يغشاها العلماء لتدريس اللغة والنحو والحديث والفقه ، والأخباريون ليقصوا على سامعيهم أخبار السيرة والفتوح والفتن ، وزعماء الأحزاب السياسية والفرق الدينية للجدل والمناظرة .

وكان يجلس الى هؤلاء جميعا أفناء من الناس من بين مسلم ، ويهودى ، ونصراني ، ومجوسي ، ومن بين عربي عاطل من العمل ، مزهو طموح تستهويه فصاحة اللسان ، وأعجمي مثقف نشط ، ولكنه متبرم بحاله غير راض عنها .

لا شك أن من يتصدى للكلام أمام هؤلاء ينبغي أن يكون موفور الحظ من وضوح العبارة ، وظهور الحجة ، وخفة الروح ، والقدرة على الافهام ، ومن ثم

---

(١) مقدمة نقد النثر ، ص ٧ .

نشأ بحث دقيق فيما ينبغي أن يتحلى به الخطيب من الصفات ، وما ينبغي أن يخلو منه من العيوب ، سواء أكان ذلك من حيث الكلام أومن حيث الهيئة والاشارة)) (١) .

أى أن تلك الاشادات والاشارات - كما يقول - عرفها الأوائل وأشار (الجاحظ) اليها كثيرا واهتم بها ، فاستشهد بصحيفة (بشر بن المعتمر) ليدل على أهمية اتباع تلك القواعد ، فاذا لا داعي لأن يقال أنهم اعتمدوا على (أرسطو) أو على أى فكر أعجمي .

وان كان الدكتور (ابراهيم سلامة) قد اتفق مع الدكتور (طه حسين) على أشياء هامة وفي الخطوط العريضة في هذا الموضوع ، فانه يقر للعرب ((الاستعداد الأدبي ، وأوقاته وطرقه النفسية مدروسة عند العرب درسا مستفيضا ، وصفوا فيه أنفسهم وهم أهل أدب ، ووصفوا فيه دواعي الشعر وهم أصحاب حس صادق وقريحة مواتية)) (٢) .

ولقد استشهد بما ورد في (البيان والتبيين) و (الصناعتين) منقولا عن (الكامل) (للمبرد) حينما قال :

((لا أحتاج الى وصف نفسي لعلم الناس بي ، انه ليس من أحد من الخافقين تختلج في نفسه مسائله مشكلة ، الا لقيني بها ، وأعدني لها ، فأنا عالم ومتعلم ، وحافظ ودارس لا يخفى على مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور ، والخطب والرسائل ، وربما احتجت الى اعتذار من فلتة ، أو التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذى أقصده نصب عيني ، ثم لا أجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان ، وانه

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٤ ،٥ .

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د . ابراهيم سلامة ، ص ٦٠ .

وان كان النص لا يعني صراحة أن (المبرد) لا استعداد له في الأدب ، ولكن يعني في كل حال أن هناك لحظات مواتية بالاستعداد))[(١)] .

وهذه شهادة تدل على ادراك العرب الأوائل لهذه المعاني ، فلا حاجة الى الرجوع الى مصادر أخرى .

ولكن الدكتور (طه حسين) قد ارتبك نوعا ما ، حيث ذكر قبل سطور أن التأثير كان غير مباشر ، ثم بعد هنيهة يذكر أنهم ((قد تأثروا بالآداب اليونانية تأثيرا ما ، فأصبحوا يستمدون وحي قرائحهم من الأدب اليوناني ، اما مباشرة بالأخذ عن الأصول اليونانية ، أو من طريق غير مباشر ، بالاطلاع على ما نقل الى اللغة العربية من التآليف اليونانية المختلفة))[(٢)] .

ولقد حاول الدكتور (بدوى طبانة) كذلك أن يثبت أن الفكر اليوناني هو المصدر الذى ينير عقول العرب ، ويمدها بالزيت ، لتتقد أفكارهم وتشحذ عقولهم :

((فقد وجدنا في العصر العباسي مظهرا من مظاهر اهتمام البيئات العربية بفن الخطابة ، والرغبة في تعلم أصولها ، ومعرفة عوامل الاصابة من الموقف والمنطق والهيئة . والواقع أن هذا الاهتمام كان ظاهرة جديدة في المجتمع العربي والاسلامي ، ولم تكن هذه الظاهرة الا صدى لما عرفوه عن اليونان ، وما عرفوه من السفسطائيين والخطباء المحترفين حرفة تعليم الخطابة للفتيان والشباب والأشراف المتطلعين الى السيادة

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٩ .

(٢) مقدمة نقد النثر ص ٩ ، ١٠ .

و سياسة البلاد، و لهذا عنى (الجاحظ) في بيانه عناية فائقة بالفن الخطابي ووضع تحت أنظار فتيان العروبة تلك الشواهد الخطابية الكثيرة ، ولعل الجاحظ أراد بهذا أن يكون للعرب خطابه كخطابة اليونان ، و أن يكون هو الكاتب في خطابة العرب ، كما كان أرسطو الكاتب في خطابة اليونان)). (١)

و يرى الدكتور (بدوى طبانه) أن فكرة الخطابة و قواعد ها طارئة مستحدثة بمجرد أن عرف العرب أن لليونان خطابة ، حاولوا تقليدهم ، والسير على نهجهم ، ودليل الدكتور (بدوى طبانه) على ذلك ، مستخلص من عبارة واحدة عارضة التي وردت في بيان (الجاحظ) و هو يصدر روايته لصحيفة (بشر بن المعتمر)، و قول (الجاحظ) إن (بشرا) مر (بإبراهيم ابن مخرمه السكوني) الخطيب ، (و هو يعلم فتيانهم الخطابة) فوقف (بشر) ، فظن (ابراهيم) أنه و قف يستفيد أو ليكون رجلا من النظارة ». (٢)

و من هذه الكلمة العارضة ، هل يمكن أن ينسى فضل الأمة العربية على الخطابه ، و هم من وصفهم القرآن بالمحاجة و اللدد .

كما يرى الدكتور (طه حسين) ، أن (ابن المعتز) وغيره قد اعتمدوا على كتاب (فن الخطابه) (لأرسطو) ، حيث ترجمه (اسحاق بن حنين) (٣) المتوفى سنة ٢٩٨ هـ ، بالرغم من علمه بأن (الجاحظ) واضع كتاب (البيان و التبيين) قد توفى سنة ٢٥٥ هـ ، فالأقرب أن يكون هو مصدر العرب ، و لكن (الدكتور طه حسين) ، ألصق رأيه بدون ترو حيث يقول : ((فقد يكون عجيبا على أقل تقدير ، أن يظهر أول كتاب في البيان العلمي في ذات الوقت الذى ظهرت فيه ترجمة كتاب الخطابه لأرسطو و مع ذلك فهذا الذى كان . لقد ترجم (حنين بن اسحاق) كتاب (الخطابة) ، ومن المحتمل

---

(١) النقد الأدبي عند اليونان للدكتور بدوى طبانه ص ٢٥٠ .

(٢) انظر النقد الأدبي عند اليونان د . بدوى طبانه ص ٢٥٠ .

(٣) هو أبو يعقوب اسحاق بن حنين ، كان فصيحا بالعربية ، يزيد على أبيه في ذلك ، كان منقطعا إلى القاسم ابن عبيد الله ، توفى في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين ومائتين . انظر الفهرست لابن النديم ص ٤١٥ .

أن تكون هذه الترجمة قد ظهرت بعد وفاة الجاحظ ، أي في النصف الثاني من القرن الثالث)) [١] .

فهو يؤكد ليس هناك اى مجال لاحتمال أن تكون ظهرت هذه الترجمة بعد وفاة(الجاحظ) ، بل هو أمر ثابت لا مجال للشك فيه ، ولكن دون أن ينتبه لذلك .

ويكمل أن (ابن المعتز) بما أنه وضع كتاب (البديع في تلك الفترة التي ترجم فيها كتابه (الخطابة) ، فإنه استقى منه بلا شك ، يقول : ((لأن حنين بن اسحاق توفى سنة ٢٩٨ هـ في هذه الفترة عينها وضع [٢] أمير المؤمنين الشاعر التعس (عبد الله بن المعتز) كتاب البديع)) .

والملاحظ أن ابن المعتز ألف كتابه سنة ٢٧٤ هـ كما يقول في مقدمته فمن المحتمل جدا أن يكون (حنين بن اسحاق) ترجم كتاب (الخطابة) بعد ذلك ، واذا كان هذا احتمالا ، فاستدلال الدكتور طه حسين بالمعاصرة بينهما ساقط .

ثم بعد هذه المقدمات وتلك الأدلة التي أوردها الدكتور (طه حسين) في محاولة إثبات عدم أصالة البيان العربي ، يرد على نفسه قائلا :

((والواقع أن علماء البيان من العرب برغم سخطهم على كتاب الخطابة لم يكفوا عن أن يعنوا به ، ويحرصوا عليه غاية الحرص .

نعم إنهم لجهلهم التام بنظم اليونان وآدابهم ، لم يستطيعوا فهم الأنواع الخطابية وما يتصل بها)) .[٣]

ولقد استدرك تلك الفجوة بأنه جعلهم يفهمون بعض تلك الفصول ((ولكن لا شك في أنهم في مقابل ذلك وجدوا فصولا أخرى تتحدث إليهم

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ١٢ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٢ .
(٣) مقدمة نقد النثر ص ١٣ ، ١٤ .

عن أشياء يعرفونها و يجدونها دائما في شعرهم الخاص). (١)

ولقد خالف الدكتور (سلامه) الدكتور (طه حسين) ، إزاء ما وصف به مؤلف (ابن المعتز) من أنه أُلف في نفس الفترة التي ترجم فيها كتاب الخطابه ، ولأن من اطلع على الكتاب ، لم ير فيه أكثر من أنه ترجمة لبعض فصول كتاب الخطابه ، ولكن الدكتور (سلامه) أحس أن هذا المؤلف ((عرض لبلاغة عربية المثل ، عربية الاصطلاح ، عربية المأخذ ، يستشهد لها من الكتاب والسنة ، و يستشهد لها بما عرف من الأدب الجاهلي قبل أدب الكتاب و أدب السنه)). (٢)

بل يرى أكثر من ذلك ، حتى العرض والاصطلاحات التي عبر بها عن موضوعات عربية أصيلة لها دلالتها اللغوية ، ولها دلالتها الاصطلاحية وهذا رأى شاهد عيان دارس ، وليس معتمدا على ما قاله غيره .

((وقد تتبعنا كل ما أتى به ابن المعتز تقريبا ، وقارناه بما يمكن أن يكون له شبه بالبلاغة اليونانية ، فوجدنا الأصالة أظهر ما يظهر من خصائص الكتاب ، وخطة (ابن المعتز) بالقياس إلى خطة (أرسطو) غاية في البساطة ، بعيدة عن التحدى المنطقي الذى عرف به (أرسطو) في تعريفاته)). (٣)

وفي أثناء وصفه للكتاب يرى أنه أول مؤلف يعرض للبلاغة العربية ((وفي النقد الأدبي عرضا عربيا أصيلا في عبارات اصطلاحية لها دلالتها الخاصة من الناحية اللغوية ، ولها دلالتها العامة من الناحية الاصطلاحية من حيث التعميم والاستقراء ، ويخيل إلينا ، بل نستطيع أن نؤكد تأكيدا

---

(١) المرجع نفسه ص ١٤ .

(٢) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ص ٣٩٥ .

(٣) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

بعيدا عن الظن و الحدس ، أن ابن المعتز تتبع إلى جانب محفوظه الواسع الغزير في الأدب القديم ، شعر الأدباء المحدثين المعاصرين ، وعرف ما التزموه من ناحية الصناعة ووجد فيما قرره الجاحظ من المصطلحات ما أعانه على تقسيم كتابه هذا التقسيم الدقيق الذى فرق بين الصنوف الخمسة الأولى للبديع ، وبين الصنوف الأخرى التي سماها بالمحسنات ، وقد قرر في ثقة العالم المخترع أنه واضع لبعض هذه الاصطلاحات). (١)

كما أود أن أختم موضوع التشكيك في أصالة البديع ، وما ألف فيه بما قرر الدكتور (محمد مندور) ((أن البديع لم يخترعه أبو تمام ، بل سبقه إليه القرآن الكريم والحديث وشعر المتقدمين ، وثانيهما أن أبا تمام قد شغف بالبديع حتى غلب عليه وتفرغ فيه)). (٢)

ولقد اعتمد في حكمه هذا إلى ما عرض (ابن المعتز) في كتاب (البديع) ، إذ قرر أن البديع قد عرف من القدم حيث وجد في القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صى الله عليه وسلم : ((قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة ، والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشارا وسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم ، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودل عليه)). (٣)

فهذا الحكم الصريح الواضح بأصالة البديع العربي ، ليثبت أنها ليست بحاجة لأن تستمد من غيرها تلك المعاني ، ولم يكن هذا حكم الدكتور (محمد مندور) أوغيره بأصالته ، إلا بعد درس ومتابعة لتلك النشأة

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(٢) النقد المنهجي عند العرب ص ٥٠ .

(٣) النقد المنهجي عند العرب ص ٥٠ .

واستقصاء لجذورها وسير لأغوارها ، فإن الخط العام الذى سار عليه ((إن كل مذهب شعرى أو أدبي لا يستقر ، ويأخذ الأدباء في مناقشته والتحمس له أو ضده حتى يصاغ في مبادئ نظرية ، وذلك لأنه لا يكفي أن يصدر عنه الشعراء أو الكتاب ليتميز كمذهب ، وهذه حقيقة بينة في تاريخ كل المذاهب الأدبية فهي لم تصبح مدارس لها أنصار وتلاميذ ، ولها خصوم إلا عندما وضحت أصولها ، وحللت وعرضت ، ونحن نلاحظ أن الأدباء أنفسهم كثيرا ما يتولونهم في العصور الحديثة بسط مذاهبهم في كتب أو مقالات أو مقدمات لمؤلفاتهم)). (١)

من هذا المبدأ تتبع أول من انطلق معبرا عن مشاعره ، مستعينا في ذلك بالبديع : بشار بن برد ، فأبو نواس ومسلم ، ثم أبو تمام ((ولكنهم لم يعرفوا خصائص هذا المذهب معرفة نظرية تحليلية ، وان أحسوا بأن شيئا جديدا قد طرأ على الشعر)). (١)

((وإذا فابن المعتز قد ساعد على خلق النقد المنهجي بتحديده لخصائص مذهب البديع ووضعه اصطلاحات لتلك الخصائص ، وعنه أخذ من جاء بعده خلق هذه الاصطلاحات حادث جديد في القرن الثالث الهجرى وهو حادث له أهمية كما رأينا ، فمن أين أتى ابن المعتز بتلك الاصطلاحات).(٢)

إن إجابة الدكتور (محمد مندور) قد اضطربت نوعا ، لأنه قال ((يقول (ابن المعتز) ، إنه لم يسبقه إلى ذلك أحد ، وأنه قد ألف كتابه سنة ٢٧٤ هـ ، ولكننا نعلم أن (حنين بن اسحاق) (ت ٢٩٦ هـ) قد ترجم كتاب (الخطابة لأرسطو مما يدل على أن هذا الكتاب قد عرفه العرب ، وليس بغريب أن يكونوا قد أحاطوا بموضوعاته قبل ترجمة (حنين). (٣)

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٦١ .

(٣) النقد المنهجي لمندور ص ٦١ ، ٦٢ .

فكيف يكون (ابن المعتز) قد اعتمد على أفكار اليونان ، أو على (أرسطو) بالذات ، وكتابه لم يترجم إلا بعد تأليف (ابن المعتز) لكتابه سنة ٢٧٤ هـ . فالفرق اثنتان وعشرون سنة ، فإذا حصل أن حنين قد ترجم (الخطابة) قبل وفاته بعشرين سنة على الافتراض فهذا لا يعني أنه بمجرد ترجمة ذلك الكتاب تناوله ابن المعتز وقرأه وأخذ في وضع علم البديع مستضيئا ومستعينا بما ترجم من مصطلحات طبقها على القرآن الكريم والأحاديث مستنبطا شواهد لعلمه ، ناقدا من الأمثلة الشعرية المصيبة من كل وجه من أوجه البديع التي ذكرها .

ثم اعترف (الدكتور مندور) نفسه ، بأن (ابن المعتز) استفاد من (الجاحظ) بإعترافه ، ((فيقول ص ٥٣ ، الباب الخامس من البديع وهو مذهب سماه أبو عمرو الجاحظ المذهب الكلامي)) . (١)

وكذلك نقل الدكتور ((مندور عن كتاب البديع (لابن المعتز) نقله الصريح من الخليل : ((يقول : قال (الخليل) رحمه الله : طابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد ، وكذلك قال أبو سعيد ، فالقائل لصاحبه أتيناك لتسلك بنا سبل التوسع ، فأدخلتنا في ضيق الضمان ، قد طابق بين السعة والضيق ، في هذا الخطاب .. الخ ومن الواضح أن هذا مثل عربي)) . (٢)

فالأجدر بنا أن نرجع مصادر علم (البديع) إلى (الخليل) و(الجاحظ) رحمهما الله ، لا إلى (ارسطو) ، حيث تابع الدكتور (مندور) حديثه قائلا : ((ومن الواضح أن هذا مثل عربي لنفس المبدأ الذى حلله أرسطو بحيث يلوح لنا أن ابن المعتز - على الأرجح كان يعرف تحليل

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٥ .

(٢) النقد المنهجي ص ٦٣ .

أرسطو لهذا الوجه من البديع ، وأن لفظة(طباق)ما هي إلا ترجمة للفظة اليونانية)). (١)

ويسترسل في ثقة أنه اطلع على ما ترجم عن أرسطو بل أن ((أرسطو قد تحدث عن هذه الأوجه الأربعة التي رأى فيها ابن المعتز مميزات لمذهب البديع ، وإن يكن هذا لا يسلب ابن المعتز فضله وذلك لأنه لم يأخذ عن أرسطو إلا مجرد التوجيه العام والفطنة إلى طريقة تحليل هذه الظواهر التي طبقها على اللغة العربية باحثا عن الأمثلة في القرآن والحديث وشعر المتقدمين والمتأخرين)). (١)

كما أني سأتابع الحديث عن المؤلفات التي تناولها التشكيك في أصولها ، لما يترتب على ذلك من تشكيك في النقد الأدبي ذاته ، لأن الدكتور (طه حسين) ، وغيره من المؤلفين الأجلاء تناولوا بعض كتب النقد بالتشكيك المباشر في أصالة منابعها ، دون الاستناد على حجة قوية مقنعة ، وكان ذلك من نصيب (قدامه بن جعفر) في كتاب (نقد الشعر) الذى يقول عنه : ((ونحن عندما نقرؤه نحس من أول فصوله أننا بإزاء روح جديد لا عهد لنا بمثله من قبل)) (٢) ، ((ويمكن المضي في قراءة نقد الشعر ، دون أن نلمح أثرا ما لنظرية المحاكاة المشهورة التي هي جوهر كتاب الشعر ، وإذن فلا بد من أحد أمرين ، فإما أن قدامه لم يطلع على كتاب الشعر ، لأنه لم يكن ترجم بعد إلى اللغة العربية ، وإما أنه قد اطلع على الأصل اليوناني ، أو على ترجمة سريانية له ، فلم يتيسر له فهمه)). (٣)

ولقد وافق الدكتور (شوقي ضيف) ، الدكتور (طه حسين) ، بأن (قدامة) ليس على علم بكتاب (الشعر) (لأرسطو) فقط ، بل هو على إحاطة تامة بكتاب (الخطابة) أيضا ، وهذا في أثناء حديث للدكتور

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) مقدمة نقد النثر ص ١٧ .

(٣) مقدمة نقد النثر ص ١٨ .

(شوقي ضيف) المتدفق المتحمس لإثبات تأثر (قدامة) بالفكر اليوناني ومن ثم الفكر العربي كله : ((ويبدو تأثره بالفكر اليوناني في تنظيمه للكتاب ، إذ جعله فصولا ثلاثة ، أما الفصل الأول فبدأ بتعريف الشعر وببعض مقدمات ضرورية ثم ببيان أجزائه)) .(١)

ولقد اعتمد (الدكتور شوقي ضيف) في ذلك ، على عبارة ذكرها (قدامة)، فأخذها دليلا نيرا أضاء له الحقيقة ، يقول : ((ولا يتركنا قدامه لاستنتاج هذه الدلالة ، بل يضع في أيدينا البرهان القاطع ، على أنه يستمد في حده من صورة الحدود اليونانية ، يقول لما كان هذا الحد مأخوذا من جنس الشعر العام له ، وفصوله التي تحده (تفصله) عن غيره كانت معاني هذا الجنس والفصول موجودة فيه ، كما يوجد في كل حدود معاني حده . لأن الإنسان مثلا يُحد بأنه ناطق ميت)) .(٢)

والملاحظ على بحث الدكتور (طه حسين) ، أنه يحاول فيه دائما أن يزج بعلماء العربية في بحر الفكر اليوناني ، فإن لم يطلع (قدامه) على كتاب (الشعر) أو كان يجهله - هكذا - فلا بد أنه قد اطلع على كتاب (الخطابة) ، يقول : ((على أنه إذا كان قدامه يجهل كتاب الشعر ، فقد كان على إحاطة تامة بـ (كتاب الخطابه) ، وقد فهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به ، وطبق ما فهمه على الشعر العربي ، فهم أولا كل ما ورد في القسم الخاص بالعبارة عن التشبيه والمجاز والمقابلة والفصول وغير ذلك)) .(٣)

فكيف انتفع به وهو لم يلحظ ما يترتب عليه من القيمة الأدبية ، قائلا ((ولكن الأولين كانوا أحسن من الآخرين فهما لما أورده فيه (أرسطو) عن الأخلاق والانفعالات، دون أن يلحظوا البته ما يرتبه عليها من القيمة الأدبية)) .(٤)

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٠ .

(٣) مقدمة نقد النثر ص ١٨ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٦ .

ثم كيف ذكر في الصفحة المقابلة عن كتاب قدامه ((ونحن عندما نقرؤه نحس من أول فصوله أننا بإزاء روح جديد لا عهد لنا بمثله من قبل)). [١]

ثم يتابع الدكتور (طه حسين) تعليقه على كتاب نقد الشعر، قائلا : ((ثم انتفع منه بكل القسم المتصل بالأخلاق والانفعالات)). [٢] .

فكيف كان ذلك وقد ذكر الكاتب قبل صفحات أن العرب ((تحاشوا أن ينقلوا عن المعلم الأول جميع الأمثلة التي كان يمثل بها ، لا لشيء أكثر من أنهم لم يفهموا هذه الأمثلة)). [٢]

من هذه المتناقضات ، وقف الدكتور (بدوي طبانة) ، مؤكد أن (قدامة بن جعفر) قد ((كان أكثر علماء الأدب إفادة من الفكر اليوناني في نقد الشعر ، إذ كان أحد الذين يشار إليهم في معرفتها والبحث عنها والسبق إلى تحصيلها)). [٣]

وعلى ما يبدو أن (الدكتور طبانة) كان متيقنا تماما من وقوف (قدامة) على تلك الآثار اليونانية ، إذ كان واضحا عنده ، مما أكد (للدكتور طبانه) رأيه حين يقول : ((تجد فيه ما يدل دلالة صريحة على وثيق صلة مؤلفه بالفكر اليوناني وإفادته منه ، وذلك كلام في الحد والنوع والجنس والفصل وكلها مصطلحات منطقية ، مما وعي عن المعلم الأول ، ومن ناحية قواعد النقد نشير إلى بعض مظاهر التأثر الواضحة في نقده بالنقد اليوناني)). [٤] ومن تلك الظواهر التي اعتمد عليها (قدامه) في تأثره بالنقد ، الغلو وهو دليل استدل به ، كذلك الدكتور (طه حسين) في (مقدمة نقد النثر) : ((كذلك يستغل قدامه نظرية أخرى لأرسطو في كثير من الاقتناع بصحتها، تلك نظرية

---

(١) المرجع نفسه ص ١٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٨ .

(٣) النقد الأدبي عند اليونان ص ٢٥١ / ٢٥٢ .

(٤) المرجع نفسه ص ٢٥٢ .

(الغلو) الذى يجيزه (أرسطو) على ما هو معروف للشعراء في جميع الأحوال ، وللخطباء في أحوال خاصة ، فيعد (قدامة) (الغلو) ، مما يمتاز به فحول الشعراء ، وينحى على أنصار الاعتدال ومن يرون الإقتصار على الحد الأوسط ، زاعما أنهم ليس لهم أن يطلبوا إلى الشاعر من حيث هو شاعر ،أن يتوخى الصدق ، بل ولا أن يتقيد بالأخلاق نفسها))[١]

أما الدكتور (بدوى طبانه) فإنه يسرد أمثلة عدة ليثبت تأثر (قدامة) بأرسطو) ، فيقول : (ورأيه أن الغلو أفضل من الاقتصار على الحد الأوسط ، يذكر أن هذا ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر . والشعراء قديما ، وأنه رأى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم ، وهو قول أرسطو ((أن المستحيل المقنع في الشعر أفضل من الممكن الذى لا يقنع)).[٢]

كما يقول ((ومن الآثار الصريحة أيضا اعتناق (قدامة) نظرية الوسط في الفضائل))، وقوله : ((إن كل واحد من الفضائل الأربع المتقدم ذكرها وسط بين مذمومين ، وقد وصف شعراء متقدمون قوما بالإفراط في هذه الفضائل حتى زال الوصف إلى الطرف المذموم)) ويقول: وتلك هي نظرية أرسطو التي يشرحها في كتاب الأخلاق بقوله : إنه إذا كان الإفراط والتفريط يفسدان الكمال ، فإن الوسط الحق وحده ، يمكن أن يؤكده ، وهذا هو الغرض الذى من أجله يد من الفنيون المحسنون النظر إلى أعمالهم) .[٣]

أى أن الوسط هو الجدير وحده بالثناء ، لأنه الميزان الحقيقي للفضيلة وإني أرى أن الرسول عليه السلام علَّم أصحابه ، وأرشد أمته إلى أن خير الأمور أوسطها ، وإن النظرة الخاصة للإسلام التي تقول بعدم الحث

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ١٨ .

(٢) نقد الشعر ص ١٢٦.
انظر النقد الأدبي عند اليونان ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .
(٣) النقد الأدبي عند اليونان ص ٢٥٦ .

على قوله منبعها المغالاة التي تُبعد عن الحقيقة ، وربما تضطر الشاعر للكذب ، وهكذا . فهذا مبدأ بسيط سهل ، يمكن لقدامة أن يسترشد به من خلال **أقوال كثيرة** ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحكم قالها المتقدمون .

وحتى عندما خالف (قدامة بن جعفر) (أرسطو) في بعض المبادئ رأى الدكتور (بدوى طبانة) أن الاختلاف ((في الرأى لا ينفي الإفادة لأن الإفادة كما يدل عليها الاقتداء والمتابعة ، تدل عليها كذلك المعارضة والخلاف ، ومتى عرفت الفكرة وجدت المؤيدين الذين يزيدونها تقريرا وتجلية ، ثم إنها من ناحية أخرى تشحذ الأفكار فتنير جوانب أخرى فتتفتح أبواب البحث وتتسع آفاقه ، ومن ثم تنشأ الفكرة المعارضة ، ويكون الرأى المخالف)). (١)

فهذا المبدأ من حيث ذاته صحيح ولا شك فيه ، ولكنه لا ينطبق على (قدامة) فيما نحن بصدده ، لأن الذى دعا (الدكتور طبانه) إلى الاستشهاد به عدم إشادة (قدامة) بالمال والثراء ، أو كرامة الآباء فهذه المبادئ ليس مصدرها إيحاء فكرة أرسطو بأى حال ، لأن إيمان قدامة بمبادئ الدين أقوى إيحاء أو أكثر تأثيرا ، لأنه عرف القول من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

وينقل الدكتور (بدوى طبانة) الفصل السادس من الكتاب الأول ، من الخطابة الذى ((اعتمد عليه قدامة ، وجدنا أرسطو يقرر أن العدالة والشجاعة والعفه والسخاء والعظمة وغيرها من المواهب الأخلاقية الأخرى التي من سنخها وطبيعتها فضائل نفسية لها ماللسعادة من الأثر النفسي ولكن أرسطو ، يقرر كذلك أن الصحة والجمال ، وما إليهما من الصفات المتصلة بهما ، فضائل جسمية ، ويتولد منهما فضائل أخرى

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

كثيرة)) .[1]

ولقد كانت الدلائل التي استند عليها الدكتور (طبانه) - كما قدمنا بأمثلة كثيرة هي في الواقع فضائل أخلاقية نادى بها دينا الحنيف ، ومدح بها عليه السلام في قوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) [2] وقوله (ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك) .[3]

وهكذا فالقيم الإنسانية النبيلة ، التي أتى بها الاسلام هذبت النفوس وروضت الطبائع ، ولا بد أنه كان لقدامة نصيب الأسد منها بعد اعتناقه الاسلام ، بل حتى في الجاهلية من الشمائل التي افتخر بها العربي وتغنى بها في أشعاره ومجالسه ، منها الشجاعة والكرم والعفة ، مما جعل الإسلام يقر بالحسن منها ، ويدعو إلى المزيد من تلك الفضائل ، فلا حاجة بنا الى أرسطو ، لأن نستنبط منه تلك العناصر .

ولكن مما يدعو إلى التساؤل ، أن الدكتور (بدوى طبانه) قد استخرج بعض المباحث البلاغية ، والتي لم يتأثر فيها بالفكرة اليونانية :

((ومن مباحث البلاغة وفنونها التي ينسب إلى قدامه استخراجها والتي تأثر فيها بالفكرة اليونانية الغلو - الذى أشرنا اليه - وصحة التقسيم وصحة المقابلات ، وصحة التفسير ، وقد تأثر في هذه الفنون بمنطق أرسطو ، أما ماعدا ذلك من فنون البلاغة ، فإنها فنون عربية خالصة ، وإن وجدت لها أشباها واضحة في بلاغة أرسطو مثل التكافؤ والإشارة والتمثيل والاستعارة والتشبيه ، وقد عالجها قبل قدامه غيره من العلماء الذين لم يتأثروا بالفكر اليوناني)) .[4]

---

(١) النقد الأدبي عند اليونان د . بدوى طبانه ص ٢٥٤ .

(٢) سورة القلم آيه (٤) .

(٣) سورة آل عمران آيه ١٥٩ .

(٤) النقد الأدبي عند اليونان ص ٢٥٧ .

ولقد لحق النقد (ابن رشد) ، و(ابن سينا) كذلك ، حيث انتقد (الدكتور طه حسين) ، (ابن رشد) في عدم مقدرته على فهم معاني كتاب (أرسطو) لذا فانه حرفه ، يقول : ((ثم هو من جهة أخرى لا يتفق بوجه من الوجوه و معاني أرسطو ، ذلك لأن ابن رشد لم يفهم هذه المعاني فحرفها جهد استطاعته)).(١)

ثم بعد ذلك انتقد المؤلف (ابن رشد) في عدم مقدرته فهم معاني كتاب أرسطو ، لذا فانه حرفهما ، يقول ما قال :

(ثم هو من جهة أخرى ، لا يتفق بوجه من الوجوه و معاني أرسطو ذلك لأن ابن رشد لم يفهم هذه المعاني فحرفها جهد استطاعته) (٢) .

وسأعرض - بإذن الله - لبعض عبارات منقولة من نص مقدمة نقد النثر ، و من ثم سنرى الاضطراب باديا في جملها و معانيها و هو اضطراب لا يرجع بحال من الأحوال إلى سوء أو اضطراب في فهم العالم الجليل طه حسين ، ولكن على ما يبدو يعود إلى اصراره على الإقلال من شأن اللغة العربية ، و هذا واضح في أماكن أكثر من أن أحصيها هنا ، فالبحث لا يحتمل ذلك ، ولكن المطلع على آثار الدكتور طه حسين يستطيع بسهولة أن يتبين ذلك . إذ عد اللغة العربية في المرتبة الثانية بين اللغات ، وذلك في احدى محاضرات يضمها مؤلفه : ((ليس الأدب العربي أرقى الآداب ، ولا هو أضعف الآداب ، وليس وسطا ، بل هو من أرقى الآداب فاذا ذكر الأدب القديم فهو الثاني)). (٣)

ولقد عرض المؤلف (لابن سينا) و(ابن رشد) و(الامام عبد القاهر) ، و(البيان العربي) ، فكان من نصيب عبد القاهر أنه تم على يديه التوفيق بين البيانين العربي و اليوناني . ((وقد تحقق هذا التوفيق في القرن الخامس على

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٢٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥ .

(٣) المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ص ٥٧٢ حـ ٥ .

يد عبد القاهر الجرجاني . صنف عبد القاهر كتابين يعتبران بحق أنفس ما كتب في البيان العربي ، وهما أسرار البلاغة ، ودلائل الاعجاز ، فعندما نقرأ أولهما نكاد نجزم بأن المؤلف قرأ الفصل الذى عقده ابن سينا للعبارة))[١]

وعلى ما يبدو أنه أثنى على عبد القاهر ، لأن أول كتابيه شرح وتفصيل لفصل من المؤلفات اليونانية ترجمة ابن سينا .

وبالرغم من أن الدكتور في صفحات مضت يعتبر طريقة(عبد القاهر الجرجاني)عقيمة بل جرثومية كانت السبب في انحطاط البيان العربي في القرن السادس ، يقول : ((لم يكن عبد القاهر الجرجاني عندما وضع في القرن الخامس كتاب أسرار البلاغة المعتبر غرة كتب البيان العربي ، إلا فيلسوفا يجيد شرح أرسطو ، والتعليق عليه ، وإنا لنجد في كتابه المذكور جراثيم الطريقة التقريرية التي أودت بالبيان العربي في القرن السادس))[٢]

وكان هذا رأى الدكتور (محمد خلف الله أحمد) في كتاب الخطابة لأرسطو الذى عربه ابن سينا ، يقول : ((إن الذى يطلع على هذه المقالة لا يملك إلا أن يرجح أن(عبد القاهر)انتفع بها على نحو ما فيما قصد إليه في أسرار البلاغة من تفريع وتحقيق))[٣] ويرد الدكتور أحمد بدوى قائلا :

((أما نحن فنرجح أنه لم ينتفع بهذه المقالة ، ولم يتصل بها ، وإذا كان هناك بعض التشابه في العناوين ، فليس ذلك بدال على ذلك الانتفاع .

وخذ مثلا الفصل الأول من هذه المقالة ، وهو الخاص بالتحسينات واختيار الألفاظ والتغيرات ، وهذه بعضها متعلق باللفظ وبعضها متعلق بالترتيب ، وبعضها متعلق بهيئات المتكلمين وهي أمور خارجة عن اللفظ والمعنى)).[٤]

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٣٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٥ .

(٣) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب والنقد ص ١١٣ الطبعة / بدون .

(٤) عبد القاهر الجرجاني ص ٣١٥ .

ولم يبعد الدكتور (إبراهيم سلامه) كثيرا عن آراء الدكتور (طه حسين) ولكن اللهجة مختلفة ، وكذلك طريقة العرض ، إذ يرى الدكتور (ابراهيم سلامه) : -

((أن (عبد القاهر الجرجاني) كان الأول الذى مجد النحو في تأليف خاص ، وجعل له هذه المنزلة في البيان والبلاغة ، بعد أن كان مقصورا على التركيب وصحة الاعراب في نظر كثير من النحويين على الأقل .

ويبقى أيضا مع هذا أن نضيف إلى فضله ، أنه انتفع كثيرا بهذا الباب النحوى الذى ذكره أرسطو في كتاب الخطابه لا لأنه نقل عنه ، ففي النحو العربي ما يفوق النحو اليوناني من التبويب والتفريع والتفاصيل ، ولكن لأنه كان يفهم كما فهم (أرسطو) أن النحو صلب البلاغة ، كما قال الأول ، لخطباء اليونان ، قال الآخر للبلاغيين لا تحقروا النحو ، ولا تزهدوا فيه ، لأن الألفاظ مغلقة على معانيها ، حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها)). (١)

فلو أن (عبد القاهر) عرف فضل النحو ، وأهميته من خلال اشارات أدلى بها (أرسطو) ، لكان الأوائل ممن سبقوا (عبد القاهر) تلقفوها ، وكونوا علم البلاغة كاملا ، ولتوصلوا إلى نظرية إعجاز القرآن الكريم التي ينسب فضل تقريرها وشرحها بتلك الصورة التي جاءت في كتاب دلائل الاعجاز إلى (الشيخ عبد القاهر) .

وعلى كل حال فما أخذه (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) من غيره من علماء المسلمين واضح في كتابيه ، وواضح كذلك في كتب السلف التي تزخر بكثير من المعلومات ، وبفيض من القواعد في مجالات مختلفة ، وهي علوم لا يمكن أن يقال عن أصحابها وعن (الشيخ عبد القاهر) أنهم استقوها من روافد أجنبية .

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٣٦٧ .

((فماذا يمكن أن يكون عبد القاهر قد أخذ من ذلك ؟ وهو يؤمن بأن الجمال لا يكون في اللفظة المفردة ، ويقرر في صراحة ،أن الألفاظ المفردة لا تتفاضل إلا من ناحية السهولة والألفةوعند البلاغيين من صفات الألفاظ مالا يحتاج معه عبد القاهر إلى مزيد من أرسطو)) .(١)

ثم يصرح الدكتور (أحمد بدوى) بثقة العالم بلغته ، الباحث بحث استقصاء وتحرٍ للحقائق فيقول : ((وبعد هذا التحليل والموازنة لا نستطيع أن نوافق على ما كاد يجزم به الدكتور طه حسين بأن عبد القاهر قرأ الفصل الذى عقده ابن سينا للعبارة ، وأنه فكر فيه كثيرا ، وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص)).(٢)

ولقد كان هدم الثقة في واضعي البيان العربي شيئا مميزا في أفكار الدكتور (طه حسين) ، حتى ((أن مجهود ابن سينا لم يكن ليذهب عبثا ، لقد عرب كتاب الخطابة إذا صح هذا التعبير ، وجعله في متناول الفكر العربي ، وبذلك هيأ أسباب التوفيق بين البيانين اللذين عاشا متجاورين دون أن يتلاقيا)).(٣)

فكتاب (الخطابة) هذا الذى عده الدكتور (طه حسين) نجما اهتدى به (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في وضع أسس البيان معتمدًا على ترجمة (ابن سينا) نراه في جمل أخرى يشكك في تلك الترجمة ((قد نكون مبالغين إذا قلنا أن ابن سينا أحاط علما بكتاب الخطابة)) .(٤)

وعلى كل حال فالدكتور (طه حسين) يعترف بقول ابن سينا : ((ومع هذا كله فابن سينا نفسه لا يغفل أن ينبه على أن كتاب (الخطابة) بعيد عن الفكر العربي ، ويلفت النظر مرارا إلى أن به أشياء خاصة باليونان)) .(٥)

---

(١) عبد القاهر الجرجاني ص ٣١٥ .
(٢) المرجع نفسه ص ٣٢١ .
(٣) مقدمة نقد النثر ص ٢٩ .
(٤) المرجع نفسه ص ٢٧ .
(٥) المرجع نفسه ص ٢٧ .

حتى فصاحة الكلمة رأى الدكتور (إبراهيم سلامه) أنها من آراء أرسطو وان غيّر (عبد القاهر) في بعض نقاطها . (لأن الفصاحة ليست وصفا قائما بالكلمة ولا وصفا داخلا فيها ، فحدها عند عبد القاهر ((الكلمة التي يتعارفها الناس في استعمالهم ويتداولونها في زمانهم)) فالكلمات الوحشية الغريبة لا تتصف بالفصاحة ، والكلمات العامية السخيفة، وإن كانت متداولة ، إلا أن تداولها في اللسان العام لا في اللسان الخاص الذى يعرفه الأدباء ، ولا يعرفون غيره ، وإلا لو كان التداول وحده كافيا لكانت عبارة (باقلي حار) على حد تعبير عبد القاهر ، عبارة أدبية عربية ، وبهذا السبب الأخير ، يدعو عبد القاهر بما دعا به الجاحظ لأن يتخير الأديب ألفاظه من المعجم المستعمل في زمنه ، لا من الرفات البالية التي دفنها الناس ، وذهب بها الزمن الذى ذهب بأهليها)). (١)

كيف ذلك والعرب منذ القدم تهتم بجمال اللفظ ، وحسن اختيار المناسب منه لمكانه اللائق به ، وكذلك تهتم بأن يخلو من الثقل والتفاوت الذى لا يؤدى المعنى الصحيح الفصيح ، وكتب النقد مليئة بمثل هذا (والباقلاني) يروى (عن الحسين بن الضحاك (٢) ، قال أنشدت أبا نواس قصيدتي التي فيها :

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د . ابراهيم سلامه ص ٣٧٣ .

(٢) الحسين بن الضحاك : هو من موالي باهلة ، ولد في البصرة ، ونشأ فيها ، ونادم الخلفاء من بنى العباس وكان خليعا فاسدا ، وكان مع ذلك حسن التصرف في النظم ، لشعره قبول ورونق .. فهو من المتفننين ، وله معان جديدة في الخمر كان أبو نواس يأخذها عنه . ومع أن أبا نواس مات سنة ١٩٨ هـ ، والضحاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما متقارب ، لكن ابن الضحاك عمر كثيرا . وهو أول من نادم الأمين وله فيه مدائح كثيرة ، فلما رجع المأمون من خراسان بعد مقتل أخيه واستتب له الأمر ، طلبه مع قوم من أهل الأدب ولكنه رغب عنه لأنه مدح الأمين . ولكن عندما تولى المعتصم ، استقدمه من البصرة ، وله أبيات في التغزل بالغلمان اقتبس معظمها ابو نواس) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٢/ ٨٠، ٨١ .
ويسمى الخليع النصرى ويكنى أبا علي ، كان ظريفا يسمى صاحبا لأبي نواس انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ١١٣ .

وشاطرى اللسان مختلق التكـ
ريه شاب المجون بالنسك (١)

كأنه - نصب كأسه - قمـر
يكرع في بعض أنجم الفلك

قال فأنشدني أبو نواس بعد أيام قصيدته التي يقول فيها :

أعاذل أعتبت الإمام وأعتبا
وأعربت عما في الضمير وأعربا (٢)

وقلت لساقيها : أجزها فلم أكن
ليأبى أمير المؤمنين وأشربا

فجوّزها عنى عقارا ترى لها
إلى الشرف الأعلى شعاعا مطنبا

إذا عبَّ فيها شارب القوم خلته
يقبل في داج من الليل كوكبا

قال : فقلت له : يا أبا علي ، هذه مصالتة ، فقال : أتظن أنه يروى لك معنى وأنا حي ؟

فتأمل هذا الأخذ ، وهذا الوضع ، وهذا الاتباع .

أما (الخليع) فقد رأى الإبداع في المعنى ، فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنه ، لأن قوله (يكرع) ليس بصحيح ، وفيه ثقل بيّن وتفاوت ، وفيه إحالة ، لأن القمر لا يصح تصورا أن يكرع في نجم) (٣) .

وكذلك في تعليق (للباقلاني) على جمال الكلمة وحسن موقعها ، يقول مصنفا الشعر : ((وهذا من الشعر الحسن الذى يحلو لفظه ، وتقل فوائده كقول القائل :

---

(١) البيتان من البسيط .

(٢) الأبيات من الطويل .

(٣) اعجاز القرآن ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

و لما قضينا من منى كل حاجة
و مسح بالأركان من هو ماسح (١)
و شدت على حدب المهارى رحالنا
و لا ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
و سالت بأعناق المطى الأباطح

هذه الألفاظ بديعة المطالع و المقاطع ، حلوة المعاني والمواقع، قليلة المعاني و الفوائد)). (٢)

كما يصرح الخطابي في مكان آخر ((وأما ما ذكروه من قلة الغريب في ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه في حدود البلاغة ، وإنما يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس، و الأجلاف من جفاة العرب الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام و تنزيله ، و التخير له ، وليس ذلك معدودا في النوع الأفضل من أنواعه ، وإنما المختار منه النمط الأقصد ، الذى جاء به القرآن ، وهو الذى جمع البلاغة و الفخامة إلى العذوبة و السهولة ، و قد يعد من ألفاظ الغريب في نعوت الطويل ، نحو من ستين لفظة ، أكثرها بشع شنع ، كالعشنق و العشنط و العطنط و الشوقب . . فاصطلح أهل البلاغة على نبذها و ترك استعمالها في مرسل الكلام ، واستثقلوا الطويل ، و هذا يدلك على أن البلاغة لا تعبأ بالغرابة ولا تعمل بها شيئا)) .(٣)

---

(١) هذه الأبيات من الطويل . و قائلها يزيد بن الطثرية ، و قد تقدمت ترجمته و في معجم الشواهد العربية ، تنسب الى كثير عزه أو العضرب بن كعب بن زهير .
(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٢٢ .
(٣) بيان اعجاز القرآن للخطابي ص ٣٧ .

وإن الاهتمام بمخارج حروف الكلمة قد درس على يد (الخليل بن أحمد) رحمه الله - فنقل عنه (الباقلاني) ، عندما شرح معنى التنافر :

((ذهب الخليل إلى أنه من بعد شديد ، أو قرب شديد ، فإذا بعد فهو كالطفر ، وإذا قرب جدا كان بمنزله مشى المقيد ، ويبين بقرب مخارج الحروف وتباعدها)). (١)

وهذا (عبد الجبار) يصرح أن (حسن النغم وعذوبة القول ، مما يزيد الكلام حسنا على السمع ، لا أنه يوجد فضلا في الفصاحة ، لأن الذى تتبين به المزية في ذلك يحصل فيه وفي حكايته على سواء ، ويحصل في المكتوب منه على حسب حصوله في المسموع) . (٢)

اذن فلا داعي لان يلجأ (عبد القاهر) في ذلك إلى (أرسطو) ، وليس هذا فحسب بل يغير ما وضعه (أرسطو) ، يقول الدكتور (ابراهيم سلامه) : ((فعبد القاهر لم يرد أن يكون أرسطاليسيا صرفا ، بل تكلم في الجرس وعدم العناية به كلاما طويلا ، لا يقوى على إنكار هذا النص الأخير ، الذى عثرنا عليه في آخر كتابه ، فهو مخالف لأرسطو في المدلول الجرسي ، وإن كان متفقا معه في المدلول المعنوى)). (٣)

وإن اهتمام علماء العرب بالجرس الصوتي واضح ، لأن له تأثيرا كبيرا في النفس ، حتى أن الخطابي جعله وجها من وجوه اعجازه القرآن الكريم ، يقول : ((وفي إعجاز القرآن وجها آخر . ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس . فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢٧٠ .

(٢) المغنى في أبواب التوحيد والعدل ١٦ / ٢٠٠ .

(٣) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٣٧٧ .

أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراهـا الوجيب و القلق وتغشاهـا الخوف و الغرق تقشعر منه الجلود ، و تنزعج له القلوب ، يحول بين النفس و بين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه و سلم من رجال العرب و فتاكها أقبلوا يريدون اغتياله و قتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، و أن يركنوا إلى مسالمته ، و يدخلوا في دينه ، وصارت عداوتهم موالاة و كفرهم إيمانا) [١] .

و مع هذا فقد حاول الدكتور (ابراهيم سلامه) أن يقول إن (عبد القاهر) قد ظهرت معالم شخصيته العلمية حينما لم يجعل المزيه في سلامة الحروف من الثقل .

يقول : ((رجح لمذاقه الحروف و سلامتها من الثقل ، فلم يجعلها وحدها كافية لاثبات المزيه التي أرادها أرسطو) [٢]

وحتى في نظرية النظم التي سار فيها (عبد القاهر) ميمما صوب شعاع أضاء الكتب و المؤلفات السابقة فإن الدكتور (إبراهيم سلامه) يرى أنه حاذى أرسطو في ذلك ، أو أنه عرف مثله ، المهم أرسطو قدم في المعارف كلها على أولئك الأجلاء المسلمين ، يقول : (ولكن أكثر ما يعنينا هنا أن (عبد القاهر) عرف كأرسطو ، أو عن أرسطو ، أن تغيير الألفاظ يتبعه تغيير المعنى) [٣] وإن هذه فكرة لا تحتاج إلى أرسطو و لا إلى غيره بل تكاد تدرك بفطرة اللغة . و ما من متكلم بلغة إلا يعرف أن تغيير الألفاظ يتبعه تغير المعاني دون أن يرجع إلى معلم في ذلك .

ولقد سبق (الخطابي) وغيره (عبد القاهر) ، فالأولى أن يكونوا مصدرا (للشيخ عبد القاهر) لا (أرسطو) ، فهذا (الخطابي) يقول

---

(١) بيان اعجاز القرآن للخطابي ص ٧٠ .

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٣٧٧ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٨٧ .

((ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى اذا أبدل مكانه غيره جاء منه اما تبدل المعنى الذى يكون فيه فساد الكلام ، واما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة ، وذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في ادارة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة))[1] .

وقد وضح من كلام (الخطابي) توصله وغيره الى هذه الأفكار ، وأستطيع أن أنهي هذا الفصل باثبات أصالة البيان العربي ، بأقوال منقولة عن أعلام العرب السابقين ، ممن نافحوا عن أصالة اللغة العربية ، وكان لهم فضل السبق في ذلك الجهاد ، نحو لغتنا التي فاق بيانها بيان الأمم الأخرى قاطبة .

ولقد كان (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) أحدهم ، اذ يقول : ((معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل ، وان للتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض وأن علم ذلك علم يختص أهله ، وأن الأصل والقدوة فيه للعرب ، ومن عداهم تبع لهم وقاصر فيه عنهم))[2] ، وهذه حقيقة لأن ((الأمر في ذلك أظهر من أن يخفى ، أو أن ينكره الا جاهل أو معاند))[3] .

وسأنهي هذا الفصل بما علق به (الباقلاني) على فضل اللغة العربية ((ومن تلك الوجوه ، ما قد بينا أن الاعجاز يتعلق به كالبيان ، وذلك لا يختص بجنس من المبين دون جنس ، وكذلك قال تعالى : (هذا بيان للناس)[4] . فكرر في مواضع ذكر أنه مبين ، فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه مع ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه)[5] .

---

(١) بيان اعجاز القرآن ص ٢٩ .
(٢) الرسالة الشافية ص ١١٧ ، ١١٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ١١٨ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٣٨ .
(٥) اعجاز القرآن ص ٢٧٦ .

ولا بد لنا من تدبر قاموس البلاغة الحقيقي وهو القرآن الكريم لأن فيه منابع الحكمة ، وأصول العلوم كافة لقوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .[1]

كما أني سأستعين ببعض آراء الدكتور (أحمد بدوى) . لبيان براءة الإمام (عبد القاهر) من زجه في ثنايا أفكار اليونان .

ومن أبسط الأدلة على ذلك ما ذكره الدكتور أحمد بدوى حين قال : ((وإذا كان (عبد القاهر الجرجاني) يفتخر بنقله من أستاذه (القاضي الجرجاني)، أفلا يكون من مصادر فخره وبيان مدى اتساع ثقافته ، أن يتحدث عن أرسطو ، ويؤيد آراءه بما ذكره فيلسوف اليونان ، إن صمت عبد القاهر عن الحديث عن آراء أرسطو يثير كثيرا من الريب في أن صاحب الدلائل والأسرار ، قد نقل نقلا مباشرا عن الفيلسوف الاغريقي ، فإنه حتى في فكرة النظم التي وقف عليها كتابه : دلائل الإعجاز ، قد نقل عن العلماء ما يؤيدها ، وكثيرا مما يؤيد أفكاره التي كتبها في أسرار البلاغة ، فإذا كان قد نقل عن أرسطو ، فلم يكن الفيلسوف اليوناني بمن يستتر (عبد القاهر) الأخذ عنه)).[2]

ونلاحظ أن الدكتور (محمد خلف الله أحمد) قد ذكر أنه لا دليل يثبت أن (عبد القاهر) قرأ كتاب الشعر لأرسطو : ((ولن تعطينا النظرة السريعة التي نظرناها في كتاب الشعر لأرسطو ، أكثر من ترجيح أن عبد القاهر متأثر بأرسطو على العموم في منزعه النفساني في فهم ظواهر الأدب)).[3]

وإذا لم يكن هناك دليل ، فكيف يكون ثمة ترجيح ؟ إن الأمر حينئذ لا يعدو أن يكون ظنا ، أو وهما يبطله عدم إشارة عبد القاهر إلى شيء منه ، في حين أنه عندما تحدث عن الأثر النفسي لبيت من الشعر

---

(١) سورة محمد آيه ٢٤ .

(٢) سلسلة أعلام العرب ص ٣١٢ .

(٣) من الوجهة النفسية ص ١١١ .

وكان قد أشار اليه القاضي،لم يغفل أن يذكر أستاذه)). [١]

وكذلك يرى الدكتور (أحمد بدوى) ((ان الموازنة بين ما كتبه أرسطو وما كتبه عبد القاهر مما سبق أن عرضناه ، ترى أن الصلة بين الدراستين إذا تشابهت في القليل ، فذلك لأن طبيعة العمل الفني تتشابه في اللغات بطبيعتها فليس من ينكر أثر الصياغة ، وبخاصة الاستعارة في استقرار المعنى في الأنفس استقرارا أكثر منه بدون الاستعارة)). [٢]

وأخيرا يصرح الدكتور (بدوى) برد دعوة الدكتور (طه حسين) تلك يقول : ((لا نوافق د . طه حسين على ذلك ، كما لا نوافقه على أن عبد القاهر يتعمق في دراسة المجاز والتشبيه تعمقا لم يسبق اليه ، ولكن من غير أن يخرج بحال من الحدود والتي رسمها أرسطو)). [٣]

---

(١) من سلسلة أعلام العرب ٣١٤ .

(٢) من سلسلة أعلام العرب ص ٣١٧ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٢١ .

الفصل الرابع

جهود الشيخ عبد القاهر في علوم البلاغة.

ويشتمل هذا الفصل على المباحث التالية:

المبحث الأول : الفصل والوصل.

المبحث الثاني : التقديم والتأخير.

المبحث الثالث : الحذف والقصر بـ (إنما).

المبحث الرابع : الكناية.

المبحث الخامس : الإستعارة.

المبحث السادس : التشبيه والتمثيل.

المبحث السابع : السرقات الأدبية.

المبحث الأول

الفصل والوصل

الفصل والوصل مظهران من مظاهر اللغة ، يكونان في المفردات وفي الجمل ، فيحددان المعاني ، ويجليان الأغراض عند القارئ والسامع .

ومع هذا فلم يظفر هذا الباب من أبواب علوم البلاغة قبل (عبد القاهر) بأى دراسة شاملة مفردة .

فلم نقرأ في كتب السابقين إلا إشارات في (معاني القرآن للفراء) وفي (الصناعتين) (لأبي هلال العسكرى) ، وفى غيرهما من الكتب ليس فيها كبير عناء .

وما ورد في (البيان والتبيين) (للجاحظ) من تعريف للبلاغة ، ليس فيه توضيح كامل لهذا الموضوع ، حيث يقول :

((أخبرني (أبو الزبير) كاتب (محمد بن حسان) ، وحدثني (محمد بن أبان) - ولا أدرى كاتب من كان - قالا : قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل))[1].

ولقد عرض لهذا التعريف (أبو هلال العسكرى) في كتابه (الصناعتين) دون أن يشير (للجاحظ) ، حيث يقول :

((قيل للفارسي ما البلاغة ؟ فقال : معرفة الفصل من الوصل))[2] .

ومن الروايات التاريخية المشهورة التي ترويها كتب الأدب ، قصة الرجل الذى

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٦١ .

(٢) الصناعتين ص ٤٩٧ .

كان معه ثوب وعرضه له (أبو بكر رضي الله عنه) ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه لا عافاك الله ، فتأذى أبو بكر لأن اللفظ يوهم الدعاء عليه ، وقال للرجل رضي الله عنه : لقد علمتم لو كنتم تعلمون قل ، لا وعافاك الله)) .(١)

وأيضا ما رواه (الجاحظ) قال : ((ومات لعمر بن ذرّ ابن . فقال : أى بنى شغلني الحزن لك عن الحزن عليك . وقال رجل من مجاشع أن الحسن قام يخطب في دم فينا ، فأجابه رجل فقال : وقد تركت ذلك لله ولوجوهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، بل قل : لله ثم لوجوهكم وآجرك الله .)) .(١)

فالقائل عندما عطف بالواو أوحت الجملة بالتساوى - فساوى ذلك لله ولوجوهكم بين الله جل ثناؤه وبين الناس - وتعالى الله - وهذا خطأ عظيم لم ينتبه له القائل . ولكن العربي بفطنته تنبه لهذا الموضوع وبين الوجه الصحيح فيه .

كما روى (أبو هلال العسكرى) : ((قال شبيب ما سمعت كلاما على يديه أحسن منه . . وقال معاوية يا أشدق قم عند قروم العرب وحجاجها ، فسُل لسانك ، وجل في ميادين البلاغة ، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال ، فإني شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كتابا ، وكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد صريمته)).(٢)

((وكان (يزيد بن معاويه) يقول : إياكم أن تجعلوا الفصل وصلا ، فإنه أشد وأعيب من اللّحن . . وكانّ أكثم بن صيفي " إذا كاتب ملوك الجاهلية ، يقول لكتابه ، افصلوا بين كل منقضى معنى ، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض)) .(٣)

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٤٢ .
(٢) الصناعتين ص ٤٩٨ ، وأعرم النخل : حان أن يصرم ، وصرامة بفتح الصاد وكسرها أوان ادراكه . انظر اللسان مادة صرم ١٢/ ٣٣٦ .
(٣) الصناعتين ص ٤٩٩ .

وهذه الشذرات المنتشرة في ثنايا الكتب تدل على اهتمام العرب بهذا الموضوع ، وأنهم تنبهوا إلى أثره في موضوع البلاغة ، ومع هذا فإن دراستهم له كانت محصورة ضمن دراسة النحاة للجمله ((الواقعة بدلا أو بيانا أو تأكيدا كما درسوا العطف للاستئناف ، وغير ذلك مما صار أصولا هامة تقوم عليها دراسة الفصل والوصل في كتب البلاغيين ، ولكن مهما يكن من أمر فقد كان (عبد القاهر) الذى نفث في الدراسة النحوية روح البلاغة ، كما بسط إشارات المتقدمين))[1].

وسأبدأ الرحلة التاريخية لموضوع (الفصل والوصل) من بداية (سيبويه) .

فقد كان (سيبويه) أحد الذين أشاروا اشارات عابرة إلى (الفصل والوصل). ففي باب ((مالا يعمل فى المعروف إلا مضمرا)) في تقدير السؤال والإجابة يقول : " ((وأما قولهم نعم الرجل عبد الله - وعبد الله نعم الرجل ، كأنه قال نعم الرجل ، فقيل له من هو ؟ فقال عبد الله : واذا قال (عبد الله) ، فكأنه قيل له ، ما شأنه فقال نعم))[2] .

فسيبويه فطن إلى أن الجملة الأولى تضمنه لسؤال جوابه في الجملة الثانية وإن كان السؤال مقدرا .

بل نص على أن الجملة الثانية استئناف ، ومما هو معلوم أن الاستئناف من مواضع الفصل ، لأن الجملة الثانية فصلت عن الأولى ، كما يفصل الجواب عن السؤال . ويسمون هذا النوع شبه كمال اتصال أو يسمونه استئنافا .

ولقد فصل الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) هذا الموضوع مما يجعل فيما كتب غناء عما كتب غيره .

وسنلاحظ أن (الشيخ عبد القاهر) قد جعل جميع صور الفصل

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها في الدراسات البلاغية ص ١٣٤ نشر دار الكتاب العربي / د . محمد حسنين أبو موسى .

(٢) الكتاب ١/ ٣٠٠ .

والوصل من كمال انقطاع وشبهه ، وكمال اتصال وشبهه ، وتوسط بين الكمالين داخلا في نطاق النحو وعلاقته بنظرية النظم .

وكذلك سأبين إلى أي مدى استفاد (الشيخ عبد القاهر) من (الفراء) في هذا الموضوع ، وهناك من شواهد الآيات ما كان مشتركا بينهما ، ففي موضوع شبه كمال الاتصال، وهو وقوع الجملة في جواب لسؤال مقدر ، تنفصل الآية عما قبلها كما يفصل الجواب عن السؤال . يقول (الشيخ عبد القاهر) :

((ومن اللطيف في الاستئناف على معنى جعل الكلام جوابا في التقدير قول اليزيدي[1] :

ملكته حبلى ولكنه ألقاه من زهد على غاربي
وقال إني في الهوى كاذب انتقم الله من الكاذب

استأنف قوله : انتقم الله من الكاذب : لأنه جعل نفسه كأنه يجيب سائلا قال له : فما تقول فيما اتهمك به من أنك كاذب ؟ فقال أقول : انتقم الله من الكاذب))[2] .

ولقد سرد عدة آيات كريمة ، لتوضيح ذلك ، يقول :

((واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ قال ، مفصولا غير معطوف هذا هو التقدير فيه والله أعلم ، أعني مثل قوله تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقرّبه إليهم ، قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف)) .[3] جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال

---

(١) البيتان من السريع ، وقائلهما :
اليزيدي هو : أبو محمد اليزيدي شاعر عباسي توفي ٢٠٢هـ .
(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٤٢ .
(٣) سورة الذاريات آية ٢٤ .

فلما كان في العرف ، والعادة فيما بين المخلوقين ، إذا قيل لهم : دخل قوم على فلان فقالواكذا ، أن يقولوا : فما قال هو ؟ ويقول المجيب : قال كذا ، أخرج الكلام ذلك المخرج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه ، وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه ، وكذلك قوله : (قال ألا تأكلون) وذلك أن قوله : (فجاء بعجل سمين فقربه إليهم) يقتضي أن يتبع هذا الفعل بقول ، فكأنه قيل والله أعلم : فما قال حين وضع الطعام بين أيديهم فأتى قوله : (قال ألا تأكلون) جوابا عن ذلك ، وكذا (قالوا لا تخف) لأن قوله : (فأوجس منهم خيفة) يقتضي أن يكون من الملائكة كلام في تأنيسه وتسكينه مما خامره ، فكأنه قيل : فما قالوا حين رأوه ، وقد تغير ودخلته الخيفة ؟ فقيل : قالوا لا تخف ، وذلك ـ والله أعلم ـ المعنى في جميع ما يجيء منه على كثرته)) .(١)

وكذلك في قوله تعالي : (قال فرعون ، ومارَبُّ العالمين ، قال: رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، قال لمن حوله ألا تستمعون قال : ربكم ورب آبائكم الأولين . قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب ، وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال : لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنَّك من المسجونين ، قال أولو جئتك بشيء مبين ، قال فأت به إن كنت من الصادقين) .(٢)

((جاء ذلك كله والله أعلم على تقدير السؤال والجواب ، كالذى جرت به العادة فيما بين المخلوقين ، فلما كان السامع منا إذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال : وما رب العالمين ؟ وقع في نفسه أن يقول : فما قال موسى له ؟ أتى قوله : قال رب السموات والأرض مأتى الجواب ، مبتدأ مفصولا غير معطوف وهكذا التقدير والتفسير أبدا في كل ما جاء فيه لفظ (قال) هذا المجيء ، وقد يكون الأمر في بعض ذلك أشد وضوحا)) .(٣)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٤٤ .
(٢) سورة الشعراء آية
(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٤٥ .

وتقدير السؤال يوجب طرح حرف العطف من الجواب، وقد سبق أن أوضحه (الفراء) ، وفي نفس الآيات التي استشهد بها الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) ، دون إضافة او تغيير .

يقول (الفراء) :

((وهذا في القرآن كثير بغير الفاء ، وذلك لأنه جواب يستغنى أوله عن آخره بالوقفة عليه ، فيقال : ماذا قال لك ؟ فيقول القائل : قال كذا كذا ، فكأن حسن السكوت يجوز به طرح الفاء، وأنت تراه في رؤوس الآيات لأنها فصول - حسنا من ذلك : (قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا) [1] ، والفاء حسنة مثل قوله : (فقال الملأ الذين كفروا) [2] ولو كان على كلمة واحدة لم تسقط العرب منه الفاء ، من ذلك : قمت ففعلت، لا يقولون : قمت فعلت ، ولا قلت قال ، حتى يقولوا : قلت فقال ، وقمت فقام ، لأنها نسق وليست باستفهام يوقف عليه)). [3]

ولقد زاد (الفراء) القاعدة توضيحا ، بأن ضرب أمثلة ، وهي قول العرب قمت ففعلت ، حيث لا يصح طرح الفاء ، لأن الكلام نسق وليس استفهاما يصح فيه طرح الفاء على تقدير السؤال .

وفي ذلك يقول الشيخ عبد القاهر :

((ومما هو في غاية الوضوح قوله تعالى : (قال فما خطبكم أيها المرسلون ، قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) [4]

اما فيما يسميه البلاغيون :

---

(١) سورة الذاريات آيه ٣١ ، ٣٢ .
(٢) سورة هود آيه ٢٧ .
(٣) معاني القرآن ١ / ٤٣ ، ٤٤ .
(٤) سورة الذاريات آيه ٣١ ، ٣٢ .

كمال الاتصـــــال

فإن (الشيخ عبد القاهر) قد عرفه ووضحه بأمثلة كثيرة ، ولكنها بحال لا تخرج عما أشار إليه (الفراء) أثناء شرحه لبعض الآيات . يقـــــول (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) :

((واعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله فيستغـــنى بصلة معناه له عن واصل يصله ورابط يربطه - وذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به ، وكالتأكيد الذى لا يفتقـــر كذلك إلى ما يصله بالمؤكد - كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها ، وتستغنى بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها ، وهـــي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ، ومبينة لها ، وكانت إذا حصلت لـــم تكن شيئا سواها ، كما لا تكون الصفة غير الموصوف ، والتأكيد غير المؤكـــد فإذا قلت : جاءني زيد الظريف وجاءني القوم كلهم . لم يكن (الظريف) (وكلهم) غير زيد وغير القوم)).(١)

اى أن الوصل يكون بين الجملتين ، إذا كانت الجملة الثانية تأكيـدا ، أوصفا لها . ففي هذه الحالة تستغنى الجملتان عن رابط يجمعهمـــا أو واصل يصلهما .

ولقد ضرب لذلك مثلا قوله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله).(٢)

((إنما قال يخادعون ولم يقل ويخادعون ، لأن هذه المخادعة ليست شيئا غير قولهم (آمنا) من غير أن يكونوا مؤمنين فهو إذن كلام أكد بـــه كلام آخر هو في معناه ، وليس شيئا سواه ، وهكذا قوله عز وجل : (وإذا

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٣٤ .

(٢) سورة البقرة آيه ٨ .

لقوا الذين آمنوا ، قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون) [١] ، وذلك لأن معنى قولهم : (إنا معكم) أنا لم نؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولم نترك اليهودية ، وقولهم : (إنما نحن مستهزئون) خبر بهذا المعنى بعينه ، لأنه لا فرق بين أن يقولوا : إنا لم نقل ما قلناه من أنا آمنا إلا استهزاء ، وبين أن يقولوا إنا لم نخرج من دينكم وأنا معكم ، بل هما في حكم الشيء الواحد فصار كأنهم قالوا : إنا معكم لم نفارقكم ، فكما لا يكون (إنا لا نفارقكم شيئا غير إنا معكم كذلك لا يكون (إنما نحن مستهزئون) غيره فاعرفه)). [٢]

فالشاهد في الآية الأولى جملة (يخادعون) إذ وصلت بالجملة التي سبقتها ، بدون حرف عطف ، وذلك لأنها جملة مؤكدة للتي سبقتها لأن المخادعة هي دلالة على عدم الإيمان ، وهي صفة غير المؤمنين .

ولنا أن نرى كيف عبر(الفراء)عن هذا الموضوع ، بحيث أصبح ما قاله نبراسا (للشيخ عبد القاهر) ولغيره من الباحثين في علوم البلاغة .

ففي تفسيره لقوله تعالى :

(وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة اللّه عليكم ، إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم). [٣]

وفي سورة البقرة : (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم). [٤]

لقد وقف(الفراء)من جملة (يذبحون أبناءكم) مرتين ، مرة عند عطفها بالواو في سورة إبراهيم ، وثانية عند عدم العطف في سورة البقرة .

---

(١) سورة البقرة آيه ١٤ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٣٥ .

(٣) سورة ابراهيم آيه ٦ .

(٤) سورة البقرة آيه ٦ .

ففي الأولى وجب العطف ، لأن التذبيح شيء آخر غير العذاب في الحطة الأولى .، وترك العطف في الآية الأخرى ، لأن التذبيح هو العذاب المقصود . يقول (الفراء) :

((وقوله ها هنا : ويذبحون ، وفي موضع آخر (يذبحون) بغير الواو ، وفي موضع آخر (يقتلون)[1] بغير الواو .

فمعنى الواو أنهم يمسهم العذاب غير التذبيح ، كأنه قال : يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح ، ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب ، واذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملا في كلمة ، ثم فسرته فاجعله بغير الواو ، واذا كان أوله غير آخره فبالواو ، فمن المجمل قول الله عز وجل : (من يفعل ذلك يلق أثاما)[2] ، فالآثام فيه نيّة العذاب قليله وكثيره . ثم فسّره بغير الواو فقال : (يُضاعف له العذاب يوم القيامة)[3] ، ولو كان غير مجمل لم يكن ماليس به تفسيرا له ، ألا ترى أنك تقول عندى دابتان بغل وبرذون ولا يجوز عندى دابتان ، وبغل وبرذون ، وأنت تريد تفسير الدابتين بالبغل والبرذون ، ففي هذا كفاية عما نترك من ذلك فقس عليه))[4] .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤١ .
(٢) سورة الفرقان آية ٦٨ .
(٣) سورة الفرقان من الآية ٦٩ .
(٤) معاني القرآن للفراء ٢ / ٦٨ ، ٦٩ .

المبحث الثاني

التقديم والتأخير

ان التقديم والتأخير موضوع ذو أهمية بالغة ، لمعرفة جهة الكلام البليغ وطريقة الكلام المعجز ، والتقديم والتأخير من الموضوعات الدقيقة التي تعتمد في استخلاص أسرارها على الذوق السليم الذى تربى في أحضان اللغة العربية الصحيحة ، كما تعتمد على الموهبة والاستعداد لدراسة هذا اللون من العلوم .

فلو كانت مواقع الكلمات غير قابلة للتغيير لكان ذلك عيا في اللغة ، وعجزا قاهرا لسلطانها ، لأنه حبس وكبت لما تشعر به النفس الانسانية من حس دقيق واختلاجة خفية .

والتقديم والتأخير قضية كبيرة تناولها علماء العربية بالدرس ، ومازلنا نقرأ عنها حتى يومنا هذا .

ولن أعرض لهذه القضية الا من ناحية ما أخذه (الشيخ عبد القاهر) من شذرات طفيفة من غيره . ومع هذا فقد بنى صرح قواعد هذا الباب شامخة ، تدل على ذوقه الرفيع وعلمه الغزير .

ولقد أشار الى جهوده العظيمة في هذا الباب وغيره من الأبواب والى بعض ما أخذه من غيره في مواضع مختلفة من كتاب الدلائل .

ولم يقتصر حيفهم عند حد التهوين من أمر التقديم والتأخير بل ((كذلك صنعوا في سائر الأبواب ، فجعلوا لا ينظرون في الحذف والتكرار والاظهار والاضمار ، والفصل والوصل ، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه ، الا نظرك فيما غيره أهم لك ، بل فيما ان لم تعلمه لم يضرك . لا جرم أن ذلك قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة ، ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها ، وصد أوجههم عن الجهة التي فيها ، والشق الذى يحويها ، والمداخل التي تدخل منها الآفة على الناس في شأن العلم ، ويبلغ الشيطان مراده منهم ، في الصد عن طلبه ، واحراز فضيلته كثيرة وهذه من أعجبها ان وجدت متعجبا . وليت شعرى ان كانت هذه أمورا هينة ، وكان المدى فيها قريبا ، والجدى يسيرا من أين كان نظم أشرف من نظم ، وبم عظم التفاوت ، واشتد التباين ، وترقى الأمر الى الاعجاز ، الى أن يقهر أعناق الجبابرة ، أو هاهنا أمور أخر نحيل في المزية عليها ، ونجعل الاعجاز كان بها ، فتكون تلك الحوالة لنا عذرا في ترك النظر في هذه التي معنا والاعراض عنها ، وقلة المبالاة بها ؟ أوليس هذا التهاون

ـ أن نظر العاقل ـ خيانة منه لعقله ودينه ودخولا فيما يزرى بذى الخطر ويغض من قدر ذوى القدر ، وهل يكون أضعف رأيا وأبعد من حسن التدبر منك ، اذا همك أن تعرف الوجوه في (أأنذرتهم) والإمالة في (رأى القمر) ، وتعرف (الصراط) و (الزراط) ، وأشباه ذلك مما لا يعد وعلمك فيه اللفظ وجرس الصوت ، ولا يمنعك أن لم تعلمه بلاغة ، ولا يدفعك عن بيان ، ولا يدخل عليك شكا ، ولا يغلق دونك باب معرفة ، ولا يفضي بك الى تحريف وتبديل والى الخطأ في التأويل)) .(١)

ولقد رأينا كيف انبرى (الشيخ عبد القاهر) لبيان أهمية التقديم والتأخير في شأن النظم ، الذى به يعرف الاعجاز . استكبر قول صاحب الكتاب (سيبويه) أن التقديم والتأخير للعناية والاهتمام فقط .

يقول :

((واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجرى مجرى الأصل ، غير العناية والاهتمام ، قال (صاحب الكتاب) : وهو يذكر الفاعل والمفعول : ((كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم بشأنه أعنى ، وان كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم ، ولم يذكروا في ذلك مثالا)) .(٢)

اذن فعبد القاهر يرى (سيبويه) ممن تعرض لموضوع التقديم والتأخير دون أن يتوسع في معاني هذا الأسلوب .

ولقد استثنى (الدكتور عبد القادر حسين) ، (ابن جني) خاصة من هذا التعميم ، وكذلك غيره من العلماء ، وذلك حين يقول :

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٣٨ ، انظر الكتاب ١ / ٣٤ .

((و(ابن جنى) قد تحدث عنه في استقصاء وشمول ، وعدد ما فيه من مراحل تتفاوت قوة وضعفا . وبين في كل مرحلة كيف تكون العناية أشد من المرحلة التي قبلها ، واختلاف الاساليب لابراز تلك العناية ، كل ذلك يدلنا أن أمر التقديم والتأخير عند (ابن جنى) لم يكن صغيرا ، وخطبه لم يكن هينا ، وأن تتبع مواضعه ليس ضربا من التكلف كما زعم(عبد القاهر) حين أزرى على النحاة في معالجتهم أمر التقديم ، وبدلا من أن نجد عبد القاهر يدافع عن هذا الاتجاه الذى اتخذه النحاة ، وخاصة (ابن جنى) ازاء تفسيرهم لتقديم المفعول به ، راح ينتقد مسلكهم ، ويبخس جهدهم متهما إياهم بأنهم لا يتغلغلون إلى معرفة دقائق الكلام سواء في التقديم والتأخير أو الحذف والتكرار ، أو الإظهار والإضمار ، أو الفصل والوصل ، ولا يغوصون إلى إدراك أنواع الفروق والوجوه ، في الوقت الذى نرى فيه (ابن جنى) يبرز التقديم في صوره المختلفة ، ودرجاته المتفاوتة)) [(١)]

وإني أرى (الشيخ عبد القاهر) لم يقصد من كلامه التهوين بشأن كل من سبقوه وبجهودهم في هذا الموضوع . وهو الذى نسب فضل استنباط نظرية النظم إلى العلماء الأوائل وانما كان يقصد الذين نظرتهم البلاغية محدودة

بل يريد أن يقول إن أهمية التقديم والتأخير من الخطورة ، وعظم الشأن بمكان. وأنها لم تقابل بنفس الحماس من العناية والدرس .

فحاول (الشيخ عبد القاهر) أن يرد على بعض ما دار حول هذا الموضوع من شبهات ، مثل قول بعضهم أنه توسعة على الشاعر ، يقول :

((واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين : فيجعل مفيدا في بعض الكلام ، وغير مفيد في بعض ، وأن يعلل تارة بالعناية ، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذاك سجعه ، ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم

---

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٣٠٦ .

ما يدل تارة ، ولا يدل أخرى ، فمتى ثبت في تقديم المفعول مثلا على الفعل في كثير من الكلام ، أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير، فقد وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وفي كل حال . ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء ، أن يدعى أنه كذلك في عموم الأحوال ، فأما أن يجعله بين بين ، فيزعم أنه للفائدة في بعضها ، وللتصرف في اللفظ من غير معنى في بعض ، فمما ينبغي أن يرغب عن القول به)). (١)

ويقصد من ذلك أن للتقديم قواعد ثابتة لا تتغير بتغير الموضوع، فلا يمكن أن يقال أنه قدم المفعول لأهميته فقط ، أو أنه قدم توسعة على الشاعر والكاتب ، لأن الأمر أهم من ذلك ، والموضوع أعمق من الحكم عليه بالظاهر ، لذلك شرح تلك القواعد ، فوضع النقط على الحروف .

وإني أجد في كتاب (الدكتور عبد القادر حسين) (٢) بعض المناقضة في هذه القضية .

حيث ذكر آنفا أن (الشيخ عبد القاهر) تنكر لجهود السابقين في موضوع التقديم والتأخير ، وكانت ثورته فيها حيفا وتعسفا . وهو نفسه (الدكتور عبد القادر حسين) - يقول :

((ويبدو أن ابن جني وأستاذه أبا على الفارسي حين ، أعلنا هذا الرأى في التقديم كانا متأثرين بما يقوله النقاد والعلماء من قبل ، فكثير من جلة العلماء لا يرون في التقديم الا ضربا من التكلف لا يسيغ له الكلام ، وربما أدى إلى تعقيده ، والشاعر لا يلجأ إلى التقديم إلا للضرورة حتى أنهم لم يجيزوا التقديم إلا في الشعر ، ورفضوه في النثر حيث أن الشاعر مضطر بحكم الوزن والقافية إلى الخروج عن المألوف ، بخلاف التأثر الذى يجد مندوحة عن ذلك)). (٣)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٤٠ .

(٢) ، (٣) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٨٦ .

(فابن المدبر)(ت ٢٧٩ هـ) يقول : ((ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر ، لأن الشعر موضع اضطرار فاغتفروا فيه التقديم والتأخير)). (١)

و(ابن طباطبا العلوى) (ت ٣٢٢ هـ) بعد أن يسرد أمثلة من الشعر يبدو فيها من الغثاثة وسوء النظم ، وتمزيق أول العبارة ، لما فيها من تقديم وتأخير يجعله بعيدا عن الفصاحة ، يعتذر عن اضطرار الشاعر إلى ركوب هذه المزالق ، واعتقد أن هذا رأى(ابن طباطبا العلوى)حينما استشهد بقول الفرزدق المشهور :

وما مثله في الناس الا مملكا
أبو أمه حى أبوه يقاربه (٢)

فهذا هو الكلام الغث المستكره الغلق ، وكذلك ما نقدمه ، فلا تجعلن هذا حجة ولتجتنب ما أشبهه .

والذى يحتمل فيه بعض هذا إذا ورد في الشعر هو ما يضطر إليه الشاعر عند اقتصاص خبر أو حكاية كلام ،إن أزيل عن جهته لم يجز ، ولم يكن صدقا .

ولا يكون للشاعر معه اختيار ، لأن الكلام يملكه حينئذ فيحتاج إلى اتباعه والانقياد له ، فأما ما يمكن الشاعر فيه من تصريف القول ، وتهذيب الألفاظ واختصارها ، وتسهيل مخارجها ،فلا عذر له عند الاتيان بمثل ما وصفناه من هذه الأبيات المتقدمة)). (٣)

والذى عناه (ابن طباطبا) التقديم والتأخير الذى به التعقيد وليس التقديم والتأخير الذى يؤدى المعنى ، ويسير مع القاعدة .

ولقد كنت ذكرت أن (عبد القاهر) ، قد أظهر موضوع التقديم

---

(١) الرسالة العذراء لابن المدبر ص ١٩ .
(٢) البيت من الطويل .
(٣) عيار الشعر لابن طباطبا ص ٤٧ ، انظر الكامل ١ / ١٨ .

والتأخير بمظهر رائع من حسن التعليل والتحليل ، فجعله بابا عظيما له من جلال العلم وهيبته ما يجعل الاستقلال بدراسته أمراً ضروريا . (وللشيخ عبد القاهر)كل الفضل في هذا الموضوع .

وملخص مفهوم موضوع التقديم والتأخير لدى (عبد القاهر) يقضي بأن تقديم الاسم أو الفعل ، أو أدوات الإستفهام وغيرها ليس من الأمور التى يمكن أن يقدم منها الذى يقصده المتكلم من كلامه ، والفكرة التي يريد أن يجعلها تنساب إلى نفس المستمع . يقول :

((واعلم أن تقديم الشيء على وجهين:

١ - تقديم يقال إنه على نيه التأخير ، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذى كان عليه ، وفي جنسه الذى كان فيه ، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل ، كقولك منطلق زيد وضرب عمراً زيد معلوم أن منطلق وعمرو لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه من كون هذا خبر مبتدأ ، ومرفوعا بذلك وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من أجله ، كما يكون إذا أخرت .

٢ - تقديم لا على نية التأخير ، ولكن على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم ، وتجعله بابا غير بابه وإعرابا غير إعرابه ، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ، ولا يكون الآخر خبرا له .

فتقدم تارة هذا على ذاك ، وأخرى ذاك على هذا ، ومثاله : ما تصنعه بزيد والمنطلق حيث تقول مرة : زيد المنطلق ، وأخرى : المنطلق زيد ، فأنت في هذا لم تقدم المنطلق على أن يكون متروكا على حكمه الذى كان عليه مع التأخير ، فيكون خبر مبتدأ كما كان ، بل على أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ ، وكذلك لم تؤخر زيدا على أن يكون مبتدأ كما كان ، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ ، وإلى كونه خبرا ، وأظهر من هذا قولنا : ضربت زيدا ، وزيد ضربته ، لم تقدم زيدا على أن يكون مفعولا منصوبا لفعل كما كان ، ولكن على أن ترفعه بالإبتداء وتشغل الفعل بضميره

وتجعله في موضع الخبر له)).[1]

فهذه خلاصة رأى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في التقديم والتأخير وسأعرض للأفكار التي استنبطها من غيره ، سواء نوه بذكرهم أو لم يفعل .

فهذا (سيبويه) قد عرض لهذا الموضوع ولفت الانتباه إليه في عدة مواضع من كتابه الشهير (الكتاب) .

حين يقول : ((في باب الفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعول)).[2] فإن قدمت المفعول ، وأخرت الفاعل كقولك : ضرب زيدا عبد الله وكان حد اللفظ فيه أن يكون الفاعل مقدما . . وهو عربي جيد كثير ، كأنهم إنما يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم)).[2]

فمن شأن المفعول أن يتأخر عن الفاعل ، ولكنه إذا تقدم فذلك لعلة قصد إليها المتكلم - وهي العناية والاهتمام بشأنه ، وإذا كان تقديم المفعول عن الفاعل للعناية والاهتمام ، فإن تقديم المفعول على الفعل يأتي لهذا الغرض البلاغي نفسه ، وذلك حين يقول :

((وإن قدمت الاسم فهو عربي جيد ، كما كان ذلك عربيا جيدا وذلك قولك زيدا ضربت ، والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء مثله في ضرب زيدا عمر ، وضرب عمرا زيد)) [3] .

(والشيخ عبد القاهر الجرجاني)لم يبتعد كثيرا عن(سيبويه) ورأيه ، حين قال : ((تقديم يقال إنه على نيه التأخير ، وذلك في كل شئ أقررته مع التقديم على حكمه الذى كان عليه ، وفي جنسه الذى كان فيه ، كخبر

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) الكتاب ١ / ٣٤ .

(٣) الكتاب ١ / ٨٠ ، ٨١ .

المبتدأ اذا قدمته على المبتدأ ، والمفعول اذا قدمته على الفاعل ، كقولك : منطلق زيد ، وضرب عمرا زيد ، معلوم أن منطلق وعمرا لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه من كون هذا خبر مبتدأ ، ومرفوعا بذلك ، وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من أجله ، كما يكون اذا أخرت)) .[1]

ففي المثالين السابقين لا بد مع التقديم والتأخير أن تحافظ الكلمة على حكمها الاعرابي ، لأنها بذلك تحافظ على المعنى الذى أراده المتكلم ، فلا يمكن أن يكون زيد الا فاعلا سواء تقدم أو تأخر ، ولا يكون عمرا الا مفعولا به (المضروب) سواء تقدم أو تأخر .

وكذلك في قولك (منطلق زيد) أو(زيد منطلق) - فكلمة (منطلق) تخبر عن انطلاق زيد .

والعلم (زيد) هو المبتدأ ، وهو المخبر عنه ، ولا يمكن أن يكون المعنى ذلك ، سواء قدمت أحدهما على الآخر أم لا .

واذا نظرنا الى الأمثلة المتعددة لدى (سيبويه) نجد فيها اشارات أخرى ، فنلاحظه في باب (ظن وكسا) ، وان وكان والظروف) ، وغير ذلك . أنه قد وضع أصابعه على علة بلاغية ، استنبطها من قواعد نحوية .

يقول امام النحاة ((فان الغيت قلت عبد الله أظن ذاهب ، وهذا أخال أخوك ، وفيها أرى أبوك ، وكلما أردت الالغاء فالتأخير أقوى ، وكل عربي جيد .. وانما كان التأخير أقوى ، لأنه انما يجيء بالشك بعد ما يمضي كلامه على اليقين ثم يدركه الشك)) .[2]

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٣٧ .

(٢) سيبويه ١/ ١١٩ - ١٢٠ .

فالتقديم هنا ليس للعناية والاهتمام كالموضوع السابق في تقديم المفعول على الفاعل أو الفعل ، وانما التقديم هنا لغرض بلاغي آخر ولعامل نفسي طرأ على المتكلم أثناء كلامه ، وحول يقينه الى شك فألزمه تغيير وضع الألفاظ عما كان ينبغي أن تكون عليه .

وكذلك لم يقتصر (سيبويه) في بيان سر التقديم على العناية والاهتمام ، بل جعله يأتي أحيانا لتنبيه المخاطب ، ولتأكيد الكلام ، و(عبد القاهر) نفسه يصرح بهذا حين يعرض لقول الشاعر [(١)] :

هم يفرشون اللبد كل طمرة وأجرد سباح يبذ المغالبا

يقول : ((لم يرد أن يدعي لهم هذه الصفة دعوى من يفردهم بها وينص عليهم فيها ، حتى كأنه يعرض بقوم آخرين فينفي أن يكونوا أصحابها هذا محال : وانما أراد أن يصفهم بأنهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل ، وأنهم يقتعدون الجياد منها ، وأن ذلك دأبهم ، من غير أن يعرض لنفيه عن غيرهم ، الا أنه بدأ بذكرهم لينبه السامع لهم ويعلم بديا قصدهم اليهم بما في نفسه من الصفة ليمنعه بذلك من الشك ، ومن توهم أن يكون قد وصفهم بصفة ليست هي لهم ، أو أن يكون قد أراد غيرهم فغلط اليهم)) [(٢)] .

وان قاعدة المتقدم الذى يفيد تنبيه المخاطب ، فقد صرح الشيخ (عبد القاهر) بأنه قد أخذها من سيبويه . يقول :

((وهذا الذى قد ذكرت ، من أن تقديم ذكر المتحدث عنه يفيد التنبيه له ، قد ذكره (صاحب الكتاب) في المفعول اذا قدم فرفع بالابتداء وبني الفعل الناصب كان له عليه وعدى الى ضميره فشغل به كقولنا في (ضربت عبد الله) : عبد الله ضربته ، فقال : وانما قلت عبد الله فنبهته له ، ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء)) [(٣)] .

---

(١) البيت من الطويل ، وقائل هذا البيت (المعذل بن عبد الله) . وقيل للمعذل الليثي .
اللبد : هي الصوف أو الشعر الملبد . انظر اللسان مادة (لبد) ٣ / ٣٨٦ .
الطمرة : مؤنث الطمر ، أى الفرس الكريم الجواد . انظر اللسان مادة (طمر) ٤ / ٥٠٣ .
الجرد : الفرس قصير الشعر . انظر مادة (جرد) في اللسان ٣ / ١١٦ .
سباح : شديد العدو حتى ليشبه عدو السباحة ، مادة (سبح) . انظر اللسان ٢ / ٤٧٠ - ٤٧١ .
يبذّ : يغلب ويسبق . انظر اللسان مادة (بذّ) ٤ / ٤٤٧ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٩ .

أما نص عبارة سيبويه فتقول : ((فاذا بنيت الفعل على الاسم ، قلت زيد (ضربته) فلزمته الهاء ، وانما تريد بقولك مبنى عليه الفعل ، أنه في موضع منطلق ، اذا قلت عبد الله منطلق ، فهو في موضع هذا الذى بني على الأول ، وارتفع به ، فانما قلت عبد الله فنبهته ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء))(١) .

أى أن التنبيه يفيد اعلام المخاطب قصده ، فتهدأ نفسه وتطمئن وتمنعه من الشك .

الاستفهام في التقديم والتأخير

لدى (سيبويه) تراه يستحسن أن يلي المسئول عنه الهمزة ، فيقدم على الفعل ويستحسن ذلك فقط ، ولا يجعله فاسدا ، اذا لم يل الهمزة ، بل يجيز له أن يتقدم أو يتأخر ، وان كان التقديم عنده أفضل ، ففي باب ((أم - اذا كان بها الكلام بمنزلة أيهما وأيهم)) ، وذلك قولك أزيد عندك أم عمرو ، وأزيدا لقيت أم بشرا ، فأنت الآن مدع أن عنده أحدهما ، لأنك اذا قلت : أيهما عندك ، وأيهما لقيت ، فأنت مدع أن المسئول قد لقى أحدهما أو أن عنده أحدهما ، الا أن علمك قد استوى فيهما لا تدرى أيهما هو .

والدليل على قولك : أزيد عندك أم عمرو بمنزلة قولك : أيهما عندك ، أنك لو قلت : أزيد عندك أم بشر ، فقال المسئول : لا ، كان محالا ، كما أنه اذا قال أيهما عندك ، فقال : لا فقد أحال . واعلم أنك اذا أردت هذا المعنى ، فتقديم الاسم أحسن ، لأنك لا تسأله على اللقى ، وانما تسأله عن أحد الاسمين ، لا تدرى أيهما هو ، فبدأت بالاسم ، لأنك تقصد أن يبين لك أى الاسمين في هذا الحال ، وجعلت الاسم الآخر عديلا للأول ، وصار الذى لا تسأل عنه بينهما ولو قلت ألقيت زيدا ، أم عمرا كان جائزا حسنا ، أو قلت : أعندك زيد أم عمرو كان كذلك ، وانما كان تقديم الاسم ههنا أحسن ، ولم يجز للآخر ، الا أن يكون مؤخرا ، لأنه قصد أحد الاسمين فبدأ بأحدهما)(٢) .

---

(١) الكتاب ١/٨١ .

(٢) سيبويه ٣/١٦٩ ، ١٧٠ .

(فسيويه) ينظر إلى التقديم و التأخير على أن المتكلم أمامه المجال متسع كما أنه يفضل تقديم المسئول عنه فقط ، و ليس الأمر كذلك لدى (عبد القاهر) .

و لقد أخذ (الشيخ عبد القاهر) هذه الفكرة من (سيبويه) ، و أضاف إليها كثيرا في أنواع الإستفهام بالهمزة .

يقول في ذلك : ((و اعلم أن هذا الذى ذكرت لك في الهمزة ، و هي للاستفهام قائم فيها إذا هي كانت للتقرير ، فإذا قلت : أأنت فعلت ذاك ، كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل ، و يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمروذ ((أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم)).[1]

لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام ، و هم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان ، و قد أشاروا إلى الفعل في قولهم : (أأنت فعلت هذا) و قال هو عليه السلام في الجواب : (بل فعله كبيرهم هذا) [2] . و لو كان التقرير بالفعل لكان الجواب ، فعلت أو لم تفعل)).[3]

أما (ابن جني ت ٣٩٢ هـ) فقد تطرق إلى التقديم و التأخير بشيء من الدرس . و مع هذا فسنلاحظ أنه لم يقدمه بشيء من الترتيب المنطقي ، الذى توصل إليه (عبد القاهر) . ولم يحلل له كما فعل (الشيخ عبد القاهر) ، فقد اقتصر (ابن جني) على عرض ما يجوز تقديمه ، و ما لا يجوز تأخيره نحويا .

فهو مثلا عندما عقد في كتابه الخصائص فصل (التقديم و التأخير) اكتفى بالقول عن تقديم المفعول به ، و الفاعل بقوله :

---

(١) سورة الأنبياء ، آيه ٦٢ .

(٢) سورة الأنبياء ، آيه ٦٣ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

((فصل في التقديم والتأخير ، وذلك على ضربين : أحدهما ما يقبله القياس ، والآخر ما يسهله الاضطرار . الأول كتقديم المفعول على الفاعل تارة وعلى الفعل الناصبه أخرى ، كضرب (زيد عمرو) وزيداً ضرب عمرو وكذلك الظرف ، نحو : قام عندك زيد ، وعندك قام زيد ، وسار يوم الجمعة جعفر ، ويوم الجمعة سار جعفر ، وكذلك الحال ، نحو جاء ضاحكا زيد ، وضاحكا جاء زيد)) .(١)

وهذه الأحكام النحوية عن التقديم والتأخير ، التي استقلت بقواعد نحوية خاصة ، قد استقلت كذلك بقواعد بلاغية ، وانفردت بأهم الأبواب في كتاب الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) ، حيث يقول :

((وقال النحويون : إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ، ولا يبالون من أوقعه ، كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجي يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى ، أنهم يريدون قتله ، ولا يبالون من كان القتل منه ، ولا يعنيهم منه شيء فإذا قتل وأريد مريد الإخبار بذلك ،فإنه يقدم ذكر الخارجي ، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له زيد جدوى وفائدة،فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم ، ويعلم من حالهم أن الذى هم متوقعون ومتطلعون إليه متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد وأنهم قد كفوا شره ، وتخلصوا منه)).(٢)

فتقديم المفعول به (الخارجي) الذى أردنا أن نعلم الناس شأنه وهم في شوق وتطلع لمعرفة الذى حصل ، فقيل :

((قتل الخارجي زيد)) لأن الخارجي هو المحور الذى من أجله أنشئت الجملة .

---

(١) الخصائص ٢ / ٣٨٢ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٣٨ .

ولقد كان عرض (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) لموضوع الخارجي وزيد مشوقا ، وأسلوبه واضحا سهلا :

وذلك أن الخارجي قد أهم الناس أمره ، مما جعلهم في حيرة واضطراب فأخذوا يتطلعون إلى يوم الخلاص من شره ومن عبثه ، حتى كان ذلك اليوم ، الذى استطاع فيه زيد أن يتخلص منه ، ويريح الناس من شره ، لا شك أن هؤلاء الناس ، لا يهمهم إلا مقتل الخارجي ، وليس مهماً من كان القتل منه ، وإن كان فعلا عظيما ، إلا أنه لا يهم ، مثل مقتل الخارجي ، لذلك فلابد من أن يشفي القائل غليل صدور هؤلاء ، ويروي ظمأهم إلى معرفة ما حل بالعابث وكيف أن الخلاص منه أصبح حقيقة ، لذلك قدم (الخارجي) وهو المفعول به على الفاعل (زيد) .

ولقد كان موضوع الاستفهام في التقديم والتأخير ، من أبرز جهود (الشيخ عبد القاهر) .

إذ لم أعثر في كتب النحو والبلاغة التي تقدمت (الشيخ عبد القاهر) على ما يدل على أن هناك عالما قد ولج هذا الباب حتى ولو بثغرة صغيرة كما فعل هو ولقد حاولت - تلخيص - ما أورده من دقائق القواعد والأصول عندما يقول :

« ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة ، فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت : أفعلت ؟ فبدأت بالفعل ، كان الشك في الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ، وإذا قلت : أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم ، كان الشك في الفاعل من هو ، وكان التردد فيه .

ومثال ذلك أنك تقول : أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها ؟ أقلت الشعر الذى كان في نفسك أن تقوله ؟ أفرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ، تبدأ في هذا ونحوه بالفعل ، لأن السؤال عن الفعل نفسه أو الشك فيه ، لأنك في جميع ذلك متردد في

وجود الفعل وانتفائه ، فجوز ، أن يكون قد كان ، وأن يكون لم يكن ، وتقول : أأنت بنيت هذه الدار ؟ أأنت قلت هذا الشعر؟ أأنت كتبت هذا الكتاب ؟ فتبدأ في ذلك كله بالاسم ، وذلك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان ؟ فكيف وقد أشرت إلى الدار مبنية ، والشعر مقولا والكتاب مكتوبا ؟ وإنما شككت في الفاعل من هو . فهذا من الفرق لا يدفعه دافع ، ولا يشك فيه شاك)).(١)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٤١ .

المبحث الثالث

الحذف

إن الحذف عادة و ضرورة اقتضتها لغة العرب ، و هناك من المواضع ما يكون الحذف فيها ضرورة ، و منها ما يكون الحذف فيها للتخفيف والإيجاز ،

و قد عُرف الحذف منذ عرفت اللغة ، و نظرا لكثرته في الشعر و النثر .

فلقد تحدث عنه(سيبويه)في أكثر من موضع من خلال حديثه عن النحو و شرحه لبعض قواعد اللغة ، ذلك أنه اشترط أن يكون المحذوف مما يعلمه المخاطب ،فيعتمد على بديهة السامع في الإلمام بالمحذوف . يقول :

((و مما يقوى ترك نحو هذا لعلم المخاطب ، قوله عز و جل : (والذَّاكرينَ اللَّهَ كَثيرًا و الذَّاكرَاتِ ، و الحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ و الحَافظَاتِ) (١) ، فلم يعمل الآخر فيما عمل فيه الأول استغناء عنه ، و مثل ذلك و نخلع و نترك من يفجرك) (٢)

كما وضح (سيبويه) سرا بلاغيا آخر للحذف و هو السعة و الاختصار من ذلك قوله في باب(استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى ، لا تساعهم في الكلام و الإيجاز و الاختصار) .

((فمن ذلك أن تقول على قول السائل : كم صيد عليه ؟ وكم غير ظرف ،لما ذكرت لك من الاتساع و الإيجاز ، فتقول : صيد عليه يومان ، وإنما المعنى صيد عليه الوحش في يومين ،ولكنه اتسع و اختصر . (٣)

---

(١) سورة الأحزاب آيه ٣٥ .

(٢) الكتاب ١ / ٧٤ .

(٣) المصدر نفسه ١ / ٢١١ .

كما عرض (سيبويه) لمناقشة حذف حرف الجر ، من كلام العرب ومن القرآن الكريم .

واستنبط أن يكون حذفه غالبا لتخفيف الكلام ، يقول تعالى :

(بل مكر الليل والنهار) (١) ، وإنما المعنى : مكركم في الليل والنهار)) (٢) .

ولقد عرض(الزجاج)كذلك لحذف حرف الجر ((فمن ذلك قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) (٣) . التقدير : اهدنا إلى الصراط فحذف (إلى) دليل قوله تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم)(٤) وقوله تعالى (ويهديهم إليه صراطا) (٥) ، لأن العرب تقول هديته الطريق، فقد حذف إلى)) (٦).

وهكذا نجد (الزجاج) مثل للحذف في كل موضع يمكن فيه الحذف واستشهد بعدد كبير من الآيات .

كما سبق (الشيخ عبد القاهر) بالحديث عن حذف المضاف ، وأنه هو الآخر للتخفيف على رأى (سيبويه) .

إذ استشهد له بقول الحطيئة :

وشر المنايا ميت وسط أهله

كهلك الفتى قد أسلم الحى حاضره

---

(١) سورة سبأ آيه ٣٣ .
(٢) الكتاب ١ / ٢١٢ .
(٣) سورة الفاتحة آيه ٦
(٤) سورة الشورى آيه ٥٢ .
(٥) سورة النساء آيه ١٧٥ .
(٦) اعراب القرآن المنسوب للزجاج ١ / ١٠٦ تحقيق ودراسة ابراهيم الابيارى / دار الكتب الاسلامية مصر / لبنان ط ٢ ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

يريد منيـــة ميت)) .(١)

حـــذف الموصوف :

و هو موضوع قد سبق (عبد القاهر) بالحديث عنه فلقد عرض له (سيبويه) وكذلك (الزجاج) كما سبق بالقول بحذف الموصوف و إقامة الصفة مقامـــه ، و استشهد له بقول (النابغـــة) :

كأنك من جمال بني أقيـــش

يقعقــع خلف رجليه بشـــن

أى كأنك جمل من جمال بني أقيش)) .(٢)

و من ذلك قوله تعالى : ((و من الذين قالوا إنا نصارى ، أخذنـــا ميثاقهم)) .(٣)

---

(١) الكتاب ١ / ٢١٥ و البيت من الطويل . انظر معجم شواهد العربية ص ١٠٨ .

(٢) اعراب القرآن للزجاج ١ / ٢٩٢ قائل هذا البيت النابغة الذبيانـــي و البيت من الوافـــر . و المعنى : جمال بني أقيش غير عتاق ، وضعـاف تنفر من كل شيء ، وبنو أقيش فخذ من عكل و قيل من أشجع ، و الخطـاب موجه لعيينة ، شبهه في خفة الرأى و قلة التبصر بخفة هذه الجمال .

يقعقع : القعقعة : صوت يحصل عند تحريك أو قرع الشيء اليابس مثل السلاح و اللوح ، ((بشن)) : أى بقربـــة بالية يابسة ، فـــإذا قرعت صوتت ، و جملة ((يقعقع خلف رجليه بشن)) : حال من محذوف دل عليه قوله ((من جمال بني أقيش)) التقدير كأنك جمل ، و هي جمـــال ذات نفار - فإذا قعقع لها زادت نفارا ، و يجوز أن تجعل من سمـــا بمعنى بعض ، و قد قال بمثله جمع من العلماء ، في قوله تعالى : (مـــن الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) سورة النساء آيه ٤٦)) ديـــوان النابغة الذبياني ص ٢٥٢ .

(٣) سورة المائدة آية ١٤ .

والتقدير : قوم أخذ ميثاقهم ، فحذف الموصوف ، وأقام الصفة مقامه وقيل إن التقدير : وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم ، فصل بين الواو والفعل ، وقيل هو محمول على قوله : (ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل) (١) ومن الذين قالوا) (٢) فحمل على المعنى)). (٣)

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (آمنوا كما آمن الناس) (٤) أي : آمنوا إيمانا مثل إيمان الناس ، (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) ، أي أنؤمن إيمانا كإيمان السفهاء ، فحذف الموصوف ، وأقيمت الكاف التي هي صفته بمقامه)). (٦)

ولم يخرج (الفراء) عما قدمه (سيبويه) في موضوع الحذف ، فلم تكن هنا زيادة تذكر ، حيث ذكر حذف الكلمة ، والفعل ، بل الجملة ، بشرط أن لا يؤدى ذلك إلى إخلال بالكلام ، بخلاف ما إذا أدى إلى غموض المعنى وإبهامه ، عندئذ يجب ذكره ، حتى يتجنب السقوط في الخطأ ، فيسيء المستمع قصد الخطاب .

يقول في قوله تعالى : (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم) (٧) يقال : (أما) لا بد لها من (الفاء) جوابا فأين هي ؟ فيقال إنها كانت مع قول مضمر ، فلما سقط القول ، سقطت الفاء معه ، والمعنى

---

(١) المائدة آيه ١٢

(٢) سورة المائدة آيه ١٣ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ١ / ٢٩٣ .

(٤) البقرة آيه ١٣ .

(٥) سورة البقرة آيه ١٣ .

(٦) المصدر نفسه ١ / ٢٨٧ .

(٧) سورة آل عمران آيه ١٠٦ .

والله أعلم - فأما الذين اسودت وجوههم فيقال : أكفرتم فسقطت الفاء مع(فيقال) . والقول قد يضمر . ومنه في كتاب الله شيء كثير من ذلك قوله تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم، ربنا أبصرنا وسمعنا) . (١)،(٢)

أما عصر(الرماني) فقد حظي فيه(الحذف)بدراسة أعمق وأشمل ، فكان من نتائج ذلك أن توصل(الرماني)إلى سر بلاغي من أسرار الحذف ، وهو أن النفس تذهب فيه كل مذهب ، فالحذف يجعل العقل يسير بالخيال الجميل فيما تكون عليه الجنة التي سوف تساق إليها ، يقول ذلك في تحليله لقوله تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) (٣) ، يقول(الرماني) :

((كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذى لا يشوبه التنغيص والتكدير وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان فحذف الجواب في قولك : لو رأيت عليا بين الصفين ، أبلغ من الذكر لما بيناه)). (٤)

أما (ابن جنى) فقد تناول (الحذف) ، وتحدث عنه فيما يعرف (بشجاعة العربية) وأيد الحذف ، وذكر أنه يكون في الجملة ، والمفرد والحركة ، وقد شرط فيه وجود دليل عليه ، كما تحدث عن حذف المبتدأ والخبر والمضاف مفردا ، والمضاف إليه يقول : ((قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة ، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته)) . (٥)

---

(١) سورة السجدة آية ١٢ .

(٢) معاني القرآن ١ / ٢٢٨ ، ٢٢٩

(٣) سورة الزمر آيه ٧٣ .

(٤) النكت في اعجاز القرآن ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٥) الخصائص : ٢ / ٣٦٠ .

ولقد ضرب أمثلة لكل ما سبق، وشرحها وبين مواضع الحذف فيها، ولقد أطال في هذا الموضوع .

إلا أنه في حذف المفعول به، تحدث عن موقع خاص وعذوبة لا تكون في ذكره ، وقد ردد مثل هذا المعنى أكثر من مرة في كتابه المحتسب ، كمثل قوله : ((قرأ عكرمة : (المزمل)[1]، (والمدثر)[2] ، خفيفة الزاى والدال مشددة الميم والثاء .

قال (أبو الفتح) : هذا على حذف المفعول ، يريد يأيها المزمل نفسه المدثر نفسه ، فحذفه فيهما جميعا ، وحذف المفعول كثيرا ، وفصيح وعذب ولا يركبه إلا من قوى طبعه ، وعذب وضعه ، قال الله سبحانه (وأوتيت من كل شيء)[3] أى : أوتيت من كل شيء شيئا)).[4] وفي موضع آخر ، يقول :

((ومن ذلك ما رواه (أبو عبد الرحمن السُّلمى) عن (على بن أبي طالب) عليه السلام (والذين آمنوا يتوفون منكم)[5] ، بفتح الياء قال : ابن (مجاهد) : ولا يقرأ بها ، قال أبو الفتح : هذا الذى أنكره (ابن مجاهد) عندى مستقيم جائز ، وذلك أنه على حذف المفعول ، أى : الذين يتوفون أيامهم أو أعمارهم أو آجالهم ، كما قال سبحانه : (فلما توفيتني كنت)[6] (والذين تتوفاهم الملائكة)[7] ، وحذف المفعول كثير في القرآن وفصيح الكلام ، وذلك إذا كان هناك دليل عليه ، قال الله تعالى : (وأوتيت من كل شيء)[8]))[9].

---

(١) سورة المزمل آيه (١)
(٢) سورة المدثر آيه (١)
(٣) سورة النحل ٢٣ .
(٤) المحتسب ٢ / ٣٣٥
(٥) سورة البقرة آيه ٢٣٤ .
(٦) سورة المائدة آيه ١١٧
(٧) سورة النحل ٢٨ ، ٣٢ .
(٨) النمل آيه ٢٣ .
(٩) المحتسب ١ / ١٢٥ تحقيق / الدكتور على النجدى ناصف والدكتور عبد الفتاح شلبي / المجلس الأعلى للشئون الاسلامية / القاهرة ١٣٨٦هـ

ولقد ردد (ابن جنى) أن المفعول يحذف كثيرا في اللغة العربية وفي القرآن أكثر ، بل ويعده دلالة على غزارة علم العربية عند الذين يحذفونه ، يقول : ((ومن ذلك قرأ : إلى الابل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت)) (١) بفتح أوائل هذه الحروف وضم التاء .

قال(أبو الفتح) : المفعول هنا محذوف لدلالة المعنى عليه ، أى : كيف خلقتها ، ورفعتها ونصبتها وسطحتها ؟ وقد تقدم القول على حسن حذف المفعول به وأن ذلك أقوى دليل على قوة عربية الناطق به)). (٢)

ومن القواعد المهمة في الحذف ، والتي وضعها(ابن جنى):لا يجوز توكيد المحذوف يقول ((لأن الغرض من الحذف التخفيف لطول الاسم ، فلو ذهبت تؤكده ، لنقضت الغرض ، وذلك أن التوكيد والإسهاب ضد التخفيف والإيجاز ، فلما كان الأمر كذلك ، تدافع الحكمان ،فلم يجز أن يجتمعا)). (٣)

ولقد رفع(الزجاج)كذلك من شأن حذف المفعول وأكبره ،يقول ((ونحن نذكر من ذلك ما يدق النظر فيه ، لأن ذلك لو حاول إنسان أن يأتي بجميعه توالت عليه الفتون ، ولم يمكنه القيام به لكثرته في التنزيل وكان بمنزلة من يستقي من بئر زمزم فيغلبه الماء)) (٤) .

وسأعرض لبعض عناصر موضوع الحذف لدى الشيخ (عبد القاهر) .

وسنلاحظ أن (الشيخ عبد القاهر) لم يبعد كثيرا عن (ابن جنى) في هذا الشأن ،بل إنه سار في كثير من موضوعاته على طريقة (ابن جنى)

---

(١) سورة الغاشية آيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٢) المحتسب ٢ / ٣٥٦ . (٣) الخصائص ١ / ٢٨٧ .

(٤) اعراب القرآن ٢ / ٤٠٥ .

مثل قوله في الدلائل : ((إن الحذف باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم بيانا إذا لم تبن)).(١)

وكذلك قوله : ((إن الصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وترك ذكر بعض أركان الجملة ، واسقاطها من الكلام أفيد فيما لو ذكرت .

ولقد استشهد لصحة قوله بأمثلة صرح فيها أنه استقاها من صاحب الكتاب ومن شيخه (ابن أخت أبي على الفارسي) .

وذلك في المواضع التالية :

١ - إضمار المبتدأ .
٢ - إضمار الفعل ونصب المفعول مع ذلك .
٣ - ويحذف المبتدأ في حالة القطع والإستئناف .
يقول : ((ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف يبدأون بذكر الرجل ، ويقدمون بعض أمره ، ثم يدعون الكلام الاول ،ويستأنفون كلاما آخر ، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ)) (٢)
٤ - وكذلك تحدث عن حذف المفعول به ، وقد سبق بالحديث كما سبق وأن بينت .

ونلاحظ أن الشيخ (عبد القاهر) قد وضع قواعد تخص الحذف والذكر (٣) كما بين الغرض البلاغي من حذف المفعول به ، وهو عدم التحديد أو التخصيص بل هو في حد المتناهي ، يقول : ((إن الحال على ما ذكرت لك أنه في حد المتناهي ،حتى كأنه لا قصد إلى مفعول ،وكأن الفعل قد أبهم أمره ، فلم يقصد به قصد شيء يقع عليه)).(٤)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٧٠ .   (٢) المصدر نفسه ص ١٧١ .
(٣) انظر ص ١٧٦ ، ١٧٧ من المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه ص ١٨٠ .

٥ - أما الحذف الذى يسمى الإضمار على شريطة التفسير ، فقد مثل له بقول البحترى :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم
كرما ، ولم تهدم مآثر خالد (١)

الأصل لا محالة لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه ، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة ، وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب في حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف ، ولا يظهر إلى اللفظ ، فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله ، فقلت : لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، صرت إلى كلام غث وإلى شيء يمجه السمع وتعافه النفس)) (٢).

والملاحظ على (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) أنه أكثر من إيراد أسماء الذين نقل عنهم ، فصرح باسم (المرزباني) ، كما ذكر (الجاحظ) ،وكتابه (البيان والتبيين)، وغيرهم ، وبين المواضع التي استفاد منها .

وهذا اعتراف منه بأن جهوده في هذا الموضوع إنما هي إمتداد لما قدمه السابقون ، وإن له فضل وضع القوانين ،وتوطيد القواعد ، يقول ((ويبين هذا كلام ذكره (أبو عثمان الجاحظ) في كتاب البيان والتبيين وأنا أكتب لك الفصل حتى يستبين الذى هو المراد)). (٣)

ولقد انفرد (الشيخ عبد القاهر) بإصراره وتكراره لأهمية الحذف لأن له فعل السحر في النفس .

---

(١) البيت من الكامل .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٨ .

القصر بانمـــــا

إن أسلوب القصر "بإنما" يعتبر من جهود (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) الذاتية ، التي اعتمد في استخلاص نتائجها على قريحة وقادة ، وعقل ذكـي صاف ، فلم يعتمد على سابقيه كما في بعض الموضوعات التي مرت بنا ، بالرغـم من وجود بعض اشارات طفيفة . دلت على وجوده ومعرفته من قبل .

ويعتبر هو أول واضع لبنائه ، وأول من أسس قواعده ، واستحق أن ينسب إليه وأن يسمى واضعه لحسن تقسيمه وتفريعه وتبويبه ، ووضع له مسميات ثم لم يفته أن يطبق على هذه الموضوعات نظرية النظم التي أسسها وبنى صرحها شامخا .

فبين أن (إنما) لا تأتي إلا حينما يراد تصحيح معتقد أو إيضاح ما أبهم فهمه على السامع .

فعندما يقال : (إنما جاءني زيد) فهي تخصص من ظن أن الذى جاء عمرو ، بل خصصت المجيء لزيد ، ونفته عن كل ما عداه ، على حد القصر الحقيقي . وأما ما يسمى بقصر التعيين مثل : (انما محمد شاعر) لمن يتردد بين كونه شاعر أو كاتب .

وقد وقف (الشيخ عبد القاهر) طويلا عند هذا النوع وبين الفروق بين الكلمات ، ورد على كل ما يمكن أن يتساءل عنه .

موقع المقصور عليه من انما :

فقد حدده (الشيخ عبد القاهر) . في حديثه عن قوله تعالى (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) .(١)

---

(١) سورة فاطر آيه ٢٨ .

بأن المقصور عليه يقع مؤخرا ، ولذلك أطال في شرح الآية السابقة ، لأن في تقديم اسم الله معنى يخالف لما يكون لو أخر. فمعناه مقدما أن يبين الخاشعين من هم ، و يخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم . ولو أخر لفظ الجلالة و قدم العلماء ، فقيل : (إنما يخشى العلماء الله) لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن ، ولصار الغرض بيان المخشى من هو ، ولم يبين القصد من الآية أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء .

و مما أوضحه و أضافه (الشيخ عبد القاهر) في معاني إنما هو التعريض .

و هذا اعتبره (الشيخ عبد القاهر) من أفضل مواقع إنما ، و أنها تكون فيه أقوى ما تكون و أعلق ما ترى بالقلب ، و ذلك عندما يكون المقصود بها معنى غير المعنى المباشر لما دخلت عليه ، فمن ذلك قولك لصاحبك الذى أهمل في طلب حاجة تهمك ، إنك لم تهتم بهذه المسألة ، فقصد المتكلم أن الغايات تنال بالجد و الإخلاص لها . و إنما يفهم هذا من السياق .

كما قسم (الشيخ عبد القاهر) القصر قسمين :

١ - قصر صفة على موصوف .

٢ - قصر موصوف على صفة .

المبحث الرابع
الكناية

إن الكناية من الموضوعات البيانية ذات الأهمية القصوى في البلاغة ، وفي انشاء الكلام البليغ .

وترجع أهميتها الى الجمال الذى تضفيه على المعنى ، لأنها أبلغ من الافصاح في ايصال المعاني ، ولأنها تزيد في اثبات المعنى ، فتجعله أبلغ وآكد .

ولذلك احتفى بها العلماء منذ القدم ، وكان من أوائل الذين عرضوا لها (سيبويه) ، حيث كان تقديمه لها لغويا .

وسأتتبع منابع الكناية وأبحث عن جذورها لدى العلماء ، الى أن صارت علما له أصوله قائما بذاته .

فهذا (سيبويه ت ١٨٠ هـ) قد عرض لها في الكتاب في باب ((هذا باب يكون فيه الاسم ، بعد ما يحذف منه الهاء)) .(١)

يقول : ((وأما قول العرب يا فل أقبل ، فإنهم لم يجعلوه اسما حذفوا منه شيئا يثبت فيه غير النداء ، ولكنهم بنوا الاسم على حرفين ، وجعلوه بمنزلة دم ، والدليل على ذلك أنه ليس أحد يقول يا فل ، فإن عنوا ((امرأة قالوا : يا فلة ، وهذا الاسم اختص به النداء ، وإنما بني على حرفين ، لأن النداء موضع تخفيف ، ولم يجز في غير النداء ، لأنه جعل اسما لا يكون إلا كناية لمنادى نحو يا هناه ومعناه يا رجل ، وأما فلان فإنما هو كناية عن اسم سمي به المحدث عنه ، خاص غالب ، وقد اضطر الشاعر فبناه على حرفين في هذا المعنى قال أبو النجم :

---

(١) الكتاب (لسيبويه) ٢ / ٢٤٨ . ط ١٩٧٩ عبد السلام هارون .

((في لُجَّة أمسك فلانا عن فلِ)) .(١)

فيتضح من نص هذه العبارة أن (سيبويه) كان من أوائل الذين صرحوا بالكناية ، وإن كان بمفهوم بدائي . أعني المعنى اللغوى ، وهو عدم التصريح باسم الشيء أو الشخص .

ففلان وفل كناية عن شخص لا يعرف اسمه .

وإن (فل) هو نداء اقتضى حذف الحرفين الآخرين ولا يصح هذا الحذف في غير النداء .

وبعد هذه الإشارة تلتها أخرى من (الفراء) ، وإن كانت أكثر وضوحا إلا أنه لا يمكن القول بأنه يمكن الاعتماد عليها في وضع قواعد الكناية ، بل سأورد تلك الملحوظات التي تدل على معنى الكناية اللغوية أيضا ، وهو إضمار الشيء .

يقول (الفراء) في قوله تعالى :

(وهو محرم عليكم إخراجهم) . (٢)

---

(١) المصدر نفسه ٢ / ٢٤٨ تكملة الأرجوزة في خزانة الأدب ١ / ٤٠١ وقائله هو : أبو النجم العجلي اسمه الفضل بن قدامه بن عبيد ابن عبيد الله بن عبده بن الحارث بن اياس بن عوف بن ربيعة بن مالك بن ربيعة بن عجل ، مقدم عند جماعة من أهل العلم على العجاج ولم يكن أبو النجم كغيره من الرجاز الذين لم يحسنوا أن يقصدوا لأنه يقصد فيجيد .... وبقى أبو النجم إلى أيام هشام بن عبد الملك وله معه أخبار) ص ٣١٠ معجم الشعراء للمرزباني ط ١ مكتبة القدس كما وردت ترجمته في طبقات فحول الشعراء ، فعده ابن سلام من شعراء الطبقة التاسعة ص ٢ / ٧٤٥ / كما وردت ترجمته في الشعر والشعراء ٢ / ٦٠٣ حيث قال عنه ابن قتيبة : هو الفضل بن قدامة من عجل ، وكان ينزل بسواد الكوفة في موضع يقال له الفِرْك ، أقطعه إياه هشام بن عبد الملك .

(٢) سورة البقرة آيه ٨٥ .

إن شئت جعلت هو كناية عن الإخـــراج)).[1]

وقول (الفراء) : ((فأما الفعل الذى جعل خبرا للاسم ،فقولـه : (ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم اللّه من فضله هو خيرا لهم) [2] فهو كناية عن البخل)). [3]

والملاحظ على تعليقات الفراء البلاغية أنها إشارات إلى الكناية بمعنى الخفاء .

وهناك من الآيات القرآنية ما اشتملت على الكناية بمعناها الاصطلاحي إلا أنه لم يشر إلى ذلك ، لأن الموضوع لم تنضج دراسته بعد ، ولـــم تستقر قواعده .

يقول (الفراء) :

(وقوله : (ولكن لا تواعدوهن سرا) [4] يقـــول :

((لا يصفن أحدكم نفسه في عدتها بالرغبة في النكاح ، والإكثار منـــــــه ، حدثنا محمد بن الجهم قال حدثنا الفراء قال حدثني (رحبان) عـن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : السر في هذا الموضـــــع النكاح ، وأنشد عنه بيت امرئ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أنـــني

كبرت وألا يحسن السر أمثالـي [5]

قال (الفراء) : ويرى أنه مما كنّى الله عنه قال :

(أوجاء أحد منكم من الغائط) .[6]،[7]

---

(١) معاني القرآن ١/٥. (٢) سورة آل عمران آيه ١٨٠ .
(٣) معاني القرآن ١ / ١٠٤ .
(٤) سورة البقرة آيه ٢٣٥
(٥) بسباسه : امرأة من بني أسد والبيت من الطويل .
(٦) سورة المائدة آيه ٦ . (٧) معاني القرآن ١ / ١٥٢ .

فإن كان ما توصل له (سيبويه) و (الفراء) عن (الكناية) إنما هو معناها اللغوى ، فكذلك كان الحال حتى عهد (الجاحظ) حيث عرض للكناية تحت عنوان (من الفطن و فهم الرطانات و الكنايات و الفهم والأفهام قال الأصمعي قال : أخبرني شيخ من بني عنبر قال : أسر بنو شيبان رجلا من بني العنبر ، قال : دعوني حتى أرسل الى أهلي ليفدوني ، قالوا : على ألا تكلم الرسول الا بين أيدينا . قال نعم . قال : فقال للرسول آئت أهلي فقل : ان الشجر قد أورق . و قل : ان النساء قد اشتكت و خرزت القرب . ثم قال له : أتعقل ؟ قال : نعم . قال ان كنت تعقل فما هذا ؟ قال : الليل . قال : أراك تعقل ! انطلق الى أهلي فقل لهم : عروا جملي الأصهب ، و اركبوا ناقتي الحمراء و سلوا حارثا عن أمرى - و كان حارث صديقا له - فذهب الرسول فأخبرهم فدعوا حارثا فقص عليه الرسول القصة ، فقال : أما قوله (إن الشجر قد أورق) فقد تسلح القوم . و أما قوله : (ان النساء قد اشتكت و خرزت القرب) فيقول : قد اتخذت الشكا (١) و خرزت القرب للغزو ، و أما قوله : (هذا الليل) فانه يقول : أتاكم جيش مثل الليل . و أما قوله : (عروا جملي الأصهب) فيقول : ارتحلوا عن الصمان . و أما قوله : (اركبوا ناقتي الحمراء) فيقول : انزلوا الدهناء .

و كان القوم قد تهيأوا لغزوهم ، فخافوا أن ينذرهم ، فأنذرهم و هم لا يشعرون ، فجاء القوم يطلبونهم فلم يجدوهم)) (٢)

و لقد ذكر القصة نفسها (أبو على القالي) . و ذلك عند تفسيره لمادة (لحن) ، يقول :

((لَحَنَ الرجل يلْحن لحْنا إذا تكلم بلغته ، قال : و يقال : لَحَنْت له لحْنا إذا قلت له قولا يفهمه عنك ، و يخفى على غيره ، و لَحِنه عني لحْناً ،

---

(١) الشكا : جمع شكوة بالفتح : وعاء للماء أو اللبن من أدم .

(٢) الحيوان ٣ / ١٢٤ ، ١٢٥ .

أى فهمه و ألحنته أنا إياه إلحانا ، و هذا مذهب أبي بكر بن دريد في تفسير قول الشاعر :

منطق صائب و تلحن أحيانا

قال : يريد : تَعْوص في حديثها فتزيله عن جهته لئلا يفهمه الحاضرون ، ثم قال :

... وخير الحديث ما كان لحنا

اى خير الحديث ما فهمه صاحبك الذى تحب إفهامه وحده و خفى على غيره .

قال : و أصل اللحن أن تريد الشيء فتورى عنه بقول آخر ، كقول رجل من بني العنبر كان أسيرا في بكر بن وائل .... » .(١)

و كما هو ملاحظ على تعريف(أبي على القالي) للكناية ،أنه المعنى اللغوى فلم يتقدم كثيرا عن سابقه (الجاحظ) .

ولكن (ابن قتيبة) و من بعده (المبرد) وضعا أمثلة وتعريفات سارت بعدهما و ثبتت في أسفار المؤلفين ،تشبه أن تكون قواعد للكناية .

يقول ابن قتيبة : « و كلام العرب إيماء و إشارة و تشبيه . يقولون (فلان طويل النجاد) و النجاد حمائل السيف ، و هو لم يتقلد سيفا قط ، و إنما يريدون أنه طويل القامة ، فيدلون بطول نجاده على طوله لأن النجاد القصير لا يصلح على الرجل الطويل ،و يقولون فلان عظيم الرماد) ولا رماد في بيته ولا على بابه ، وإنما يريدون أنه كثير الضيافة

---

(١) الأمالي ١ / ٦ ، ٧

فناره واريه أبدا ، وإذا كثر وقود النار كثر رماده والله تعالى يقول في كتابه (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام) [١] ، فدلنا بأكلهما الطعام على معنى الحدث لأن من أكل الطعام ، فلا بد له من أن يحدث ، قال تعالى حكاية عن المشركين (ويمشي في الأسواق) [٢] فكنى بمشيه في الأسواق عن الحوائج التي تعرض للناس فيه ، فيدخلون لها الأسواق ، كأنهم رأوا أن النبي عليه السلام إذا بعثه الله تعالى أغناه الله عن الناس وعن الحوائج إليهم) . [٣]

ولقد سار (المبرد) على نهج (ابن قتيبة) في التعريف (بالكناية) ، إلا أنه قسمها ثلاثة أضرب ، لم نر الشيخ (عبد القاهر) سار على نهجه فيها .

يقول (المبرد) :

« والكناية تقع على ثلاثة أضرب أحدها التعمية ، والتغطية كقول النابغة الجعدى . [٤]

---

(١) سورة المائدة من الآية ٧٥ .

(٢) سورة الفرقان من الآية ٧ .

(٣) تأويل مختلف الحديث ١١١ دار الكتاب العربي - بيروت .

(٤) النابغة الجعدى : هو عبد الله بن قيس من جعدة بن كعب بن ربيعة وإخوة جعدة عُقيل وقشير والحريش ، وكان يكنى أبا ليلى ، وهو جاهلي وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشده :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرّة نيّرا

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال إلى الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يفضض الله فاك) قال : فبقي عمره لم تنقض له سن . وكان معمرا ونادم المنذر أبا النعمان ابن المنذر . ويقال إنه كان أقدم من النابغة الذبياني لأن الذبياني نادم النعمان ، وهذا نادم أباه . وعُمّر النابغة الجعدى حتى ورد على ابن الزبير . وحتى نازع الأخطل الشعر فغلبه الأخطل فهو من مغلبي مضر . ومات بأصبهان وهو ابن مائتين وعشرين سنة) ، ١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ من الشعر والشعراء .

(أكني بغير اسمها و قد علم الله خفيات كل مكتتم ؛

(وقال ذو الرمة استراحه الى التصريح من الكناية) .

أحب المكان القفر من أجل أنني

به أتفنى باسمها غير معجم

فهذا الضرب هو (الكناية) بمعناها اللغوى ،اى بمعنى التغطية

و هناك النوع الثاني : و هو أحسن الأنواع حيث تكنية المعنى الهجين إلى ما يدل عليه ،

يقول : ((و يكون من الكناية ،و ذاك أحسنها ، الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره . قال الله و له المثل الأعلى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) (١) . وقال (أو لا مستم النساء) (٢) و الملامسة في قول أهل المدينة مالك وأصحابه غير كناية ، إنما هو اللمس بعينه)) (٣) . أما الجزء الثالث و الذى يسميه (المبرد) ((الضرب الثالث من الكناية التفخيم و التعظيم و منه اشتقت الكنية و هو أن يعظم الرجل ، أن يدعى باسمه) .(٤)

و الملاحظ على هذه الأقسام أنها ترجع إلى مفهوم الكناية الأولى و ليس فيها تصريح بمعنى الكناية لدى (الشيخ عبد القاهر) .

بل إنها سارت في الطريق الذى سلكه (سيبويه) و (ابن قتيبه) و (المبرد) .

فهذا ابن قتيبة يردد ما سبق به سيبويه عند حديثه ، ((و قد يقول القائل : ما جاءك إلا فلان بن فلان ، يريد أشراف الناس المعروفين ، والشاعر يقول :

---

(١) سورة البقرة آيه ١٨٧ .
(٢) سورة النساء آيه ٤٣ .
(٣) ، (٤) الكامل ٢ / ٦ .

(في لُجـــة امسك فلانا عن فُل)

يريد أمسك فلانا عن فلان ، ولم يرد رجلين بأعيانهما ، وإنما أراد أنهم في غمرة الشر وضجته فالحجزة تقول لهذا أمسك ولهذا كف)) .(١)

وفي القرن الثالث يبـــزغ نجم (ثعلب) ، فيتحدث عن (الكنايـــة) تحت عنوان (لطافة المعنى) ويعرف هذا النوع بأنه الدلالة بالتعريـــض على التصريح يقول :

((أنا كهو ، كناية عن زيد ، قال : لأنهم : أرادوا أن يأتوا بعـــد الكاف بثلاثة أحرف . يعني مثل فوضعوا هو موضعها)) .(٢)

وإذا تقدمنا قليلا في مستهل القرن الرابع نجد (قدامة بن جعفـــر) (ت ٣٧٧ هـ) قد استفاد مما كتب سابقوه من شروح وتعليلات لبعـــض الآى ، وكذلك من الأشعار التي فيها كناية .

فكتب معنى الكناية تحت اسم (الإرداف) .

وعرفها تعريفا استفاد منه (الشيخ عبد القاهر) في مصنفه الدلائل .

يقول (قدامة بن جعفر) : ((الإرداف : وهو أن يريد الشاعـــر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعـــنى بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه ، وتابع له فإذا دل على التابـــع أبان عن المتبوع ، بمنزله قول الشاعر : (٣)

بعيدة مهوى القرط إما لنوفـــل
أبوها واما عبد شمس وهاشـــم

وإنما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص بـــه ،

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٦٣ .
(٢) مجالس ثعلب لابي العباس أحمد بن يحى ثعلب / شرح عبد الســـلام هارون دار المعارف ط ٤ ص ٥٦٨ .
(٣) قائل هذا البيت عمرو بن العاص والبيت من الطويل .

بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد ، وهو بُعد مهوى القرط)).[1]

اى أن (الكناية) هي أن تريد أن تعبر عن معنى ، فلا تصل إليه مباشرة بل بما هو ردفه ، وملازم له .

فمعنى قول الشاعر : (بعيدة مهوى القرط) . أن قرطها بعيد عن عاتقها ، وهذا يقتضي أن يكون جيد الممدوحة طويلا جميلا وإلا لما بعد القرط عن العاتق .

وهذا هو المعنى الذى يردده (الشيخ عبد القاهر) في مصنفه الدلائل ما يقرب من أربع مرات . حيث يقول : ((أن يريد المتكلم اثبات معني من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيومئ به اليه ويجعله دليلا عليه .

مثال ذلك قولهم : (هو طويل النجاد) . يريدون طويل القامه و(كثير رماد القدر) يعنون كثير القرى وفي المرأة أنها (نؤوم الضحى) .

والمراد أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها)).[2]

فقد وصف الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) الكناية بأنها صفة يريد المتكلم أن يثبتها للمتكلم معه ، ولكنه لا يثبت ذلك الحديث وتلك الصفة مباشرة ، بل يعمد إلى صفة أخرى قريبة منها ملازمة لها فيثبتها ، ففي قولهم : (هو طويل النجاد) يريدون أنه طويل . فعمدوا إلى وصف طول حمالة سيفه ، فلما كانت حمالة السيف طويلة ، اقتضى ذلك أن يكون حاملها طويلا . وكذلك عند قولهم (كثير رماد القدر) أرادوا أن يدلوا على كرمه وكثرة ضيافته ، بكثرة الرماد الناتج عن كثرة الطبخ .

---

(١) انظر العمدة ١ / ٣١٤ لابن رشيق .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٠٥ .

وكذلك في قولهم : (نؤوم الضحى) : أن لها من الخدم من يكفيها مؤونة القيام مبكرة للعمل ، فدل بهذا على أنها مدللة مخدومة ، ومترفة منعمة لا تحتاج إلى قيام مبكرة .

يقول (الشيخ عبد القاهر) شارحا هذا المعنى : (فقد أرادوا في ذلك كله كما ترى معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه (الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود ، وأن يكون إذا كان أفلا ترى أن القامة اذا طالت طال النجاد ؟ وإذا كثر القرى كثر رماد القدر ، وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى)).[1]

ولقد قال (قدامة بن جعفر) بجمال الكناية ، بالرغم من أنها لا تقدم المعنى جاهزا على مائدة المعرفة ، بل لا بد من تدقيق النظر في معرفة المعنى المراد .

يقول قدامة :

((ومن هذا النوع ما يدخل في الأبيات التي يسمونها أبيات المعاني ، وذلك إذا ذكر الردف وحده ، وكان وجه اتباعه لما هو ردف له غير ظاهر ، أو كانت بينه أرداف أخر كأنها وسائط ، وكثرت حتى لا يظهر الشيء المطلوب بسرعة إذا غمض ، ولم يكن داخلا في جملة ما ينسب إلى جيد الشعر ، إذ كان من عيوب الشعر الانغلاق وتعذر العلم بمعناه)).[2]

وكذلك يجدر بنا أن نبين أن (الشيخ عبد القاهر) قد اعتمد في تحليل وشرح قول الشاعر :

وما يك في من عيب فإني
جبان الكلب مهزول الفصيل

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٥ .

(٢) نقد الشعر لقدامة ص ١٥٩ .

على (قدامة بن جعفر) ، وكذلك استفاد (الشيخ عبد القاهر) من (قدامة) عند ما عرض لصور من الكناية عن صفة .

والجدير بالذكر أن (للشيخ عبد القاهر) مآثر واضحة في الكناية فهو الذى أشار إلى نوعين من الكناية :

١ - الكناية عن صفة ٢ - الكناية عن نسبة .

وإن لم يذكر هذين المصطلحين إلا أنه فرق بينهما تفرقة واضحة .

أولا : الكناية عن الصفة :

وضابطها أن يكون هناك وصف ، أو أمر معنوى نريد أن نثبته للموصوف . فلا نأتي بالمعنى صريحا ، بل نبحث عما هو أبلغ في تأدية المعنى ، فنعمد إلى معنى يقابله فنعبر عن معنى الرديف باللفظ الذى يدل عليه منسوبا إلى موصوفك - وأنت لا تريد معنى الرديف وإنما تريد المردوف .

مثاله : (هو طويل النجاد) كناية عن طول القامة .

لأنه إذا طال النجاد وهو حمالة السيف - اقتضى ذلك أن تطول قامة حاملها .

والملاحظ أننا تركنا التعبير عن طول القامه باللفظ الدال عليه مباشرة بل عبرنا عما يلزمه الحال ويقتضيه وهو الرديف واللازم . ونحن في الواقع نريد المردوف . فعبرنا عن طول حمالة السيف ونحن نريد طول القامة . يقول (الشيخ عبد القاهر) مشيرا إلى هذا النوع الاول :

((إن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذى تجعله دليلا على المعنى الثاني ووسيطا بينك وبينه متمكنا في دلالته مستقلا بوساطته ، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة ، ويشير لك إليه أبين إشارة ، حتى يخيل إليك أنك فهمته من حاق اللفظ ، وذلك لقلة الكلفة فيه عليك وسرعة وصوله اليك ،

فكان من الكناية مثل قولـــه : (١)

لا أمتع العوذ بالفصـــال ولا أبتاع إلا قريبـــة الأجـــل (٢)

و هذا النوع من الكناية ، الذى تصل منه إلى الغرض بواسطة وتسمى الكناية البعيدة . أما النوع الثاني فهي الكناية التي ينتقل منهابوسائط أكثر، حيث يرى أنه ينتقل منهاالى المطلوب بواسطة أو أكثر، وذلك مثل كنايتهم عن الكرم بكثرة الرماد ، حيث ينتقل من كثرة الرماد إلى كثرة احراق الحطب ، إلـــى كثرة الطبخ ، و منها إلى كثرة الأكل إلى كثرة الضيفان ثم إلى الكرم ، وهـــو المقصود .

يقـــول الشيخ (عبد القاهـــر) :

(و إن أردت أن تعرف ماله بالضد من هذا ، فكان منقوص القـــوة في تأدية ما أريد منه ، لأنه يعترضه ما يمنعه أن يقضي حق السفارة فيمـــا بينك و بين معناك ، و يوضح تمام الإيضاح عن مغزاك فانظر إلى قـــول (العباس بن الأحنف) :

---

(١) البيت من المنسرح و قائل هذا الشعر ابن هرمة و هو : إبراهيم بـن هرمة من الخُلَج ، و الخَلَج من قيس عيلان ، يقال إنهم من قريـــش ، فسموا الخلج لأنهم اختلجوا منهم . و كان إبراهيم من ساقة الشعراء حدثني عبد الرحمن عن الأصمعي أنه قال : ساقة الشعراء (أى متأخريهم) : ابن ميادة وابن هرمة ، ورؤبة ، و حكم الخضرى ، ومكين العذرى وقد رأيتهم أجمعين . وكان ابراهيم مولعا بالشراب ، و أخـــذه خيثم بن عراك صاحب شُرَط المدينة لزياد بن عبيد الله الحارثي في ولاية أبي العباس ، فجلده الحد ، ولما ولى أبـو جعفر شخص إليه و امتدحـه فاستحسن شعره و قال : سل حاجتك ، قال تكتب إلى عامل المدينـــة أن لا يحدني إذا أتى بي إليه و أنا سكران ، قال أبو جعفر : هذا حد من حدود الله تعالى ، و ما كنت لأعطله ، قال : فاحتل لى فيه يـــا أمير المؤمنين فكتب إلى عامل المدينة : من اتاك بابن هرمه سكران فاجلده مئة جلده ، و اجلد ابن هرمه ثمانين فكان العون يمر به و هو سكران فيقول من يشترى ثمانين بمئة و يجوزه) الشعر والشعراء ٢ / ٧٥٣ ، ٧٥٤ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٦٦ ، ٢٧٦ .

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

بدأ فدل بسكب الدموع على ما يوجبه الفراق من الحزن والكمد ، فأحسن وأصاب ، لأن من شأن البكاء أبدا أن يكون أمارة للحزن ، وأن يجعل دلالته عليه وكناية عنه ، كقولهم : أبكاني وأضحكني ، على معنى : ساءني وسرني)) .(١)

ثانيا : الكناية عن نسبه :

ويعنون بها إثبات صفة لحيز الموصوف أو مكانه ، أو تابع له متصل به ، أو نفيها عنه ، والمراد اثباتها للموصوف أو نفيها عنه .

فمثلاً : إذا أردوا إثبات الجود للممدوح ، فيعدلون عن إثباته له ، فيثبتونه لحيز ومكان يحويه ، وذلك كما في قول الشاعر زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى
في قبة ضربت على ابن الحشرج

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٦٧ .

والبيت من الطويل . وقائله العباس بن الأحنف وهو : من بني حنيفة ، ويكنى أبا الفضل ، وكان منشؤه ببغداد ، ويدلك على أنه من بني حنيفة قوله للمرأة :

فإن تقتلوني لا تفوتوا بمهجتي   مصاليت قومي من حنيفة أو عِجْل

وقد خُطئ في توعده المرأة بطلب قومه بثأره إذا هو قتل عشقا والعادة في مثل هذا من الشعراء أن يجعلوا القتيل مطلولا . وكان العباس صاحب غزل ، ويشَبَّه من المتقدمين بعمر بن أبي ربيعة . ولم يكن يمدح ولا يهجو ومن حسن شعره قوله :

أشكو الذين أذاقوني مودتهم   حتى إذا أيقظوني بالهوى رقدوا

الشعر والشعراء ٢ / ٨٢٧ وذكر عنه جرجي زيدان (أنه عربي الأصل شريف النسب لم يتكسب بالشعر ، وإنما كان ينظم ما يجيش في خاطره وأكثره في الغزل . توفى سنة ١٩٣ هـ)) ٢ / ٩٠ ، تاريخ آداب اللغة العربية .

فقد أراد الشاعر أن يثبت أن ابن الحشرج قد وصف بهذه الصفات واتصف بها ، ولكنه لم يصرح فلجأ إلى وصف القبه المضروبة عليه بهذه الصفة من السماحة والمروءة ليدل على اختصاصه بها .

((وبهذه الطريقة الفذة بسط (عبد القاهر) الكناية في قسمين هامين من أقسامها ، وكان التعريض عنده مرادفا لها لا يفرق بينهما)). (١)

وبهذا الحديث بيّن أهمية التركيب النحوى لأنه ((إذا اعتل التركيب النحوى واختلت العبارة لغويا ، وخرجت عن القواعد العربية لازمها انتقاص القوة في تأدية ما يرادمنها ، فاللفظ وإن وصل إلى السمع فإنه يحتاج إلى أن تخب فيه وتضع لطلب المعنى ، وتبقى تطلبه وتتعب فيه ، وقد ينتهي الأمر إلى التعقيد الذى يشوه الصورة ويستهلك المعنى ، وينقض الحسن فالأسلوب الكنائي وهو من علم البيان نرى أن يحسن ويجمل ويكون له آثاره الطيبة في النفس ، ودلالته القوية في المعنى إذا كان جيد التركيب ، صحيح العبارة ، غير خارج عن قواعد اللغة وأساليب العربية)). (٢)

إذاً لا ينفك (عبد القاهر) في إثبات علاقة النحو بالتغيرات الأدبية لأنه الأداة الوحيدة التي يمكن بواسطتها إيصال المعاني اللغوية والأدبية بين الناس وبخاصة المثقفين والدارسين .

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ١٧٢ د . محمد حسنين أبو موسى .

(٢) التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر / للدكتور عبد الفتاح لاشين دار المريخ للنشر ص ١٩٨ .

المبحث الخامس

الاستعارة

لقد تناثرت الأفكار البلاغية في ثنايا كتب النحو والأدب ، فأصبحت المعلومات متداخلة ، بل ربما كان يتخللها شيء من الغموض . لذا بذل (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) جهودا مضنية في ارساء قواعد هذا البناء الشامخ الذى يشهد عليه كتاباه " دلائل الاعجاز " ، و " أسرار البلاغة " . وأن ما قدمه في هذا المجال ليس موجدا من عدم ، بل هي أفكار تناثرت هنا وهناك فجمع شتاتها وأضاف اليها ، وحذف منها ، ورتب بعضها ونسقه واستشهد له من الشعر ومن القرآن الكريم .

حتى أن الدارسين بعده والمؤلفين ساروا على نهجه وسلكوا نفس طريقه ، لذلك اعتبر (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) مؤسس علم البيان ، كما هو واضع علم المعاني .

كما كان له فضل استنباط مواضع الجمال فى كل ما درس من استعارة وكناية ومجاز ، بالرغم من أنه عرف كثيرا منها في كتب السابقين ، فقد قال عنه الدكتور (أبو موسى) :

((ولم ترجع عظمة جهود (عبد القاهر) في دراسة البلاغة الى اشاراته الى أصول التقسيمات والتعريفات فحسب ، وانما ترجع أيضا الى هذه التحليلات العالية والتي يبسط فيها وجه التجوز ، ويتحدث فيها عن العلاقات بين الأشياء وكل ما ذكره (عبد القاهر) في دراسة (الاستعارة) يصلح شاهدا على قدرته البالغة في فهم النص وذوقه وتحليله)) (1) .

فما أضافه (الشيخ عبد القاهر) الى الاستعارة يشهد بعظمته جل العلماء .

---

(1) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ص ١٦٣ .

وسأبين ما انفرد به (الشيخ عبد القاهر) في هذا المضمار ، وما أضافه الى جهود سابقيه ، ثم أبين النقاط التى انطلقت منها أفكاره ، وأقصد بذلك ما بذره العلماء السابقون ، فرواه (عبد القاهر) ، واعمل فيه فكرا ذكيا وقريحة وقادة .

والجدير بالذكر أن أفكار (الفراء) عن الاستعارة هي نقطة انطلاق (الشيخ عبد القاهر) ، لأن العلماء السابقين (كسيبويه) ، و(أبى عبيدة) ، وغيرهما من العلماء لم يكن حديثهما عن الاستعارة الا اشارات تدل على وجود هذا النوع ، ولكن ليس بالصورة التي وصلت الينا الآن . وذلك أنهم ألمحوا الى الاستعارة المكنية ، والاستعارة بالحروف .

أما (الفراء) (ت ٢٠٧ هـ) فقد تخطاه الدكتور (محمد أبو موسى) ، حيث ذكر أن ((لابن قتيبة اشارات ذات صلة وثيقة بما ذكره الجرجاني في هذا الباب))[(١)] . ولكن الواقع أن (الفراء) هو الذى أوحى الى العالمين الجليلين (ابن قتيبة) و(عبد القاهر) ومن قبلهما (الجاحظ) بأفكار الاستعارة الأساسية .، حيث قال (الفراء) في تفسير قوله تعالى : (ولما سكت عن موسى الغضب)[(٢)] ، والغضب لا يسكت انما يسكت صاحبه ، وانما معناه سكن ، وقوله : (فإذا عزم الأمر)[(٣)] ، وانما يعزم الأمر أهله .

وقال آخر :[(٤)]

شكا الي جملي طول السرى

صبرا جميلا فكلانا مبتلى

والجمل لم يشك ، انما تكلم به على أنه لو نطق لقال ذلك[(٥)])) وكما

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥٧ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٥٤ .
(٣) سورة محمد آية ٢١ .
(٤) هذا الشعر من الرجز .
(٥) معاني القرآن ٢ / ١٥ .

هو ملاحظ أن (الفراء) قد تنبه الى كيفية خروج الألفاظ عن أصل وضعها فكانت بذلك أبلغ في التعبير عن المراد ، لأن الآية الكريمة جعلت الغضب يسكت وهو في الحقيقة يسكن ، ولكن لشدته ولتمكنه من صاحبه ، صار كأنه هو الذى يسكن . وكذلك الجمل من شدة ما ألم به من تعب ، ولشدة ما ألمّ بصاحبه من نصب ، قيل على لسانه . . لونطف لاشتكى من شدة التعب . وأضاف اضافات لم توجد فى كتب السابقين .

لقد كانت الاستعارة احدى ثمرات الجهود المتواصلة التي بذلها (الشيخ عبد القاهر) في سبيل وضع قواعد علم البلاغة .

وابراز مثل هذه الصور لم نر أحدا ممن سبقوا (الفراء) عرضله ، وان كان (الفراء) أيضا لم يبين الاستعارة بأنها كانت فى الفعل أو الاسم .

والاستعارة : هي نقل اسم عن مسماه الأصلي الى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه ، وتجعله متناولا له تناول الصفة للموصوف .

هذا التعريف للاستعارة قد عرضله (الفراء) وأجراه على آى من القرآن الكريم ، وان لم يتوصل الى المسمى المعروف بيننا الآن .

ففي قوله تعالى :

(وانهما لبأمام مبين) [١] يقول : ((بطريق لهم يمرون عليها في أسفارهم ، فجعل الطريق اماما لأنه يؤم ويتبع)) [٢] .

---

(١) سورة الحجر آية ٧٩ .

(٢) معاني القرآن ٢ / ٩١ .

أى أن (الفراء) جعل الإمام كالطريق الذى يتبع ، (ووجه الشبه) بينهما أن كلا منهما يتبعه وارده حتى يصل إلى هدفه ، فحذف المشبه وهو الطريق ، وهذه هي الاستعارة التصريحية التي عرفناها .

وهكذا مضى (الفراء) في تبيين أوجه الاستعارة كلما مر بآية فيها استعارة .

حتى الاستعارة (التهكمية) قد عرض لها في الوقت الذى تخطاها أبو عبيدة ، ففي قوله تعالى :

(فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) .(١)

وقوله تعالى :

(فبشرهم بعذاب أليم) .(٢)

فعند البحث عن هاتين الآيتين لدى (أبي عبيدة) في (مجاز القرآن) نجده لم يشر إليهما بأى تفسير ، في الوقت الذى حللهما (الفراء) واستخرج الاستعارة فيهما ، فمن الآية الأولى يقول : ((الإثابة ها هنا في معنى عقاب ، ولكنه كما قال الشاعر :

أخاف زيادا أن يكون عطاؤه
أداهم سودا أو محدرجة سمرا .(٣)

---

(١) سورة آل عمران آيه ١٥٣ .
(٢) سورة آل عمران آيه ٢١ .
(٣) قائل هذا الشعر الفرزدق انظر الديوان ١/ ١٨٨ .

وقد يقول الرجل الذى قد اجترم اليك : لئن أتيتني لأثيبنك ثوابا . معناه لأعاقبنك ، وربما أنكره من لا يعرف مذاهب العربية)). [١]

فدل بحديثه هذا إلى أنه وضع يده على مكامن الاستعارة (التهكمية) وأنه من أوائل من رادوا هذا المجال ولم يسبقه (أبو عبيدة) ولا غيره وكان ممن عرض لها بعده (ابن جنى) ، يقول في ذلك :

((وهو غور من أنحاء العربية طريف ولطيف ، ومصون وبطين ، بعيد الشأن ، ويقول : إنه فصل حسن يدعو إلى الأنس بالعربية والفقاهة)). [٢]

وعند تفسير (الفراء) لقوله تعالى : (فبشرهم بعذاب أليم) [٣] يقف متأملا ، فيقول : (والبشارة إنما تكون في الخير ، فقد قيل ذاك في الشر ، ومعنى قوله : (غما بغم) ما أصابهم يوم أحد من الهزيمة والقتل ، ثم أشرف عليهم (خالد بن الوليد) بخيله فخافوه وغمهم ذلك)). [٤]

فإن كانت البشارة إنما تكون في الخير فقد ذكرها سبحانه في الشر تهكما بهم ، وحتى في تحليلات (الجاحظ ت ٢٥٥ هـ) لم نجد غير شرحا بسيطا من مثل قوله ((وقال الله عز وجل : (هذا نزلهم يوم الدين) [٥] والعذاب لا يكون نزلا ، ولكنه لما أقام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سمى باسمه) . [٦]

---

(١) معاني القرآن للفراء ١ / ٢٣٩ .

(٢) سورة آل عمران آيه ٢١ .

(٣) الخصائص ٢ / ٣١٠ .

(٤) معاني القرآن للفراء ١ / ٢٤٠ .

(٥) سورة الواقعة آيه ٥٦ .

(٦) البيان والتبيين ١ / ٩٥ .

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن أول محاولة لوضع تعريف معين للاستعارة هي قول (الجاحظ) : (تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه). (١)

وإن كان هذا التعريف شاملا يتسع لكل أنواع البلاغة فلقد اعتمد في ذلك على سابقه (الفراء) الذى أوحى بهذا التعريف .

وتمضي الاستعارة لا جديد فيها ، حتى عهد (ابن قتيبة ٢٧٦ هـ) حيث عرض لما عرف فيما بعد باسم الاستعارة غير المفيده ، فلم تدرج تحت هذا الاسم ، بل اكتفى بذكرها مع تعليل بسيط لها ، يقول : ((ومن الاستعارة : اللسان يوضع موضع القول ، لأن القول يكون به ، قال (الله عز وجل) ،حكاية عن (ابراهيم عليه السلام) (واجعل لي لسان صدق في الآخرين). (٢)

أى ذكرا حسنا ،وقال الشاعر : (٣)

انى أتتنى لسان لا أسر بها
من علو ، لا عجب منها ولا سخر

أى أتانى خبر لا أسر به)). (٤)

---

(١) المصدر نفسه ص ١/٩٥ (٢) سورة الشعراء آيه ٨٤ .

(٣) قائل هذا الشعر هو أعشى باهلة ، يرثى المنتشر بن وهب والبيت في الصحاح . وهو من البسيط .

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٤٦ ، ١٤٧

أعشى باهلة اسمه : عامر بن الحارث (بن رباح بن عبد الله بن زيد ابن عمرو بن سلامة بن ثعلبة بن وائل بن معن بن مالك بن أعصر ، وهو منبه بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .
والقصيدة يرثى بها أعشى باهلة أخاه لأمه المنتشر بن وهب ،وكان من خبره ، أنه أسر صلاءة بن العنبر المازني ، فقال : افد نفسك ، فأبى فقال : لأقطعنك أنملة أنملة وعضوا عضوا مالم تفتد نفسك فجعل يفعل ذلك به حتى قتله ، ثم خرج بعد ذلك المنتشر ليحج ذا الخَلَصة وهو بيت كانت خثعم تحجه ، فدلت عليه بنو نفيل بن عمرو بن كلاب الحارثيين فقبضوا عليه ، فقالوا : لنفعلن بك كما فعلت بصلاءة ،ففعلوا ذلك به فلقى راكب أعشى باهلة ، فقال له أعشى باهلة : هل من جائية خبر ؟ قال : نعم ، أسرت بنو الحارث المنتشر ،فلما صار في أيديهم قالوا : لنقطعنك كما فعلت بصلاة ، فقال أعشى باهله هذه القصيدة يرثى المنتشر)=

فبين أنه استعار اللسان موضع القول ، ولم يبين مكانة هذه الاستعارة في الكلام ، وهل زادت فيه معنى أو اكدته وهو ما سيكون من بعض العلماء المتأخرين عن (ابن قتيبة) .

ويقول في موضع آخر :

((ومنه قوله سبحانه وتعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .(١)

وأصل الذواق : بالفم، ثم قد يستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختبار تقول في الكلام : ناظر فلانا ، وذق ما عنده ، أى تعرف واختبر ، واركب الفرس وذقه)) .(٢)

وفي هذا المثال ايضا لم يبين نوع الاستعارة ولا أثرها النفسي في الكلام .

بل إن الاستعارة عند (ابن قتيبة) تشمل المجاز المرسل ، الذى علاقته المحلية ، أو السببية ، والكناية والمشاكلة ، والمبالغة والتشبيه والقلب .

ولقد عرض لمسألة (ذق) هذه (الجاحظ) قبل (ابن قتيبة) وبين ما يمكن أن تؤدى من معنى ، غير معناها الأصلي الذى وضعت له .

= السخر : الاستهزاء ، واللسان هنا بمعنى الرسالة اى أعجب من نص المنتشر لأن مصائب الدنيا كثيرة. جمهرة أشعار العرب للقرشي ص ٥٦٨ تحقيق على محمد البجاوي .

(١) سورة النحل آية ١١٢ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٦٤ .

يقول : ((وهو قول الرجل إذا بالغ في عقوبة عبده : ذق أو كيف ذقته ؟ وكيف وجدت طعمه : وقال عز وجل : (ذق إنك أنت العزيز الكريم)[1] ، وأما قولهم : ماذقت اليوم ذواقا[2] على وجه من الوجوه ، ولا على معنى من المعاني ، ولا على سبب من الأسباب ، ولا على جهة من الجهات ، ولا على لون من الألوان وهذا من عجيب الكلام))[3] . فبين بكلامه هذا أن (ذق) خرجت عن أصل ما وضعت له في اللغة ودرج ذلك تحت اسم المجاز ، ولم يبين أنها خرجت عن أصل ما وضعت له في اللغة ولم يبين أنها استعارة ، بل أجاز الرجل لوكيله :

إيت فلانا فذق ما عنده[4] . وقال شماخ بن ضرار :

فذاق فأعطته من اللين جانبا كفى ، ولها أن يغرق السهم حاجز[5]

---

(١) سورة الدخان آية ٤٩ .
(٢) ذواق : هو المأكول والمشروب .
(٣) الحيوان ٥/ ٢٨ ، ٢٩ .
(٤) أي تعرف ما عنده وأخبره .
(٥) البيت من الطويل . ومعنى البيت : ذاق ذلك الرجل القوس ما شدتها وما لينها ، فوجدها على جانب كاف من اللين ، وذلك أحمد لها وأبعد لمرماها ، وقال : لها حاجز ، من الشدة المخالطة للين ، يمنع اغراق السهم ، وهو أن تصل حديدته الى كبد القوس ، فربما قطعت يد صاحبها انظر البيت في اللسان مادة (ذوق) ١٠ / ١١١٢ . والشماخ هو : الشماخ بن ضرار بن حرملة بن صيفي بن أصرم بن اياس بن عبد غنم ابن حجاشي بن بجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض الشاعر المشهور) ص ١٣٨ من الشعر والشعراء للمرزباني .
. (ويقال أن اسم الشماخ معقل بن ضرار وهو من أوصف الشعراء للقوس والحمر ، وأرجز الناس على بديهة .

وكان الشماخ جاهليا اسلاميا . وقال الحطيئة : أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان . وكان الشماخ خرج يريد المدينة فصحب عرابة بن أوس الأنصارى فسأله عرابة عما يريد بالمدينة ، فقال : أردت أن أمتار لأهلي وكان معه بعيران ، فأنزله واكرمه فقال فيه :
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمن
وله أخ اسمه مزرد وأمه وأم الشماخ من ولد الخرشب ، وفاطمة بنت الخرشب هي أم ربيع بن زياد وإخوته العبسيين الذين يقال لهم الكملة واسمها معاذة بنت خلف وتكن أم أوس) ١ / ٣١٥ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

واعتبر (الجاحظ) أن هذا الاستعمال قد جوزوا استعماله بهذا المعنى كما فعلوا بغيره يقول :

((وكما جوزوا لقولهم أكل وإنما عض ، وأكل وإنما أفنى ، وأكل وإنما أحاله ، وأكل وإنما أبطل عينه - جوزوا أيضا أن يقولوا : ذقت ما ليس بطعم ، ثم قالوا : طعمت ، لغير الطعام)) .[١]

والجدير بالذكر مع وضوح هذه المعاني في أذهان المتقدمين، انهم لم يطلقوا عليها اسم الاستعارة بالمفهوم الذى عرف فيما بعد كعلم مستقل له شأنه في علم البلاغة .

وكأن هذه الظلال التي كانت تحوم حول الاستعارة امتدت حتى عصر (ثعلب) (ت ٢٩١ هـ) إمام الكوفيين في النحو واللغة .

إذ اقتصر في الاستعارة بذلك التعريف الآنف الذكر وهو ((أن يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواه)) .[٢]

ويقول كذلك : ((الفار : الفرج في الجبل ، استعارة ها هنا)) .[٣]

وإن لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) في موضوع الاستعارة آراء حيث خصها بالذكر في كتاب (نقد الشعر) [٤] تحت عنوان المعاظلة .

كما ورد اسم الاستعارة في كتاب (نقد النثر) [٥] المنسوب لقدامة ابن جعفر ، ولقد درسها في كتاب (نقد الشعر) فبين الاستعارة المفيدة وغير المفيدة .

---

(١) الحيوان ٥/٣٢ .
(٢) قواعد الشعر لثعلب ص ٧٥ . تحقيق رمضان عبد التواب ، خفاجة دار المعارف ١٩٦٦م .
(٣) مجالس ثعلب ص ٣٩٥ .
(٤) انظر ص ١٧٤ من نقد الشعر .
(٥) انظر ص ٧١ من كتاب نقد النثر .

ولقد عبر عن هذه الأخيرة بقوله فاحش القول ، يقول في ذلك : ((وبقى النكير ، إنما هو في أن يدخل بعضه فيما ليس من جنسه وما هو لائق به ، وما أعرف ذلك إلا فاحش الإستعارة)). (١) ويقصد من ذلك أن يستعير اللفظ لما لا يناسبه من المستعار له لأنك تلبسه وتداخله فيما لا يتداخل فيه ،لأنه ليس من جنسه فمتى كانت الاستعارة من هذا القبيل أصبحت من فاحش القول . ومثال ذلك قول الشاعر أوس : (٢)

وذات هدم عار نواشرها
تصمت بالماء تولبا جدعا

فسمى الصبى تولباً ، وهو ولد الحمار . ومثل قول الآخر :

وما رقد الولدان حتى رأيته   على البكر يمريه بساق وحافر (٣)

فسمى رجل الانسان حافرا ،فإن ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لا عذر فيه)). (٤)

فقد عاب (قدامة) واستقبح أن تسمى رجل الانسان حافرا على سبيل الاستعارة ، ولا يجد عذرا مهما كان شافيا كافيا لهذه الاستعارة .

---

(١) نقد الشعر ص ١٧٤ لقدامه بن جعفر .

(٢) الشاعر هو : أوس بن حجر بن عتاب بن عبد الله بن عدى بن نمير بن أسيد بن عمرو بن تميم وهو المقدم عليهم . ويعده ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية . بل والمقدم عليهم : انظر طبقات فحول الشعراء ١ / ٩٧ (قال أبو عمرو بن العلاء : كان أوس فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه ،وقيل لعمرو بن معاذ وكان بصيرا بالشعر : من أشعر الناس ؟ فقال : أوس ،قيل : ثم من ؟ قال : أبو ذؤيب . وكان أوس عاقلا في شعره ، كثير الوصف لمكارم الأخلاق . وهو من أوصفهم للحمر والسلاح ولا سيما للقوس وسبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة) ١ / ٢٠٢ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٣) البيت من الطويل .

(٤) المصدر نفسه ١٧٥ .

ونجد (ابن قتيبة) قد استشهد بهذا البيت ،دون أن يشير إلى تسمية هذا النوع ، فيقول :

((كما قال الآخر ،وذكر ضيفا طرقه :

فمارقد الولدان حتى رأيته
على البكر يمريه بساق وحافر

فجعل الحافر موضع القدم)) .(١)

فلم يعلق على هذا البيت ، أو يناظره بشيء ، ولم ينبه إلى أنه مبالغة في الذم ، يستعار الحافر لقدم الإنسان ومنه قوله سبحانه (سنسمه على الخرطوم) (٢) .((وذهب بعض المفسرين فيه إلى أن الله عز وجل يسم وجهه يوم القيامة بالسواد .

تقول العرب للرجل يسب الرجل سبة قبيحة أو نهشوا عليه فاحشة : ((وقد وسمه بميسم سوء)) يريدون ألصق به عارا لا يفارقه ، كما أن السمة لا ينمحي ولا يعفو أثرها)) .(٣)

بينما نجد (ابن قتيبة) في هذه الآية الكريمة ، قد قال : إن الاستعارة هنا في موضع الذم والتقبيح .

ولقد حد الاستعارة التي يرضى عنها ، والتي يمكن أن يقال فيها أنها من الاستعارة : ((من المحال أن تنكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه من وجه ، أو ما كان من جنسه)) .(٤)

أى لا بد أن تكون هناك صلة فيما بين المستعار والمستعار له وذلك

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٥٣ .

(٢) سورة القلم آيه ١٦ . (٣) المصدر نفسه ص ١٥٦

(٤) نقد الشعر لقدامه بن جعفر ص ١٧٤ .

لتداخل صفات الأشياء فيما بينها .

ولقد استشهد (قدامة) لهذا الصنف ، بقول (امرئ القيس) وعده من الاستعارة التي ليس فيها شناعة ، يقول :

((وقد استعمل كثير من الشعراء الفحول المجيدين أشياء من الاستعارة ليس فيها شناعة كهذه ، وفيها لهم معاذير إذا كان مخرجها مخرج التشبيه ، فمن ذلك قول (امرئ القيس) :

فقلت له لما تمطى بصلبه

وأردف اعجازا وناء بكلكل

فكأنه أراد أن هذا الليل في تطاوله كالذى يتمطى بصلبه لا أن له صلبا ، وهذا مخرج لفظه إذا تؤمل)) .(١)

ولقد عده كذلك (القاضي الجرجاني) واستشهد له في باب الاستعارة حيث يقول : ((ومثل هذه الألفاظ قول امرئ القيس ، يريد الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه .

وأردف اعجازا وناء بكلكل

فجعل له صلبا وعجزا وكلكلا ، لما كان ذا أول وآخر وأوسط مما يوصف بثقل الحركة ، إذا استطيل ، وبخفة السير إذا استقصر ، وكل هذه الألفاظ مقبولة غير مستكرهه ، وقريبة المشاكلة ظاهرة المشابهة)) .(٢)

ولقد كان هذا رأى (الآمدى) في البيت نفسه ، حيث يقول :

((وقد عاب امرئ القيس بهذا البيت من لم يعرف موضوعات المعاني والاستعارات ولا المجازات . وهو في غاية الحسن والجودة والصحة .. إلى أن يقول -

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧٥ .

(٢) الوساطة ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .

وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة ، لشدة ملاءمة معناها لمعنى ما استعيرت له)).[1]

والجدير بالذكر أن الدكتور (عبد المنعم خفاجي) ، قد فهم هذا المعنى على غير وجهه أى أن (قدامة) قد استشهد به في موضع فاحش الاستعارة . وهذا لم يكن من (قدامة) . يقول :

((يعيب (قدامة) هذا البيت ، وهو في عرف جميع النقاد من أروع الصور الشعرية)).[2]

وإن إعجابه بهذا النوع من الاستعارة امتد حتى عرج على دروب الاستعارة المكنية ، دون أن يصرح باسمها ، ولم يسمها لأنه حتى عهده لم توضع مسميات هذه العلوم كما هي عليه في عهد (عبد القاهر) ومن بعده ، يقول ((ومن الاستعارة ما قدمناه من انطاق الربع وكل مالا ينطق ،إذا ظهر من حاله ما يشاكل كل النطق ، ومما جاء من هذا النوع في القرآن قوله : (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد).[3]

لما جاز أن تحتمل مزيدا من الكافرين حسن أن يقال ، قالت هل من مزيد ؟

وكذلك قوله : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أوكرها ، قالتا أتينا طائعين)[4] ، وذلك لما كانتا عن إرادته من غير استصعاب عليه ، ولا عصيان له ، جاز أن يقال : انهما قالتا أتينا طائعين . وكذلك قوله : (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه)[5] ، لما كانت الإرادة من أسباب الفعل ، وكان

---

(١) الموازنة ٢ / ٢٦٦ .

(٢) حاشية نقد الشعر ص ١٧٥ .

(٣) سورة ق آيه ٣٠ .

(٤) سورة فصلت آيه ١١ .

(٥) سورة الكهف آيه ٧٧ .

وقوع الفعل يتلوها ، جاز لما قد كاد أن يقع وقرب وقوعه ، أن يقال أراد أن يقع)). (١)

و (القاضي الجرجاني ت ٣٦٦ هـ) لم يفرد في مصنفة الوساطة بابا عن الاستعارة ، ولكنه أعطى رأيه فيها من خلال مناقشة بعض الموضوعات .

(فالقاضي) عرف وبين ما أهمية الاستعارة في الشعر وما الذى تفعله في المعاني ، وما تضيفه إلى الشعر ، يقول : ((وقد علمت أن الشعراء قد تداولوا ذكر عيون الجآذر ، وتواظر الغزلان ، حتى إنك لا تكاد تجد قصيدة ذات نسيب تخلو منه إلا في النادر الفذ ، ومتى جمعت ذلك ثم قرنت إليه قول امرئ القيس (٢) :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى   بناظرة من وحش وجرة مطفل

أو قابلته بقول عدى بن الرقاع : (٣)

وكأنها بين النساء أعارها
عينيه أحور من جآذر جاسم

رأيت اسراع القلب إلى هذين البيتين ، وتبينت قربهما منه ، والمعنى واحد ، وكلاهما خال من الصنعة ، بعيد عن البديع ، إلا ما حسن به من الاستعارة اللطيفة ، التي كسته هذه البهجة ، هذا وقد تخلل كل واحد منهما من حشو الكلام ما لو حذف لا ستغنى عنه ، وما لا فائدة في ذكره)) .(٤)

فالبيتان لأمرئ القيس ، وعدى بن الرقاع ، فيهما من الجمال والروعة ما لو فتشنا عن سر جماله ، لوجدناه خاليا من كل حسن سوى الاستعارة التي

---

(١) نقد النثر لابن وهب ، ص ٧٢ ، ٧٣ .
(٢) البيت من الطويل .
(٣) البيت من الكامل . وعدى بن الرقاع .. هو عدى بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع . من عاملة حي من قضاعه ، وكان ينزل الشام ، وكانت له بنت تقول الشعر ، وأتاه ناس من الشعراء ليهاتنوه وكان غائبا عن =
(٤) الوساطة ص ٣١ ، ٣٢ .

أضفت عليه الرونق وكسته تلك الخلابة . ومع ذلك فلا يبهر القارئ ، لأنهما ذكرا أسماء الأماكن لاقامة الوزن ، وهي حشو لا فائدة فيهما ، ولأنه ليس من فضل لمكان على مكان . ولقد بين في هذه العبارة ، أن الاستعارة لها فضل على الشعر وهي تعد عنده من البديع .

يقول مرة أخرى في فضل الاستعارة كنوع من البديع : ((وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت ، على غير تعمد وقصد ، فلما أفضى الشعر الى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسيء ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط)) (١) .

ولقد مثل (القاضي) للاستعارة الحسنة من عيون الشعر ومن الأمثلة التي سارت بعده في كتب البلاغيين . ولكن الفرق أنه لم يجر عليها الاستعارة يقول :

((فاذا جاءتك الاستعارة ، كقول زهير (٢) :

= منزله ، فسمعت ابنته وهي صغيرة لم تدرك ، ذروا من وعيدهم اليهم وهي تقول :

تجمعتم من كل أوب وبلدة على واحد ، لا زلتم قرن واحد

فانصرفوا عنه ولم يهاجوه) ٢ / ٦١٨ الشعر والشعراء .

الجؤذر : ولد البقرة . جاسم : اسم موضع بالشام .

(١) والوساطة ص ٣٤ .

(٢) هذا البيت من الطويل ، وزهير بن أبي سلمى هو زهير بن ربيعة بن قرط والناس ينسبونه الى مزينه ، وانما نسبه في غطفان ، وليس لهم بيت شعر ينتمون فيه الى مزينة الا بيت كعب بن زهير وهو قوله :

هم الأصل مني حيث كنت وانني من المزنيين المصغين بالكرم

ويقال انه لم يقل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير ، وفي الاسلام ما اتصل في ولد جرير . وكان زهير راوية أوس بن حجر (١ / ١٣٧ الشعر والشعراء .

صحا القلب عن سلمى و أقصر باطلــه
وعرى أفراس الصبــا ورواحلـه

و قول لبيــد : (١)

وغداة ريح قد كشــف و قــرة
إذ أصبحــت بيد الشمال زمامها

و قول يزيد بن الطثريــة : (٢)

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـــا
و سالت بأعناق المطى الأباطـــح

و قول أبي نواس : (٣)

اعطتك ريحانها العقــار وحان من ليلك انسفــار

فقد جــاء الحسن والاحسان ، وقد أصبت ما أردت من أحكـــام الصنعــة وعذوبة اللفــظ. (٤)

كما مثل للاستعارة السيئة بما اشتهر من الأبيات ، يقول : فــإذا سمعت بقول أبي تمام :

باشرت أسباب الغنى بمدائــح
ضربت بأبواب الملوك طبــولا (٥)

---

(١) البيت من الكامل . انظر معجم شواهد العربية ص ٣٥٧ .
(٢) البيت من الطويل . انظر معجم شواهد العربية ص ٨٤ .
(٣) البيت من البسيط .
(٤) الوساطة ص ٣٥ - ٣٩ .
(٥) البيت من الكامــل .

وبقولـــه :

يا دهر قـوم من أخذ عيك فقد
أضججت هـذا الأنام من خرقك (١)

فاسدد مسامعك ، واستفش ثيابك ، وإياك والاصغاء اليه ، واحذر الإلتفات نحوه ، فإنه مما يصدئ القلب ويعميه ويطمس البصيرة ، ويكد القريحة)) .(٢)

كما أسهم (القاضي الجرجاني) في وضع حد مقنن لتعريف الاستعارة من خلال تفريقه بين الاستعارة والتشبيه وهي من المواضع التي قد تعسر الفهم ، وتختلط على بعض الناس . يقول :

((وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكروا أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس :

والحب ظهر أنت راكبـــه فإذا صرفت عنانه انصرفـا (٣)

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر ، أو الحب كظهر ، تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء ، وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت مكان غيرها ، وملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه . امتزج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في إحداهما إعراض عن الآخر)).(٤)

---

(١) البيت من المنسوح .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٩ .
(٣) البيت من البسيط .
(٤) الوساطة ص ٤١ .

وحد الاستعارة أنها مناسبة المستعار له للمستعار وامتزاج اللفظ بالمعنى ، حتى يمكن أن يعبر بالمستعار عن المستعار له ، فهذا المعنى قد سبق به (قدامة بن جعفر ت ٣٣٧ هـ) وقرره في الأخذ بالاستعارة وقد نوه (القاضي الجرجاني) بالاستعارة المكنية .

ولقد ذكر (القاضي) هذا النوع في دفاعه عن (أبي الطيب المتنبي) عندما عاب عليه أحدهم قوله :

مسرة في قلوب الطيب مفرقها
و حسرة في قلوب البيض واليلب [1]

وقوله [2] :

تجمعت في فؤاده همم ملء فؤاد الزمان احداها

وكان محل انتقاد الناقد أن جعل للزمان فؤادا وجعل للطيب والبيض واليلب قلوبا ، وحجته أن هذا النوع من الإستعارة ، ليس فيها وجه مشابهة قريبة ولا بعيدة .

يقول (القاضي) في أثناء سرد المحادثة بينه وبين محدثه : ((فقال جعل للطيب والبيض قلوبا وللزمان فؤادا ، وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد ، وإنما تصلح الاستعارة ، وتحسن على وجه من المناسبة وطرف من الشبه والمقاربة)) .[3]

فما كان رد (القاضي) إلا أن قال : لم لا تصلح هذه الاستعارة من (أبي الطيب) وقد سبقه بها (ابن أحمر حين قال : [3]

---

(١) البيت من البسيط وفي الديوان ١ / ٩٠ بشرح أبي البقاء العكبرى ط الاخيرة ١٣٩١ هـ اليلب : الدروع اليمانية تتخذ من الجلود يخرز بعضها ببعض الواحدة يلبة المعنى : ((يريد أن البيض والدروع يتحسران عليها بتركها لبسهما لأنهما من ملابس الرجال الأبطال ، والطيب يسر باستعمالها له . واستعاره لهما (قلوبا) مجاز لوصفه لهما بالمسرة والحسرة .

(٢) البيت من البسيط .

(٣) الوساطة ص ٤٢٩ .

و لهت عليه كل معصفـــة
هو جاء ليس للبها زيـــــر

((فما الفصل بين من جعل للريح لبا ، و من جعل للطيب والبيض قلبـا.
و هذا (أبو رميلة) يقـــول : (١)

هم ساعد الدهر الذى يتقى به
وما خير كف لا تنـــوء بساعد

و هذا الكميـــت يقـــول : (٢)

و لما رأيت الدهر يقلب ظهره
على بطنه فعل الممعك بالرمـل

---

(١) البيت من الطويل و قائله أبو رميلة : وهو الأشهب بن رميلة وهـــي أمه ، و الأشهب بن ثور بن أبي حارثة بن المنذر بن جندل بن نهشـل ابن دارم بن مالك بن زيد مناه بن تميم وكان يكنى أبا ثور شاعر محســـن متمكن. و الاشهب بن رميلة القائل في قصيدة يمدح بها اسحاق بن البـراء ابن شريك الأنصارى ، و هي تروى لابن رميلة الضبى لاتفاق الاسمـــين في رميلة. الشعروالشعراء للمرزباني ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) البيت من الطويـل و قائله هو الكميت بن زيد ، من بني أسد ، و يكـنى أبا المستهل و كان معلما و حدثنا سهل عن الأصمعي عن خلف الأحمـر قال : رأيت الكميت بالكوفة في مسجد يعلم الصبيان . و كان اصـم أصلغ لا يسمع شيئا . و كان بينه و بين الطرماح من المودة والمخالطـة مالم يكن بين اثنين . و كان الكميت شديد التكلف في الشعر ، كثيـر السرقة) ٢ / ٥٨١ الشعر والشعراء .
الممعـك : المتمـــرغ .

و(شاتم الدهر العبقي) ، يقول (١)

ولما رأيت الدهر وعرا سبيله
وأبدى لنا ظهرا أجب مجدعا

ومعرفة حصاء غير مفاضة
عليه ولونا ذا عثانين أجدعا

وجبهة قرد كالشراك ضئيلة
وصعّر خديه وأنفا مجدّعا

فهؤلاء قد جعلوا الدهر شخصا متكامل الأعضاء تام الجوارح فكيف أنكرت على ابي الطيب أن جعل له فؤدا ، فلم يحر جوابا غير أن قال : أنا استبرت (٢) ، ووجدت بين استعارة(ابن أحمر) للريح لبا ، واستعارة أبي الطيب للطيب قلبا ، بونا بعيدا ، وأصبت بين استعمال ساعد الدهر في بيت ابن رميلة واستعمال فؤاد للزمان في بيت (أبي الطيب)فصلا جليا)) (٣)

فهذه الاستعارات التي أقرها (القاضي الجرجاني) ودافع عنها واستشهد لها بعيون شعر المتنبي ، ودافع عن رأيه بقول الكميت وشاتم الدهر (العبقي) .

وهذه ما تعرف بالاستعارة المكنية ، وإن لم يسمها . ولم يزد (الآمدى ت ٣٧٠ هـ) على سابقيه كثيرا ، فقد نقل تعريف الاستعارة التي ترددت أصداؤه في كتب سابقيه .

يقول الآمدى :

---

(١) البيت من الطويل .
(٢) استبرت : استبر الشيء : خبره . والسبر استخراج الأمر كالاستبار انظر اللسان مادة (سبر) ٤/٣٤٠ .
(٣) الوساطة ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

((إنما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له ، إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سببا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذى استعيرت له ، وملائمة لمعناه)). (١)

يقصد لابد في الاستعارة من أن يكون بين المستعار والمستعار له مناسبة ومشابهة ، وأن يكون المستعار من جنس المستعار له .

ولقد انتقد الدكتور (شوقي ضيف) (الآمدى) في تعريفه للاستعارة ذلك لأنه يرى (الآمدى) ((مخطيئا في هذه القاعدة التي وضعها للاستعارة ذلك أنه أدخل في حيز الاستعارة ما سماه العرب بالاستعارة المكنية)). (٢)

وإني لا أرى رأى الدكتور (شوقي) ، ذلك أن هذا التعريف قد سار في كتب العلماء الأوائل كحد للاستعارة ، ولم يعترض هو أو غيره على هذا المفهوم للإستعارة .

واستشهد له بقول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعرى أفراس الصبا ورواحله

لما كان من شأن ذى الصبا أن يوصف أبدا بأن يقال ركب هواه وجرى في ميدانه ، وجمح في عنانه ، ونحو هذا حسن أن يستعار للصبا اسم الأفراس ، وأن يجعل النزوع عنه أن تعرى أفراسه ورواحله

---

(١) الموازنة ١ / ٢٦٦

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٠ .

وكانت هذه الاستعارة من أليق شيء بما استعيرت له)). (١)

ولقد استشهد (الآمدى) لنوعي الاستعارة (المكنية) و(التصريحية) ولكن لم يشر إلى ذلك ، بل كان وقوفه عند بيان جمال الاستعارة وكيف أنها طابقت الواقع .

يقول : ((ونحو ذلك قول أبي ذؤيب : (٢)

وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

لما كانت المنية إذا نزلت بالإنسان وخالطته صلح أن يقال : نشبت فيه ، وحسن أن يستعار لها اسم الاظفار ، لأن النشوب قد يكون بالظفر وعلى هذا جاءت الاستعارات في كتاب الله تعالى)). (٣)

---

(١) الموازنة ١ / ٢٦٧ .
(٢) البيت من الكامل وقائله : هو خويلد بن خالد ، جاهلي إسلامي وكان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي وخرج مع عبد الله بن الزبير في مغزى نحو المغرب ، فمات ، فدلاه عبد الله بن الزبير في حفرته وكان أبو ذؤيب يهوى امرأة من قومه ، وكان رسوله إليها رجلا من قومه يقال له خالد بن زهير ، فخانه فيها. انظر ٢ / ٦٥٤ الشعر والشعراء . وقد ذكر هذا البيت في قصيدة له في جمهرة أشعار العرب ، وقد عد أبو ذؤيب في الطبقة الخامسة وهي من المراثي يقول على محمد البجاوي محقق الكتاب: قتل له ثمانية بنين ، وقيل هلكوا بالطاعون وكانوا عشرة . البيت ٩ ص ٥٣٦ أنشبت : أعلقت التميمة : التعويذة والبيت في المفضليات ص ٤٢٢ وقال المحقق عن هذه القصيدة : (هي في الذروة العليا من الشعر) حاشية ص ٤٢٠ .
(٣) الموازنة ١ / ٢٦٨ .

وحتى هذه الفترة ، نهاية القرن الرابع ، لم تسم أنواع الاستعارات ، بل كل ما عرف حدها وأقسامها من حيث الفاحش والمقبول والاستعارة التهكمية ، أما بقية الأسماء ، فلم تعرف الفرق بين (الاستعارة) و (التشبيه) الا عند (القاضي الجرجاني) على نحو ما مر بنا .

والجدير بالملاحظة أن أغلب الأمثلة تردد من لدن (الفراء) حتى عهد (عبد القاهر) ، حيث كانت شواهده في الاستعارات مستقاة من نهر غذته روافد علم أولئك العلماء ، وسأتابع بقية العلماء مثل (ابن فارس) ، (الرماني) ، (أبي هلال) . مبوبا ، له أسماء تفصل كل مختلف عن مخالفه ، وتصل كل متشابه الى شبيهه ، فنجد دقة الوصف والتعبير ، وفي خلال ذلك نجده يعترف بأخذه ممن أخذ ، ويشير الى أسمائهم والى كتبهم .

والآن وعند استرجاع ما كتبه السابقون على (الرماني) في (الاستعارة) وجدناه لم يزد على ما كتبه أولئك المتقدمون من حيث وضع القواعد والتعريفات بل سار على طريقهم وان اختلف الأسلوب . . فالمفهوم واحد .

وليس معنى هذا أن (الرماني) لم يقدم جديدا البتة وخاصة أن هذا العلم على وشك النضوج ، فلم يجد (الرماني) ما يضيف الا ما أوحته تلك الأمثلة وما دلت عليه مختلف التعريفات والشروح التي تقدم بها العلماء .

فكان (الرماني) اذا قاب قوسين أو أدنى من ارتشاف رحيق تلك الثمار فبين لنا الاستعارة ومعناها الحقيقي وشرح لنا ما تضفيه على المعنى من زيادة في التأكيد ، كما وضح السر البلاغي في اختيار ألفاظ الاستعارة ، وأن لها من قوة التصوير ما يجعلها تتقدم على الحقيقة . ثم بين لنا الأثر النفسي للاستعارة ، وهذه المباحث هي ما عني به الشيخ (عبد القاهر) ، وهي ما جعلت علوم البلاغة تزدهر وتكسب حظها الحقيقي من الاعجاب .

ويقول الرماني : ((والفرق بين الاستعارة والتشبيه أن ماكان من التشبيه بأداة التشبيه في الكلام ، فهو على أصله لم يغير عنه في الاستعمال ،

وليس كذلك الاستعارة لأن مخرج الاستعارة ما العبارة ليست له في أصل اللغة)) .(١)

يقول ما ذكرت فيه الأداة فهو تشبيه لكن الاستعارة ليس كذلك ، أي أنها موضوع أكبر من حذف أداة التشبيه وبقائها ، بل الاستعارة هي اضفاء صفة على شيئين مختلفين ، فجمعت هذا الصفة بينهما فقربتهما ، يقول :
((وكل استعارة بليغة فهي جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما)) .(٢)

((بينما التشبيه بأداته الدالة عليه في اللغة) .(٣)

وإن كان تعريف (الرماني) للاستعارة مصيبا إلا أنه ليس تاما في تعريف التشبيه ، لأنه الزمه بذكر الأداة وقد يكون التشبيه بدون ذكر الأداة كما في قول (ابي نواس) الآنف الذكر .

وسأستعرض الآيتين من القرآن الكريم والتي تعرض لذكرها (الرماني) وكيف أوحت إلى (الشيخ عبد القاهر) بكيفية إجراء الاستعارة بالشكل الذى يوضح الهدف منها ، فما كانت في الوعيد مثلا نجدها أبلغ في الزجر والتهديد .

والتي في بيان حقيقة وتجسيد صورة تكون أبرز وألصق بالنفس ، لأنها مرتبطة بصورة معروفة لدى السامع ، كما في مثل قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا) .(٤)

((اصل الاشتعال للنار ، وهو في هذا الموضع أبلغ ، وحقيقته كثرة شيب الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدا سريعا صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النار ، وله موقع في البلاغة عجيب ، وذلك أنه

---

(١) النكت ص ٨٥ ، ٨٦

(٢) ، (٣) النكت في اعجاز القرآن ص ٨٦ .

(٤) سورة مريم آيه ٤

انتشر في الرأس انتشارا لا يتلافى كاشتعال النار)).(١)

فجمال الاستعارة يكمن في الصورة التي نتجت من اظهار صورة الشيب وتجسيمها وتجسيدها كالنار التي تشتعل فتأتي على كل يابس بسرعة وإحاطة شاملة ، كذلك الشيب ، وهو مالم نجده إلا لدى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) بعده .

وكذلك في قوله تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق).(٢)

((فالقذف والدفع هنا مستعار ، وهو أبلغ وحقيقته : بل نورد الحق على الباطل فيذهبه ، وإنما كانت الاستعارة أبلغ لأن في القذف دليلا على القهر لأنك إذا قلت : قذف به إليه . فإنما معناه ألقاه إليه على جهة الاكراه والقهر والاضطرار ، لا على جهة الشك والإرتياب ويدفعه أبلغ من يذهبه لما في يدفعه من التأثير فيه فهو أظهر في النكاية وأعلى في تأثير القوة)).(٣)

ولقد أخذ العلماء بعد (القاضي الجرجاني) (والرماني) في دحض قول كل قائل أن التشبيه لا يكون إلا بأداة التشبيه ، اعتمادا منهم على أمثلة من التشبيه ليس فيها أداته .

فهذا (ابن سنان الخفاجي) (ت ٤٦٦ هـ) يقول : ((وليس يقع الفرق عندى بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعة له .

---

(١) النكت في اعجاز القرآن ص ٨٨ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٢١ .

(٣) النكت في اعجاز القرآن ص ٨٨ ، ٨٩ .

ويكون حسنا مختارا ، ولا يعده أحد في جملة الاستعارة لخلوه من التشبيه ، ومن هذا القول : (١)

سفرن بدورا وانتقبن أهلة
ومسن غصونا والتفتن جآذرا

وقول الآخر :

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت
وردا وعضت على العنا بالبرد (٢)

وكلاهما تشبيه محض ، وليس باستعارة ، وإن لم يكن فيها لفظ من ألفاظ التشبيه)) (٣).

وإن قصر (الرماني) في إدراكه التشبيه ، أو كانت له وجهة نظر خاصة ، فإن حقيقة الاستعارة هو الذى أدركها وتوصل إلى سرها البلاغي وكشف النقاب عن مدلول آيات كثيرة في القرآن الكريم ، تخطاها قبله كثير من العلماء حيث لم يقفوا على سر الإستعارة الحقيقي ، بل أثبت أنها أفضل من الحقيقة ، يقول في ذلك : ((وكل استعارة حسنة فهي توجب بيانا لا تنوب منابه الحقيقة . وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة ، كانت أولى به ولم تجز الاستعارة ، وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة ، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة)) (٤) .

هنا فكرتان وكلتاهما في تراث الشيخ ((عبد القاهر . الأولى : أن ما تؤديه الاستعارة لا تقوم مقامه الحقيقة . الثانية : كل استعارة لا بد لها من حقيقة .

---

(١) قائل هذا البيت أبو القاسم الزاهي . والبيت من الطويل .

(٢) البيت من البسيط وقائله الوأوأ الدمشقي وقد سبقت ترجمته وقيل ليزيد ابن معاوية .

(٣) سر الفصاحة .

(٤) النكت في اعجاز القرآن ص ٨٦ .

وقد استقاها (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) من (الرماني) ومن غيره ، ولقد صرح بذلك حين قال : ((ومن أجل أن كان الأمر كذلك رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبدا أبلغ من الحقيقة)) (١) . ولكن الشيخ (عبد القاهر) لم يصرح بهذه المقالة الا بعد أن بين من أى جهة كان تفضيل الاستعارة ، وأثبت هذا الرأى حين قال : ((واعلم أنك ترى الناس وكأنهم يرون انك إذا قلت : رأيت أسدا : وأنت تريد التشبيه ، كنت نقلت لفظ أسد عما وضع له في اللغة واستعملته في معنى غير معناه ، حتى كأن ليس الاستعارة الا أن تعمد إلى اسم شيء فتجعله اسما لشبيهه ، وحتى كأن لا فضل بين الاستعارة وبين تسمية المطر سماء ، والنبت غيثا والمزادة راوية وأشباه ذلك مما يوقع فيه اسم الشيء على ما هو منه بسبب . ويذهبون عما هو مركوز في الطباع من أن المعنى فيها المبالغة ، وأن يدعى في الرجل أنه ليس برجل ولكنه أسد بالحقيقة ، وأنه يعار اللفظ من بعد أن يعار المعنى ، وأنه لا يشرك في اسم الأسد إلا من بعد أن يدخل في جنس الأسد . لا ترى أحدا يعقل إلا وهو يعرف ذلك إذا رجع إلى نفسه أدنى رجوع)) (٢) .

أى أن الاستعارة إنما قدمت على الحقيقة ، لأنها ليست مجرد نقل اسم من شيء ، بل ان معنى الاستعارة المبالغة في ادعاء الاسم ، فيدعى في قولهم (رأيت أسدا) أنه أسد بالحقيقة لأن الرجل لا نشركه في اسم الأسد ، الا بعد أن يدخل في جنس الأسد .

وبالحق فقد نضجت العلوم في عهد (الرماني) كثيرا ، فوجدت من القرآن الكريم مادة تفتقت بين يديها القرائح واستلهمت النفوس من سحر بيانه ، فأخذ العلماء يغرفون من بحره الذى لا ينضب .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٩١ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٩١ .

(فالرماني) ليثبت مدى تأثير الاستعارة في النفوس وفي توصيل المعنى إلى القلوب والعقول استشهد بعدد كبير من آيات القرآن الكريم، وشرح سرها البلاغي بما لم يسبقه به أحد .

ومن أتى بعده (كابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) و (ابن فارس ت ٣٩٥ هـ) لم يضيفا جديدا ، ولم يأخذا ما كتب وألف عن الاستعارة إلاّ اشارات لم تعن (لعبد القاهر الجرجاني) كثيرا ، وكذلك (أبو هلال العسكرى) و (الباقلاني) .

خاصة جهود عبد القاهر الجرجاني في الاستعارة :

لقد كانت فضيلة الاستعارة لدى (الشيخ عبد القاهر) موضوعا ذا أهمية بالغة ، لذلك أفرد لها في كتاب أسرار البلاغة بابا خاصا ، ومن ثم أخذ في درس الاستعارة دراسة واعية فقسمها قسمين :

أ - الاستعارة المفيدة .
ب - الاستعارة غير المفيدة .

ذلك لأنه لحظ تفاوتا في جمال بعضها ، وكذلك تفاوتا في قوة تصوير المعنى ، ونقله من صورة إلى صورة .

لذلك وضع الاستعارات التي ليس فيها صنعة بديعة تحت اسم الاستعارة غير المفيدة .

وهي التي ((تكون حيث تراهم قد وضعوا للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان كوضع الشفة للإنسان والمشفر للبعير ،والجحفلة للفرس ، وما شاكل ذلك ، فإذا استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذى وضع له ، فقد استعاره منه ، ونقله عن أصله ، وجاز به موضعه ، كقول العجاج (وفاحما ومرسنا مسرجا) يعنى أنفا برق كالسراج والمرسن في الأصل للحيوان ، لأنه الموضع الذى يقع عليه المرسن ، وقال الآخر يصف ابلا :

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريديها وبين الجحفل (١)

فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا لو لزمت الأصلي لم يحصل لك ، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله : من شفتيه وقوله من جحفلتيه ، لو قاله . إنما يعطيك كلا الاسمين للعضو المعلوم فحسب ، بل الاستعارة ها هنا بأن تنقصك جزءًا من الفائدة أشبه ، وذلك أن الاسم في هذا النحو إذا نفيت عن نفسك دخول الاشتراك عليه بالاستعارة دل ذكره على العضو وما هو منه)). (٢)

فالاستعارة لابد فيها من زيادة أو تأكيد من وضع الاسم الجديد لما يدل عليه ، فإذا لم يحصل ذلك لم تكن الاستعارة غير مفيدة لأنها لم تزد على تغيير الاسم شيئا يقول :

((اعلم أنه اذا ثبت أن اختصاص المرسن بغير الآدمي لا يفيد أكثر مما يفيده الأنف في الآدمي ، وهو فصل هذا العضو من غيره ولم يكن باستعارته للآدمي مفيدا مالا يفيده بالأنف ، لم يتصور أن يكون استعارة من جهة المعنى)). (٣)

أما القسم الآخر من الاستعارة ، فهو الاستعارة المفيدة ويقول :

---

(١) قائل هذا البيت ابوالنجم العجلي والبيت من الرجز المسحل : حمار الوحش له حشرجة ، يشبهون به كثيرا . انظر اللسان مادة (سحل) ٣٢٩/١١ .

وأبو النجم العجلي اسمه الفضل بن قدامة بن عبيد بن عبد الله بن عبده ابن الحارث بن عجل مقدم عند جماعة من أهل العلم على العجّاج . عاش حتى ولاية هشام بن عبد الملك ، وكان من الرجاز المجيدين . انظر ٣/١ معجم الشعراء للمرزباني ، انظر ٦٠٣/٢ من الشعر والشعراء انظر ٧٤٥/٢ من طبقات فحول الشعراء .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٢٥ .

((واما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني ، وغرض من الأغـــراض)). (١)

وقد يلتبس المعنى في بعض الاستعارات ، فتبدو لأول وهلة وكأنهـــا استعارة غير مفيدة ، وهو في الواقع من الاستعارة المفيدة ، وذلك كمـــا في قولهم : ((إنه لغليظ الجحافل ، وغليظ المشافر وذلك أنه كـــلام يصدر عنهم في مواضع الذم ، فصار بمنزلة أن يقال : كأن شفته في الغلـظ مشفر البعير ، وجحفلة الفرس وعلى ذلك قول الفرزدق :

فلو كنت ضبيـــا عرفت قرابتي

ولكن زنجيا غليظ المشافـــر (٢)

فهذا يتضمن معنى قولك : ولكن زنجيا ، كأنه جمل لا يعرفـــني ولا يهتدي لشرفي)). (٣)

ولقد علق(الدكتور أحمد بدوي)على هذا البيت قائلا :

((فهنا استخدم كلمة المشافر للإنسان ، وهي للجمل لأنه يريد أن يشبـــه الزنجي العبد بالجمل في أنه لا يفرق بين الرفيع والوضيع)). (٤) .

واني لا أرى أن الشاعر أراد التشبيه بالجمل ، إنما شبه شفته فقط بالمشفر لتحقق زنجيتـــه ، حينئذ يتهمه بالغباء ، لا أنه يشبه الجمل فـــي أنه لا يفرق بين الرفيع والوضيع ، كما يقول (عبد القاهـــر) ((لا يهتدي لشرفي)) ، لأنه لا خصوصية للجمل من بين سائر الحيوانات في هذا

ولقد استشهد(ابن قتيبة)بقول العرب : ((والعرب تقول للرجـــل

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤ .

(٢) البيت من الطويـــل . انظر اللسان مادة (شفر) ٤/ ٤١٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧ .

(٤) عبد القاهر الجرجاني ص ١٩٦ .

هو غليظ المشافر تريد الشفتين و المشافر للابل)). [1]

و قد استشهد به على سبيل الاستعارة ، وكذلك القول في قول الحطيئة :

قروا جارك العيمان لما جفوته
و قلص عن برد الشراب مشافره [2]

ولقد استشهد به (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، و (ابن قتيبة) على أنه من الاستعارة [3].

أما قول مزرد :

فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر [4]

فإنه رأى في قوله : ((يمريه بساق و حافر)) أن الشاعر أراد :

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٥٤ .

(٢) البيت من الطويل .و الحطيئة : ((هو جرول بن أوس بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان)) ص ٦٥٧ جمهرة أشعار العرب للقرشي العيمان : العطشان إلى اللبن أشد العطش . معنى البيت : لما لم يقدروا على شرب الماء من شدة البرد ، قروه سناما و لبنا محضا ، يقولون لو وقع عليه طائر ما شبع من لحمه من شدة هزاله ، و المحض من اللبن مالم يخالطه الماء .

(٣) في الاسرار ص ٢٧ ، ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص ١٥٤ .

(٤) البيت من الطويل وقائله مزرد : واسمه يزيد بن ضرار أخو الشماخ ، (ويقال انما سمي مزردا لقوله في زبدة الزق

فجاءت بها صفراء ذات أسرّة
تكاد عليها ربة النّحي تكمد

فقلت : تزردها عبيد فإنني لدُرد الشيوخ في السنين مزرِّد

النحي : الزق الذى يجعل فيه السمن خاصة . تكمد : يتغير لونها و يذهب صفاؤها و أمه و أم الشماخ من ولد الخرشب ، و فاطمه بنت الخرشب هي أم ربيع بن زياد وإخوته العبسيين ١ / ٣١٥ الشعر والشعراء .

((أن يجعل قدمه حافرا ، ليعطيه من الصلابة وشدة الموقع على جنب البكر حظا وافرا)) .[١]

فإننا نستنبط من هذا أن الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) يوافق على استعارة الحافر للقدم في هذا البيت ، وكذلك فعل (ابن قتيبة) فلم يزد على أن قال : ((فجعل الحافر موضع القدم)).[٢]

ونجد (قدامة بن جعفر) يستهجن هذا الصنف من الاستعارة ، وعدها من فاحش الإستعارة : ((فسمى رجل الإنسان حافرا فإن ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لا عذر فيه)).[٣]

ولقد كان تصور (الشيخ عبد القاهر) للاستعارة أعمق بكثير من سابقيه إذ قسم الاستعارة المفيدة والتي هي مدار بحث موضوع الاستعارة عنده : قسمين وذلك بعد أن بين السبب في اهتمامه بها ، إذ يقول :

((اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول وهي أمد ميدانا ، وأشد افتتانا ، وأكثر جريانا ، وأعجب حسنا وإحسانا وأوسع سعة وابعد غورا ، وأذهب نجدا في الصناعة ، وغورا من أن تجمع شعبها وشعوبها ، وتحصر فنونها وضروبها)).[٤]

فما يسمى بالاستعارة في الحقيقة هي ما سماه بالاستعارة المفيدة نظرا لفضيلتها في الكلام ، إذ تضفي عليه حسنا وجمالا ، وبها يكون في المجال متسع للتعبير بصور مختلفة ، كما أنها تجعل المعاني متجددة الصور أبدا ، حتى الكلمة الواحدة تقع في مواقع مختلفة ولها في كل موقع معنى خاص اذا كانت مستعارة .

---

(١) الاسرار ص ٢٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٥٣ .

(٣) نقد الشعر ص ١٧٥ .

(٤) أسرار البلاغة ص ٣٢ .

يقول : ((ومن الفضيلة الجامعة فيها : أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة ، وخلابة موموقة)).[1]

ومن فوائد الاستعارة ومزاياها : أنها تهب المعاني الكثيرة والفضائل الجمة بقليل العبارات ومختصر الجمل ، يقول : ((ومن خصائصها التي تذكر بها ، وهي عنوان مناقبها ، أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تُخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر)).[2]

ولقد استقى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) هذه التقسيمات من(أبي هلال العسكرى) ، الذى شرح هذه الأقسام تحت عنوان الاستعارة المصيبة يقول فيها : ((الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في اصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض اما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عند أو تأكيده والمبالغة ، فيه أو الإشارة إليه ، بالقليل من اللفظ أو بحسن المعرض الذى يبرز فيه ، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة .

ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن مالا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة ،لكانت الحقيقة أولى منها في الإستعمال .

والشاهد على أن للاستعارة المصيبة من الموقع ماليس للحقيقة أن قول الله تعالى : (يوم يُكشف عن ساق).[3]

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) اسرار البلاغة ص ٣٣ .

(٣) سورة القلم آيه ٤٢ .

أبلغ و أحسن و أدخل مما قصد لسه من قوله لو قال يوم يكشف عن شدة الأمر ، و إن كان المعنيان واحدا ،ألا ترى انك تقول لمن تحتاج إلى الجد في أمره شمر عن ساقك فيه ، و أشدد حيازيمك له ، فيكون هذا القول منك أوكد في نفسه من قولك جد في أمرك)).(١)

فهذه فوائد الاستعارة ، و ذاك أثرها في النفس ، لأنها تجعل المعنى يحرك العقل و يشغله حتى إذا توصل إلى حقيقة معناه ، لصق بالقلب وعلق به .

ولقد أفاض في شرح الشواهد من القرآن الكريم ، مستندا في ذلك على ما سبقه به (الرماني) ،حيث بين كيف أجرى الاستعارات و أثر كل منها في نقل الخبر من تجسيد صورة الوعد و الوعيد ، و الإنذار والتبشير وغير ذلك من الأمور .

وعلى هذا فقد كان (لعبد القاهر) من هذه الفكرة تسميتها بما عرف إلى اليوم بالإستعارة المفيدة وغير المفيدة .

وإن أهم ما بينه (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) و انفرد به في الاستعارة ، هو ملاحظته الثاقبة ، أن الاستعارة تجرى مرة في الاسم و أخرى في الفعل ،و الأولى تقسم قسمين ، و الثانية قسم واحد .

و هو ما عرف فيما بعد باسم الاستعارة التصريحية و التبعية يقول في ذلك : ((و هذا فصل قسمتها فيه قسمة عامية ، و معنى العامية : أنك لا تجد في هذه الاستعارة قسمة الا أخص من هذه القسمة و أنها قسمت الاستعارة من حيث المعقول المتعارف في طبقات الناس و أصناف اللغات ، و ما تجد و تسمع أبدا نظيره من عوامهم ، كما تسمع من خواصهم .

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكرى ص ٢٩٥ .

اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة ، فإنها لا تخلو من أن تكون اسما أو فعلا ، فإذا كانت اسما فإنه يقع مستعارا على قسمين :

أحدهما : أن تنقله عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه ، وتجعله متناولا له ، تناول الصفة مثلا للموصوف ، وذلك قولك رأيت أسدا ، وأنت تعني رجلا شجاعا ، ورنت لنا ظبية ، وأنت تعني امرأة وأبديت نورا ، وأنت تعني هدى وبيانا وحجة ، وما شاكل ذلك ، فالاسم في هذا كله كما تراه متناولا شيئا معلوما يمكن أن ينص عليه ، فيقال إنه عني بالاسم وكني به عنه ، ونقل عن مسماه الأصلي فجعل اسما له على سبيل الاستعارة والمبالغة في التشبيه).(1)

وهذه الاستعارة هي ما عرفت فيما بعد باسم الاستعارة التصريحية .

أما القسم الثاني : وهو ما عرف فيما بعد بالاستعارة المكنية

وهي أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعا لا يبين فيه شيء يشار إليه ، فيقال هذا هو المراد بالاسم والذى استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ، ونائبا منابه . ومثاله قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة
إذا أصبحت بيد الشمال زمامها (2)

وذلك أنه جعل للشمال يدا ، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه ، يمكن أن تجرى اليد عليه كاجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك : انبرى لي اسد يزأر ، وسللت سيفا على العدو لا يفل والظباء على النساء في قوله (من الظباء الغيد) والنور على الهدى والبيان في قولك (أبديت نورا ساطعا) وكإجراء اليد نفسها على من يعز مكانه كقولك ((أتنازعني في يد

---

(1) اسرار البلاغة ص ٣٤ .
(2) البيت من الكامل .

بها أبطش ، وعين بها أبصر) يريد إنسانا له حكم اليد وفعلها وغناؤها ودفعها وخاصة العين وفائدتها ، وعزة موقعها ولطف موضعها ، لأن معك في هذا كله ذاتا ينص عليها ، وترى مكانها في النفس إذا لم تجد ذكرها في اللفظ ، وليس شيء من ذلك في بيت لبيد ، بل ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبر المصرف لما زمامه بيده ، ومقادته في كفه ، وذلك كله لا يتعدى التخيل والوهم ، والتقدير في النفس من غير أن يكون هناك شيء يحس ، وذات تتحصل)). (١)

ولقد تعرّض (قدامة بن جعفر) من قبله إلى الاستعارة المكنية ، ومثل بعدة أمثلة ، ولكن دون أن يبين كيفية إجرائها ، بينما نجد الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) قد بين طريقة اجراء هذه الاستعارة حيث يقول : ((أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرفا كتصرف الإنسان في الشيء يقلبه ، فاستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق التشبيه وحكم الزمام في استعارته للغداة . حكم اليد في استعارتها للشمال ، إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه)). (٢)

الاستعارة في الفعل :

وهو ما سمي باسم الاستعارة التبعية يقول :

((إن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات شيء كما يتصور في الاسم ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذى اشتق منه للشيء في الزمان الذى تدل صيغته عليه ، فإذا قلت ضُرب زيد أثبت الضرب لزيد في زمان ماضٍ ، وإذا كان كذلك ، فإذا استعير الفعل لما ليس له في الأصل ، فإنه يثبت

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٥ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٥ .

بإستعارته له وصفا هو شبيه بالمعنى الذى ذلك الفعل مشتق منه)).(١)

مثال ذلك قول ابن المعتز :

جمع الحق لنا في إمام قتل البخل وأحيا السماحا (٢)

فقتل وأحيا انما صارا مستعارين ،بأن عديا إلى البخل والسماح ولو قال قتل الأعداء ، وأحيا لم يكن (قتل) استعارة بوجه ولم يكن (أحيا) استعارة على هذا الوجه)).(٣)

فالقتل لا يكون إلا لذى روح ، ولكن استعير القتل للبخل ، وهي ، استعارة من جهة المفعول ، وقوله : أحيا : كذلك فعل الإحياء ،يكون لذوات الأرواح ولكنه استعير للسماح . وهذه الاستعارات أيا كانت تعتمد في اساسها على التشبيه وهي تختلف من الضعف إلى القوة .

النوع الأول :

((أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجودا في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب في الفضيلة والنقص ، والقوة والضعف فأنت تستعير لفظ الأفضل ، لما هو دونه ومثاله استعارة الطيران لغير ذى الجناح إذا أردت السرعة)).(٤)

فأقل وأضعف أنواع الاستعارة على العموم هو استعارة كلمة من المستعار له ، تدل عليه وعلى عموم جنس هذا المستعار له ، وشرط في هذه الكلمة المستعارة أن تكون أدل صفة ، وأشهر ما عرف عن المستعار من حيث القوة والضعف ، مثال ذلك قول المتنبي :

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) البيت من المديد .

(٣) اسرار البلاغة ص ٤٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤١ .

نشرتهم فوق الأحيدب نثرة
كما نُثرت فوق العروس الدراهم (١)

هنا ((استعارة لأن النثر في الأصل للأجسام الصغار كالدراهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها ،لأن لها هيئة مخصوصة في التفرق لا تأتي في الأجسام الكبار ، ولأن القصد بالنثر أن تجتمع أشياء في كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعة واحدة ، والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك ، لكنه لما اتفق في الحرب تساقط المنهزمين على غير ترتيب ونظام ، كما يكون في الشيء المنثور عبر عنه بالنثر ونسب ذلك الى الممدوح اذ كان هو سبب الانتثار ،فالتفرق الذى هو حقيقة النثر من حيث جنس المعنى وعمومه موجود في المستعار له بلا شبهة)) .(٢)

وأصل الاستعارة هنا : أنه استعار النثر ليصف فعل الممدوح في المنهزمين

وجامع التشبيه بين الصورتين : أن النثر يكون في الأجسام الصغار مثل الدراهم والجواهر ، تجمع في الكف ثم تنثر ، فتقع متفرقة هنا وهناك والاجسام الكبار لا يكون ولا يقع فيها مثل هذا التفرق ، ولكن لما كان الممدوح يوقع القتل والضرب في المنهزمين ويقعون هنا وهناك ، كان التشابه بين الصورتين في الوقوع متفرقين .

---

(١) هذا البيت ٢٩ من قصيدة يمدح بها سيف الدولة - وهو من الطويل والمعنى : ((الأحيدب : جبل . النثر : التفريق .
يقول : فرقتهم على هذا الجبل مقتولين
ونثرتهم نثر الدراهم على العروس فتفرقت مصارعهم على هذا الجبل كما تتفرق مواقع الدراهم إذا نثرت . وهذا من محاسن أبي الطيب وقد أشار إلى أن سيف الدولة تحكم في الروم قتلا وأسرا ، ونثر جيشهم فوق هذا الجبل نثرا ٣ / ٣٨٨ ، ٣٩٨ شرح / ديوان أبي الطيب للعكبرى .

(٢) أسرار البلاغة ص ٤٢ ، ٤٣ .

النـــوع الثاني : هو ((أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة هي موجودة في كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة ، وذلك قولـــك (رأيت شمسا) تريد إنسانا يتهلل وجهه كالشمس)).(١)

فصفة التهلل هي التي جمعت بين المستعار والمستعار له ، فضيـــاء وجه الإنسان كما يراه المادح ، وتلألؤ الشمس كما يراها الجميع هي الصفة المشتركة بين الإثنين .

ومع هذا فهناك فرق بين النوع الاول والثاني ذلك ((أن الاشـــتراك ها هنا في صفة توجد في جنسين مختلفين ، مثل أن جنس الإنســـان غير جنس الشمس وكذلك جنسه غير جنس الأسد ، وليس كذلك الطيران ، وجرى الفرس فإنهما جنس واحد بلا شبه ، وكلاهما مرور وقطع للمسافة ، وانمـــا يقع الاختلاف بالسرعة)). (٢)

النـــوع الثالث : وهو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفهـــا لأنها من النوع العقلي إذ الجامع بين المستعار والمستعار له صورة عقليـــة ، وليست محسوسة كما في الضربين السابقين .

يقول (الشيخ عبد القاهر):

((وهو الصميم الخالص من الاستعارة ، وحده أن يكون الشبـــــه مأخوذا من الصور العقلية ، وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب ، كما جاء في التنزيل من نحو قولـــه عز وجل : (واتبعـــوا النور الذى أنزل معه) (٣) وكاستعارة الصـــراط للدين في قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) (٤) (وإنـــــك لتهدى إلى صراط مستقيم)). (٥)

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٦ . (٢) أسرار البلاغة ص ٤٧ .

(٣) سورة الأعراف آيه ١٥٧ م

(٤) سورة الفاتحة آيه ٦ .

(٥) سورة الشورى آيه ٥٢ .

فأنت لا تشك في أنه ليس بين النور و الحجة ما بين طيران الطائر ، و جرى الفرس من الإشتراك في عموم الجنس ، لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة و الحجة كلام ، وكذا ليس بينهما ما بين الرجل و الأسد من الاشتراك في طبيعة معلومة تكون في الحيوان كالشجاعة فليس الشبه الحاصل من النور في البيان و الحجة ، و نحوها الا أن القلب إذا وردت عليه الحجة صار في حال شبيهة بحال البصر إذا صادف النور)) .(١)

و هذا الضرب أو النوع في استعارته له طرق عده ، لأن الشبه فيه عقلي ،أولها :

أن يكون المشبه به مشاهدا مدركا بالحواس ، و المشبه معاني معقولة مثاله : تشبيه البيان و الحجة بالنور .

يقول : ((أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة و المدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة)) .(٢)

الثاني : ((أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها الا أن الشبه مع ذلك عقلي)) .(٣)

اى أن يكون و جه الشبه الذى يجمع بين المشبه به و المشبه المحسوسين يكون و جه الشبه عقليا .

و مثاله : قوله صلى الله عليه و سلم : (إيّاكم و خضراء الدِّمن) (٤)
فالشبه مأخوذ للمرأة من النبات ، و كلاهما جسم الا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات ، و خضرته ، ولا طعمه و لا رائحته ، ولا شكله ولا صورته بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسناء في المنبت السوء و بين تلك النابتة على الدمنة ، و هو حسن الظاهر في رأى العين مع فساد الباطن ، وطيب الفرع مع خبث الأصل)). (٤)

---

(١) أسرار البلاغة ص ٤٩ .

(٢) ، (٣) المصدر نفسه ص ٥٠ .

(٤) الدمن : جمع دمنه و هي المزبلة .
(٥) أسرار البلاغة ص ٥١ ، ٥٢ .

النـوع الثالـث :

أن يكون المشبه و المشبه به معقولين ، يقول ((و هـو أخذ الشبه من المعقول للمعقول ، أول ذلك و أعمه تشبيه الوجود من الشيء مرة بالعدم ، و العدم مرة بالوجود ، أما الأول فعلى معنى أنه لما قـلّ في المعاني التي بها يظهر للشيء قدر ، و يصير له ذكر ،صار وجـوده كلا وجود ، و أما الثاني فعلى معنى أن الفاني كان موجودا ثم فقد وعـدم، إلا أنه لما خلّف آثارا جميلة تحيي ذكره و تديم في الناس اسمه ، صـار لذلك كأنه لم يعدم ،وأما ساعداهما من الأوصاف فيجيء فيها طريقان ،أحدهما هذا و ذلك في كل موضع كان موضوع التشبيه فيه على ترك الاعتداء بالصفـة و إن كانت موجودة لخلوها مما هو ثمرتها ، و المقصود منها ، و الـذى اذا خلت منه لم تستحق الشرف و الفضل)). (1)

---

(1) المصدر نفسه ص ٥٧ .

المبحث السادس

التشبيه و التمثيل

لقد اعتبر (الشيخ عبد القاهر) واضع علم البيان ، لأنه أضاف إلى فروع هذا العلم المختلفة ، مالم يضعه السابقون ، بل هو الذى وطد دعائم علم البيان ، ووضع قواعده و نسق أصوله .

و لقد كانت له في التشبيه أفكار قيمة ، و تصور واسع حيث جعل من الأفكار المتناثرة في كتب النحاة ثم البلاغيين أصول علم شامخ ، و خاصة أن التشبيه مرفترة من الزمن لم يحدد ولم يقنن ذلك لأن بعض العلماء قد توقف عند تفسير بعض الآيات التي فيها التشبيه ، و تعداها ، مثل(الفراء) و (أبي عبيدة) و (الزجاج) ، كما كان (ابن قتيبة) في المقابل أحد الذين عالجوا هذه القضية ، و كتب فيها كثيرا ، و سأعرض لما قاله في حينه إن شاء الله تعالى ، و لكن يجدر بي قبل أن أبين مجهودات (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في موضوع التشبيه ، أن أعرض الإرهاصات التي تقدمته في كثير من كتب السابقين من لدن(الخليل)و (سيبويه) ، و (الفراء) حتى عهد (أبي هلال العسكرى) ، و (ابن رشيق) ثم (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) .

و سأبدأ الآن من لدن(سيبويه) - والله المستعان إذ تحدث (سيبويه) عن التشبيه و التمثيل في بعض آيات عرض لها ، و لكنه لم يزد في حديثه عن التشبيه غير عرض بعض الأمثلة له ، دون أن يضع مصطلحا لكل معنى .

كما أنه لم يتوسع فيه كموضوع بلاغي مستقل بذاته بل جعله من الاتساع في الكلام و الاختصار لعلم المخاطب بمعنى المتكلم .

فهذه صورة التشبيه البسيطة ، و هي التشبيه بأداة تشبيه . يقول :

((و سألت الخليل عن كأن فزعم أنها إنْ لحقتها الكاف للتشبيه))[1]

---

(١) الكتاب ٣ / ١٥١ .

كما قال في قوله تعالى : ((مثل الجنة التي وعد المتقون)[1] ثم قال بعده : (فيها أنهار من ماء) فيها كذا وكذا ، فانما وضع المثل للحديث الذى بعده ، فذكر أخبارا وأحاديث ، فكأنه قال : ومن القصص مثل الجنة ، أو مما يقص عليكم مثل الجنة ، فهو محمول على هذا الاضمار ونحوه والله تعالى أعلم))[2] . وهنا ضرب الجنة بما فيها من نعيم مثلا لما سيروى من قصص .

ويقول : ((ومثله في الاتساع " قوله عز وجل " : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء)[3] . فلم يشبهوا بما ينعق ، وانما شبهوا بالمنعوق به ، وانما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذى لا يسمع ، ولكنه جاء على سعة الكلام ، والايجاز لعلم المخاطب بالمعنى))[4] .

والآن سأقتطف من ثمار (الفراء) ما دنى وتدلى ، حيث يقول في تفسير قوله تعالى : (أنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى)[5] ، فقوله : (كذلك نخرج الموتى)[6] كما أخرجنا الثمار من الأرض الميتة .

كما يقول تعالى : (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين)[7] .

فيقول : ((وقوله : (أو كصيب من السماء ..) مردود على قوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) ، (أو كصيب) : أو كمثل صيب فاستغنى بذكر (الذى استوقد نارا) فطرح ما كان ينبغي أن يكون مع الصيب من الأسماء ، ودل عليه المعنى ، لأن المثل ضرب للنفاق ، فقال : (فيه ظلمات ورعد وبرق) فشبه الظلمات بكفرهم ، والبرق اذا أضاء لهم فمشوا فيه بايمانهم ، والرعد ما أتى في القرآن من التخويف)[8] .

كما يقول في قوله تعالى : (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، انا جعلناها فتنة للظالمين ، انها شجرة تخرج في أصل الجحيم - طلعها كأنه رؤوس الشياطين)[9]

---

(١) سورة محمد من الآية ١٥ .
(٢) المصدر نفسه ١/٤٣ .
(٣) سورة البقرة من الآية ١٧١ .
(٤) ١/٤٢ من الكتاب .
(٥) سورة الأعراف من الآية ٥٧
(٦) انظر معاني القرآن ١/٣٨٢ .
(٧) سورة البقرة من الآيات ١٦ - ١٩ .
(٨) معاني القرآن ١/١٧ .
(٩) سورة الصافات من الآيتين ٦٣ - ٦٥ .

وقوله : ((كأنه رؤوس الشياطين ، فان فيه في العربية ثلاثة أوجه أحدها أن تشبيه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين ، لأنها موصوفة بالقبح وان كانت لا ترى ، وأنت قائل للرجل : كأنه شيطان اذا استقبحته ، والآخر ان العرب تسمي بعض الحيات شيطانا ، وهو حية ذو عرف . ويقال أنه نبت قبيح يسمى برؤوس الشياطين والأوجه الثلاثة يذهب الى معنى واحد في القبح))[1] .

ففي هذا النص أوضح (الفراء) المشبه وهو (الشجرة) والمشبه به وهو (رؤوس الشياطين) كما حدد وجه الشبه والتناسب بين المشبه والمشبه به وهو القبح ، وان لم يذكر هذه المسميات التي عرفت فيما بعد .

والتشبيه في عهد (الجاحظ) سنلاحظ فيه عدم استقرار قواعده كذلك وسأبين بعض أقواله في التشبيه ، يقول :

((وقد يشبه الشعراء أو العلماء والبلغاء الانسان بالقمر والشمس والغيث والبحر وبالأسد والسيف ، وبالحية وبالنجم ، ولا يخرجونه بهذه المعاني الى حد الانسان ، واذا ذموا قالوا : هو الكلب والخنزير ، وهو القرد والحمار وهو الثور والتيس : وهو الذيب والعقرب ، وهو الجمل ، وهو القرنبي ، ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم ، ولا يخرجون بذلك الانسان الى هذه الحدود وهذه الأسماء))[2] .

فقد ذكر أنواعا من التشبيهات التي تكون ومثل لها : بتشبيه الانسان بالأسد وبالشمس والغيث ، ولكنه لم يحدد وجه التشابه بينهما - أي بين المشبه والمشبه به .

ولكنه بين أن هذه الأسماء ، لا تدخل ضمن أسماء الناس ولا يمكن أن يكون الانسان هذه الأشياء ، ولكن ذلك تشبيه على سبيل المجاز ، لأنه يقول بعد ذلك ((ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/٣٨٧ .

(٢) الحيوان ١/٢١١ ، انظر الكامل للمبرد ٢/٧٩ .

(نعمت العمة لكم النخلة خلقت من فضلة طينة آدم) . وهذا الكلام صحيح المعنى إلا من لا يعرف مجاز الكلام))[1] ولعله يقصد بكلمة المجاز هنا الإتساع .

كما ذكر شعرا فيه تشبيه وبين مكان التشبيه ، ولقد سارت تلك الأبيات بعد ذكر (الجاحظ) لها . مشهورة معروفة لدى البلاغيين عند ما يمثلون للتشبيه بشعر . يقول :

((وقالوا : قال خلف الأحمر : لم أر أجمع من بيت لأمرئ القيس وهو قوله[2] :

أفاد وجاد وساد وزاد

وقاد وذاد وعاد وأفضل

ولا أجمع من قوله[3] :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة

وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وقالوا : ولم نر في التشبيه لقوله ، حين شبه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين في بيت واحد ، وهو قوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا

لدى وكرها العناب والحشف البالي[4]

والملاحظ أنه اهتدى في الأمثلة السابقة إلى أن وجه التشابه بين المشبه والمشبه به بعيد ولكن الشاعر استطاع أن يقرب بين المتباعدين . وهو ما سمى بالتشبيه المتعدد حيث شبه قلوب الطير الرطبة واليابسة ، بالعناب والحشف البالي .

---

(١) الحيوان ١ / ٢١٢ . (٢) البيت من المتقارب (٣) البيت من الطويل .

(٤) الحيوان ٣ / ٥٢ ، ٥٣ . والبيت من الطويل .

كما وضحت صورة وجه الشبه بين المشبه والمشبه به في نظر (الجاحظ) ولكنه لم يسمها ، يقول :

((وكذلك يشبه النمام ، والمداخل والدسيس بالقنفذ ، لخروجه بالليل دون النهار ، ولاحتياله للأفاعي)) .[1]

فوجه التشابه أن النمام والمداخل والدسيس لا يستطيع أن يظهر بفعاله وأقواله أمام الناس . وإنما حاله حال القنفذ حين يتستر بالليل ليحتال للأفاعي .

ونجد (لابن قتيبة) موقفا مهما جدا من التشبيه [2] ، ليس في المجال متسع للبحث في عرضه ومناقشته .

أما من الناحية البلاغية فإننا لم نجد للتشبيه بابا مستقلا تحدث فيه (ابن قتيبة) عن التشبيه وتعريفه وأقسامه ، بالرغم من أن (ابن قتيبة) قد تناول بعضا من الموضوعات البلاغية ، فيقول :

((فقال : (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) .[3] ، فالصيب : المطر ، والظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة السحابة ، والرعد : دليل على شدة ظلمة الصيب وهوله .

أراد : أو مثل قوم في ظلمات ليل أو مطر . فضرب الظلمات لكفرهم مثلا . والبرق لتوحيدهم مثلا . فقال :

إذا قالوا لا اله إلا الله اهتدوا كما يهتدى هؤلاء القوم بالبرق إذا لمع فيمشون ، وجعله يكاد يخطف الأبصار لشدة ضوئه)) .[4]

---

(١) الحيوان ٤ / ١٦٦ .

(٢) ذلك أن ابن قتيبة في بعض الآيات القرآنية المحتوية على تشبيه يتصل بذات الله العلية يفسرها على ظاهرها كما هي دون تأويل مما دعا بعض الحاقدين عليه أن يقول عنه أنه كرامي . وليس مجال البحث يسمح لعرض مثل هذه الآراء .

(٣) سورة البقرة ١٩ ; (٤) تأويل مشكل القرآن ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

والملاحظ أن (ابن قتيبة) ، سار على نهج (الفراء) في تفسير هذه الآية . وقد أشرت إلى ذلك .

كما يقول في قوله تعالى : (قواريرا قوارير من فضة). (١)

((فقد أعلمتك أن كل ما في الجنة من آلتها وسررها وفرشها وأكوابها ، مخالف لما في الدنيا من صنعة العباد ، وإنما دلنا الله بما أراناه من هذا الحاضر على ما عنده من الغائب . وقال ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء .

والأكواب : كيزان لا عرى لها ، وهي في الدنيا قد تكون من فضة وتكون من قوارير .

فأعلمنا أن هناك أكوابا لها بياض الفضة وصفاء القوارير ، وهذا على التشبيه ، أراد قوارير كأنها من فضة ، كما تقول : أتانا بشراب من نور ، أى كأنه نور)). (٢)

فذكر أن صفة تلك الأكواب التي في الجنة كصفة الفضة في البياض ، وكنصاعة بياض القوارير .

وكذلك وصف الشراب بأنه من نور . على التشبيه كما يقول :

((وقال : ((قتادة))(٣) في قول الله عز وجل : (كأنهن الياقوت والمرجان) (٤) اى لهن صفاء الياقوت وبياض المرجان)). (٥)

---

(١) سورة الإنسان من الآية ١٦ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٨٠ .
(٣) قتادة : هو ابن (دعامة) ، أبو (الخطاب) السدوسي البصرى أحد الأئمة في حروف القرآن ، روى القراءة عن أبي العالية . مات سنة سبع عشرة ومائة للهجرة) غاية النهاية في طبقات القراء ٢ / ٢٥ لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزرى . نشره : برجشتراسر الطبعة الاولى ١٣٥١ هـ ، ١٩٣٢م - مكتبة الخانجي بمصر جزء ٧ .
(٤) سورة الرحمن الآية ٥٨ . (٥) تأويل مشكل القرآن ص ٨١ .

فشبه النساء في الآية الكريمة بالياقوت والمرجان . وذلك من جهة تطابق بعض صفات الياقوت والمرجان مع صفات النساء من حيث صفاء الياقوت ولون المرجان.

كما شرح التشبيه في تعليقه على بعض الأبيات منها قوله : ((وقال : (الجعفي الأسعر) :

يخرجن من خلل الغبار عوابسا
كأصابع المقرور أقعى فاصطلى

يقول خرجت الخيل متقاربا بعضها من بعض يبادرن الغارة كتقارب الأصابع ، وقال بعضهم شبهها بأصابع المقرور خاصة إذا اصطلى لأنه إذا أدناها من النار قبضها بعض القبض فكادت أطرافها تتساوى) .(١)

كما يقول :

وقال زيد الخيل وذكر الربيئة :

وألقى نفسه وهوين رهوا
ينازعن الأعنة كالكعاب

شبه الخيل بكعاب القمار ، إذا ضربت فوقعت متبددة)).(٢)

فبين وجه تشابه الخيل المتفرقة في الحرب ، بكعاب القمار إذا سقطت متناثرة .

وإن أبرز المجهودات وأوضحها ما بذله (المبرد) فيما يتعلق بموضوع التشبيه ، ذلك أنه عقد له فصلا في كتابه الكامل وسوف أذكر - إن شاء الله تعالى - مجهوده في ذلك ، عند عرض آراء (الشيخ عبد القاهر) ،

---

(١) المعاني الكبير في ابيات المعاني / ط ١ بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند - سنة ١٣٦٨ هـ ، ١٩٤٩ م ٢ / ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٥٤ .

في التشبيه ، لأنه اعتمد على (المبرد) في بعضها .

أما (الرماني) فإنه ناقش باب التشبيه من أوله ، وعالجه بطريقته ، دون أن ينظر إلى الوراء ، فينقل ما شاء له النقل عن غيره من العلماء ، ولكنه تفحص نصوص القرآن الكريم خاصة و نصوص الشعر . و اطلع على ما كتبه غيره . فكان ما قدمه حصيلة تقر له بفضل سبقه غيره في هذا الباب . و لقد اعتمد عليه من أتى بعده ، فمنهم من ذكر فضله و منه من أغفله .

فكان إذن كتابه (النكت) مرجعا هاما في موضوعه (للشيخ عبد القاهر) و الآن سأستعرض ، أفكاره التي توصل إليها .

يقول : ((التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل ، و لا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس ، فأما القول فنحو قولك ، زيد شديد كالأسد ، فالكاف عقدت المشبه به بالمشبه ، و أما العقد في النفس فالاعتقاد لمعنى هذا القول ، و أما التشبيه الحسي فكماءين و ذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه)). (١)

فلا بد في التشبيه أن يكون المشبه به يسد مسد المشبه و ذلك اما من ناحية العقل أو من ناحية الحس .

فالتشبيه العقلي ما كان طرفاه عقليين ، و التشبيه الحسي ما كان طرفاه حسيين .

كما ذكر أن التشبيه يأتي على وجهين : ((تشبيه بلاغة و تشبيه حقيقة فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب . و تشبيه الحقيقة نحو : هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت)). (٢)

و هكذا يجدر بنا الآن أن نتعرض لتعريف (أبي هلال العسكري)

---

(١) النكت ص ٨٠ .

(٢) النكت ص ٨١ .

للتشبيه ، وهو تعريف واضح شامل يبين أن ثمرة جهود السابقين ، قد نضجت وحان قطافها ، يقول :

(التشبيه الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ناب منابه أو لم ينب ، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه وذلك قولك - زيد شديد كالأسد - فهذا القول الصواب في العرف وداخل في محمود المبالغة ، وإن لم يكن زيد في شدته كالأسد على الحقيقة ، على أنه قد روى أن انسانا قال لبعض الشعراء زعمت انك لا تكذب في شعرك وقد قلت :

((ولأنت أجرأ من أسامة)) .

أو يجوز أن يكون رجل أشجع من أسد ، فقال قد يكون ذلك ، فإنا قد رأينا (مجزأة بن ثور) فتح مدينة ، ولم نر الأسد فعل ذلك ، فهذا قول .

ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة ، وإن شابهه من وجه واحد مثل قولك وجهك مثل الشمس ، ومثل البدر ، وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما وعلوهما ولا عظمهما ، وإنما شبه بهما لمعنى يجمعهما وإياه وهو الحسن ، وعلى هذا قول الله عز وجل : (وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام) (١) . إنما شبه المراكب بالجبال من جهة عظمها لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها ، ولو أشبه الشيء بالشيء من جميع جهاته لكان هو هو)) .(٢)

وإن الملاحظ على تعريف (أبي هلال العسكرى) هذا وعلى توضيحاته أنه قد اعتمد اعتمادا كليا على (الرماني) (٣) .

---

(١) سورة الرحمن من الآية ٢٤ .

(٢) الصناعتين ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٣) انظر ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ من النكت .

وعلى ما يبدو فإن الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) قد اكتفى بتعريف (أبي هلال العسكري) لأنـــه حدد أركان التشبيه ، كما تحدث عن بلاغته وتأثيرها في النفوس ، ومع هذا فلم يتطرق من قريب أو من بعيد الى علاقة التشبيه بذات الله العليا ، ولم يشركها فيه ، كما فعل (ابن قتيبة) .

وأيضا فإن (الشيخ عبد القاهر) لم يشر إلى أخذه ، على غيرما هو معروف عنه في كثير من المواضع .

المهم أن (الشيخ عبد القاهر) قسم التشبيه قسمين : (أحدهما عادى لا يحتاج في تأويله وفهمه والوصول إليه إلى تأويل ، مثل تشبيه الشيء المستدير بالكرة . وهذا تشبيه من جهة الصورة والشكل .

وتشبيه من جهة اللون ، كتشبيه الخدود بالورد ، وتشبيه جمع الصورة ، واللون مثل تشبيه الثريا بعنقود الكرم المنثور .

وكذلك كل تشبيه جمع بين شيــئين ، مثل تشبيه صوت بعض الأشياء بغيرها .

يقول (الشيخ عبد القاهر) : (اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين ، أحدهما : أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأويل .

والآخر : أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول ، فمثال الأول تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل ، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه ، وبالحلقة في وجه آخر ، وكالتشبيه من جهة اللون، كتشبيه الخدود بالورد والشعر بالليل والوجه بالنهار ، وتشبيه سقط [1] النار بعين

---

(١) سقط : مثلثه والكسر أشهر ما يسقط بين الزندين عند القدح .

الديك ، وما جرى في هذا الطريق ، أو جمع الصورة واللون ،كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور ، والنرجس بمداهن درحشوهن عقيق وكذلك التشبيه من جهة الهيئة ، نحو أنه مستو منتصب مديد ، كتشبيه القامة بالرمح ، والقد اللطيف بالغصن ، ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد ، ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحت البارح ونحو ذلك ، وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس ، نحو تشبيهك صوت بعض الأشياء بصوت غيره ، كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج ، كما قال :

كأن أصوات من ايغالهن بنا
أواخر الميس أنقاض الفراريج (١)

تقدير البيت :

كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من ايغالهن بنا ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله : (من ايغالهن) وكتشبيه صريف أنياب البعير بصياح البوازي)). (٢)

٢ - ويقول (الشيخ عبد القاهر) في توضيح القسم الثاني من التشبيه وهو الذى يحتاج في الوصول الى معناه إلى روية وتبصر بمعاني الكلام ((ومثال الثاني : وهو الشبه الذى يحصل بضرب من التأول ، كقولك هذه حجة كالشمس في الظهور ، وقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها ، كما شبهت فيما مضى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرها ، الا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بتأول ، وذلك أن تقول حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام ، أن لا يكون دونها حجاب ونحوه ، مما يحول بين العين وبين رؤيتها ، ولذلك يظهر الشيء

---

(١) قائل هذا البيت ذو الرمه وقد تقدمت ترجمته . والبيت من البسيط .

(٢) أسرار البلاغة ص ٧١ .

لك ، ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب ، أو لم يكن بينك وبينه ذلك الحجاب)) .(١)

وإن المعنى الذى يحتاج إلى تأول في الوصول إلى معناه ، يأتي على درجتين :

أ - ((منه ما يقرب مأخذه ، ويسهل الوصول إليه ، ويعطى المقادة طوعاً ، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول ، الذى ليس من التأول في شئ)) .(٢)

وهذا الذى لا يصعب الوصول إلى المراد منه مثل قولهم : ألفاظه كالماء في السلاسة ، وكالنسيم في الرقة .

فهذا النوع وإن كان يحتاج إلى فكر إلا أنه لا يصعب الوصول إليه . نظرا لما هو معروف عن الماء من السلاسة والسيولة ، وكذلك النسيم لا يختلف إثنان على رقته وهدوءه .

يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((فما يشبه الذى بدأت في قرب المأخذ وسهولة المأتي ، قولهم في صفة الكلام : ألفاظه كالماء في السلاسة ، وكالنسيم في الرقة ، وكالعسل في الحلاوة ، يريدون أن اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه ، ولا يصعب الوقوف عليه)) .(٣)

ب - وهنا قسم آخر لا يعرف المقصود منه ببديهة السماع بل يحتاج في فهم مراد المتكلم إلى الروّية - يقول :

((وأما أن تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع ، فنحو قول(كعب الأشقرى) ، وقد أوفده (المهلب على الحجاج) ، فوصف له بنيه ، وذكر مكانهم من الفضل والبأس فسأله في آخر القصة ، قال :

---

(١) أسرار البلاغة ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٤ .

فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ قال : كانوا حماة السرح نهارا ، فإذا أليلوا ففرسان البيات . قال فأيهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة ، لا يدرى أين طرفاها .

فهذا كما ترى ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرفق به و النظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ، و نظر يرتفع عن طبقة العامة ، وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس ، فإنه كالمشترك البين الاشتراك ، حتى يستوى في معرفته اللبيب اليقظ ، و المضعوف المغفل)) .(١)

هذه هي التقسيمات المختصرة للتشبيه ،التي استهل بها الشيخ (عبد القاهر) موضوع التشبيه في كتابه أسرار البلاغة ، ولقد تتبعت هذه التقسيمات فوجدتها قد تصدرت (عيار الشعر لابن طباطبا) ولقد استشهد لكل قسم منها بأبيات جميلة من عيون الشعر العربي ، يقول : ((و التشبيهات على ضروب مختلفة ، فمنها : تشبيه الشيء بالشيء صورة و هيئة ، و منها تشبيهه به معنى ، و منها تشبيهه به حركة و بطئا وسرعة ، و منها تشبيهه به لونا ، و منه تشبيهه به صوتا . و ربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض ، فإذا اتفق في الشيء المشبه بالشيء معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف ، قوى التشبيه ، و تأكد الصدق فيه ، و حسن الشعر به للشواهد الكثيرة المؤيدة له :

فأما تشبيه الشيء بالشيء صورة و هيئة ، فكقول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا و يابسا
لدى وكرها العناب و الحشف البالي

---

(١) أسرار البلاغة ص ٧٤، ٧٥ .
الحشف : البقايا اليابسة من التمر .

(٢) وأما تشبيه الشيء بالشيء لونا وصورة ، فكقول (امرئ القيس) يصف الدرع :

و مسرورة السك موضونة
تضاءل في الطى كالمبرد
تفيض على المرء أرادنها
كفيض الأتي على الجدجد

(٣) وأما تشبيه الشيء بالشيء صورة ولونا وحركة وهيئة فكقول (ذو الرمة) :

ما بال عينك منها الدمع ينسكب
كأنه من كلى مغرية سرب

وكقول امرئ القيس :

جمعت ردينيا كأن سنانه
سنا لهب لم يتصل بدخان

(٤) وأما تشبيه الشيء بالشيء حركة وهيئة ، فكقول الأعشى :

غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوحل
كأن مشيتها من بيت جارتها
مر السحابة لا ريث ولا عجل

(٥) وأما تشبيه الشيء بالشيء معنى لا صورة ، فكتشبيه الجواد الكثير العطاء بالبحر والحيا (١) ، وتشبيه الشجاع بالأسد ، وتشبيه الباهر الحسن الرواء بالشمس ، وتشبيه المهيب الماضي ... الخ).(٢)

---

(١) الحيا : المطر .

(٢) عيار الشعر لابن طباطبا ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

الفرق بين التشبيه و التمثيل :

لقد عرض (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) عدة أمثلة شعرية ليبين الفرق بين التشبيه و التمثيل ، و لقد اعتمد في ذلك على بعض ما أورده الأوائل من الأمثلة ، يقول :

((واذا قد عرفت الفرق بين الضربين ، فاعلم أن التشبيه عام ، و التمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه ، و ليس كل تشبيه تمثيلا ، فأنت تقول في قول قيس بن الخطيم :

و قد لاح في الصبح الثريا لمن رأى
كعنقود ملاَّحيةٍ حين نوَّرا

إنه تشبيه حسن . و لا تقول هو تمثيل ، و كذلك تقول : (ابن المعتز) حسن التشبيهات بديعها ، لأنك تعني تشبيهه المبصرات بعضها ببعض ، و كل مالا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول ، كقوله :

كأن عيون النرجس الغض حولنا
مداهن درٍّ حشوهن عقيق

و قوله :

و أرى الثريا في السماء كأنها
قدم تبدت من ثياب حداد)).[1]

أى أن (الشيخ عبد القاهر) يقسم التشبيه بإعتبار الوجه إلى قسمين :

أ - تشبيه تمثيلي اى تمثيل .

ب - تشبيه غير تمثيلي اى تشبيه .

---

(١) الأسرار ص ٧٥ .

والتشبيه عنده ما كان وجه الشبه فيه بينا لا يحتاج إلى تأول، وصرف عن الظاهر ، وذلك إذا كان الاشتراك بين الطرفين في الصفة نفسها ، وحقيقة جنسها ، ويتحقق ذلك فيما كان وجه الشبه فيه حسيا مدركا بإحدى الحواس ،أوعقليا حقيقيا ، وهو ما كان من جهة الغريزة والطباع .

فعندما يشبه الشاعر الشَعر بالليل في سواده فالصفة المشتركة التى تجمع بينهما هي السواد .

وكذلك عندما يشبه الكريم بحاتم في جوده وكرمه فالجامع بين الطرفين هي صفة الكرم ، وهي موجودة بحقيقتها في الشخص الكريم كما هي في شخص حاتم الطائي .

والخلاصة :

أن كل ما كان وجه الشبه فيه حسيا يشمل (السمع ،البصر الذوق ،اللمس ، الشم) .

أو كان عقليا محضا ويشمل الغرائز والطباع فهو تشبيه ، والسبب كون التشبيه بينا ظاهرا لا يحتاج إلى تأول ، لأن الاشتراك بين الطرفين في الصفة نفسها .

التشهيل :

وهو ما كان وجه الشبه فيه متأولا ،أو مالم يكن وجه الشبه فيه بينا ظاهرا . وذلك اذا لم يقع الاشتراك بين الطرفين في الصفة نفسها ، وانما في لازمها ومقتضاه ، ومثال ذلك تشبيه اللفظ بالعسل في الحلاوة ، وهي صفة موجودة على حقيقتها في العسل ، ولكنها غير موجودة في اللفظ على حقيقتها ، ولما كان التشبيه يقتضي اشتراك الطرفين في أمر يجمعهما ،احتجنا الى تأول في الحلاوة ، فأردنا

منها لازمها و مقتضاها و هو ما يجده الذائق للعسل بلسانه في نفسه، الاستطابة و ميل النفس ، و بهذا التأويل يمكن أن يشارك اللفظ العسل و تصبح هذه الصفة المتأولة موجودة في الطرفين ، فكلاهما تستطيبه النفس و ترتاح إليه .

و هذا ينطبق على كل ما كان و جه الشبه فيه حاصلا بعد التأويل .

الخلاصة :

و هكذا عرفنا و جهة نظر (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في الفرق بين التشبيه و التمثيل .

فما الذى دعاه إلى هذا التقسيم و التبويب ؟ ذلك أنه و جد بعض أنواع التشبيه تمتاز بالدقة و اللطف،و تحتاج مع صحة الطبع و الذوق،إلى جودة الرأى و حسن التأني، و المعول عليه أن يكون الوجه متأولا.سواء كان مركبا أم مفردا ، و هذا ما أطلق عليه اسم التمثيل .

أما الضرب الثاني من التشبيه فهو ما كان و جهه غير متأول مفردا كان أم مركبا .

ولقد أعطى الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) التمثيل حظا وافرا من العناية و الدرس ، و أفرد له جزءً كبيرا من فصل التشبيه و التمثيل نظرا لدقة مسلكه ، و اختلاف مواقع التمثيل من الجملة . وعلى هذا الأساس قسم التمثيل قسمين :

١ - قسم يأتي في أعقاب المعاني كما في قول ابن المعتز :

اصبر على مضض الحسو دفإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

يقـول الشيخ (عبد القاهر) :

((واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقـاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصيلـة إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبـة ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليهـا واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً) .(١)

٢ - القسم الثاني وهو الذى تبرز المعاني ابتداء في ثوبه كما في قولـه تعالى :

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريـح في يـوم عاصف) .(٢)

وتأثير التمثيل - الذى تقدم الحديث عنه - في النفـس واضح بـين عند تدبر بيت المتنبي (٣)

ومن يك ذا فم مرّ مريض
يجد مرا به الماء الـزلالا (٤)

---

(١) الأسرار ص ٩٢ ٩٣ .
(٢) سورة ابراهيم آيه ١٨ .
(٣) البيت من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار الغرض من التمثيـل في هذه الآية الكريمة : بيان مقدار خيبة الكفار وأن أعمالهـم كلها تذهب هباء ، لا يبقى منها شيء لذا طابق المثل واقعهـم ، ذلك أنه صور أعمالهم برماد عصفت به ريح شديدة فلم تبق منه شيئـا .
(٤) البيت من الوافـر .

وعند مقارنة المعنى ممثلا ببيت الشاعر وبينه ، وهو غير ممثل في قول القائل :

إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ويخيل إليه في الصواب أنه خطأ . فالمعنى واحد ولكن المتنبي أبرزه ممثلا فكساه جمالا، وعرضه مصورا فيما يحسه المرء من نفسه ، فاطمأن له عقله ، كما انشرح له صدره .

يقول (الشيخ عبد القاهر) :

((لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة ، كقولك : إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ، ويخيل إليه في الصواب أنه أخطأ ، هل كنت تجد هذه الروعة ؟ وهل كان يبلغ من وقم [1] الجاهل ووقذه [2] ، وقمعه وردعه ، والتهجين له والكشف عن نقصه ، ما بلغ التمثيل في البيت ، وينتهي إلى حيث ينتهى)) [3].

ولقد ذكر (الشيخ عبد القاهر) أن هناك لطائف من التشبيه بعيدة المنال في الحصول على معناها ولكن ليس البعد المضنى المكد ، بل كالجواهر في أصدافها لا تنال إلا بعد الشق عنها ، ولقد استشهد بقول النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

يقول :

((فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجواهر في الصدف ، ولا يبرز لك ، إلا أن تشقه عنه ، وكالعزيز المحتجب ، ولا يريك

---

(١) وقم : الرجل قهره وأذله ،ورده عن حاجته أقبح الرد .

(٢) وقذه : الوقذ : الضرب القاتل ، بغير محدد يكون أطول ألما وأشد تعذيبا ولأجله حرمت الموقوذة ،ويسند إلى الكلام تجوزا .

(٣) أسرار البلاغة ص ١٠٠ .

وجهه حتى تستأذن عليه ، ثم ما كل فكر يهتدى إلى الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له في وجه الوضوح إليه ، فما كل أحد يفلح في شق الصدفة ، ويكون في ذلك من أهل المعرفة ، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له)) (١) :

في الوقت الذى نجد فيه (المبرد) استشهد به في التشبيه وأعجب به اعجابا ، حيث يقول: ((ومن أعجب التشبيه قول النابغة : فانك كالليل ..)) . (٢)

أما ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) فقد قسم التشبيه إلى ستة أقسام منها قوله : ((وأما تشبيه الشيء بالشيء معنى لا صورة ، فكقول النابغة : فإنك كالليل .. الخ) (٣) .

ولم يزد كثيرا (قدامه بن جعفر) المتوفى (سنة ٣٣٧هـ) على سابقيه . فقد قسم التشبيه قسمين ، وقال أحدهما : تشبيه في المعاني .

يقول : (ومنه تشبيه في المعاني كتشبيههم الشجاع بالأسد ، والجواد بالبحر ، و ... ومن هذا النوع من التشبيه قول الشاعر فإنك كالليل ...) . (٤) .

وكما حاز التمثيل على عناية (الشيخ عبد القاهر) ، فكذلك التشبيه إذ أخذ جزءا من مؤلفه (أسرار البلاغة) فقسمه بالمعنى العام إلى مفرد ، ومركب ، ومتعدد .

---

(١) الأسرار ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) الكامل للمبرد ص ٤١ .

(٣) عيار الشعر ص ٢٨ .

(٤) نقد النثر لقدامه بن جعفر ص ٦٥ .

فالتشبيـــه المفرد :

هو ما كان و جه الشبه فيه واحدا ، مثــل :

و جهه كالقمر في السناء .

نجد في هذا التشبيه وجه الشبه حسيا و هو ضياء القمر المشاهد المحسوس لا تأويل فيه و مثال آخـــر :

كلامه كالعسل في الحلاوة .

و هذا تمثيل لأن و جه الشبه فيه عقلي متأول .

التشبيـــه المركب : و هو ما كان و جه الشبه فيه ، ممتزجا من أمـــرين أو أكثر ، أو منتزعا من أمرين أو أكثر قد امتزج بعضهما ببعض ، كتشبيـــه الثريا بعنقود العنب ، و تشبيه الحسود يترك و يصبر على أذاه فيهلـــك ، بالنار لا تمد بالوقود فتفنى في إسراع الفناء لشيء لا يمد بأسباب البقاء . كما في قول ابن المعتز :

اصبر على مضض الحســـو د فإن صبـــرك قاتلـــه
فالنار تأكل نفسهـــــا ان لم تجد ما تأكلـــــه

هذا تشبيه تمثيلي (اى تمثيل) .

التشبيـــه المتعدد :

و هو ما جاء معقودا على تشبيه أمرين أو أكثر بأمرين أو أكثر ، من غيـــر مزج أو تركيب أجزائهما ، كقـــول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا و يابســا
لدى وكرها العناب و الحشف البالــي

فهنـــا تشبيهان حيث شبه القلوب الرطبة بالعناب و القلوب اليابســـة بالحشف البالي .

ولقد مثل له (الشيخ عبد القاهر) ، بقـــوله :

(هو يصفو و يكدر ، و يمر و يحلو)

و هذا من أسلوب الاستعارة التبعية التصريحية أو الاستعارة المكنية .

ولقد استقى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) هذه الفكرة من (المبرد) الذى استشهد بهذا البيت في أثناء عرض موضوع التشبيه ، و قال عنه أنـــه تشبيه حسن مصيب ، يقـــول :

((قال(أبو العباس): و هذا باب طريف نصل به هذا الباب الجامــع ، الذى ذكرناه و هو بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب ،و المحدثـــين بعدهم ، فأحسن ذلك ما جاء بإجماع الرواة ، ما مر لامرئ القيس في كـــلام مختصر أى بيت واحد من تشبيه شيء في حالتين بشيئين مختلفين و هـــو قوله[1] :

كأن قلوب الطير رطبا و يابســا

لدى وكرها العناب و الحشف البالي

فهذا مفهوم المعنى)) .[1]

و مع إعجاب (المبرد) بهذا النوع من التشبيه ، لم يعرفه بتعريف معـــين كما فعل (الشيخ عبد القاهر) ، والذى يقـــول :

((اعلم أني قد قدمت بيان المركب من التشبيه ، و ههنا ما يذكر مـــع الذى عرفتك أنه مركب و يقرن إليه في الكتب ، و هو علـــى الحقيقة لا يستحـــق صفة التركيب و لا يشارك الذى مضى ذكره في الوصف الذى كان لـــه تشبيهـــا مركبا ، و ذلك أن يكون الكلام معقودا على تشبيه شيئين بشيئين ضربـــــة

---

(١) الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٤٠ .

واحدة ، إلا أن إحداهما لا يداخل الآخر في التشبيه ، ومثاله قول امرئ القيس ، كأن قلوب الطير ...).[1]

فهذه الأفكار مستقاة من (المبرد) ، بل إن (المبرد) وضحها أكثر حين استشهد بقوله تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله)[2] علما بأن المخاطبين يعرفون وقت السكون ، ووقت الاكتساب)).[3]

أما ابن (طباطبا) فقد استشهد به في قسم من أقسام التشبيه إذ يقول :

(فأما تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة وحركة فكقول امرئ القيس كأن قلوب الطير ..).[4]

مما سبق نعلم أن التشبيه من الأبواب البيانية المهمة ، ويعتبر البحث فيه من أسبق المباحث البلاغية ، ولقد بدأت اصوله قبل (عبد القاهر الجرجاني) بكثير ، ولكنه استوى واصبح علما مبوبا ومقسما ، كما مر بنا على يد (الشيخ عبد القاهر) .

في الوقت الذى لا ينكر أنه استضاء بإشارات السابقين في هذا المجال من أمثال(أبي عبيدة)و(الفراء)..

لقد بينت فيما سبق أثر هؤلاء العلماء في(الشيخ عبد القاهر)في باب التشبيه .

ولكن هناك أيضا جهود مستقلة للشيخ (عبد القاهر) أثرت هذا الموضوع ،لا يمكن أن ينسى أثره فيها :-

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٦٨ .

(٢) سورة القصص آية ٧٣ .

(٣) الكامل للمبرد ص ٤١ .

(٤) عيار الشعر ص ٢٣ .

١ - من ذلك ما ذكر الدكتور (محمد حسنين ابو موسى) ، حيث يقول :

(وكان أوضح عمل (لعبد القاهر) في باب التشبيه هو تقسيمه إلى تمثيل وتشبيه ، وجعل التشبيه عاما ، والتمثيل خاصا ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا) . (١)

٢ - وكذلك يرجع الفضل (للشيخ عبد القاهر) في استنباط (التشبيه العقلي) يقول الدكتور ابو موسى : ((ثم تكلم (عبد القاهر) عن انتزاع الشبه العقلي من أمور عدة وذكر الآية المشهورة في هذا الموضوع ، وهي قوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) (٢) ، وحللها تحليلا لم يسبق به في دراسات التشبيه الكثيرة التي سبق بها وبين في بصر وذكاء قيمة القيود في رسم صورة التشبيه ، وكيف روعي في المحمول خصوصية معينة ، وهي كونه (أسفار الحكمة) (٣) .

٣ - فضل (عبد القاهر) في استنباط التشبيه المتعدد : ((ثم يذكر صورة الشبه المنتزع من أمرين لا يقع فيهما هذا التشابك ، ولا هذا الاختلاط وهو التشبيه المتعدد ، وذلك قولهم . هو يصفو ويكدر ويمر ويحلو وواضح أن هذه الصور من الاستعارة)) (٤) .

وكما ذكرت من قبل فإن (الشيخ عبد القاهر) قد استفاد من آراء (المبرد) في هذا الموضوع ، وإن لم يشر (المبرد) إلى اسم التشبيه المتعدد ، كما فعل (الشيخ عبد القاهر) .

هل كل تشبيه يمكن صرفه إلى الاستعارة ؟

---

(١) البلاغة القرآنية وأثرها في تفسير الزمخشرى ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) سورة الجمعة آيه ٥ .

(٣) نفس المرجع ص ١٤٧ .

(٤) نفس المرجع ص ١٤٧ .

كنت قد تكلمت عن هذا الموضوع في فصل آخر ، ولكني سأعتمد رأى الشيخ (عبد القاهر الجرجاني) ، ومن ثم أرجع أصول أفكاره إلى منابعها .

لقد ناقش الشيخ (عبد القاهر) هذه الفكرة واستطاع أن يغوص في أعماق هذه الموضوعات الشائكة ، فيضع لكل موضوع حده ، ويبين حدوده .

فليس كل شيء يجيء مشبها به بكاف أو بإضافة مثل إليه يجوز أن تسلط عليه الإستعارة ، وينفذ حكمها فيه حتى تنقله عن صاحبه وتدعيه للمشبه على حد قولك : (أبديت نورا) تريد علما ، وسللت سيفا صارما ، تريد رأيا نافذا .

ولقد جرى (العسكرى) على ذكر التشبيه المحذوف الأداة في باب الاستعارة لكنه قال عند ما أورد قوله تعالى : (هنَّ لباس لكم) (١) ويحتمل أن يقال أنهما يتجردان ويجتمعان في ثوب واحد ، ويتضامان فيكون كل واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس فيجعل ذلك تشبيها بغير أداة تشبيه)) . (٢)

وعلى أنه استعارة قال : ((معناه فإنه يماس المرأة وزوجها يماسها والاستعارة أبلغ لأنها أدل على اللصوق وشدة المماسة) . (٣)

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٨٧ .

(٢) ، (٣) الصناعتين ٢٧٦ .

المبحث السابع

السرقات الأدبية

إن الأدب تعبير عن وجدان و مشاعر القائلين ، لذا فإنه يتنوع بإختلاف الأشخاص ، و يتجدد بتغير العصر و الظروف .

من هذا يمكن القول بأن هناك من جدد و أبدع صورا ، و هناك من لجأ إلى لوحات غيره فاكتسب منها أفكارا ، أصبحت أكثر تأثيرا في النفس بفضل ما أضفى عليها من روحه و ذوقه وعقله ، وكذلك أخذ النقاد في التفرقة بين الابتداع و الإتباع ، ووضعوا لذلك قواعد و أصولا سموها بأسماء مختلفة .

و هذا باب متسع جدا ، لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه ، وإن إدراك هذا السطو الأدبي من الأعمال المجيدة التي تدل على بصيرة الناقد ، وتمكنه من صناعته ، لأن الآخذ يعمد إلى إخفاء ما أخذ من غيره بشتى الوسائل ، و يحتاج من نهج هذا السبيل إلى الطاف وتدقيق النظر في تناول المعاني و استعارتها و تلبيسها ، حتى تخفى على النقاد ، و من ثم ينفرد بشهرتها و كأنه غير مسبوق إليها .

ولقد دارت بين النقاد مناقشات حول السرقة و ماهيتها وإني أجد في قول الإمام على رضي الله عنه - والتى استدل بها (أبو هلال العسكرى) كلمة انصاف : (ولولا أن القائل يؤدى ما سمع لما كان في طاقته أن يقول وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين . وقال أمير المؤمنين على ابن أبي طالب رضي الله عنه : لولا أن الكلام يعاد لنفد وقال بعضهم كل شيء ثنيته قصر ، إلا الكلام فإنك إذا ثنيته طال) .[1]

---

(١) الصناعتين ص ٢١٧ .

ولقد نقلها عنه(الدكتور بدوى طبانه) .(١)

وإنها لكذلك لأنه لا يمكن أن تأتي الأشعار بالجديد المتجدد على طول الأيام ، وإنما هي تداول بين الشعراء ، لأنها تعبير عن أنفسهم ، وما يجول بخواطرهم وبعقول الناس ، ممن لا يستطيع التعبير عن خلجات نفسه فيجد في الشعر صورة تعكس ملامح خواطره .

و (السرقات) أو (الأخذ)كما يسميه بعضهم من الموضوعات التي شغلت صفحات الأدب ، واشتغل بها النقاد أمدا طويلا متواصلا ، حتى عصر (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، وإلى ما بعد عصره .

وسأعرض - بإذن الله - لآراء (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) وغيره من العلماء الذين عرضوا لهذا الموضوع ، فذكروا أنها داء قديم لابد من تعاطيه لكل شاعر .

فهذا (الجاحظ) منذ القدم ، قد أشار إلى موضوع (السرقات ،ومهد الطريق للباحثين ، فقال :

« لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب ، وفي معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مخترع ، الا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إن هو لم يَعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكا فيه،كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال : إنه خطر على باله من غير سماع ، كما خطر على بال الأول » .(٢)

---

(١) انظر السرقات الأدبية لبدوى طبانه ص ٤٢ ط ٣ ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م / دار الثقافة ببيروت .

(٢) الحيوان ٣ / ٣١١ .

وهذا يعني أن المعاني إنما هي شركة متداولة بين الشعراء كل من أعجبه معنى بديع أتى إليه فأخذه كله أو بعضه ، وعبر كل منهم بطريقته وأسلوبه الخاص به ، وربما ادعى بعضهم أنه صاحبه ، ومع هذا لا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه .

وكذلك كان رأي (القاضي الجرجاني) صاحب (الوساطة) حين قال :

« والسرق - أيدك الله - داء قديم وعيب عتيق ، ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه »[١].

ولقد قال (الآمدى) كذلك في (الموازنة) أن (السرقات) :

« باب ما يعرى منه أحد من الشعراء الا القليل »[٢].

وكما قال (ابن رشيق القيرواني) عن (السرقات) أنها :

« باب متسع جدا ، ولا يقدر أحد من الشعراء أن يدعى السلامة منه »[٣].

ولقد وافقهم (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) على أن السرقات موضوع قديم قدم الشعراء ، وإن كل واحد استفاد من سابقه .

لذا فإنه عند ما عرض لموضوع (السرقات) نظر إليه بنظرة موضوعية شاملة ، جعلته يفصل القول فيه ، فقد قسمه أقساما .

الأول :

الإتفاق في الغرض :

يقول فيه « وهو أن يقصد كل واحد منهما وصف

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص ٢١٤ .

(٢) الموازنة ١ / ١٣٨ .

(٣) العمدة ٢ / ٢٨٠ .

ممدوحه بالشجاعة والسخاء أو حسن الوجه والبهاء أو وصف فرسه بالسرعة أو ما جرى هذا المجرى ». [1]

هذه المعاني المعروفة المتداولة لا سرقة فيها ، بل هي متداولة بين الناس ، ولقد عبر عن ذلك (القاضي الجرجاني ت ٣٩٢ هـ) من قبل حين قال :

« فمتى نظرت فرأيت أن تشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليد البطئ بالحجر والحمار ، والشجاع الماضي بالسيف والنار ، والصب المستهام بالخبول في حيرته والسليم في سهره والسقيم في أنينه وتألمه ، أمور متقررة في النفوس ، متصورة في العقول يشترك فيها الناطق والأبكم والفصيح والأعجم والشاعر والمفحم ، حكمت بأن السرقة عنها منتفية ، والأخذ بالاتباع مستحيل ممتنع ، وفصلت بين ما يشبه هذا ويباينه ، وما يلحق به ، وما يتميز عنه ، ثم اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع ، فوجدته مستفيضا متداولا متناقلا ، لا يعد في عصرنا مسروقا ، ولا يحسب مأخوذا ، وإن كان الأصل فيه لمن انفرد به ، وأوله للذى سبق إليه ، كتشبيه الطلل المحيل بالخط الدارس وبالبرد النهج ». [2]

وهذا القسم هو الذى اتفق الشعراء عليه أنه شركة متداولة بينهم فتشبيه الحسن بالبدر والشمس والكريم بالغيث ، والصب المستهام بالمخبول في حيرته ، وغيرها من الصفات التي مثل لبعضها (القاضي الجرجاني) لتقريب المقصود من الأذهان وليس للحصر . يقول :

« ولم أر هذه بأعيانها دون غيرها ، ولم أوردها إلا دلائل على أمثالها ، فإذا اعتبرتها تصنفت لك صنفين : إما مشترك عام الشركة

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٠٩ .

(٢) الوساطة ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

لا ينفرد أحد منهم بسهم لا يساهم عليه ، ولا يختص بقسم لا ينازع فيه ، فإن حسن الشمس والقمر ومضاء السيف وبلادة الحمار ، وجود الغيث وحيرة المخبول ، ونحو ذلك مقرر في البداية ، وهو مركب في النفس تركيب الخلقة ، وصنف سبق إليه المتقدم إليه ، فَفَازَبِه ، ثم تدوول بعده فكثر واستعمل فصار كالأول في الجلاء والاستشهاد والاستفاضة على ألسن الشعراء فحمي نفسه عن السرقة ، وأزال عن صاحبه مذمة الأخذ ». (١)

أما أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) : فقد قسم الأخذ أربعة أقسام ، ولكن ليس من حيث المواضع بل من حيث المعاني ، فيما يخص هذا القسم : أن من أخذ المعنى بلفظه عد سارقا ، وقد عده كذلك من قبح الأخذ . يقول :

« وسمعت ما قيل أن من أخذ معنى بلفظه كان له سارقا » (٢) ، ويقول أيضا : « وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم فليس على أحد فيه عيب إلا إذا أخذه بلفظه كله ، أو أخذه فأفسده وقصر فيه عمن تقدمه ، وربما أخذ الشاعر القول المشهور ، ولم يبال كما فعل (النابغة) أخذ قول (وهب بن الحرث بن زهرة) :

تبد وكواكبه والشمس طالعة
تجرى على الكاس منه الصاب والمقر (٣)

وقال النابغة :

تبد وكواكبه والشمس طالعة لا النور نور ولا الإظلام اظلام (٤)

وأخذ قول رجل من كندة في عمرو بن هند :

---

(١) الوساطة ص ١٨٥ .

(٢) الصناعتين ص ٢١٨

(٣) البيت من البسيط-المقر : الحامض وقيل انه المر أو الصبر نفسه .

(٤) هذا البيت من قصيدة قالها حين بعثت بنو عامر إلى حصن بن حذيفة أن اقطعوا حلفكم مع بني أسد ونحن نحالفكم فنحن بنو أبيكم ، وكان ذلك في سوق عكاظ والبيت من البسيط .

هو الشمس وافت يوم د جن فأفضلـت
على كل ضوء و الملوك كواكـب

فقـال :

بأنك شمس و الملوك كواكـب
إذا طلعت لم يبـد منهن كوكب (١)

القسم الثانـي :

الا تفاق في وجه الدلالة على الغرض :

و يكون مما اشترك الناس في معرفته و تعارفوه فيما بينهم يقـول :

((و أما الا تفاق في وجه الدلالة على الغرض فيجب أن ينظر ، فإن كـان مما اشترك الناس في معرفته ، وكان مستقرا في العقول و العادات ، فـإن حكم ذلك و إن كان خصوصا في المعنى حكـم العموم)) (٢) .

اى عند الاشتراك في وجه الدلالة على غرض الشاعر من مدح أو هجـاء يكون لهذا الخصوص في المعنى حكم العموم ، لأنه مما لا يحتاج فـي استنباطه إلى تدبر و تأمل .

يقـول : ((هذا مما لا يختص بمعرفته قوم د ون قوم ، ولا يحتاج في العلم به إلى روية و استنباط و تدبر و تأمل ، و إنما هو في حكم الغرائـز المركوزة في النفوس و القضايا التي وضع العلم بها في القلوب)) (٣) .

القسم الثالـث :

و منه ما ينتهي إليه المتكلم بنظر و تدبـر :

و هذا النوع الذى يحصل عليه طالبه بعد جد واجتهاد ، و إعمـال

---

(١) الصناعتين ص ٢١٨ هذا البيت من الطويل وفي د يوان النابغة ص ٥٦ .
(٢) أسرار البلاغة ص ٣١٠ .

فكر فالاختصاص أنصف الأحكام فيه ، ويعد نائله حائز فضل السبق وقد تبع (الشيخ عبد القاهر) (العسكرى) في هذا حيث يقول :

(وإن كان ما ينتهي إليه المتكلم بنظر وتدبر ، وينالـه بطلب واجتهاد ولم يكن كالأول في حضوره إياه وكونه في حكم ما يقابله الذى لا معاناة عليه فيه ، ولا حاجة به إلى المحاولة والمزاولة والقياس والمباحثة والاستنباط والاستثارة ، بل كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر وعليه كم يفتقر إلى شقه بالتفكر ، وكان دراً في قعر بحر لابد له من تكلف الغوص عليه ، وممتنعا في شاهق لا يناله إلا بتجشم الصعود إليه ، وكامنا كالنار في الزند ، لا يظهر حتى يقتدحه ومشابكا لغيره كعروق الذهب التي لا تهدى صفحتها بالهوينا ، بل تنال بالحفر عنها وبعرق الجبين في طلب التمكن منها)). (١)

فهذا النوع الذى يجهد من يطلبه في سبر أغواره ، ومعرفة مصادره وأكنانه هذا النوع الذى يستحق أن يختص به مبدعه ، وأن يعد رائده. يقول (الشيخ عبد القاهر):

((نعم إذا كان هذا شأنه ، وههنا مكانه ، وبهذا الشرط يكون امكانه فهو الذى يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية وأن يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد ، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر ، وأن الثاني زاد على الأول ونقص عنه ، وترقى الى غاية أبعد من غايته ، أو انحط الى منزله دون منزلته)) (٢)

وكما هو واضح (فالشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، لم يمثل له بأمثلة كما فعل سابقوه ، مثل (ابن طباطبا العلوى) الذى يقول :

((وإذا تناول الشاعر المعاني التي سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب ، بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه . كقول أبي نواس (٣) :

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣١٠ ، ٣١١ . (٢) المصدر نفسه ص ٣١١ .

(٣) البيت من الطويل .

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة

لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

أخذه من الأحوص حيث يقول :

متى ما أقل في آخر الدهر مدحة

فما الا لابن ليلى المكرم (١)

ولقد دلت عبارة (ابن طباطبا) على أنه يفضل قول أبي نواس ، بالرغم من أنه مأخوذ من قول الأحوص .

وإن الذى يأخذ معنى غيره عليه أن يعمل فكره ، ويكد ذهنه حتى يستطيع أن يخفى حقيقة وضعه ، ومن أين كان مسلكه في ذلك يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني :

((وأمر ثالث وهو أنهم يقولون في واحد : انه أخذ المعنى فظهر أخذه وفي آخر أنه أخذه فأخفى أخذه ولو كان المعنى يكون معادا على صورته وهيئته ، وكان الآخذ له من صاحبه لا يصنع شيئا غير أن يبدل لفظا مكان لفظ ، لكان الإخفاء فيه محالا ، لأن اللفظ لا يخفى المعنى وإنما يخفيه إخراجه في صورة غير التي كان عليها)) .(٢) .

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ص ٧٩ والبيت من الطويل وقائله : هو الأحوص ابن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، وعاصم بن ثابت من الأنصار ، وهو حمى الدبر . (اى النحل والزنابير) لأن النحل حمته من المشركين أن يمثلوا به بعد قتله . وكان رضي الله عنه من السابقين الأولين ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه إلى عضل والقارة يفقهونهم ويقرئونهم القرآن ، حين سألوه ذلك ، ثم غدروا بهم فقتلوهم وتلك قصة يوم الرجيع سنة ٣ من الهجرة . وكان عاصم قد عاهد الله أن لا يمس مشركا أبدا ، ولا يمسه فلما أرادوا أن يأخذوه أرسل الله عليهم الدبر فحمته منهم) الشعر والشعراء ١ / ٥١٨ وكان الأحوص الشاعر يشبب بنساء أهل المدينة ، فتأذوا به وكان معبد وغيره من المغنين يغنون في شعره ، فشكاه قومه فبلغ ذلك سليمان بن عبد الملك : فكتب إلى عامله بالمدينة أن يضربه مئة سوط ، ويقيمه على البَلَس للناس ، ويسيره إلى دهلك ففعل به . . وأتى رجل عمر بن عبد العزيز فطلب إليه أن يرده من بلد الشرك فقال : والله لا أرده ماكان لي سلطان) طبقات فحول الشعراء ٢ / ٦٥٦ ، ٦٥٧ شرح محمود محمد شاكر .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٤٤٦ .

ولقد كان ما عرضه الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، مستقى من أفكار ابن طباطبا العلوى ، حيث يقول :

((ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى إلطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها ، وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها ، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذى تناولها منه ، فإذا وجد معنى لطيفا في تشبيب أو غزل استعمله في المديح ، وإن وجده في المديح استعمله في الهجاء ، وإن وجده في وصف ناقه أو فرس استعمله في وصف الإنسان ، وان وجده في وصف إنسان استعمله في وصف بهيمة ، فإن عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذر على من أحسن عكسها واستعمالها في الأبواب التي يحتاج اليها فيها ، وان وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام ، أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعرا كان أخفى وأحسن ، ويكون ذلك كالصائغ الذى يذيب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه ، وكالصباغ الذى يصبغ الثوب على ما رأى من الأصباغ الحسنة)) (١).

من هذا نلحظ أن الأدب فن رفيع يحتاج إلى تذوق خاص في استنباط المعاني وكذلك في صوغها أو سبكها ، لأن الإنتاج الأدبي يكون محط أنظار النقاد وخبراء فن علوم العربية ، وإن طريقة استخراج المعاني بعضها من بعض يحتاج إلى لطف الحيلة . وخبرة في مزاولة فن الشعر ، حتى يخفى المعنى على من يتلقفونه بالنقد والفحص .

ولقد اختار (القاضي الجرجاني) (ت ٣٩٢ هـ) لهذا القسم اسم التفنن في السرقة ، يقول فيه : وحتى لا يفرك من الهيتين المتشابهين أن يكون أحدهما نسيبا ، والآخر مديحا ، وأن يكون هذا هجاء ، وذاك افتخارا فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصنفه وعن وزنه

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ص ٨٠ ، ٨١ .

ونظمه ، وعن رويه وقافيته ، فإذا مر به الغبي الغفل وجدهما أجنبيين متباعدين ، وإذا تأملها الفطن الذكي عرف قرابة ما بينهما والوصلة التي تجمعهما ، قال كثير : (١)

أريد لأنسى ذكرها فكأنما

تمثل لي ليلى بكل سبيل

وقال أبو نواس : (٢)

ملك تصور في القلوب مثاله

فكأنه لم يخل منه مكان

فلم يشك عالم في أن أحدهما من الآخر ، وإن كان الأول نسيبا والثاني مديحا)) (٣) .

فهذا (كثير) يريد أن ينسى حتى ذكر محبوبه ، ومع هذا (فليلى تتراءى له في كل مكان) ، وذاك أبو نواس يمتدح الملك بأنه على درجة من الرفعة وعلو الشأن حتى أصبحت صورته متمثلة في كل القلوب .

ومهما يكن غرض البيتين : أحدهما نسيبا والآخر مديحا ، فإن تصور صورة المقصود بالقول في كل مكان محبة واعزازا وهو الجامع بين معنى البيتين ، وهو معنى سهل للعالم العارف الخبير بالشعر ومعانيه وفي نفس الوقت صعب ممتنع على الغفل الساذج .

ومن الشعراء من يلجأ إلى قلب المعاني ، محاولة إلى إخفاء جهة الأخذ ، فمنهم من يلجأ إلى قلب المعنى يريد به نقض الصورة الأصل التي أوحت له بالفكرة .

---

(١) البيت من الطويل

(٢) البيت من الكامل .

(٣) الوساطة ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

يقول القاضي : ((و من لطيف السرق ما جاء به على و جه القلب ،وقصد به النقض ، كقول المتنبي (١) :

أأحبه و أحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه

إنما نقض قول أبي الشيص (٢) :

أجد الملامة في هواك لذيذة

حبا لذكرك فليلمني اللوم

و أصله لأبي نواس في قوله (٣) :

إذا غاد يتني بصبوح عذل

فممزوجا بتسمية الحبيب

فإني لا أعد اللوم فيه

عليك إذا فعلت من الذنوب) (٤)

---

(١) البيت من الكامل .

(٢) البيت من الرجز (٣) البيتان الأول من الكامل والثاني من الوافر

(٤) الوساطة ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ وأبو الشيص : هو أبو جعفر محمد بن رزين من اليمنية ، و هو عم دعبل الشاعر المشهور . وكان أبو الشيص من شعراء عصره ، متوسط المحل فيهم غير نبيه الذكر لوقوعه بين مسلم بن الوليد و أشجع و ابي نواس فخمل ، و انقطع إلى عقبة بن جعفر ابن الأشعب الخزاعي ، وكان أميرا على الرقة فمدحه بأكثر شعره و قلما يروى له في غيره ، وكان عقبة جوادا فأغناه من غيره ، لأنه كان يعطيه عن كل بيت ألف درهم . وكان من وصافي الخمر وله مقدرة على الغزل ، و أصيب آخر عمره بالعمى فنظم الشعر في بكاء عينيه ، توفى سنة ١٩٦ هـ) ٢ / ٨٦ ، ٨٧ تاريخ آداب اللغة العربية . ولقد ذكره ابن قتيبة فقال عنه : (وكان في زمن الرشيد ، ولما مات الرشيد رثاه ومدح محمدا ، وله ابن يقال له عبد الله ، شاعر) الشعر والشعراء ٢ / ٨٤٣ ، ٨٤٨ .

فهذا ابو نواس قد ذاب حبا في محبوبه ، حتى أنه طلب من عاذله أن يكثر من لومه ، تلذذا بترديد اسم محبوبه ، وهذه عنده من حسنات العذال .

ولقد أخذ « أبو الشيص منه هذا المعنى حين يجد في لوم العذال راحة وهناء ، واستعذابا لذكر الحبيب ، لذا يريد أن يكثر لائموه ، لتزداد سعادته بذكر من أحب .

والمعنى هو نفس المعنى في شعر (أبي نواس) و (أبي الشيص) ولقد نص (الجرجاني) على أن الأصل قول (أبي نواس) ، ونص كذلك أن (المتنبي) نقض قول (أبي الشيص) .

ولقد ألزمنا (القاضي الجرجاني) بالتروى قبل الحكم ، واحكام النظر فيما بين أيدينا من نصوص ، لأن الفروق فيما بينها دقيقة جدا ، لا يستطيع كل من أراد أن يكون حكما أن يتوصل إليها يقول القاضي :

« وهذا باب يحتاج إلى إنعام الفكر وشدة البحث ، وحسن النظر والتحرز من الإقدام قبل التبيّن ، والحكم الا بعد الثقة ، وقد يغمض حتى يخفى ، وقد يذهب منه الواضح المجلى على من لم يكن مرتاضا بالصناعة ، متدربا بالنقد وقد تحمل العصبية فيه العالم على دفع العيان وجحد المشاهدة ، فلا يزيد على التعرض للفضيحة والاشتهار بالجور والتحامل » (١)

كما ناقش هذا القسم أيضا (أبو هلال العسكرى) ت ٣٩٥ هـ) حيث يقول : « والحاذق يخفى دبيبه إلى المعنى ، يأخذه في سترة فيحكم له بالسبق إليه أكثر من يمر به ، وأحد أسباب إخفاء السرق أن يأخذ معنى من نظم فيورده في نثر ، أو من نثر فيورده في نظم ، أو ينقل المعنى المستعمل في صفة خمر فيجعله في مديح ، أوفى مديح فينقله إلى وصف

---

(١) الوساطة ص ٢٠٨ .

الا أنه لا يكمل لهذا إلا المبرز،و الكامل المقدم فمن أخفى دبيبه إلى المعنى وستره غاية الستر أبو نواس في قوله :

أعطتك ريحانها العقار وحان من ليلك انسفار (١)

وإن كان قد أخذه من قول الأعشى على ما حكوا ، فقد أخفاه غاية الإخفاء ، قول الأعشى :

وسبيئة مما تعتّق بابل كدم الذبيح سلبتها جريالها (٢)

سئل الأعشى عن - سلبتها جريالها - فقال شربتها جمراء ، وبلتها بيضاء ، فبقى حسن لونها في دمي ، ومعنى أعطتك ريحانها العقار أى شربتها فانتقل طيبها إليك ». (٣)

فهذا أبو هلال العسكرى يرى أن من الشعراء من يتناول المعاني ، فيخفى أخذه منها ، ولقد امتاز أبو هلال ببيان مواضع السرق كما هو موضح في المثال ، ولقد مثل أيضا بقول أبي تمام (ومن أخفى الأخذ أبو تمام في قوله : (٤)

جَمعت عُرى أعمالها بعد فرقة
إليك كما ضم الأنابيب عامل

قالوا هو من قول الحبال الربعي : (٥)

أولئك إخوان الصفاء رزيتهم
فما الكف إلا إصبع ثم إصبع

---

(١) البيت من البسيط (٢) البيت من الكامل .
(٣) الصناعتين ص ٢١٩ .
(٤) البيت من الطويل. الصناعتين ص ٢٢٠ .
(٥) البيت من الطويل .

القسم الرابع : المشترك العامي :

وهو المعنى الذى تعارفه الناس فيما بينهم ، واشتركوا في التعبير به ، هذا النوع قد ذكرنا أنه باب لا يدخله التفاضل ، ولا تصلح به مسابقة أما اذا دخلته صنعة كأن عبر عنه بطريق الكناية والتعريض والرمز والتلويح ، فإنه يكتسب صفة غير صفته ، ويصبح في رونق غير رونقه لذا يدخل في حكم الاختصاص .

يقول الشيخ عبد القاهر :

((واعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامي والظاهر الجلي والذى قلت إن التفاضل لا يدخله ، والتفاوت لا يصح فيه إنما يكون كذلك منه ما كان صريحا ظاهرا لم تلحقه صنعة وساذجا لم يعمل فيه نقش ، فأما إذا ركب عليه معنى ، ووصل به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والتعريض والرمز والتلويح ، فقد صار بما غير من طريقته ، واستؤنف من صورته واستجد له من المعرض وكسى من ذلك التعرض ، داخلا في قبيل الخاص الذى يملك بالفكرة والتعمل ، ويتوصل إليه بالتدبر والتأمل)) .(١)

ولقد ضرب مثلا لذلك قول بعض العرب :(١)

سلبن ظباء ذى نفر طُلاها ونُجل الأعين البقر الصُوارا

والمعنى أن الحسناوات قد سلبن وسرقن عيون البقر النجلاوات ويشرح. الشيخ (عبد القاهر) ما فيه من تشبيه ، أضفى على المعنى رونقا وبهاء يقول :

((كذلك المشبه إذا قال : (سرقن الظباء العيون) فقد أوهم أن ثم سرقة ، وأن العيون منقولة إليها من الظباء)) .(٣)

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣١١ .

(٢) الطلا : بالضم جمع طلية وهي الأعناق ، ونجل الأعين من اضافة الصفة الى الموصوف . الصوار : بالضم والكسر القطع من بقر الوحش . والبيت من الوافر .

(٣) أسرار البلاغة ص ٣١٣ .

ولقد اكتسب قائل هذا الشعر الاختصاص لأنه انفرد فيه بصنعة، فخرج من العموم إلى الخصوص. يقول :

((فالاحتفال والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم والتخيلات التي تهز الممدوحين وتحركهم ، وتفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط ،أو بالنحت والنقر ، فكما أن تلك تعجب وتخلب وتروق وتونق ، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ، ولا يخفى شأنه ، فقد عرفت قضية الأصنام ، وما عليه أصحابها من الافتتان بها ، والإعظام لها ، كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ويشكله من البدع ويوقعه في النفوس من المعاني ، التي يتوهم بها الجامد الصامت ، في صورة الحي الناطق والموات الأخرس ، في قضية الفصيح المعرب ، والمبين المميز ، والمعدوم المفقود في حكم الموجود المشاهد)). (١)

فالشيخ (عبد القاهر الجرجاني) يرى أن تفاوت الصور الجمالية في الشعر ، إنما يعود إلى ما يعمله الشاعر في شعره من صور جميلة ، ويشبهه كذلك - اى الشاعر - بالحاذق الماهر في نحت الصور وإخراجها في أبهى صورة تؤثر في النفس ، حتى يجعل الجامد في صورة الحي ، والأخرس في صورة الناطق .

وهذا يحصل في المعاني المعروفة المتداولة بين الناس ، حتى يزيد عليها الشاعر بعضا من روحه وحسه ، فينال بذلك فضل نسبتها إليه.

ولقد استقى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) فكرته هذه ممن سبقه من العلماء ، فهذا (الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى (ت ٣٧١ هـ) يقول : (إنما السرق يكون في البديع ، والذى ليس للناس فيه اشتراك). (٢)

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣١٣ .

(٢) الموازنة ١ / ٥٥ .

وبمعنى أدق أنه لا يمكن أطلاق السرقة في رأى الآمدى إلا في الأمور المنسوبة لشاعر أو كانت بذاته ، فمثلا الناس تشبه الورد بالخد والخد بالورد ، وهو موضوع لا يمكن إدعاء السرقة فيه ،الا باضافة زيادة تضم إليه أو معنى يشفع به .

كما عبر عنه الشيخ عبد القاهر الجرجاني في الدلائل قائلا :

((قد علمنا أن أصل الفساد وسبب الآفة هو ذهابهم عن أن من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور ، وتحدث فيها خواص ومزايا من بعد أن لا تكون ، فانك ترى الشاعر قد عمد الى معنى مبتذل فصنع فيه ما يصنع الصانع الحاذق ، اذا هو أغرب في صنعة خاتم وعمل شنف وغيرهما من أصناف الحلى)) .(١)

ولقد كان القاضي الجرجاني من السابقين إلى مناقشة هذا الموضوع إذ يرى فيه أن المعاني العامة المعروفة بين الناس ، قد تفوز إحداها بصنعة شاعر مبدع فتكون لها الأولوية ، من حيث زيادة تضم إليها ، والتعبير عنها بلفظ مستعذب أو تأكيد يرفع مكانها . عند ذلك يبدو المشترك بين الناس كالمبتكر الذى يلج النفس وكأنه لم يُسمع به من قبل . يقول في ذلك :

((وقد يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشعر ، فتشترك الجماعة في الشيء المتداول ، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتيب يستحسن ، أو تأكيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى لها دون غيره ، فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع ، كما قال لبيد : (٢)

وجلا السيول عن الطلول كأنها
زبر تُجد متونها أقلامها

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٢٥ .

(٢) هذا البيت من الكامل . الوساطة ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

فقد شبه الشاعر الطلول التي تنجلي عنها السيول ، بالكتب التي أعادت الأقلام خط ما فيها ، فأتت صورة فوق صورة ، فبدت الصورة الأولى شاحبة و مثل كذلك بقول امرئ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجاني
كخطّ زبور في عسيب يماني (١)

و هذا امرؤ القيس قد تناول نفس هذا المعنى ، و لكنه ألبسه ثوبا يختلف عن ثوب لبيد الذى كسابه ذاك المعنى .

يقول امرؤ القيس : لقد أشجاه منظر الطلل الذى يشبه الخط الذى يكتب به في سعف النخل .

و هذان المثالان مما لا يمكن إدعاء السرقة فيهما ، لأن معنييهما معروف متداول ، و لكن كما هي القاعدة ، لا ينسب فضل و لا تكون مزية إلا إذا أحدث الشاعر صنعة تستحق الإعجاب بنفس المعنى ، و هذا الذى أكسب بيت لبيد جمالا و فضلا .

الحقيقة أن تشبيه لبيد رائع و مبتكر ، لأن الكتابة إذا اعيد عليها بدت لها صورة دقيقة تشبه بها الطلول الدارسة التي تغيرها السيول فتظهر جديدا فوق قديم .

و في ذلك يقول القاضي الجرجاني :

((و هو من الباب الذى لا يمكن ادعاء السرقة فيه ، الا بتناول زيادة تضم إليه ، أو معنى يشفع به ، كقول على بن الجهم (٢) :

عشية حياني بورد كأنه
خدود أضيفت بعضهن الى بعض

---

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه ص ١٧٠ .

(٢) البيت من الطويل و في الديوان ص ١٥٢ انظر ديوان على بن الجهم ت/ خليل مردم بك ط ٢ دار الآفاق الجديدة - بيروت .

فأضاف بعضهن إلى بعض وإن أخذ فمنه يؤخذ ، وإليه ينسب وكقول ابن المعتز: (١)

بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

والخجل إنما يحمر وجنتاه ، فأما منبت الأصداغ ، ومخط العذار، فقليلا ما يحمران ، فهذا التمييز مسلم له وإن لم يكن يسبق إليه)). (٢)

لقد شبه الشاعر الخدود بالورد في الحمرة ، وعندما يخجل فإنه يزداد احمرار خديه ، لأن احمرار الخجل يضاف إلى حمرة خديه الطبيعية .

أما قول ابن المعتز : أن خدى الخجل تكون حمرتها من جهة الأصداغ محيطة ببياض الخد .

فهذا التشبيه كان فيه عكس للمعنى الأصلي ، حيث أراد الشاعر أن يقول : أن الاحمرار في جوانب البياض .

وفي هذا بعد عن المعنى الأصلي الذى يحصل : وهو الحمرة في جوانبها بياض .

يقول القاضي : ((ولو اتفق له أن يقول : حمرة في جوانبها بياض، لكان قد طبق المفصل وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان ، فجعل الاحمرار في جوانب البياض ، فراغ عن موقع التشبيه)) . (٣)

ولقد تحدث (ابوهلال العسكرى) - أيضا - في هذا الشأن عن المعنى المأخوذ ، فيَحدث فيه الشاعر صنعةً جميلة ، اكتسب معها

---

(١) البيت من الوافر.
(٢) الوساطة ص ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٨٨ .

صفة الحسن ، فإنه يكون أولى بنسبته إليه .

((و من أخذه فكساه لفظا من عنده أجود من لفظه ، كان هو أولى به ممن تقدمه)). (١)

و ضرب لذلك مثلا :

((و ممن نقل المعنى من صفةٍ إلى أخرى البحترى فإنه قال في المتوكل :

و لو أن مشتاقا تكلف فوق ما

في وسعه لسعى اليك المنبر (٢)

أخذه من قول العرجي في صفة النساء :

لو كان حيا قبلهن ظعائنا ... حيا الحطيم وجوههن وزمزم (٣)

إلا أنه غير خاف ، ممن أخذ المعنى فزاد على السابق إليه زيادة حسنة أبو نواس في قوله : (٤)

يبكي فيذرى الدر من نرجس

ويلطم الورد بعناب

أخذه من قول الأسود بن يعفر (٥)

---

(١) الصناعتين ٢١٨ . (٢) البيت من الكامل .

(٣) البيت من الكامل . وقائل هذا البيت العرجي، وهو عبد الله بن عمر ابن عثمان بن عفان ، وكان ينزل بموضع قبل الطائف يقال له (العرج) فنسب إليه . و هو أشعر بني أمية ، كان يهجو إبراهيم بن هشام المخزومي فأخذه فحبسه . و هو القائل في السجن :

كأني لم أكن فيهم وسيطا ... و لم تك نسبتي في آل عمرو

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

الشعر و الشعراء ٢ / ٥٧٤ .

(٤) البيت من السريع .

(٥) الأسود بن يعفر : و يكنى أبا الجرّاح ، وكان الأسود شاعرا فحلا ، وكان يكثر التنقل في العرب يجاورهم ، فيذم و يحمد ، وله في ذلك أشعار ، و له واحدة رائعة طويلة لاحقة بأجود الشعر ، لو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته ، و هي:

نام الخلي و ما أحس رقادى ... و الهم محتضر لدىَّ وسادى

و هو من شعراء الطبقة الخامسة عند ابن سلام) طبقات فحول الشعراء ١/١٤٧

يسعى بها ذو تومتين كأنما
قنأت أناملـه من الفرصاد

وأخذ بعض المتأخرين بيت أبي نواس فزاد عليه زيادة عجيبة ، فقال :

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد

فجاء بما لا يقدر أحد أن يزيد عليه)). (١)

وحقا فقد وصف الشاعر فأحسن الوصف ، وأبهج النفس حتى لم يتقدمه أحد . إذ وصف دموعها بلؤلؤ يسيل برفق من عينين كالنرجس فسقى وردا ، ولاكمال صورة حزنها يقول :
(عضت على أناملها التي تشبه العناب بأسنان كالبرد في الصفاء والبياض).

ولقد نص ((أبو هلال على أصل هذا المعنى من بيت لأبي نواس
يبكي فيذرى الدر من نرجس .

كما نص (أبو هلال) على الآخذ (الأسود بن يعفر) ثم الشاعر الذى تقدمهما مع أنه آخذ أصل المعنى من بيتيهما .

= ولقد عرف في المفضليات بأنه : الأسود بن يعفر بن عبد الأسود ابن جندل بن نهشل بن دارم بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، كان ينادم النعمان بن المنذر . وهذه القصيدة تعد من مختارات أشعار العرب وحكمها ، وفيها يتحسر على ذكريات الشباب ويرحب بالموت ص ٢١٥ من المفضليات ، ت / أحمد محمد شاكر / عبد السلام هارون ط ٧ دار المعارف

تومتين : واحدتها تومة أى اللؤلؤة . باب الميم فصل التاء جـ ٤/٨٥ انظر القاموس المحيط
قنأت : قنأ كمنع قنوا : أى اشتدت حمرته باب الهمزة فصل القاف / الفرصاد : هو التوت باب الدال فصل الفاء . ويقصد الشاعر : أن ما في يديه من الحمرة يشبه حمرة الفرصاد . انظر القاموس المحيط ٣ / ٢٦ .

(١) البيت من البسيط وقائله : قيل الوأواء الدمشقي وقد تقدمت ترجمته ، وقيل يزيد بن معاوية . الصناعتين ص ٢٢١، ٢٢٢ .

كمـا مثل له بقول أبي تمام : (١)

نقّـل فؤادك حيث شئت من الهـــوى
مـا الحب إلا للحبيـــب الأول

أبين في الأمثـال من قول كثـير :

إذا ما أرادت خلـة أن تزيلنـــا
أبينـا وقلنا الحاجبيـة أول (٢)

والآن وبعد أن أوضحت خطة (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) فـــي موضوع السرقات ، وكيف قسم الموضوع أربعة أقسام ، ســـأعرض لوجهة نظـره العامة التي ضمنها كتابه (دلائل الاعجاز) بشئ من الإيجاز .

فقد اهتم (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) بموضوع السرقات ، ومـع هذا فلم يزد على ما وضعه (القاضي الجرجاني) و (الآمدى) و (العسكرى) من أصول . وذلك كما لا حظنا من خلال عرضنا لأصول بلاغة (الشيـــخ عبد القاهر الجرجاني) في هذا الصدد . إلا أنه يعدل عن أن يقول السرقـة قال : سابق ولاحـق .

ثم إنه حين أورد الأشعار الكثيرة في دلائل الإعجـاز لم يبين فضـــل بيت على آخـر ، وإنما قال أن هنا أبياتا فيها صنعة ، وأبياتا خالية مـــن الصنعة .

أما الذين سبقوه فكانوا ينصون على السابق وعلى الآخذ منـه ، ولكن ما انفرد به (الشيخ عبد القاهر) في كتابه (الدلائل) ، هو بيان أن الشعراء

---

(١) البيت من الكامل .

(٢) البيت من الطويل وقائله هو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة من خزاعة وكان رافضيـا ، وكان كثير أحد عشاق العرب المشهورين بذلك وصاحبته عزة و إليها ينسب و هي من ضمرة و بعثت عائشة بنت طلحة بن عبيد اللـه إلى كثير ، فقالت له : يا ابن جمعة ما الذى يدعوك إلى ما تقول مــن الشعر في عزة ، لو شئت صرفت ذلك إلى غيرها ممن هو أولى به منها أنـا أو مثلي فأنا أشرف و أوصل من عزة.فرد قائلا البيت المذكور و الحاجبيـــة هي عزة) الشعر والشعراء ١ / ٥٠٣ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ .

وإن اتفقوا في الغرض ، أو في وجه الدلالة على الغرض ، لا يكون المعنى عند أحد هم هو المعنى عند الثاني .

فقد قرر بأنه لو كان معنى البيت هو نفس المعنى في البيت الآخر ، لما كان هناك فضل لواحد على الآخر ، ولما احتاج قائل أن يقول فيعيد ما قاله الآخر .

يقول في ذلك : ((فانظر الآن نظر من نفى الغفلة عن نفسه فإنك ترى عيانا أن للمعنى في كل واحد من البيتين من جميع ذلك صورة وصفة ، غير صورته وصفته في البيت الآخر ، وأن العلماء لم يريدوا حيث قالوا : إن المعنى في هذا هو المعنى في ذاك أن الذى تعقل من هذا لا يخالف الذى تعقل من ذاك وأن المعنى عائد عليك في البيت الثاني على هيئته وصفته التي كان عليها في البيت الأول ، وأن لا فرق ولا فضل ولا تباين بوجه من الوجوه ، وإن حكم البيتين مثلا حكم الاسمين ، قد وضعا في اللغة لشيء واحد كالليث والأسد ولكن قالوا ذلك على حسب ما يقوله العقلاء في الشيئين يجمعهما جنس واحد ، ثم يفترقان بخواص ومزايا وصفات كالخاتم والخاتم والشنف والشنف ، والسوار ، والسوار وسائر أصناف الحلى التي يجمعها جنس واحد ، ثم يكون بينها الإختلاف الشديد في الصنعة والعمل)).(١)

ولقد كان لموضوع التشبيه بالأعمال الفنية ذات الصنعة اليدوية أهمية في تقريب معنى السرقات أو الأخذ الفني ، فكما أن الصائغ يعمل الخاتمين والسوارين من جنس واحد - ذهب أو فضة - إلا أنهما يختلفان في طريقة صنعتهما ، وهو تفصيل وشرح لم يتوصل إليه أحد قبله .

وهو بذلك يقدم لربط هذه القضية - السرقات - بنظرية النظم الذى عول عليه في الإعجاز الذى أساسه اختلاف في العبارة في تأدية

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

المعنى من قائل لقائل الى الحد الذى يعجز عنه البشر و هو القرآن الكريم .

يقـــــول :

((فلو أنك عمدت إلى بيت شعر ، أو فصل نثر ، فعددت كلماته عـــدا كيف جاء و اتفق و أبطلت نضــد ، و نظامه الذى عليه بني ، و فيه أفرغ المعنى و أجرى ، وغيـــرت ترتيبه الذى بخصوصيته أفاد كما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد : نحو أن تقول في ((قفانبك من ذكرى حبيب و منزل)) (١) منزل ، قفا ، ذكرى ، نبك ، حبيب) أخرجته من كمال البيان إلى محـــال الهذيان)) .(٢)

والشيخ (عبد القاهر الجرجانـــي) قد صرح بذلك حيث يقول :

((اعلم أنا إذا أضفنا الشعر أو غير الشعر من ضروب الكلام إلى غيـــر قائله لم تكن إضافتنا له من حيث هو كلم ، وأو ضاع لغة ، ولكن من حيث توخى فيها النظم الذى بينا أنه عبارة عن توخى معاني النحو في معاني الكلم)) .(٣)

أى أن تمييز قائل الشعر ليس من جهة أنه كلمات يوضع بعضها إزاء بعض، و لكن من حيث ترتيب الكلمات في النفس ، و النفوس بطبيعة الحال تختلـــف من شخص إلى آخر .

و يثبت من وجهة نظره أن القائل حين يقـول الشعر أيضاف إليه علـــى أنه نطق الكلمات فقط أم أنه من حيث توخى فيها ما توخى من الصنعة ، فالذى

---

(١) عجز البيت (بسقط اللوى بين الدخول فحومل) و هذا البيت من صـدر معلقة امرئ القيس المشهورة و البيت من الطويل .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٣٣٩ .

يقول ينسب الشعر إلى قائله من حيث نطقه للكلمات فقط ، يدعى دعوى باطلة ، لأن ذلك يعنى أن يسمى راوى الشعر ناظما له . يقول :

((ويزداد تبيننا لذلك . بأن ينظر في القائل إذا أضفته إلى الشعر فقلت (امرؤ القيس) قائل هذا الشعر : من أين جعلته قائلا له ؟ أمن حيث نطق بالكلم ، وسمعت ألفاظها من فيه ، أم من حيث صنع في معانيها ما صنع ، وتوخى فيها ما توخى ؟ فإن زعمت أنك جعلته قائلا له من حيث أنه نطق بالكلم ، وسمعت ألفاظها من فيه على النسق المخصوص فاجعل راوى الشعر قائلا له ، فإنه ينطق بها ويخرجها من فيه على الهيئة والصورة التي نطق بها الشاعر ، وذلك مالا سبيل لك إليه)) (١).

و (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، قد استنبط هذا المفهوم من كلام السابقين له ، ولقد اعترف بسابق فضلهم فبين أنهم حين كانوا يمتدحون اللفظ ، وينعتونه بمختلف الصفات لم يقصدوا اللفظ من حيث هو نطق الحروف وأجراس أصوات ، ولكن من حيث الصورة التي تحدث في المعنى .

(والجاحظ) قد وضح أن المعاني معروفة متداولة بين الناس ، ولكن الفضيلة ترجع إلى من أحدث فيها صورة وهيئة فبقدر جمال صورته وهيئته يجوز الفضل ، ولكن لم يبين كيف يتأتى له ذلك . وهو ما قصدت به في أول الفصل أن (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) قد انفرد دون غيره من العلماء بربط موضوع السرقات بنظرية النظم الذى هو توخى معاني النحو ، وليس كما فعل (الجاحظ).

وهذا هو ما قصده الدكتور (أحمد مطلوب) (٢) حين قال : إن الشيخ عبد القاهر يربط بين نظرية النظم الذى هو توخى معاني النحو ، وبين موضوع السرقات ، وهو جانب قد انفرد به الشيخ عبد القاهر في هذا الموضوع حيث يقول :

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٣٩ .
(٢) انظر عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ .

((ولما أقروا هذا في نفوسهم حملوا كلام العلماء في كل ما نسبوا فيه الفضيلة إلى اللفظ على ظاهره وأبوا أن ينظروا في الأوصاف التي أتبعوها نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ مثل قولهم : لفظ متمكن غير قلق ولا ناب به موضعه إلى سائر ما ذكرناه قبل فيعلموا أنهم لم يوجبوا للفظ ما أوجبوه من الفضيلة وهم يعنون نطق اللسان وأجراس الحروف ، ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا اللفظ ، وهم يريدون الصورة التي تحدث في المعنى والخاصة التي حدثت فيه ، ويعنون الذى عناه الجاحظ حيث قال : وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني ، والمعاني مطروحة وسط الطريق ، يعرفها العربي والعجمي والحضرى والبدوى ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير ، وما يعنونه إذا قالوا إنه يأخذ الحديث فيشنفه ويقرطه ، ويأخذ المعنى خرزة فيرده جوهرة ، وعباءة فيجعله ديباجة ، ويأخذه عاطلا فيرده حاليا ، وليس كون هذا مرادهم بحيث كان ينبغي أن يخفى هذا الخفاء ويشتبه هذا الاشتباه ، ولكن إذا تعاطى الشيء غير أهله ، وتولى الأمر غير البصير به ، أعضل الداء ، واشتد البلاء) (١).

أما قول العلماء : ((ان من أخذ معنى عاريا فكساه لفظا من عنده كان أحق به)) (٢).

فقد ربطه (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) (بقضية اللفظ) من حيث دلالته على المعنى ، وليس اللفظ المراد به الحروف ، ونطق الأصوات لأنه لو كان كذلك ،لكان معنى قولهم (معنى عاريا) أنه يوجد معنى ولا يوجد لفظ يدل عليه ، ويدل هذا إن كل واحد من القائلين يحدث لكل معنى

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٢) كما مرآنفا نص عبارة ابن طباطبا العلوى .

من المعاني لفظا من عنده ، هذا المفهوم ينطبق اذا كان مرادهم باللفظ نطق اللسان فقط .

فاذا فهم أحد أن هذا مقصودهم و مرادهم ، فمن أين يصح اذا أخذ أحد هذا المعنى يصير هو أحق به من صاحبه الذى أخذه منه ، اذا لم يصنع فيه صنعة ، أو يحدث فيه تغييرا ، بل يصير هو أحق بذلك النطق بالحروف .

يقول (الشيخ عبد القاهر) في ذلك : ((و مما اذا تفكر فيه العاقل أطال التعجب من أمر الناس ، و من شدة غفلتهم ، قول العلماء حيث ذكروا الأخذ و السرقة : أن من أخذ معنى عاريا فكساه لفظا من عنده كان أحق به ، و هو كلام مشهور متداول يقرؤه الصبيان في أول (كتاب عبد الرحمن ثم لا ترى أحدا من هؤلاء الذين لهجوا بجعل الفضيلة في اللفظ ، يفكر في ذلك فيقول : من أين يتصور أن يكون ها هنا معنى عار من لفظ يدل عليه ثم من أين يعقل أن يجئ الواحد لمعنى من المعاني بلفظ من عنده ان كان المراد باللفظ نطق اللسان ثم هب أنه يصح له أن يفعل ذلك فمن أين يجب اذا وضع لفظا على معنى أن يصير أحق به من صاحبه الذى أخذه منه ان كان هو لا يصنع بالمعنى شيئا ، ولا يحدث فيه صفة و لا يكسبه فضيلة و اذا كان كذلك فهل يكون لكلامهم هذا وجه سوى أن يكون اللفظ في قولهم : فكساه لفظا من عنده عبارة عن صورة يحدثها الشاعر أوغير الشاعر للمعنى ؟ فان قالوا بلى يكون ، وهو أن يستعير للمعنى لفظا ،قيل : الشأن في أنهم قالوا : ((اذا أخذ معنى عاريا فكساه لفظا من عنده كان أحق به)) . والاستعارة عندكم مقصورة على مجرد اللفظ ،ولا ترون المستعير يصنع بالمعنى شيئا وترون أنه لا يحدث فيه مزية على وجه من الوجوه ، واذا كان كذلك ،فمن أين ؟ ليت شعرى يكون أحق به ؟ فاعرفه)) .(1)

فاذا وجهة نظر (الشيخ عبد القاهر) في معنى هذه العبارة هو

---

(1) دلائل الاعجاز ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

إحداث صورة و هيئة معينة تجعل القائل أحق بنسبة الفضل إليه .

ولعل بعضهم قال : أن المقصود هو أن يستعير للمعنى لفظا فرد (الشيخ عبد القاهر) هل الاستعارة هي مجرد وضع لفظ على معنى، دون أن يكسب المعنى هيئة جديدة .

فإذا كان هذا مفهوم تلك العبارة ، فمن أين كان القائل له الأحقيه بنسبة هذا المعنى إليه .

ولقد ضرب لقوله ذلك مثلا : ولكنه لم يوضح موضع الشاهد ، ومدى تطابق قوله مع الشاهد ، يقول : ((ثم إن أردت مثالا في ذلك ، فإن من أحسن شيء فيه ما صنع أبو تمام في بيت أبي نخيلة (١) وذلك أن أبا نخيلة قال في مسلمة بن عبد الملك :

أمسلم إني يا ابن كل خليفة
وبا جبل الدنيا ويا واحد الأرض

شكرتك إن الشكر حبل من التقى
وما كل من أوليته صالحا يقضي

وأنبهت لي ذكري وما كان خاملا
ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فعمد أبو تمام الى هذا البيت الأخير ، فقال :

لقد زدت أوضاحي امتدادا ولم أكن
بهيما ولا أرضى من الأرض مجهلا

---

(١) أبيات أبي نخيلة من الطويل واسمه يعمر ، وإنما كنى ابا نخيلة لأن أمه ولدته إلى جنب نخلة ، وهو من بني حمّان بن كعب بن سعد ، وهو القائل :
أنا ابن سعد وتوسطت العجم فأنا فيما شئت من خال وعم
وكان يهاجي العجاج ، فلما تنافرا في شعرهما حضرهما الصبيان فذهب إنسان يطردهم ، فقال العجاج : دعهم فإنهم يغلبون و يبلغون واياه عني رؤبة بقوله : (فقل لذاك الشاعر الخياط) يريد أنه دعي يخيط إلى قوم ليس منهم ، يقال (خاط بنا خيطه) أى مر بنا ، ولأبي نخيلة عقب بالبصرة ٢/٦٠٢ من الشعر الشعراء -

ولكن أياد صادفتني جسامهـــا
أغر فأوفت بي أغـــر محجلا (١)

ويعقب بشواهد أخرى حيث يقول :

((وشبيه بهذا الفصل فصل آخر من هذا الكتاب (٢) أيضا أنشد لابراهيم ابن المهدى :

يا من لقلب صيغ من صخـــــرة
في جسد مـــن لؤلؤ رطـــــب
جرحتُ خديـــه بلحظي فمـــــا
برحت حتى اقتصَّ من قلبـــــي (٣)

ثم قال : (٤) قال على بن هارون : أخذه أحمد بن أبي فنن معـنى و (لفظا) ، فقـــال :

أدميت باللحظات وجنتـــــــه
فاقتص ناظـــره من القلـــب

قال : ولكنه بنقاء عبارته ، وحسن مأخذه قد صار أولى به . ففـــي هذا دليل لمن عقل أنهم لا يعنون بحسن العبارة مجرد اللفظ ، ولكـــن صورة وصفة ، وخصوصية تحدث في المعنى ،وشيئا طريق معرفته على الجملة العقل دون السمع)) . (٥)

فقول أحمد بن أبي فنن قد أصبح له ، وحاز به فضل السبق دون قـــول إبراهيم بن المهدى ، ولم يزد (الشيخ عبد القاهر) على تعليق المرزبانـــي

---

(١) هذان البيتان من الطويل (٢) يقصد كتاب الشعر والشعراء للمرزباني
(٣) هذان البيتان من السريع .
(٤) اى المرزباني والبيت من الكامل ولعلى بن هارون شعر في معجـــم الشعراء للمرزباني ص ٢٩٦ ت / د . ف . كرنكـــو
(٥) دلائل الاعجاز ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

شيئا ، غير أنه قرر أنهم لا يعنون بحسن العبارة و جودتها مجرد ألفاظ ولكن قصد هم الصورة والصنعة التي تحدث في المعنى ، فيكون العقل طريق معرفته .

أما قضية :

إلام ترجع فضيلة العبارة ، و فصاحتها ، إذا عبر عن المعنى الواحد قائلان ؟ هل مرجع الفضل و المزية إلى اللفظ نفسه أو إلى اختلاف الصورتين في كل عبارة ؟

فقد غلط قوم فقالوا أن سبب الحسن اللفظ نفسه ، و هذا خطأ و قف (الشيخ عبد القاهر) دونه رادا له ، لأن أساس هذا الخطأ منشؤه أنهم ظنوا أن حال المعنى في العبارتين واحد ، ما كان المعبر عنه واحدا .

ووجهة نظرهم هذه لا تكون إلا إذا عمد عامد إلى بيت من الشعر فوضع مكان كل لفظة نظيرة لها في المعنى دون إحداث أدنى تغيير أو تبديل يقول : ((واعلم أنك إذا سبرت أحوال هؤلاء الذين زعموا أنه اذا كان المعبر عنه واحدا و العبارة اثنتين ، ثم كانت إحدى العبارتين أفصح من الأخرى ، وأحسن فإنه ينبغي أن يكون السبب في كونها أفصح و أحسن من اللفظ نفسه ، وجدتهم قد قالوا: ذلك من حيث قاسوا الكلامين على الكلمتين فلما رأوا أنه إذا قيل في الكلمتين : أن معناهما واحد ، لم يكن بينهما تفاوت ، ولم يكن للمعنى في أحدهما حال لا يكون له في الأخرى ، ظنوا أن سبيل الكلامين هذا السبيل .

ولقد غلطوا فأفحشوا ، لأنه لا يتصور أن تكون صورة المعنى في أحد الكلامين أو البيتين مثل صورته في الآخر البتة ، اللهم إلا أن يعمد عامد إلى بيت فيضع مكان كل لفظة منه لفظة في معناها ، ولا يعرض لنظمه و تأليفه ، كمثل أن يقول في بيت الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ذر المفاخر لا تذهب لمطلبها   واجلس فإنك أنت الآكل اللابس

وما كان هذا سبيله كان بمعزل من أن يكون به اعتداد ، وأن يدخل في قبيل ما يفاضل فيه بين عبارتين ،بل لا يصح أن يجعل ذلك عبارة ثانية ولا أن يجعل الذى يتعاطاه بمحل من يوصف بأنه أخذ معنى ، ذلك لأنه لا يكون صانعا شيئا يستحق أن يدعى من أجله واضع كلام ومستأنف عبارة ، وقائل شعر ذاك لأن بيت الحطيئة لم يكن كلاما وشعرا من أجل معاني الألفاظ المفردة التي تراها فيه مجردة معراة من معاني النظم والتأليف ، بل منها متوخى فيها ما ترى من كون المكارم مفعولا لـدع وكون قوله : لا ترحل لبغيتها جملة أكدت الجملة قبلها وكون اقعد معطوفا بالواو على مجموع ما مضى ، وكون جملة (أنت الطاعم الكاسي) معطوفة بالفاء على اقعد ، فالذى يجيء فلا يغير شيئا من هذا الذى به كان كلاما وشعرا ، لا يكون قد أتي بكلام ثان وعبارة ثانية ، بل لا يكون قد قال من عند نفسه شيئا البتة)). (١)

وبعد أن اتضح بما لا يدع مجالا للشك ، أن لا شأن للفظ من حيث دلالته على المعنى من غير أن يحدث فيه القائل صفة لا تكون إلا بتوخى معاني النحو وأحكامه . يقول : ((لا تكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف ، كلاما وشعرا من غير أن يحدث فيها النظم الذى حقيقته:توخى معاني النحو ، وأحكامه)). (٢)

كما بين(الشيخ عبد القاهر الجرجاني)أن المعنى الواحد الذى يقول فيه الشاعران له قواعد خاصة وسأجمل رأيه فيها :

إذ قسمه قسمين :

الأول : قسم أنت ترى أحد الشاعرين قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتعجب)). (٣)

أى أن هناك معنى قد تناوله شاعران ، فأتي به أحدهما غفلا ، والآخر

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٢٩ ، ٤٣٠

(٢) المصدر نفسه ص ٤٣٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣٠ .

أتى به في صورة جميلة مبدعة .

ومثال ذلك قول المتنبي :

بئس الليالي سهرت من طربي
شوقاً إلى من يبيت يرقدها (١)

ومع قول البحتري :

ليل يصادفني ومرهفة الحشا
ضدين أسهره لها وتنامه (٢)

وقول كثير :

إذا ما أرادت خلة أن تزيلنا
أبينا وقلنا الحاجبية أول (٣)

مع قول أبي تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب الا للحبيب الأول (٤)

وقول المتنبي :

وعند من اليوم الوفاء لصاحب
شبيب وأوفى من ترى أخوان (٥)

ومع قول أبي تمام :

فلا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها
سجية نفس كل غانية هند (٦)

---

(١) البيت من المنسرح .
(٢) البيت من الكامل .
(٣) البيت من الطويل .
(٤) البيت من الكامل .
(٥) البيت من الطويل .
(٦) البيت من الطويل .
(٧) دلائل الاعجاز ص ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

وهذه الأمثلة التي ذكرها الشيخ (عبد القاهر) لم يعرض لتفصيل أيهما أفضل معتمدا على ما يبدو وعلى ما قرره حين قال :

((وأبدأ بالقسم الأول : الذى يكون المعنى في أحد البيتين غفلا وفي الآخر مصورا مصنوعا ، ويكون ذلك اما لأن متأخرا قصر عن متقدم ، وأما لأن هدى متأخر لشيء لم يهتد اليه المتقدم)) (1) .

أما القسم الثاني : وهو الذى يقول عنه : ((وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعنى وصور)) (2)

وقد مثل له بقول لبيد :

وأكذب النفس اذا حدثتها

ان صدق النفس يزرى بالأمل

مع قول نافع بن لقيط : (3)

وإذا صدقت النفس لم تترك لها

أملا ويأمل ما اشتهى المكذوب

وقول النابغة : (4)

اذا ما غدا بالجيش حلق فوقه

عصائب طير تهتدى بعصائب

جوانح قد أيقن أن قبيله

اذا ما التقى الصفان أول غالب

مع قول أبي نواس : (5)

واذا مج القنا علقا	وتراءى الموت في صوره
راح في ثنيتي مغاضته	أسد يدمى شبا ظفره

---

(1) دلائل الاعجاز ص ٤٣١ (2) دلائل الاعجاز ص ٤٤٠ .

(3) البيت من الكامل . ونافع بن لقيط : وتارة كان يقول : نافع : حدثني أبو الفراف قال : كان لنافع بن لقيط امرأة من بني منقذ بن جحوان تدعى حية وكان في أخلاقها زعارة ، وكانا قد تشارا مرة ، ثم =

(4) البيتان من الطويل .

(5) البيتان من المديد .

يتأبّى الطيـر غدوتـه ثقة بالشبع من جـزره

المقصود البيت الأخير :

وحكى المرزباني قال : حدثني عمرو الوراق : رأيت أبا نواس ينشد قصيدته التي أولها : (أيها المنتاب عن عفره) فحسدته ، فلما بلغ إلى قوله

يتأبى الطيـر غدوته ثقة بالشبع من جـزره

قلت ما تركت للنابغة شيئا حيث يقول : إذا ما غدا بالجيش البيتين فقال : اسكت ،فلئن كان سبق فما أسأت الإتباع)) .(١)

أي، أن الممدوح من الشجاعة والقوة ، بحيث يعمل القتل في أعدائه فيجعلهم ، طَعما للوحوش دائما ، ولذلك تطمع الطيور في أن تتسع عليها المطاعم من لحوم هؤلاء القتلى .

= إن قومها أنفوا من ذلك ، فادعوا عليه طلاقا ، فقاتلهم حتى كان بينهم جراح ، وكان مستخفيا من الحجاج ، فقال وهو مستخف :

لم يبق مني الكرى يا أم نافع ولا الرَّوغ في الحَلْفَاء غير المعارف

فرفعوا أمره إلى الحجاج ، فبعث إليه نفرا ، وهو في أجمة الأسود خفية فأحرق عليه نواحي الأجمة ، وقالوا : قد كفتنا الأسود والنار أمره ، فأدركهم الليل فانصرفوا ، وخلصه الله حتى لحق بقومه بالقنان والعزّاف فتزوج ابنة عمه : جهمة بنت شيبان بن مرثد .

قال : وكان نويقع من رجالات العرب شعرا ونجدة وكان ربما أخاف السبيل، فأطرده الحجاج لجناية ، فلم يزل خائفا) ٢ / ٦٣٧ ، ٦٤٥ من طبقات فحول الشعراء .

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٤٠ ، ٤٤١

ولكن الملاحظ أن كلا من الشاعرين قد أتى بالمعنى بصورة بديعة جميلة وتختلف عن الصورة الأخرى .

يقول (الشيخ عبد القاهر) :

((وهذا الكلام من أبي نواس دليل على أن المعنى ينقل من صورة الى صورة ، ذاك لأنه لو كان لا يكون قد صنع بالمعنى شيئا لكان قوله فما أسأت الاتباع : محالا لأنه على كل حال لم يتبعه في اللفظ ، ثم أن الأمر ظاهر لمن نظر في أنه قد نقل المعنى عن صورته التي هو عليها في شعر النابغة الى صورة أخرى وذلك أن ههنا معنيين أحدهما أصل ، وهو علم الطير بأن الممدوح يكون الغالب فذكره صريحا وكشف عن وجهه ، واعتمد في الفرع الذى هو طمعها في لحوم القتلى ، وأنها لذلك تحلق فوقه على دلالة الفحوى .

وعكس أبو نواس القصة ، فذكر الفرع الذى هو طمعها في لحوم القتلى صريحا . فقال كما ترى : (ثقة بالشبع من جزره) وعول في الأصل الذى هو علمها بأن الظفر يكون للممدوح على الفحوى ودلالة الفحوى على علمها ان الظفر يكون للممدوح ، هي في أن قال : (من جزره) وهي لا تثق بأن شبعها يكون من جزر الممدوح ، حتى تعلم أن الظفر يكون له ،أفيكون شيء أظهر من هذا في النقل عن صورة الى صورة)) . (١)

اذا فاختلاف وضع المعنى ، ومدى التصريح بصوره قد أدى الى اختلاف معنى البيتين أحدهما عن الآخر .

وخلاصة القول :

أن المعنى في أحد البيتين لا يكون على هيئته وصفته

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٤١ ، ٤٤٢ .

في البيت الآخر ، وإلا فيما كان شعر أفضل من شعر اذا لم يصنع قائله فيه صنعة .

وقد أخطأ بعضهم فجعل من الأبيات ما يناظر بعضه بعضا ، وما يناسب بعضه بعضا ، لأنه لا يمكن أن يناسب شيء ذاته أو يناظرها .

يقول : ((واعلم أنه لو كان المعنى في أحد البيتين يكون على هيئته وصفته في البيت الآخر ، وكان التالي من الشاعرين يجيئك به معادا على وجهه ، لم يحدث فيه شيئا ، ولم يغير له صفة ، لكان قول العلماء في شاعر أنه أخذ المعنى من صاحبه فأحسن وأجاد ، وفي آخر : أنه أساء وقصر لغوا من القول من حيث كان محالا أن يحسن أو يسيء في شيء لا يصنع به شيئا .

وكذلك كان جعلهم البيت نظيرا للبيت ، ومناسبا له خطأ منهم ، لأنه محال أن يناسب الشيء نفسه ، وأن يكون نظيرا لنفسه) [1].

ولقد ذكر الآمدى الأبيات [2] ولم يزد في تعليقه عليها الا بأن نص على الآخذ من المأخوذ فقط .

ومما يثبت أن القولين أو الشاعرين ، يأتيان بصورتين مختلفتين أحداهما عن الأخرى تماما ، قول السابقين :

((في واحد أنه أخذ المعنى فظهر أخذه ، وفي آخر أنه أخفى أخذه ولو كان المعنى يكون معادا على صورته وهيئته ، وكان الآخذ له من صاحبه لا يصنع شيئا غير أن يبدل لفظا مكان لفظ ، لكان الإخفاء فيه محالا لأن اللفظ لا يخفى المعنى ، وانما يخفيه إخراجه في صورة غير التي كان عليها) [3].

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٤٦ .

(٢) لقد ذكرها الآمدى في الموازنة ١ / ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٤٤٦ .

ولقد استشهد الشيخ عبد القاهر الجرجاني بأبيات كثيرة في هذا الفصل ، ليثبت أن ليس الإعجاز في مذاقة الحروف ، وفي خلوصها مما يثقل على اللسان ، يقول :

((الغرض من كتابة هذه الأبيات الإستظهار حتى إن حمل حامل نفسه على الغرر ، والتقحم على غير بصيرة ، فزعم أن الإعجاز في مذاقة الحروف وفي سلامتها مما يثقل على اللسان ، علم بالنظر فيها فساد ظنه ، وقبح غلطه من حيث يرى عيانا أن ليس كلامهم كلام من خطر ذلك منه ببال)). (١)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٥٢ .

الخاتمـــــــــــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الخاتمة

والآن وبعد أن أفضت في شرح وبيان الموضوعات التي ضمتها كتب (الشيخ عبد القاهر) ، سأكتب ملخصا عنها وعن الشيخ عبد القاهر ذاته :

١ - ففي التمهيد : بينت عن نشأته وأخلاقه العلمية ، ثم عن حياته وأنه لم يخرج عن بلده جرجان لطلب العلم ، ربما لأن جرجان كانت تغص بكبار العلماء والفقهاء ، قبل (الشيخ عبد القاهر) ، وفي أثناء حياته ، وكان له في ذلك غناء عن الترحال .

٢ - عنيت ببيان مصادر بلاغة (الامام عبد القاهر) وأنها عربية بحتة وان دراسة مثل هذا الموضوع تقتضي قراءة القضايا البلاغية التي عرضها (الشيخ عبد القاهر) في مؤلفاته (دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة ، الرسالة الشافية) . والتدقيق في فهم مضمونها وما يريده (الشيخ عبد القاهر) من أقواله . ثم قراءة الأصول البلاغية في كتب المتقدمين عليه في القرون الخمسة الأول .

ولقد وجدت أن الموضوعات البلاغية ، لم تفرد بالبحث والتصنيف الا في بعض الكتب مثل (البيان والتبيين) لـ (الجاحظ) و (البديع) (لابن المعتز) و (الصناعتين)(لأبي هلال العسكرى) ، ولكن هذه الكتب لم تستطيع أن تلم شعث القواعد البلاغية ، من ذلك الغيض الزاخر بالعلوم . الا ما حصل على يدي (الشيخ عبد القاهر) رحمه الله ، الذى قرأ كل ما في الكتب التي وصلت اليه ، واستنبط أحكامها وجمعها في كتابيه (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) .

وحتى يمكن القول بأنه كان لتأخر (عبد القاهر) عن هؤلاء ، فضل الاستفادة منهم والزيادة عليهم ، لذلك تبدو مؤلفاته نسيج وحدها ، ونسقا يختلف عن غيره . ذلك أنه درس اعجاز القرآن الكريم من خلال دراسات بلاغية خصبة ،فجعل من النحو محورا تدور حوله الأساليب البلاغية .

٣ - منهج (الشيخ عبد القاهر) في البحث : هو منهج النحوى الذى لا يقف عند حدود الحكم بالصحة والفساد ، بل يمتد البحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الكلمات ، والى اجتلاء معانيها وكشف غامضها ، وبذلك اتسع أفق النحو ، وغنيت مادته ، ذلك أنه رفع بنيان نظرية (النظم) والتي ترتكز بدورها على معانيه وأحكامه .

٤ - قضية النظم : لقد جعلت هذا الموضوع في فصل مستقل وهو (قضية النظم) . حيث عرضت لآراء السابقين في النحو ، ومن خلال ذلك العرض استنبطت أن بعضا من تلك الآراء لها اشارات قيمة ، وأقباس من الفكر تدل على أن في النحو وعلمه أسرارا خفية ، فكان (الشيخ عبد القاهر) هو الذى استطاع أن يستلهم نور تلك الأقباس ، ويأخذ بأقوال من قالوا بأهمية النحو في الكلام ، وبأقوال من قال بالنظم ، دون أن يحدد مدلوله ومفهومه ، فربط بين كل تلك الأقوال المتناثرة ، ربطا وثيقا محكما نتج عنه نظرية النظم التي تنسب اليه بكل جدارة ، والتي يقول مضمونها : أنها توخى معاني النحو فيما بين الكلم .

وهو بهذه النظرية ، حسم النزاع الذى كانت تدور رحاه على صفحات المؤلفات بين اللفظ والمعنى ، وهل مرجع حسن الكلام يعود الى أحدهما ، أو اليهما معا ، حتى أصبح الموضوع قضية لها أنصارها ، ولها معارضوها .

٥ - الكلمة في نظر الشيخ عبد القاهر :

ان (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) لا يرى للكلمة في حد ذاتها أهمية ، بل أهميتها بحسب موقعها من الجملة ، فلا اعتبار لفصاحة اللفظة الا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها . كما أحس بفطنته أن (فصاحة الكلام) لا يمكن أن تفسر الاعجاز ، ولا تدل دلالة دقيقة على هذا المعنى ، فاختار بدلا منها كلمة (النظم) التي كانت تشيع في بيئة الأشعرية ، والتي بنى عليها (الباقلاني) آراءه في اعجاز القرآن ، كما استضاء بآراء (عبد الجبار) الذى عبر عن مضمون نظرية النظم تحت اسم فصاحة الكلام ، ولكن ليس بمعنى حسن اللفظ والمعنى ، وما يتصل بذلك من الصور البيانية وانما بمعنى الأداء والنسب النحوية للكلام .

٦ - قضية اعجاز القـــرآن :

كما تحدثت عن قضية اعجاز القرآن الكريم ، واقتصرت على ما جاء في رسالتـــه الشافية .

وخلاصة ما ورد بهـــا :

أن الشيخ عبد القاهر قد اتجه بالدفاع عن الاعجاز بالشواهد من قرائـــــن الأحوال وقرائـــن الأقوال ، فأثبت أن العرب أذعنوا ولم ينكروا أنه فوق مستواهـــم ، وابعد من متناول قدرتهم ..

ولقد ثبت من عجز العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن الكريم أنه جاء متحديـــا ولكن لم يثبت أنهم عارضوا ، أو جاءوا بمثله ، والا لنقل الينا وشـــاع أمـــره فينـــا .

ثم انتقل الى دلائل الأقوال ، فنقل الينا اعترافات كبار أهل هذه الصناعـــة أمثال (خالد بن صفوان) .

ثم بين أن أعلى طبقة في العرب بلاغة ، والتي أجمع الناس على أنهم فحـــول البيان وأرباب الفصاحة ، أنهم تراجعوا أمام بلاغة القرآن فأحسوا من أنفسهـــم أن القرآن الكريم لا يضاهى بأقوالهم .

ثم الحقت (الصرفة) بهذا الفصل ، اذ أنها تعني أن العرب قد صرفـــت مقدرتها البلاغية عن أن يأتوا بمثل القرآن الكريم ، وهذا قول باطل ، لأنـــه يعني أن القرآن الكريم في حد ذاته ليس معجزا ، بل الاعجاز في نفس الصـــرف والمنع .

٧ - قضيـــة المجاز :

ان موقف (الشيخ عبد القاهر) منها مرتبط بموقفه من الكلمة ، بل هو لا يختلف عن موقفه من الكلمة ، ذلك أن الكلمة لا تكون مجازا ، الا اذا كانت ضمن الكـــلام ، وجزءا من التأليف والنظم بل أنه يرى المجاز ومختلف أساليب علمي البيان والمعانـــي من استعارة وكناية ، وتشبيه وتمثيل وفصل ووصل من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ولا يكون الا بهـــا .

أى أن أية مزية في علم البلاغة وضروبه ترجع في حقيقة أمرها الى علم النحو ، كما اكتشف ما سمي بعده ، (بالمجاز العقلي .

٨ - السر في جمال الصور البيانية : هو وقوعها ضمن قوانين النظم الصحيحة وليست تلك الصور هي سر جمال النظم .

٩ - بين الدلائل والأسرار : ان المتصفح لكتاب (دلائل الاعجاز) لا يسعه الا أن يحكم بأنه شغل بالشرح ، كل ما يسمى اليوم بعلم المعاني نحو ما سار في (دلائل الاعجاز) ، فقد مضى في (أسرار البلاغة) ذلك أنه ضمنه (مباحث علم البيان) وهو الاستعارة والتشبيه والتمثيل .

وبالرغم من أن هذه الموضوعات كانت معروفة عند العلماء السابقين ، فان (عبد القاهر) درس الأسرار والدقائق التي وراء تلك الصور البيانية من (استعارة وكناية ، وتشبيه ، وتمثيل) ، فحدد أقسامها وبين فروعها وشرح أمثلتها ، كما حللها تحليلا نفسيا رائعا وبين سر جمالها .

١٠ - موضوع المجاز : ان من أبرز جهوده في هذا المجال ، اكتشافه للمجاز العقلي . كما بينت وجهة نظره القائلة بأنه ليس بلازم أن يكون للفعل فاعل في التقدير ، اذا نقلت اليه . . عدت به الى الحقيقة . كما فرق بين المجاز العقلي والمجاز اللغوى ، وكذلك شرح قيمة المجاز البلاغية .

١١ - كما أن (الشيخ عبد القاهر) لم يحصر التمثيل الذى جاء على حد الاستعارة في الصور المركبة فقط ، وانما أجازها في المفرد ، اذا كان الشبه فيهما عقليا غير محض ، ويمنع اطلاقه على الاستعارة في المفرد ، اذا لم يكن الشبه فيها عقليا غير محض .

١٢ - الكناية وما توصل اليه (عبد القاهر) :

أ - صور الكناية :

١ - تجسيم المعاني واخراجها في صور محسوسة تزخر بالحياة والحركة

٢ - ومن صور الكناية لذلك التعمية والتغطية ، حرصا على المكنى عنه أو خوفا عليه .

ب - لقد كانت الكناية تطلق على صور من المجاز المرسل كما بينا ، وتطلق أيضا بمعناها اللغوى وترادف التورية والتعريض .

كما ذكر (المبرد) أنها تقع على ثلاثة أضرب :

الأول : التعمية والتغطية .
الثاني : وهو أحسنها : الرغبة عن اللفظ الخسيس المتفحش .
الثالث : التفخيم والتعظيم ومنه اشتقت الكنية .

أما (ابن قتيبة) فيذكر مثلا وشواهد للتعريض من القرآن .
أما (عبد القاهر) فقد جعل التعريض رديفا للكناية .

١٣ - ومن الأبواب المهمة ، والتي تبين أصول بلاغة (الشيخ عبد القاهر) فصل : (مصادر بلاغة الامام (عبد القاهر) . فناقشت هذا العنوان في فصلين عرضت في أحدهما لأسماء العلماء الذين أخذ منهم ، وذكرت أخذه .

ومن هؤلاء (الجاحظ) و (القاضي الجرجاني) و (الآمدى) كما كان مهتما بآراء امام النحو (سيبويه) ، فلم يفتأ يستفيد منه ويذكر ذلك .

والجدير بالبيان هنا أن (القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني) كانت دراساته خير عون (لعبد القاهر) .

ثم عرضت للعلماء الذين استفاد منهم في قضايا مختلفة ، دون أن يذكر ذلك .

ولقد كان من أهم الموضوعات التي طرقتها هنا موضوع (المبالغة) الذى رأى فيه (الشيخ عبد القاهر) أن (أعذب الشعر أصدقه) .

١٤ - ثم عرضت لقضية أثر البلاغة اليونانية في البلاغة العربية ، ولكني تحدثت عن هذا الموضوع من خلال محاولاتي لاثبات أصالة بلاغة (الشيخ عبد القاهر) ولقد أطنبت في استعراض أقوال الذين برزوا لمواجهة أصالة البيان العربي مثل (الدكتور طه حسين) ومن تبعوه وهم : الدكتور (بدوى طبانة) ، الدكتور (ابراهيم سلامه) ، والدكتور (محمد خلف الله أحمد) ، ورددت على كل قول في موضعه بما يناسبه واستعنت ببعض آراء (الدكتور أحمد بدوى)، وبينت أن أصالة البيان العربي حقيقة واقعة ، حتى وان لم نقف على تراجم اليونان والفرس ، لأن القرآن الكريم وحده كان أساسا لكل الدراسات الاسلامية في القرون الثلاثة الأولى .

ومن قراءة نصوص هذا البحث نستطيع الحكم ، بأن بلاغة (الشيخ عبد القاهر) قد بنيت على أصول عربية متينة الأساس ، بل اعتمدت على كثير من كتب التفسير ، ثم (معاني القرآن) (للفراء) و (مجاز القرآن) (لأبي عبيدة) ومن كتب الأدب (كتب الجاحظ) (ومؤلفات المبرد) و (ابن قتيبة) .

وباثبات أصالة مصادر (الشيخ عبد القاهر) تثبت أصالة البيان العربي ، لأنه الكوكب الذى يدور حول دراسات السابقين ، بالاستفادة المباشرة وبالنقد البناء .

اذا فمؤلفات (الشيخ عبد القاهر) هي القطب الذى تجمعت حوله الآراء البلاغية .

١٥ - ولقد اختتمت البحث بموضوع (السرقات الأدبية) وهو الموضوع الذى يكشف النقاب عن كثير من الموضوعات المتداولة بين الأدباء . فتخفى على من ليس له بصر بالآداب ، وبطرائقها ودواوينها ، وهو موضوع معروف منذ عهد بعيد ، ولكن ما أضافه (الشيخ عبد القاهر) هو ربطه بنظرية النظم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم ،،،

فهارس الرسالة

أولا: فهرس الآيـــات

ثانيا : الأحاديث

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الديات الباب ١٩ والنسائي في كتاب القسامة الباب (٤١) .

(٢) أخرجه البخارى في كتاب الأدب الباب ٩٠ والترمذى في كتاب الأدب الباب ٦٩ وأحمد بن جنبل في مسنده ١ / ٣٦٩ ، ٣٧٢

(٣) أخرجه البخارى في كتاب الطب ، باب ان من البيان لسحرا وأحمد في مسنده ١ / ٣٦٩ .

(٤) أخرجه السيوطي في جمع الجوامع ١ / ٣٦٣

(٥) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٣٧

(٦) أخرجه أحمد في مسنده ٤ / ٢٨٩ ، ٣٠١

ثالثا : فهرس الأشعار والأرجاز

- م -

- ن -

- ى -

١٧٣ - اذا الهند سوت بين سيفي كريهة	فسيفك في كف تزيل التساويــــا	٢١٨
١٧٤ - دع المكارم لا ترحل لبغيتهــــا	واقعد فانك أنت الطاعم الكاســـي	١١٢ ، ٤٢٩
١٧٥ - كأن قلوب الطير رطبا ويابســـا	لدى وكرها العناب والحشف البالـي	٣٧٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧

الألـف الليـنـــة

١٧٦ - شكا الي جملي طول الســرى	صبرا جميلا فكلانــا مبتلــى	٣٣٦
١٧٧ - تجمعت في فؤاده همــــم	ملء فؤاد الزمان احداهــــا	٣٥٢
١٧٨ - ومن مالئ عينيه من شيء غيــره	اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى	١٩٨

رابعـــا : فهرس الأعـــــــلام

((أ))

((ر))

((م))

خامسا
فهرس الأمم و الطوائف و القبائل و الفرق

سادسا ـ فهرس المدن والأماكن

فهرس المصادر و المراجع

فهرس المصادر والمراجع

المخطوطات :

- هداية المسترشدين : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني . عن نسخة نقلها د . عبده أحمد الهليل في رسالة مخطوطة في كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية . رقم ٢١ عام ١٣٤٢هـ .

المطبوعات :

(أ)

١ أثر النحاة في البحث البلاغي : د . عبد القادر حسين
مطبعة نهضة مصر .

٢ أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني
تحقيق : محمد رشيد رضا .
١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، دار المعرفة . بيروت .

٣ - الاصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني
تحقيق : د . طه محمد الزيني ، الطبعة الأولى - مكتبة الكليات الأزهرية .

٤ - اعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني .
تحقيق : السيد أحمد صقر - الطبعة الرابعة / دار المعارف - القاهرة .

٥ - اعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي / الطبعة الثانية
١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م : المكتبة التجارية الكبرى .

٦ - اعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق د . حفني محمد شرف/
١٣٩١ هـ - ١٩٧٠م .

٧ - الاعجاز في دراسات السابقين : عبد الكريم الخطيب / الكتاب الاول - الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م / دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .

٨ - اعراب القرآن : المنسوب للزجاج تحقيق : ابراهيم الأبيارى - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م / دار الكتب الاسلامية - مصر ولبنان .

٩ - الأمالي : أبي على القاسم القالي البغدادى . دار الكتاب العربي . بيروت - لبنان .

١٠ - أنباه الرواة على أنباه النحاة : جمال الدين على بن يوسف القفطي ، تحقيق : محمد ابو الفضل الراهيم . دار الكتب - القاهرة . ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .

(ب)

١١ - الباقلاني وكتابة اعجاز القرآن : د . عبد الرؤوف مخلوف - دراسة ت دراسة تحليلية وتقدية .

١٢ - البخارى : طبع مصطفى البابي الحلبي .

١٣ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .

١٤ - بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : د . ابراهيم سلامة / الطبعة الثالثة - ١٣٧١ هـ مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة .

١٥ - البلاغة تطور وتاريخ : د : شوقي ضيف / الطبعة الرابعة - دار المعارف القاهرة .

١٦ - بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : د . عبد الفتاح لاشين / دار الفكر العربي .

١٧ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى : د . محمد حسنين ابو موسى / دار الفكر العربي .

١٨ - بيان اعجاز القرآن : أبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي /

ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : تحقيق د . محمد خلف الله أحمد ، دكتور محمد زغلول سلام / الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر - القاهرة .

١٩ - البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق : فوزى عطوى / الشركة اللبنانية - بيروت .

٢٠ - البيان العربي - د . بدوى طبانة / الطبعة السادسة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٣٦٠ هـ ١٩٧٦ م .

- ت -

٢١ - تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان مراجعة وتعليق الدكتور شوقي ضيف / دار الهلال . بدون تاريخ طبعه .

٢٢ - تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان . نقله الى العربية د . عبد الحليم النجار / الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر - القاهرة . بدون تاريخ طبعه .

٢٣ - تاريخ جرجان : للسهمى مراقبة الدكتور / محمد عبد المعيد خان . الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م - عالم الكتب - بيروت .

٢٤ - تأويل مختلف الحديث : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة دار الكتاب - بيروت بدون تاريخ طبعه .

٢٥ - تأويل مشكل القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق : السيد أحمد صقر / الطبعة الثانية سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م / دار التراث القاهرة .

٢٦ - التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر : د . عبد الفتاح لاشين / دار المريخ - الرياض بدون تاريخ طبعه .

٢٧ - الترمذى / مطبعة الصاوى ١٣٥٢ هـ .

٢٨ - تنزيه القرآن عن المطاعن : القاضي عبد الجبار دار النهضة الحديثة بيروت .

- ج .

٢٩ - جمع الجوامع للسيوطي / مطبعة دار المعرفة للطباعة و النشر - بيروت بدون تاريخ طبعة .

٣٠ - جمهرة أشعار العرب : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي : تحقيق علي محمد البجاوى - دار نهضة مصر للطبع و النشر - القاهرة .

- ح -

٣١ - الحيوان : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق : عبد السلام محمد هارون / الطبعة الثانية - مطبعة البابي الحلبي بمصر .

- خ -

٣٢ - (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) - للشيخ عبد القادر بن عمر البغدادى .
دار صادر - بيروت .

٣٣ - (الخصائص) : أبو الفتح عثمان بن جنى .
تحقيق : محمد على النجار .
دار الكتاب العربي بيروت - لبنان . بدون تاريخ طبعه .

- د -

٣٤ - (دلائل الاعجاز) : عبد القاهر الجرجاني .
تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجي الطبعة الأولى ١٩٦٩م ، ١٣٨٩هـ
مكتبة القاهرة - مصر .

٣٥ - (ديوان أبي الطيب المتنبي) : شرح أبي البقاء العكبري .
الطبعة الأخيرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
مطبعة البابي الحلبي .

٣٦ - (ديوان امرئ القيس) : امروء القيس .
بيروت : دار بيروت ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م .
وطبعه دار صادر .

٣٧ - (ديوان أبي تمام) .
تعليق : د . شاهين عطية .
مراجعة : بولس الموصلي
دار صعب بيروت .

٣٨ - (ديوان بشار بن برد) : بشار بن برد
تحقيق : السيد بدر الدين العلوى
بيروت : دار الثقافة . بدون تاريخ طبعه .

٣٩ - (ديوان الفرزدق)
دار بيروت : للطباعة والنشر ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٤٠ - (ديوان جرير) :
بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .

٤١ - (ديوان علي بن الجهم) :

تحقيق : خليل مردم بك
بيروت : دار الآفاق الجديدة . بدون تاريخ طبعه .

٤٢ - (ديوان الذبياني) :
تحقيق : محمد الطاهر بن عاشور .
الشركة التونسية للتوزيع.
و الشركة الوطنية للنشر و التوزيع - الجزائر . ١٩٧٦ م .

- ذ -

٤٣ - ذيل الأمالي و النوادر : أبو علي القالي .
بيروت : دار الكتاب العربي .

- ر -

٤٤ - رسائل الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .
تحقيق عبد السلام هارون .
١٣٩٩ هـ .

٤٥ - الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل) : عبد القاهر الجرجاني .
تحقيق : د . محمد خلف الله أحمد - و د . محمد زغلول سلام .
ط ٣ دار المعارف القاهرة . ١٩٧٦ م .

٤٦ - الرسولة العذراء : ابراهيم بن المدبر .
تحقيق د . زكي مبارك .
ط ٢ ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م .
مطبوعات دار الكتب المصرية بالقاهرة .

٤٧ - روضات الجنات : محمد باقر بن الحاجي أمير زين العابدين الموسوى
الخوانسارى .

ايران : خوشنويس (طاهر)
طبعة حجرية - ايران . بدون تاريخ طبعة .

- س -

٤٨ - (سر صناعة الاعـراب) : ابن جنى
تحقيق حسن هنداوي، ١٤٠٥ هـ

٤٩ - السرقات الأدبية : د . بدوى طبانة
ط ٣ ١٣٩٤ - ١٩٧٤ م .
دار الثقافة - بيروت .

٥٠ - سنن النسائي تحقيق محيي الدين عبد الحميد / بدون تاريخ طبعة .

٥١ - سنن أبو داود تحقيق : محـيي الدين عبد الحميد بدون تاريخ طبعة .

٥٢ - سيرة بن هشام تقديم وتعليق : طه عبد الرؤوف سعد / مكتبـــــة
الكليات الأزهرية - بدون طبعة .

- ش -

٥٣ - شرح المعلقات السبع : الزوزني.
١٣٨٩ هـ/دار بيروت - بيروت.

٥٤ - الشعر والشعراء : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .
تحقيق أحمد محمد شاكر / الطبعة الثانية ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م
دار المعارف : القاهرة .

٥٥ - الشعر والشعراء (طبقات) : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .
ط (قسطنطينيـة)١٢٨٢ هـ .
عالم الكتب - بيروت .

- ص -

٥٦ - الصاحبي : أحمد بن فارس بن زكريا.
تحقيق : السيد أحمد صقر .
مطبعة عيسى الحلبي - القاهرة . بدون تاريخ طبعة .

٥٧ - الصناعتين في الكتابة والشعر : أبو هلال العسكري
تحقيق : مفيد قمحية.
ط ١ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

- ض -

٥٨ - ضحى الاسلام : أحمد أمين . الطبعة الثامنة بدون تاريخ.
مطبعة النهضة المصرية . القاهرة .

- ط -

٥٩ - طبقات الشافعية : جمال الدين الأسنوى.
تحقيق : عبد الله الاله الحيوى.
١٤٠١ هـ ١٩٨١ م . دار العلوم - الرياض .

٦٠ - طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علـــــي
ابن عبد الكافي .
تحقيق : د . محمد محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو .
ح ١٣٨٦ ٥ - ١٩٦٧ م
القاهرة .

٦١ - طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحي .
قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر .
مطبعة المدني - القاهرة - بدون تاريخ طبعة .

٦٢ - الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز :
يحيى بن حمزة العلوى .
طبعه المقتطف ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م القاهرة .

- ع -

٦٣ - عبد القاهر الجرجاني : د . أحمد أحمد بدوى .
(سلسلة علام العرب) .
دار مصر للطباعة - القاهرة . بدون تاريخ طبعة .

٦٤ - عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده : د . أحمد مطلوب .
١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م .
وكالة المطبوعات - الكويت .

٦٥ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدى .
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد .
ط ٤ ١٩٧٢ م .
دار الجيل - بيروت .

٦٦ - عيار الشعر : ابن طباطبا العلوى .
١٤٠٢ هـ .
دار الكتب العلمية - بيروت .

٦٧ - كتاب العين : الخليل بن أحمد الفراهيدى .
تحقيق : عبد الله درويش .

٦٨ - عيون الأخـبار : ابن قتيبة .
١٣٤٣ هـ دار الكتب .

- غ -

٦٩ - غاية النهاية في طبقات القراء : شمس الدين أبي محمد الخير محمد ابـن محمد بن الجـزرى .
عني بنشره ج برجستراسر ١٣٥١ هـ ، ١٩٨٢ م .
مكتبة الخانجي - القاهرة .

- ف -

٧٠ - الفهرست : ابن النديم.
دار المعرفة للطباعة و النشر لبنان بيروت - ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م

٧١ - فوات الوفيـات : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي .
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد .
١٩٥١ م القاهرة .

- ق -

٧٢ - القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى.
المؤسسة العربية للطباعة و النشر ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م.
لبنان - بيروت .

٧٣ - قضية اعجاز القرآن و أثرها في تدوين البلاغة العربية : د . عبد العزيـز عبد المعطي عرفة .
١٤٠٥ هـ - عالم الكتب .

٧٤ - قواعد الشعر : أحمد بن يحيي ثعلب.
تحقيق : رمضان عبد التواب و خفاجة.
١٩٦٦ م .
دار المعارف - القاهرة .

- ك -

٧٥ - الكامل في اللغة والأدب : أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد /
مكتبة المعارف - بيروت . بدون تاريخ طبعة .

٧٦ - متشابه القرآن : القاضي أبي الحسن عبد الجبار الأسد آبادى .
تحقيق : د . عدنان زرزور .

٧٧ - المجاز في القرآن واللغة بين الاجازة والمنع : د . عبد العظيم المطعني .
ط ١ - مكتبة وهبة - القاهرة .

٧٨ - مجالس ثعلب : أحمد بن يحيى ثعلب.
تعليق : عبد السلام هارون .
دار المعارف - القاهرة .

٧٩ - المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين : الدكتور طه حسين.
طبعة سنة ١٩٧٣م - بيروت .

٨٠ - المحتسب : أبو الفتح عثمان بن جني .
تحقيق : على ناصف ود . عبد الفتاح شلبي .
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م .
لجنة احياء التراث الاسلامي - القاهرة .

٨١ - مختار الصحاح : اسماعيل بن حماد الجوهري .
تحقيق : الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار.
الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م - القاهرة .

٨٢ - المعاني الكبير في ابيات المعاني : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة - حيدرآباد الدين / مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية .
١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م .

٨٣ - معجم الأدباء : ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله .
تحقيق : د . س مرغليوس .
١٩٢٣ م - القاهرة .

٨٤ - معجم البلدان : ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله .
دار بيروت - بيروت .

٨٥ - معجم الشعراء : أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني.
تحقيق : د . ف كرنكو .
ط ١ مكتبة القدس - دار الكتب العلمية - بيروت .

٨٦ - معجم الشواهد العربية : عبد السلام هارون.
مكتبة الخانجي - القاهرة.
ط ١ ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

٨٧ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضعه محمد فؤاد عبد الباقي .
سنة ١٩٨٤م .
المكتبة الاسلامية - استانبول - تركيا .

٨٨ - معاني أبيات الحماسة : أبو عبد الله الحسين بن علي النمري.
تحقيق : عبد الله عبد الرحيم عسيلان .
الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
مطبعة المدني بمصر .

٨٩ - المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار.
قوّم نصّه أمين الخولي - مطبعة دار الكتب.
الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .

٩٠ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة : أحمد بن مصطفى طاش كبرى زاده.
تحقيق : كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور .

٩١ - المفضليات : تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون .
الطبعة السابعة - دار المعارف . القاهرة .
١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤م .

٩٢ - المقتضب : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد.
تحقيق : د . محمد عبد الخالق عضيمة .
عالم الكتب - بيروت .

٩٣ - من الوجهة النفسية في دراسة الأدب والنقد : د . محمد خلف الله أحمد .
بدون تاريخ طبعة .

(ن)

٩٤ - نزهة الألباب في طبقات الأدباء : عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري
تحقيق : د . ابراهيم السامرائي .
١٩٥٩ م .
بغداد .

٩٥ - النقد الأدبي عند اليونان : د . بدوي طبانة .
ط ٢ ١٣٨٩هـ .
مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة .

٩٦ - النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني : د . أحمد السيد الصاوى.
ط ٢ ١٩٨٢م.

٩٧ - نقد الشعر : قدامة بن جعفر.
تحقيق : د . محمد عبد المنعم خفاجي .
ط ١ ١٣٩٩هـ .
مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .

٩٨ - النقد المنهجي عند العرب : د . محمد مندور .
دار نهضة مصر للطبع والنشر .
القاهرة .

٩٩ - نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر .
تحقيق عبد الحميد العبادى مع مقدمة بقلم الدكتور طه حسين.
١٩٤١م المطبعة الأميرية.
القاهرة .

١٠٠ - النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) : أبوالحسن على بن عيسى الرماني .
تحقيق : د . محمد خلف الله أحمد و د . زغلول سلام.
دار المعارف .
القاهرة .

١٠١ - النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير .
بدون طبعة .

(هـ)

١٠٢ - هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : اسماعيل باشـــا البغدادي .
١٩٥١م .
استانبـــول .

(و)

١٠٣ - الوساطة بين المتنبـــي وخصومه : القاضي علي بن عبد العزيز الجرجانـــي .
تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي .
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات